

تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى

«عصر الرسول والخلفاء الراشدين»


جامعة دمشق
وقل رب زدني علما
Damascus University



منشورات جامعة دمشق

كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة

تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى

«عصر الرسول والخلفاء الراشدين»

تأليف

د.سهيل زكار
أستاذ في قسم التاريخ

دة. شكران خربوطلي
أستاذة في قسم التاريخ

جامعة دمشق ١٤٣٨ ـ ١٤٣٩ هـ

٢٠١٦-٢٠١٧ م



قسم التاريخ

السنة الثانية

اختصاص عرب وإسلام

المحتوى



بسم الله الرحمن الرحيم

{هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} التوبة:٣٣

تطور علم التاريخ عند الغرب، في العقدين الزمنيين الماضيين تطوراً كبيراً، وتعددت مدارسه، ومنحت المقام الأول للحدث السياسي، وكانت مدارس التاريخ الرائجة من قبل، قد صدرت عن علم اللاهوت الكاثوليكي المسيحي وتطوراته، واستندت إلى وقائع التاريخ الغربي قديمه ووسيطه، فصحيح أن الحدث السياسي غدا منذ الحرب الكونية الأولى حدثاً عالمياً، لكن بقي محوره ماكان يحدث في الغرب، وزاد هذا الاستقطاب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وصحيح أن الاهتمام بتاريخ الشعوب العربية والإسلامية قد تعاظم، لكن بقيت المنطلقات لدى المؤرخ الأوربي هي هي، وتركز اهتمام بقايا الاستشراق على ثغرات التاريخ الإسلامي، لاسيما الصراع الطائفي، لخدمة أغراض الاستعمار الغربي الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، وفُتِنَ العرب والمسلمون بحكاية صراع الحضارات، الذي أرادوه حواراً للحضارات، مع أن الحضارات تتفاعل، والحوار المجدي هو الذي يكون بين متكافئين، وهذا ليس متوفراً، والغرب مابرح غرب العصور الصليبية، وليس من الغلو القول إن الولايات المتحدة الأمريكية القائدة للغرب الآن هي أعتى عدو صليبي للعرب والمسلمين عرفه التاريخ، ولربما لن يعرف له مثيلاً، لأنه مزيج من الحقد والتعصب المسيحي – الصهيوني– الماسوني.

ولابد من معالجة هذا الوباء المميت، من منطلق بلال لدى تعرضه للتعذيب الشديد" أَحَد، أَحَد" وتقنيات هذا العصر، يتوجب استخدامها وفق المنطق الإسلامي المحض، وذلك بالعودة إلى الأصول، فبداهة تاريخ الإسلام من

جميع الجوانب غير التاريخ الغربي، وهذا التاريخ صنعه الإنسان المسلم حسب فهمه للإسلام واستيعابه له، والقرآن بقي على حاله، كأنما أُنزل الساعة على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونصوص سنته عليه الصلاة والسلام وُثقت عبر العصور بصورة نقدية لانظير لها، ومثل ذلك سيرته، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، وهي ميادين رحبة للدراسة.

هناك حاجة ملحة لقراءة القرآن الكريم، واستيعاب ماذكره الله جلت قدرته فيه من أحداث تاريخية، ولكن من دون الإسرائيليات، لأن الإسرائيليات صاغتها عقول الحاخامات المريضة، ولايجوز على الإطلاق تفسير كلام الله الخالق، بأقوال مخلوقات مشوهة هي الخامات.

لابد من استخراج النظرية الإلهية المفسرة للتاريخ من القرآن الكريم، وليكن التفسير مصدره السنة، والسيرة، كقواعد العمل بالفقه، ولكن هنا لايجوز إلغاء آراء الآخرين، فالمسلم يأخذ بالمثاقفة، ويرفض التبعية الفكرية والعقائدية، لأنه حامل رسالة التوحيد، وعليه واجب الدعوة إليها بلا تنازلات، لأن الحوار أساسه التسويات، وفي التسويات تنازلات، وما من أحد يملك الحق في الإسلام بصنع تنازلات، ثم إن كل تنازل يقودإلى المزيد من التنازلات، ولنأخذ التجربة المسيحية حول العلاقة بين الأقانيم الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، فالذي حصل خلال زهاء الألفي عام الماضية، أن التسويات لم تنجح، واقتادت إلى تمزقات متوالية، إذ أصبحت المسيحية ديانات متعادية، وكنائس تكفر إحداها الأخرى.

والحل لهذه الخلافات متوفر في القرآن الكريم، ولاسيما قوله تعالى:

{ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد }.

وقد يقول قائل: كانت هنالك خلافات بين المسلمين ومازالت، وهذا صحيح، ولكن الخلافات ماانفكت سياسية إدارية، إنما مامن أحد أنكر النص القرآني، فالقرآن كان وما برح، وسيظل بلا أدنى تغيير، لأنه محفوظ من قبل الله جلت

قدرته، في حين أن أسفار العهد القديم، منها ماهو شرعي معترف به، ومنها ماهو محذوف، ولقد تجاوز عدد الأناجيل المئات، كلها لايرتقي إلى عصر المسيح، ولا إلى فلسطين، ولا إلى اللغة الآرامية.

ومقرر أن التاريخ هو سجل لما صنعه الإنسان ولما تعلق بحياته، وهناك عصور ما قبل التاريخ التي خلت من السجلات، كما أن ما جرى تسجيله عبر العصور ليس كاملاً، ومتفاوت الروايات، يعاني النقص والتناقض، وفقط الله جلت قدرته خالق الخلق، أحاط علماً بما كان، وبما سيكون، بوثائقية لانظير لها، هي المعيار، لذلكنقول: إن العمل العلمي التحليلي في التعامل مع الآيات القرآنية، هو السبيل الوحيد للحصول على مايفسر التاريخ الإنساني كله، وهذا مختلف تماماً عن أعمال اللاهوتيين المسيحيين الذين حاولوا معالجة – كما قلت– مسألة العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، ومختلف عن أعمال علماء الكلام عند المسلمين، وعلماء الملل والنحل، وهذا الأمر الجديد، أنا أقوم الآن به، ولسوف يكون المرتكز للتأريخ للإسلام منذ ماقبل المبعث حتى عام ١٩٢٣م، وهو عام إلغاء الخلافة العثمانية.

والعمل سوف يكون جماعياً إن شاء الله تعالى وأعان، وهذا العمل راود خيال مجموعة من الدول العربية منذ زهاء نصف القرن، ولكنْ بقي حبيس الخيال، وفي الإسلام يشفع للإنسان المؤمن الملتزم– بعد رحمة الله– عمله، ويحاسب على عمله، ويحتاج السلطان لمن يشفع له، خاصة في أيامنا هذه.

وطريق الريادة صعب، محفوف بالمخاطر، ولكن من يمتلك المعرفة بالسيرة النبوية يهون عليه الأمر، والله المستعان، أعانني فيما مضى، وسهل لي الصعب المستحيل على البشر، ورجائي وإيماني باستمرار عونه، وعون الله هو العون، ما برح يحوط بي منذ أكثر من نصف قرن، من جميع

الجوانب، فله دوماً الحمد المتواصل، والشكر، وصلى الله على نبيه المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

ومن حيث المبدأ، يجد الإنسان من خلال القرآن الكريم أن الله الواحد الأحد، خلق الخلق من البشر وسواهم، ورعى بني الإنسان بإرسال الرسل والأنبياء، وحمل كل رسول رسالة طُرَها رسول مكلف جاء من بعده ذوو العزم، وهكذا إلى أن غدت البشرية مؤهلة لتلقي الرسالة الخاتمة التي سترافق الحياة البشرية حتى يوم القيامة.

وللمرة الأولى والأخيرة تعهد الله بحفظ هذه الرسالة، وحمل هذه الرسالة إمام الأنبياء والرسل، والمثل الأعلى بين بني البشر، ولد إنساناً ومات إنساناً، لأن الوحدانية لله فقط، ولد في مكة، حيث كانت بقايا مشوهة لدين أبينا إبراهيم عليه السلام، ومكة المكرمة مدينة تجار يجوبون الآفاق، ينقلون البضائع المرئية، وغير المرئية، ومكة أيضاً مدينة لا حكومة فيها، ولا قوى أمنية، أمنها قائم على مكارم الأخلاق(حلف الفضول)، صحيح أن فيها حجاً وقداسة للكعبة، ولكنْ ليس فيها رجال لاهوت، ولم يكن فيها لا مسيحية ولا يهودية، ولاسواهما، ولذلك لم تولد الدعوة النبوية من دين له لاهوت، بل نبعت من النبع الإلهي الخالص، واعترفت بجميع الرسل والأنبياء، ولكن ليس حسب الصورة البشرية المشوهة والمزيفة، بل حسب الصورة الأصيلة الموثقة إلهياً.

وكانت مكة المكرمة وحدها بين جميع مدن العالم وحواضره المؤهلة لتكون مقر قيام الإسلام، وقد نجح الإسلام، وحقق صنع أول أمة عقائدية بشرية مثالية في التاريخ عرفت النظرية والتطبيق في الوقت ذاته، وهذا لم يتوفر مطلقاً في التاريخ الماضي، ولا حتى في العصر الحديث، ويكفينا أن نسوق مثالاً واحداً، هو أن الماركسية أوجدها ماركس، ولكنه لم يطبقها، وبما أن كل

عمل بشري، مآله إلى الموت مثل البشر، وهكذا كان مآل الماركسية، وأما الإسلام فله الخلود، لأن الله وحده الذي لايموت، وقهر عباده بالموت.

وكما سلف بي القول: مشروع تاريخ الإسلام وشعوبه قيد الإعداد، وكان في خطتي جعل تاريخ السلطنة العثمانية آخر الحقب، لكن قضى الله أن أكمله أولاً ولسوف يكون في حدود الخمسة عشر ألف صفحة، وفي التاريخ من الجائز الشروع بالحديث، ثم ما قبله وهكذا، ويجوز أيضاً عدم التقيد بالتسلسل- وإن كان مفضلاً- فكل حسب الإرادة الإلهية، والتيسير.

ولتوفر الحاجة الجامعية لجأت مع التلميذة النجيبة الزميلة شكران خربوطلي إلى إنجاز عمل أكاديمي فيه قراءة جديدة للعصرين النبوي والراشدي، يلبي حاجة الطلاب الجامعيين، ويكون مبشراً بالعمل الأكاديمي الشامل، لصالح المسلمين وسواهم، فقد آن الآوان أن نكتب تاريخنا بأنفسنا، وباجتهادنا، مع إفادة من جهود الآخرين، بعدالة وحيادية موثقة، ومن دون سموم المستشرقين، ومن سار على دربهم.

وفي هذا العمل كان للأستاذة الدكتورة شكران حمل للثقل الأساسي، ولكنَ النبع واحد، والفكر منسجم متوائم، والمسؤولية مشتركة.

راجياً الله تعالى السداد والتوفيق، والقبول، وله جلت قدرته الحمد والشكر، والصلاة على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن أخذ بهداه.

دمشق الشام ١/ ٥/ ٢٠١٦ سهيل زكار



الفصل الأول: مصادر السيرة النبوية والخلفاء الراشدين

أولاً-المصادر العربية

أقسام مصادر السيرة النبوية

١- مصادر أصيلة

٢- مصادر فرعية

٣- مصادر تكميلية

ثانياً- مصادر تاريخ الخلفاء الراشدين

ثالثاً- جولة في أهم المصادر

رابعاً- المراجع العربية



الفصل الأول:

مصادر السيرة النبوية والخلفاء الراشدين:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

استند البحث إلى مصادر ومراجع متعدَدة أسهمت في رسم صورة واضحة عن هذه الحقبة الزمانية الطويلة في تاريخ العرب والإسلام، وتفاوتت أهمية هذه المصادر بقدمها فيما حوته من معلومات، فكانت كل فئة منها تتناول بالتركيز جانباً أو أكثر من جوانب البحث، وستحاول هذه الدراسة تقديم المصادر حسب ما أفاد منها البحث.

أولاً: أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث:

يمكن تصنيف المصادر إلى عدة مجموعات رئيسة بحسب مادتها التاريخية أو أسلوب عرضها للأحداث، وهذه المجموعات هي:

أولاً-المصادر العربية:

تتميز بكثرتها وتنوعها، وتتحدد قيمتها في البحث بما تقدم من معلومات، ومن الطبيعي أن تأتي **مصادر السيرة** على رأس المصادر العربية لهذا البحث:

إن الكلام عن المصادر التي تُستقى منها أحداث السيرة النبوية، ومروياتها، ووقائعها له أهمية كبيرة، وترجع أهمية ذلك لأمور:

١: ليتعرف الباحث المصادر التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها كالقرآن الكريم

٢: أن يتعرف الباحث المصنفات الجادة في السيرة النبوية' فيفرق بينها وبين الكتب التي لم تنتهج المنهج القويم في كتابة السيرة، فإذا عرف الباحث

مثلاً أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للسير، ثم وجد في كتاب من كتب السيرة تقريراً لواقعة أو تفسيراً لحادثة يصادم ما في القرآن استطاع ردَ ذلك على صاحبه، فإذا كانت غالب مادة الكتاب مصادمة للقرآن عرف سقوط هذا الكتاب علمياً.

٣: أن يقف الباحث على صورة متكاملة للواقعة غير مجتزأة، وذلك بمحاولة استقصاء إيراد الواقعة من جميع المصادر التي أوردتها وعدم الاقتصار على بعضها.

٤: أن تتكون منهجية علمية واضحة لمن أراد الكتابة في السيرة فيعرف من أين يستقي أحداث السيرة على الوجه الصحيح، وغير ذلك من فوائد.

ثانياً-أقسام مصادر السيرة النبوية:

تنقسم مصادر السيرة النبوية إلى قسمين رئيسين:

١- **مصادر أصيلة:** وهي المصادر الأولى التي تميزت بأن أصحابها تلقوا الوقائع والأحداث عن طريق الرواية الشفوية وغيرها (طريق الإسناد)، ومنهم من دون مروياته في كتاب، ومنهم من وصلت إلينا مروياته عن طريق الكتب المسندة ككتب المغازي المسندة، وكتب الحديث المسندة التي أسندت كثيراً من وقائع السيرة، وهذه المصادر تكاد تنتهي عند نهاية عصر الإسناد في آخر القرن الخامس، إلا نادراً، وتتميز باختلاف مادتها زيادة ونقصاناً بناءً على اختلاف الرواة.

٢- **مصادر فرعية:** وهي المصادر التي عولت على المصادر الأصيلة، ولم يكن لها إلا إعادة الصياغة والترتيب، ويكثر فيها تدخل المؤلف في المبالغة في الوصف والمزايدة أحياناً على النصوص التي بين يديه، وتمثلها مؤلفات ما بعد عصور الإسناد والرواية كالقرن السادس وما يليه.

-مصادر السيرة الأصيلة:

أولاً: القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو أول مصادر السيرة النبوية التي ينبغي على الباحث أن يجعلها نصب عينيه في استقاء أخبار أحداث السيرة، وفي محاكمة ما كتب عن السيرة، فقد اشتمل القرآن على تصوير رائع لكثير من مراحل الحياة النبوية، فينبغي أن يُقَدَم القرآن على كل ما سواه من مصادر السيرة، بل يجب أن تحاكم الوقائع إلى ما فيه، فإذا كان القرآن يصور مثلاً غزوة بدر وغيرها على أنها صراع بين معسكر الكفر والإسلام، وبين الحق والباطل، ثم جاءنا كاتب في السيرة يقول لنا إنَ الغزوات كان سببها اقتصادياً رُدَ ذلك عليه.

ويدخل في هذا المقام الرجوع إلى كتب التفسير، وأسباب النزول فيما له تعلق بالسيرة، ولكن بعد نقدها وتمحيصها.

ثانياً: كتب الحديث النبوي الشريف:

عني المحدثون عناية بالغة بحفظ السنة النبوية، وتدوينها وإيصالها لنا، واشتملت جهودهم على أحداث ووقائع ومناقب وفضائل وقضايا..وغير ذلك مما له تعلق وثيق بالسيرة النبوية، فحفظوا لنا مادة مسندة غنية تغطي كثيراً من مراحل السيرة ووقائعها.

ومن أكثر الكتب إيراداً لما له تعلق بالسيرة سنن الترمذي، وهو الأول في هذاالباب بين كتب السنن الأربعة، وكذلك سنن البيهقي، وبين المسانيد مسند الإمام أحمد، وتستفاد مادة السيرة منه عن طريق الفتح الرباني.

أحالنا أصحاب هذه الكتب إلى الإسناد الذي ساقوه لنا، لنضعه تحت منظار النقد، ونجري عليه قواعد أهل الحديث في تمحيصها، عدا ما أجمعت الأمة على صحته كالصحيحين.

ويندرج تحت هذا المصدر:

١-كتب الشمائل:

وهي الكتب التي قصد مؤلفوها إبراز المحاسن الخَلقية والخُلقية للنبي صلى الله عليه وسلم وفضائله وعاداته... وإفرادها في تصنيف مستقل، مع الإشارة إلى أن كثيراً من كتب الحديث قد حوت كذلك مادة كبيرة في الشمائل المحمدية[١].

ومن أجلَ ما صنف في هذا الباب (شمائل الترمذي)، وكتاب أبي الشيخ الأصبهاني (أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه).

٢-كتب الدلائل:

وهي الكتب التي عُنيت بالمعجزات التي أجراها الله عز وجل على يد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أجلَها (دلائل النبوة) للبيهقي، إلا أن عنوان هذا الكتاب أوجز من موضوعه فالكتاب شامل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس مقتصراً على الدلائل، وقد فقدت عشرات الكتب المصنفة في هذا الباب، ومنها ما يزال ضمن المخطوطات.

وتعد كتب شروح الحديث مصدراً تكميلياً للتوسع في فهم الأحاديث المتعلقة بالسير والشمائل والدلائل.

ثالثا: كتب المغازي والسير (كتب السيرة النبوية المختصة):

وهي الكتب التي تعنى بالمغازي والسير، وتتطرق إلى باقي حياته صلى الله عليه وسلم، وتتقسم طبقات المشتغلين بالمغازي والسير ممن حفظ لنا مروياتها

---

١ -الوادعية: (أم عبد الله)، الصحيح المسند في الشمائل المحمدية، مراجعة وتقديم مقبل ابن هادي الوادعي، دار الحرمين للطباعة،١٩٩٥م.

إلى أربع طبقات بعد طبقة الصحابة الذين اشتهروا بالعناية بالمغازي، كابن عباس، وابن عمرو، والبراء بن عازب، وهم أشهر الصحابة الذين عرفوا بالعناية بالمغازي والسير:

طبقة أبناء الصحابة الكبار: كأبان بن عثمان بن عفان، وعروة بن الزبير فقد عنيا عناية بالغة بتلقي مرويات السيرة، إلا أن كتب هذه الطبقة لم يبق مباشرة شيء منها، وقد قام الأستاذ (الأعظمي)[١] بجمع ما وقف عليه من مادة مغازي عروة بن الزبير في كتابه: مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة بن الزبير برواية أبي الأسود.

ثم ظهرت طبقة تالية قريبة جداً من الأولى واشتهر منها الإمام الزهري ت١٢٤هـ/٧٤١م وعاصم بن عمر بن قتادة ت ١٢٠هـ/٧٣٧م ولم يصلنا شيء كذلك من مؤلفات هذه الطبقـة، لكنَ الأستاذ الدكتور سهيل زكار جمع ما وقف عليه من مرويات الزهري في المغازي وأفردها في كتاب (المغازي النبوية..)[٢].

ثم الطبقة التالية وهي طبقة تلامذة الزهري وأشهرهم موسى بن عقبة، ومعمر بن راشد، وسليمان بن طرخان، ومحمد بن إسحاق، والواقدي.

وموسى بن عقبة وثقه أهل العلم واعتمد عليه البخاري، وفقد كتابه إلا قطعة يسيرة منه نشرها المستشرق الألماني إدوارد سخاو سنة١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م[٣]، ومعمر بن راشد، وُجدت نسخة من مغازيه بالمعهد الشرقي

---

١ – الأعظمي: (محمد مصطفى)، كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٧٨م.

٢ – الزهري: (محمد بن مسلم بن عبيد الله)، المغازي النبوية، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٨١م.

3-Sachau;Dasberliner Frag ment des Musa Ibn Ukba, Sitzung.derPhil.Hist Classe Feb.1904.

بشيكاغو، ونشرته نبيهة عبود سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، وما تزال قطعة منه مخطوطة، في إسلامبول، والرباط، ودمشق.

أما سليمان بن طرخان، فقد صنف كتاباً في السيرة النبوية، رواه عنه ابنه معتمر (توفي سنة ١٨٢ه/٧٧٨م ـ)، وقد حمله عن معتمر، محمد بن عبد الأعلى الصنعاني (المتوفى سنة ٢٤٥هـ)، لكن هذه السيرة فُقدت كلها إلاسبعاً وسبعين٧٧ صفحة منها، وقد نشرها المستشرق فون كريمر في ختام كتاب المغازي للواقدي، الذي طبع بكلكتا عام ١٨٥٦م. وهو ثقة في مروياته.، وكذلك نشرها أ. د. سهيل زكار

أما محمد بن إسحاق إمام الأئمة في السيرة والمغازي ورواياتها، طبع ما وصلنا من مغازيه للمرة الأولى بتحقيق محمد حميد الله الحيدرأبادي، بعنوان: (المبتدأ والمبعث والمغازي)، وطبع بتحقيق آخر للدكتور سهيل زكار بعنوان (السيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير).

والقطعة المطبوعة من سيرة ابن اسحاق تنتهي عند غزوة أحد، وأول صفحة من الكتاب مفقودة، وحققت على نسختين يكمل بعضها بعضاً، وينبه إلى أن الكتاب فيه زيادات لراوية عن ابن اسحاق وهو يونس بن بكير، ولراوية عن يونس، وهو أحمد ابن عبد الجبار.

وقد اشتهر ابن إسحاق حتى صار عمدة من صنف في السير من بعده، ولعل انتشاره يرجع إلى أسلوبه المبتكر في ترتيب الأحداث والوقائع على مراحل السيرة، إلى جانب أسلوبه في دمج الروايات دون إطالة بذكر رواية كل شيخ، وهي طريقة أقرب إلى قلوب القراء، ثم سعة علم ابن إسحاق ومكانته العلمية، ومما ساهم في انتشاره واشتهاره تهذيب ابن هشام له في كتابه المشهور السيرة النبوية.

قام ابن هشام بتهذيب سيرة ابن إسحاق بعد أن أخذ إجازة روايته من زياد بن عبد الله البكائي (ت: ١٨٣هـ/٧٧٩م)، وهو أصح من روى سيرة ابن إسحاق، فقد أملى ابن إسحاق عليه الكتاب مرتين، وأجرى ابن هشام على سيرة ابن إسحاق بعض التعديلات اليسيرة إضافةً وحذفاً، إذ حذف ابن هشام كثيراً من الإسرائيليات، والأشعار المنتحلة حتى عرفت السيرة به في كثير من الأحيان دون شيخه.

وقد لقي عمل ابن هشام هذا القبول والرضا، وبه عرفت سيرة ابن إسحاق، بل ونسب إلى ابن هشام، وقد توالت الشروح والدراسات حول عمل ابن هشام هذا.

وقد تعلق العلماء بسيرة ابن هشام – قبل العامة – نظراً لأهميتها، فوضعوا لها الشروح، والحواشي، والتعليقات، والتحقيقات، ومن أهم هذه الشروح والتعليقات:

– الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام: لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م).

– شرح غريب ابن إسحاق (شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام)، لأبي ذر بن محمد ابن مسعود الخشني (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، وهو عالم أندلسي، واهتم بها وقام بتحقيقها: الأستاذ بول بروبلة، وقد كان الكتاب مجالاً للأساطير التي نشأت في الأيام المتأخرة.

– المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للعلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي المصري (ت٩٢٣هـ /١٥١٧م). حققه صالح الشامي في أربعة أجزاء، وصدر عن المكتب الإسلامي في طبعته الأولى

١٤١٢هـ /١٩٩١م، جمع القسطلاني بين أحداث السيرة النبوية والحديث عن أخلاق الرسول وخصائصه وشمائله صلى الله عليه وسلم وشمائله.

- شرح المواهب اللدنيه للإمام الحافظ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي (ت: ١١٢٢هـ/١٧٠٩م)، وقد قام بشرحها في ثمانية مجلدات كبار العلماء، إذ جمعوا فيها أكثر الأحاديث المروية في الشمائل المحمدية، والسيرة النبوية، والصفات الشريفة، ولعل أصح الشروح لها كتاب الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم، لمغلطاي بن قليج، وقد حقق هذا الكتاب أ. د. سهيل زكار.

-ومغازي الواقدي طبعه المستشرق جونز في ثلاثة مجلدات، يوجد عند الواقدي زيادات حسنة لا نجدها عند غيره من كتاب السيرة، وقد انفرد الواقدي عن ابن إسحاق الذي سبق في التأليف في المغازي بروايات في وصف سير المعارك العسكرية، وفي وصف السرايا، وبعض الحوادث الجانبية.

والواقدي أحياناً يركب الأسانيد، فيذكر الأسانيد مجموعة في أول كل غزوة أو سرية، وأحياناً لا يذكرها اعتماداً على ما ذكره في أول الكتاب، ويكتفي بقوله: قالوا، وساق المغازي في نسق واحد مترابط الأحداث، بأسلوب قصصي واضح العبارة، وللواقدي عناية خاصة بالضبط التاريخي للوقائع والغزوات.

واحتفى بنصوصه تلميذه ابن سعد في طبقاته، وأعاد تحقيق المغازي أ.د. سهيل زكار اعتماداً على مخطوطات جديدة، منها مختصر للكتاب وبخط ابن حجر العسقلاني.

رابعاً: تواريخ مكة والمدينة:

أفرد بعض المؤرخين تاريخ مكة وتاريخ المدينة بالتصنيف، وتطرقوا في كتبهم إلى الحديث عن وقائع السيرة في المدينتين بالإسناد، ككتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لنور الدين بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)[1] وتاريخ المدينة المنورة لأبي زيد عمر بن شبة (ت٢٦٢هـ/٨٧٥م)[2] وأخبار مكة وماجاء فيها من الآثار لمحمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، وأخبار مكة في قديم الدهر وحديثه لمحمد بن اسحق العباسي الفاكهي المكي[3]، وقد قام الأستاذ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش بتحقيق كلا الكتابين.

خامساً: كتب التاريخ العام:

وهي الكتب التي أرخ فيها مؤلفوها لمرحلة تاريخية واسعة جدا وضمنوها مرحلة السيرة النبوية وأحداثها ومن أشهرها تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير... وغيرها.

سادساً: كتب تواريخ الرجال والصحابة:

في كتب تراجم الصحابة مادة واسعة يُستفاد منها في السيرة النبوية، وهي مليئة بالوقائع النبوية التي تتعلق بالصحابي المترجَم له ومن أقدمها : طبقات خليفة بن خياط، والطبقات الكبرى لابن سعد، وكذلك الطبقات الصغرى، وبين الكتب المتأخرة كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، وكذلك الاستيعاب لابن عبد البرالأندلسي، وأوعبها كتاب الإصابة لابن حجر

---

١ –السمهودي: (نور الدين علي بن أحمد)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٥٥م.

٢–ابن شبة: (أبو زيد عمر)، تاريخ المدينة المنورة، علق عليه وخرج أحاديثه علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيات، بيروت، دار الكتب العلمية،ط١، ١٩٩٦م.

٣ – تم نشر الكتاب في بيروت دار خضر للطباعة.

العسقلاني، وفي كتب التراجم العامة وتواريخ المدن مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، والمقفى للمقريزي، تراجم على درجة عالية من الأهمية، وبعض أصحاب هذه الكتب اعتمد على طرائق المحدثين في الإسناد.

سابعاً: كتب الأدب (الشعري والنثري):

احتوت كتب الأدب (الأولى) على عدد كبير من الأشعار والخطب التي نسبت إلى عصر الرسالة، بيد أن الاستفادة من كتب الأدب في السيرة، أو التاريخ تحتاج إلى حذر وتمعن في تمحيصها، ومعرفة خلفيات الأديب (المؤلف)...إلى غير ذلك من ضوابط ليس هذا مقام إيرادها، والمقصود أن النهل من كتب الأدب بدون ضوابط وقيود كفيل بتشويه الحقيقة وتحريف السيرة والتاريخ، ومع ذلك لديوان حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم مكانة علمية خاصة.

أما **المصادر الفرعية** التي كانت مهمتها الاستفادة من المصادر السالفة، وإعادة صياغتها وترتيبها، فكثيرة جدا، تحتاج إلى نقد وتمحيص وبيان صحيحها من سقيمها، وغثها من سمينها قبل الاستفادة منها، لكثرة الضعيف والموضوع، وبروز ظاهرة التقميش فيها، أضف إلى ذلك، أن الخلفيات العقائدية شغلت مكاناً بارزاً في كتب هذه المصادر خاصة التصوف والتشيع، فلم يكن سرد السيرة عندهم سرداً مجرداً للأحداث، بل سرداً يُدس فيه الزيف بين آن وآخر، وذلك إما باختلاق مبالغات ومرويات لا وجود لها، وإما بتفسير المرويات الصحيحة تفسيراً منحرفاً لدعم عقائد منحرفة، لذا وجب على المطالع الحذر والرجوع للمتخصصين. **أما أشهر كتب المصادر الفرعية (المطبوعة) فمنها:**

أ: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٥٤٤هـ/١١٤٩م.
وهو كتاب مليء بالعواطف الجياشة والأسلوب الرائق، كتب الله له الاشتهار والقبول، ولكنه لم يسلم من السمة الأولى التي ذكرناها (كثرة الضعيف).
ب: عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، وهذا الكتاب لعله أول كتاب موسوعي للسيرة، أي أنه سعى إلى جمع المتفرق، ومن ثم استخلاص صورة متكاملة للسيرة، وهو كتاب جليل عمدة، ولم تخل نصوصه من السمة الأولى (كثرة الضعيف).
ج: سيرة الإمام ابن كثير، وهي تتميز بنقده وتعليقه، وقد بدأ المحدث الألباني بخدمة نصوصه ثم توفي ولم يتم مشروعه بل توقف عند الإسراء والمعراج.
د: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي ٩٤٢هـ/١٥٣٥م، وهذا الكتاب أوسع ما وصلنا في السيرة النبوية، لكنه من أكثر الكتب تحقيقا لظاهرة التقميش، وحشد كل شيء من صحيح وضعيف وموضوع، ويحتاج الكتاب إلى جهود ضخمة في نقده للاستفادة منه استفادة مستقيمة.

[مصادر تكميلية]:

هناك مصادر تكميلية ليس لها علاقة مباشرة بالسيرة النبوية لكنها تفيد الباحث عند الرجوع إليها في إثراء بعض المواضع كالرجوع إلى كتب البلدان والمواضع والأمكنة، فما من موضع مذكور في السيرة إلا وقد يجد له الباحث تعريفاً نافعاً في هذه الكتب أو تعليقاً مهماً.

وكتب الفقه مهمة جداً، خاصة في تحليل السيرة النبوية وتفسيرها لأن الفقهاء يبنون كثيراً من أحكامهم على بعض وقائع السيرة.

ثانياً: مصادر تاريخ الخلفاء الراشدين:

أما تاريخ الخلفاء الراشدين فهو يمثل مرحلة تاريخية مضيئة من التاريخ الإسلامي، ومقرر بإجماع العلماء أنه تتمة لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو العصر الذي شهد المثل الإسلامية الصحيحة، والتطبيق الأمثل لما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

كان الخلفاء الراشدون جميعهم صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، وهم أهل مشورته وحله وعقده، ومنهم آل بيته، فهم القدوة الصالحة والعقول الراجحة، وهم من تأدبوا بآداب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، ونهلوا من علمه، وساروا على دربه وعاصروا رسالته، وسمعوا وحيه، وشاركوا في غزواته وسراياه، ووقفوا جانبه، ودافعوا عنه، والتصقوا به، وحدثوا بأقواله وأعماله، وتصاهر معهم وتصاهروا معه، فهم التلامذة النجباء، والأخلاء الأوفياء، والعلماء الأجلاء رضي اللَّه عنهم أجمعين.

وإذا كانت هذه المرحلة التاريخية قد حظيت باهتمام كثير من علماء المسلمين الأجلاء سواء المؤرخون أو المحدثون والفقهاء، وتبارى كل منهم في الكتابة عن هذا العصر، فإنَ هذا العصر يحتاج إلى دقة التأريخ والتوثيق، وإلى إبراز الهدف من إخراج مؤلَف فيها، وهو تقديم دراسة تتناول هذه المرحلة من زوايا مختلفة بأسلوب علمي رصين بعيد عن الهوى والأغراض، وعن أية معتقدات هدامة أو أفكار ينكرها الإسلام، ليسد الذرائع التي كانت مدخلاً لبعض من كتبوا من غير المنصفين وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة.

وقد اعتمدنا في خطة هذه الدراسة أن نقدم أولاً دراسة عن نظام الخلافة الإسلامية، الذي انفرد به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، مخالفين به النظم السياسية المختلفة التي سادت العالم من قبل ومن بعد، وأوضحنا به

خصوصية هذا النظام وأحكامه، وصفات الخلفاء وحقوقهم وواجباتهم التي استندت أساساً إلى ما جاء في كتاب اللَّه وسنَة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأوضحها لنا فقهاء مسلمون.

واعتمدت الدراسة بعد ذلك على دراسة كل خليفة من الخلفاء الأربعة رضوان اللَّه عليهم دراسة مستفيضة عن طريق الجمع بين التعريف بشخصية الخليفة من حيث النشأة، وحياته قبل الإسلام، ثم إسلامه، ومواقفه وأثره في الدعوة، وكيفية مصاحبته لرسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، وفضائله، ثم طريقة مبايعته بالخلافة، مستندين إلى كتب الأحكام السلطانية، وكتب الطبقات، والسيرة، والتراجم، ومؤيدين ذلك بأحاديث، وأولويات كل واحد منهم، وهي التي أوجبت بيعته، ثم العرض للسياسة الداخلية التي تتمثل في كل ما يخص المسلمين في عاصمة الخلافة والأمصار المختلفة والأعمال الداخلية العظيمة التي حفظتها المصادر التاريخية، وكتب الحديث، إلى جانب التطورات السياسية والإدارية التي حققوها وتركت بصماتها على جميع البلدان الإسلامية، ثم تنتقل الدراسة بعد ذلك للسياسة الخارجية التي تتمثل أصدق تمثُل في مجال الفتوحات الإسلامية التي كانت علامة بارزة لهذا العصر، إذ وضحت ملامح السرعة الفائقة، والعبقرية الفذة، لأنه في غضون سنوات قلائل فتح اللَّه على أيديهم البلدان شرقاً وغرباً.

وقد اعتنى علماء المسلمين عبر العصور المختلفة عناية خاصة بجمع كل المعلومات عن هذا الجيل العظيم، ولم يخل عصر من مؤلفات كثيرة يصعب حصرها، ويمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام:

أولاً: مؤلفات خاصة بالخلفاء الراشدين: إن ما يدعو الى الفخر والاعتزاز أن المسلمين قد بذلوا كل جهد ممكن في سبيل حفظ تراثهم، وإيصاله إلى الأجيال

بأمانة، ودقة متناهية لم يسبقهم إليها شعب على مدار التاريخ، ولم تدانيهم في هذا أمة من الأمم، فقد صنفوا تاريخهم و حفظوه في أسفار ضخمة يرجعون إليها متى شاؤوا، وفي أي وقت أرادوا، ومن بين هذه الكتب :

١ -تاريخ الخلفاء لأبي عبد الله محمد بن يزيد (ابن ماجة ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م)

٢ -فضائل الخلفاء الأربعة: لأبي بكر أحمد بن إسحاق النيسابوري (ت ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م).

٣ -فضائل الصديق: لخيثمة بن سليمان الأطرابولسي (ت ٣٤٣هـ/٩٥٤م).

٤ -فضائل الخلفاء الأربعة: لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م).

٥ -فضائل أبي بكر الصديق: للعشاري (ت ٤٤١هـ/١٠٤٩م).

٦-مناقب علي بن أبي طالب: لعلي بن محمد الواسطي المالكي المعروف بابن المغازلي (ت ٤٨٣هـ /١٠٩٠م).

٧- فضائل عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ /١٢٠٠م). وغيرها كثير.

ثانياً: مؤلفات تشمل الصحابة والخلفاء الراشدين: انبرى المخلصون من علماء المسلمين يخلدون صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم في مؤلفات ضمت كل ما يحتاج إليه الباحث من معلومات وافية عن كل خليفة و صحابي، وهي كثيرة، وفيما يلي بعض منها :

١.الصحابة: لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨ه/٨٢٣م).

٢.الصحابة: لخليفة بن خياط (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م).

٣.الصحابة: لأبي بكر منصور بن محمد بن سعد البارودي (ت ٣٠١هـ/٩١٣م).

٤.الآحاد في الصحابـــة: لأبي محمد بـــن عبد الله بـــن الجارود النيســـابوري (ت ٣٠٧هـــ /٩١٩م).

٥.الصحابة: لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦هـــ /٩٢٨م).

٦.الصحابة: لأبي جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي (ت٣٢٢هـــ /٩٣٣م).

٧.معجم الصحابـــة: لعبد الباقي بـــن قانع بـــن مـــرزوق الأموي (ت ٣٥١هـــ /٩٦٢م).

٨.معجم الصحابة: لأبي علي سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادي (ت٣٥٣ هــ/٩٦٤م).

٩.المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـــ /٩٧٠م).

١٠.أسماء الصحابة: لأبي بكـــر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (ت ٣٧١هــ/٩٨١م).

ثالثاً: مؤلفات تشتمل على الصحابة وغيرهم من التابعين: كان الصحابة الكرام مثلاً يحتذى به في كل أحوالهم وتعاملاتهم، قد أظهروا سمو أخلاقهم، وترفعهم عن الدنايا، وضربوا لنا أروع الأمثلة في البطولة الحقة، والشجاعة النادرة، والعدل المطلق، لذا فقد تتبع علماء المسلمين أثر الصحابة، ومن تبعهم بمؤلفات حوت تاريخهم، ومعرفة أحوالهم وهي كثيرة منها ماتقدم ذكره مثل:

١ -الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هــ/٨٤٤م).

٢ -الطبقات: لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـــ /٨٥٤م).

٣- التاريخ الكبير: للبخاري (ت٢٥٦هـــ / ٨٦٩م).

٤ -المعرفة و التاريخ: ليعقوب بن سفيان البسوي (ت ٢٧٧هـ /٨٩٠م).

٥ -التاريخ: لابن أبي خيثمة (ت٢٧٩هـ /٨٩٢م)

٦ -ذيل المذيل من تاريخ الصحابة و التابعين: للطبري (ت٣١٠هـ /٩٢٢م).

رابعاً: مؤلفات خاصة في فضائل الصحابة ومناقبهم: من أبرز هذه الكتب:

١-فضائل الصحابة: لأسد بن موسى الأموي المعروف بأسد السنة (ت٢١٢هـ /٨٢٧م).

٢- فضائل الصحابة: للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ /٨٥٥م).

٣ -فضائل الصحابة: للقاضي بكر بن العلاء المالكي (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م).

٤ - فضائل الصحابة: لأبيو سعيد الإعرابي (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م).

٥ - فضائل الصحابة: لخثيمة بن سليمان (٣٤٣هـ / ٩٥٥م).

٦ - فضائل الصحابة ومناقبهم: للدار قطني (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٤م).

ثالثاً-جولة في أهم المصادر:

كتب السيرة والفتوح:

١-ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (توفي عام٢١٣هـ/ ٨٢٨م)، كتابه (السيرة النبوية) وهو من أشهر كتب السيرة، واعتمد فيها على مغازي محمد بن إسحق وهو الذي اعتمد في نقل أخباره على الرواية الشفوية، أفاد منه البحث بما ذكره عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وبعوثه وسراياه إلى بلاد الشام بشكل مفصل.

٢-البستي: الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت٣٥٤هـ /٩٦٥م)، كتابه (السيرة النبوية وأخبار الخلفاء)، وفائدته تمثّلت بحديثه عن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وغزواته، وحديثه عن الخلفاء وأهم الأحداث التي دارت في عهدهم، ومن ثم انتقل إلى

الحديث عمّا سمّاهم ملوكاً جاؤوا بعد الخلفاء من عهد معاوية بن أبي سفيان حتى عهد المطيع بن المقتدر، كما قدّم معلومات عن مدن الشام في صدر الإسلام، وهي التي غزاها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣-**الزهري:** محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب(ت ١٢٤هـ / ٧٤١م)، كتابه (المغازي النبوية)، من أقدم ما أُلِّفَ في المغازي، أفاد البحث منه في الحديث عن إسلام الصحابة، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، واستخلاف أبي بكر وعمر وفتوحاتهم في الشام.

٤-**الواقدي:** عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، وقد انقسم عمل الواقدي إلى قسمين، القسم الأول: حمل عنوان (المغازي)، وتألف من ثلاثة أجزاء، قدم للبحث معلومات شملت كل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول إلى إعداد جيش أسامة بن زيد في نهاية الجزء الثالث.

وللواقدي كتاب آخر حمل عنوان (فتوح الشام)، أخبر فيه عن أحداث المعارك والفتوحات التي قادها الخلفاء من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد امتاز فيهما باتباعه التسلسل الزمني في إيراد الأحداث، وقد أفاد البحث من كل ما ورد فيه، بل كان من أهم المصادر التاريخية للبحث.

٥-**الأزدي:** محمد بن عبد الله (ت٢٣١هـ / ٨٤٥م). كتابه (فتوح الشام)، وهو من المخطوطات التي ظلت مجهولة أمام المؤرخين العرب مدة طويلة، وقد عثر المستشرق الإيرلندي وليم فاسوليس على نسخة مخطوطة منه في خزانة كتب (شاه كالي) في دلهي بالهند، فعمد إلى نشرها سنة١٢٧١هـ ١٨٥٤م، وقد تم نشر هذا الكتاب بتحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، بدأ الأزدي الحديث في الكتاب من تجهيز الجنود حتى إتمام الفتح إتماماً كاملاً، إذ توسع

في ذكر المعارك والأحداث، فقدم بذلك مادة غزيرة للبحث ثم نشر مرة أخرى بصورة أفضل في الأردن.

٦-**البلاذري:** أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، كتابه (فتوح البلدان)، ذكر فيه معلومات عن الفتوحات الإسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وسار على طريقة المحدَثين، وذلك بذكر الرواية المسندة إلى أخبار حروب النبي مع اليهود، وحروب الردة، وفتوح العرب في الشام والجزيرة وأرمينية ومصر والمغرب وفارس، وقّدم أدق المعلومات عن أجناد الشام، ومدنها، وتنظيمها الإداري في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، لكنَه أغفل بعض مدن الشام التي وردت في أخبار صدر الإسلام.

٧-**ابن الأعثم الكوفي:** أبو محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م). كتابه (الفتوح)، يعد من أقدم المصادر التاريخية المتخصصة في جانب تاريخي معين. ويهتم بالفتوح التي تمت على أيدي الخلفاء المسلمين من عهد الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى بداية خلافة المعتصم بالله عام(٢١٨هـ / ٨٣٣م). فقّدم معلومات دقيقة عن الأحداث التي رافقت الفتوح، فكانت إفادته للبحث كبيرة. وهو يشبه كتاب الأزدي لكنّ كتاب الأزدي السالف الذكر في الفتوح يعتمد على السند وابن الأعثم الكوفي يفتقد إليه، أضف إلى ذلك أنه يسترسل بالتفصيلات.

٨-**ابن حبيش:**عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف(ت٥٨٤هـ /١١٨٨م)، كتابه (غزوات ابن حبيش)، وهو يتضمن الغزوات الكاملة والفتوح في أيام الخلفاء الثلاثة الأول في الشام ومصر والمغرب، وقد أفاد البحث من كل ما ورد فيه.

٩-ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) كتابه(عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير)، قدم معلومات دقيقة وشاملة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم، من حيث نسبه وولادته وحياته في السلم والحرب حتى وفاته.

١٠-ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٤٧ه/ ١٣٤٦م)، كتابه (السيرة النبوية)، أفاد منه البحث من خلال حديثه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتاريخ دعوته حتى وفاته، وقد ذكر الرواية بالأسانيد، وامتاز بنقده لبعض الأسانيد عندما يكون المتن غريباً.

كتب الطبقات والأنساب والتراجم ومن أشهرها:

- **البلاذري:** أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، كتابه (أنساب الأشراف)، مصدر غني وثمين تناول تاريخ الأرستقراطية العربية في جاهليتها وإسلامها، وأورده على شكل قصص لتاريخ الشخصية وأسرتها، فقدم معلومات عن أهم القادة والأفراد الذين شاركوا في الفتوح إضافة إلى معلومات متفرقة عن أجناد الشام.

كتب الأخبار والتاريخ العام، إذ حوت هذه الكتب الأخبار بكل أنواعها، ومن أبرز من كتب في هذا المجال:

١-اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)، مؤرّخ وجغرافي له كتاب حمل اسم(تاريخ اليعقوبي)، وقد قسم كتابه إلى قسمين رئيسيين، واتخذ من الدول وعهود الحكام أساساً لتنظيم تاريخه، لذلك عُدَّ من أبرز التواريخ التي وضعت بحسب هذا المنهج، واستعرض فيه المدة الزمنية لكل خليفة، وأفاد القسم الثاني من الكتاب في

معرفة أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار الخلفاء من بعده، وقدّم معلومات غزيرة عن قادة الفتح، وعن أحداث فتوح الشام.

٢- **الطبري:** أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ / ٩٢٢م)، صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك)، الذي تألّف من عدة أجزاء، اعتمد فيه الجمع المفصّل والشامل للروايات المختلفة عن الخلافة بصورة عامة، وبدأ بالحديث عن بدء الخليقة حتى عصره على ترتيب السنين، وأكثر من اعتماده على ابن إسحق، والواقدي، والمدائني، و قدّم مادة تاريخية وفيرة عن الفتوح.

٣- **المسعودي:** أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، كان اعتماده على أسلوب الحوليات، وقد صنف عدة كتب منها:

كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وهو كتاب جغرافي وتاريخي بدأه بذكر الخليقة، ثم تناول أخبار الملوك والأمراء قبل الإسلام في أنحاء المعمورة، ثم ناقش سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الخلفاء الراشدين، من ثمّ تحدث عن تاريخ الدولتين الأموية والعباسية حتى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م، وقدم معلومات وافرة عن فتوحات الشام، ومعلومات متفرّقة عن أجناد الشام.

٤- **المقدسي:** مطهر بن طاهر (ت ٥٠٧هـ /١١١٣م)، ينسب إليه كتاب (البدء والتاريخ)، وقد تناول مدة حكم كل خليفة من الخلفاء على انفراد، فكان فيه كثير من المعلومات التي كانت موضع البحث.

٥- **ابن عساكر:** ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت٥٧١هـ / ١١٧٥م)، صاحب كتاب (تاريخ دمشق)، قدم معلومات مفصّلة للبحث عن مدينة دمشق، وروايات فتحها، وأهم المواثيق وكتب الأمان التي عقدت، وتراجم رجالات العالم الإسلامي مشرقه خاصة، فشكّل مصدراً مهماً بمادته التاريخية.

٦- **ابن الأثير:** عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م). اشتهر بكتابه (الكامل في التاريخ) ألفه ضمن مجموعة من الأجزاء، رتبها كالطبري واعتمد عليه قبل أيامه فأخذ بنظام الحوليات، وبدأه بالتحدّث عن تاريخ البشرية منذ أول الزمان حتى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وانتهى في حديثه عن كل سنة بخلاصة لكلّ الأحداث، اعتماداً بشكل كبيراً على الطبري شكَل مادة داعمة لما ورد في البحث من خلال عرضه لأحداث الفتوح مرتبة حسب السنين.

٧- **ابن العديم: عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م):** ألَف كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) يُعدُّ كتابه من أهمّ المصادر التاريخية التي أرّخت لبلاد الشام، وفيه اقتبس من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، إذ تحدّث عن فضائل الشام مع وصفها من الناحية الجغرافيّة، كما تناول أخباراً كثيرة عن الفتوح التي تمّت على أيدي العرب المسلمين، ثم بدأ بالترجمة لأعلام شمال بلاد الشام، ورتب تراجمه على حروف المعجم، ولم يقتصر على أعلام حقب تاريخ الإسلام بل تناول أعلام ما قبل الإسلام، وقد اختلف عن ابن عساكر الذي كان محدّثاً، أما ابن العديم فقد كان سياسياً، وكذلك ذكر ابن العديم المدن، وما انطوت عليها من تطورات في النواحي الإداريّة والعسكريّة، وكيفية فتحها وتحصينها.

٨- **أبو الفداء:** عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، الذي عُرف بكتابه (المختصر في أخبار البشر)، حيث تضمن مختصراً عن مطولات كتب التاريخ الإسلامي حتى زمن المؤلف، ورتّب السنين بحسب تأليف (الكامل) لابن الأثير لاعتماده عليه، فأفاد البحث من المعلومات التي ذكرها.

٩- **الذهبي:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي (ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، صاحب كثير من الكتب، يهمنا منها كتابه (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) إذ تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة حتى سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، وتضمّن تراجم المشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة وذلك بترتيب السنين، فقدم للبحث مادة غزيرة نادرة عن أعلام البحث وغيرها من نقاط البحث.

١٠- **ابن شاكر الكتبي:** محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، صاحب كتاب " عيون التواريخ "، تحدّث فيه عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه، وأهم الأحداث التي مرّ بها، ودعوته وغزواته. وذلك بحسب ترتيب السنوات، ومن ثم انتقل إلى الحديث عن الصدِّيق وتوقف عند خلافته، وتحدَث عن جهوده الحربية في فتح بلاد الشام ونشر الإسلام، فقدّم معلومات مفيدة ومهمة عن أحداث الفتح.

١١-**ابن كثير:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ / ١٣٧٢)، وكان محدثاً ومؤرخاً، اعتمدنا على كتابه (البداية والنهاية)، فقد أفاد البحث فيما ورد فيه عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وفتوح الخلفاء الراشدين.

١٢- **القلقشندي:** أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صاحب كتاب (صبح الأعشى)، لكننا هنا استفدنا من كتابه (مآثر الإنافة في معالم الخلافة)، فهو أرخ فيه للخلافة بصورة خاصة، وتحدث عنها منذ نشأتها إلى أيامه مفصلة مبوبة، فأفاد البحث فيما أورد فيه من معلومات مفيدة.

١٣- **السيوطي:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ / ١٥٠٥م)، كان غزير الإنتاج، موسوعي الأداء، وقد اعتمدنا على كتابه (تاريخ

الخلفاء**)** الذي بدأه بالحديث عن الخلفاء الراشدين الأربعة مضافاً إليهم الحسن بن علي، فأغنى البحث بما ذكره من معلومات تتعلق بالفتوح في الحقبة المدروسة.

١٤- **الدياربكري:** حسين بن محمد بن الحسين (ت٩٦٦هـ / ١٥٥٨م). صاحب كتاب (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس)، فقد دعم البحث في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن وقائع كل سنة منذ بداية الهجرة، مشتملاً الحديث عن الخلفاء الراشدين معتمداً الترتيب الزمني للأحداث، وقد قدم معلومات مهمة عن الغزوات والفتوح التي خصّت بلاد الشام.

١٥-ابن العماد الحنبلي: الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحيَ بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، صاحب كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، الذي أرّخ فيه لحقبة زمنية طويلة تمتد لعشرة قرون، اعتمد الترتيب الزمني في سرد الأحداث، وقد أفاد البحث في تقديم معلومات عن نشأة الدولة العربية الإسلامية الأولى، وما ارتبط بها من أحداث، إضافة إلى معلومات تعلَّقت بمدن وأجناد الشام.

الكتب الدينية وكتب الحديث النبوي والأحكام الفقهية، ويقف على رأسها:

١- **ابن سلام: أبو عبيد القاسم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت٢٢٤هـ/٨٣٧م).** صاحب كتاب (الأموال) **ويُعدّ** هذا الكتاب أحد أهم المصادر الاقتصادية في التاريخ العربي الإسلامي، وهو يتناول مسائل محددة بناء على ما جاء في الكتاب والسنة وكتب المعاهدات، وهو يركز على مصدرين ماليين للدولة، هما: البشر والأرض، وبذلك أفاد هذا البحث منه كثيراً ولاسيّما ما يتعلق بالأمور الاقتصادية، والأمور التي استجدت بعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام.

٢-**قدامة بن جعفر: (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م)**، صاحب كتاب **(الخراج وصناعة الكتابة)** وهو يُعَدّ من المصادر المهمّة جداً؛ بسبب ما تضمنه من معلومات أساسية عن أجناد بلاد الشام، والخراج، والطرق، وأنظمة البريد، والفتوحات.

-**كتب الجغرافية والبلدان** هي مهمة في أكثر من جانب، فقد حوت مادة غنية جداً، إذ لم يُقتصر الحديث فيها على جغرافية البلاد، بل عرضت أخبار بعض الحوادث ونقلت روايات تاريخية ومنها:

اعتمد البحث على كتب البلدان بالدرجة الأولى، نظراً لما حوته من معلومات لا تتوافر في المصادر الأخرى من كتب التاريخ العام، إذ أفادت في تحديد منطقة بلاد الشام جغرافياً، وتحديد منطقة الثغور والأربطة، كما تضمَّنت إلى جانب معلوماتها الجغرافية معلوماتٍ حضارية قيِّمة، ومن أهم تلك الكتب:

١-**اليعقوبي: (أحمد بن يعقوب(ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)**. صاحب كتاب (البلدان) اهتم بالجغرافية السكانية أكثر من اهتمامه بالأخبار التاريخية، وسمى كثيراً من مدن ساحل بلاد الشام التابعة للأجناد الخمسة، وما طرأ عليها من تغييرات إدارية، وقدّم معلومات مهمَة عن الفتوح، وتوزيع العطاء، وتطوَرات غزوات الصوائف والشواتي ونظامها المتبّع، وبعض الأمور الإداريّة التي قام بها خلفاء بني أميّة في تطوير نظام الأجناد.

٢- **ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ/٩١٢م)**: صاحب كتاب (المسالك والممالك) أفاد البحث بما ذكره من مدن ساحلية تابعة لأجناد بلاد الشام، وتنظيمها الإداري، وقد كانت إفادته كبيرة إذا ما قورنت معلوماته بما أورده البلاذري.

٣-**الإصطخري: (إبراهيم بن محمد الكرخي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)**. صاحب كتاب (المسالك والممالك) أفاد البحث بذكر معلومات عن الأجناد الخمسة،

وذكر مدنها وقراها، فهو لم يعطِ معلومات جغرافية فقط، وإنّما اقتصادية أيضاً، وقد وصل في كتابه إلى العصر الإخشيدي، وأورد التعديلات الإدارية التي طرأت على الأجناد.

٤-**المقدسي البشاري: (محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت٣٩٠هـ/٩٩٩م)**، صاحب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) يُعَدُّ من أغزر المصادر من حيث المادة العلمية، إذ قدّم معلومات متنوعة: تاريخيّة، وسياسيّة، وجغرافيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة، ولكنّه جعل الأجناد ستة، إذ عدت الشراة كورة من كور بلاد الشام.

٥-**ابن حوقل: محمد بن علي الموصلي (ت٤٠٠هـ/١٠٠٩م)**، صاحب كتاب (صورة الأرض) نقل عن الإصطخري معلومات كثيرة، لكنه أضاف إلى ما نقله من أخبار، معلومات مهمة عن العصر الأموي وأجناد بلاد الشام.

٦-**ياقوت الحموي: (ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)**، صاحب العديد من الكتب منها كتاب (معجم البلدان) **الذي** أفاد البحث كثيراً؛ نظراً لما ورد فيه من معلومات جغرافيّة وتاريخيّة وسياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة، ووصل فيه حتى حقب متأخرة، وقدّم صورة تفصيلية عن التنظيمات الإدارية للأجناد الشامية، وتحدث عن مدنها وقراها وضياعها وجبالها وكورها وقلاعها، ولم يُغفِل الأحداث التاريخية في صدر الإسلام والعصر الأموي، لكنه اختلف عن المصادر الأخرى بأنه أخضع مادته للنقد والتمحيص.

٧-**ابن الفقيه: (ت٦٣٧هـ/١٢٤٠م)**، كتاب (مختصر كتاب البلدان) اختلف عن غيره في أنَه أسهب في الحديث عن المدن الكبرى للأجناد والمدن التابعة لها، ومما يؤخذ عليه عدم ذكره فصل قنسرين عن جند حمص، بناء على ذلك فالأجناد عنده أربعة، وليست خمسة، كما عند بقية الجغرافيين، واهتم بالنواحي

الجغرافية والاقتصادية والتاريخية، هذا وعثر مؤخراً على نسخة من الكتاب دون الاختصار، ونشر.

وبذلك يتبيَن أنَ الكتب الجغرافية التي اعتمد عليها في هذا البحث قدمت معلومات كثيرة عن بلاد الشام، وثغورها وأجنادها وامتداد هذه الأجناد، والمدن الساحليّة التابعة لكلِّ جند منها، والقبائل التي استقرّت فيها بعد الفتح إضافةً إلى العناصر السكّانيّة الأخرى، كما أنها احتوت على فوائد عن بلاد الرافدين وخراسان والهضبة الإيرانية، وكذلك عن مصر وبلدان المغرب الكبير.

الموسوعات والمعاجم:

أعطت صورة واضحة عن الحياة السياسية والاجتماعية، وعن العلاقات بين الجهات الرسمية الداخلية والخارجية، ولا يخفى على الباحث مدى أهمية الموسوعات التي تتحدث عن الأسلحة، فقد كانت في معظمها تصنّف الأسلحة بحسب أنواعها الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، إضافة إلى إحصائها الأسماء المتعدّدة لهذه الأسلحة واستخداماتها في مختلف العصور، وللمعاجم أهمية لا غنى عنها في التعرف ببعض المصطلحات الإداريّة الخاصة بنظام الأجناد، ومن أهمها:

-**موسوعة "الأسلحة القديمة** الموسومة (تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء)، لمؤلفه الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م): تُعدّ هذه الموسوعة وإن كانت متأخرة التأليف من أهم الموسوعات التي أرّخت لكل أنواع السلاح الذي استعمله الإنسان للدفاع عن نفسه، وأيضاً في حروبه، بدءاً من العصا وانتهاء بالنار الإغريقية، وقد أفرد

لكل نوع من أنواع السلاح فصل تضمن تاريخه، وكيفية صنعه، والأدوية العلاجية التي تشفي جروحه، وعاصر الطرسوسي بداية الحروب الصليبية، وقد امتاز هذا العصر بكثرة المؤلفات المتعلقة بفن الحرب، والأسلحة الفردية والجماعية والجهاد، ومازال معظم هذه الكتب مخطوطاً يحتاج إلى التحقيق والدراسة.

المصادر الأجنبية:

أفاد البحث منها من خلال ما قدّمته من معلومات مهمة عن أجناد بلاد الشام ولاسيّما المدن الساحلية التابعة لها، والتطورات السياسية والحربية منذ الصراع البيزنطي-الفارسي، حتى نهاية العصر الأموي، ومن أهم هذه المصادر والمراجع الأجنبية والمعربة بحسب الأهمية:

أولا- السريانية: ذلك الفرع من الآرامية الذي كان يستعمل في الكتابة والحديث لدى شعوب الشام وما بين النهرين والمناطق المجاورة منها، وقد حفظت لنا معلومات عن العرب في وقت لم يكن فيه للعرب كتابة خاصة بهم، ومن أهمهم:

١- **أغابيوس بن قسطنطين المنبجي** صاحب كتاب **(العنوان)**، وهو مصدر سرياني، كتب باللغة العربية نقل عنه خليفة بن خياط وأبو يوسف البسوي وابن جرير الطبري، وقد اعتمد المنبجي في تاريخه على تاريخ "توفيل بن توما النصراني الرهاوي" المعاصر للدولة الأموية، وتأتي أهمية هذا الكتاب في البحث من تأريخه لحوادث جرت في سواحل بلاد الشام.

٢- **ديونسيوس التلمحري:** صاحب كتاب (التاريخ المنحول)، وهو مصدر سرياني مهمّ، ذكر فيه مؤلفه أخباراً لا ترد في كثير من المصادر العربية

الإسلامية، من حيث الاهتمام بمناطق الثغور، والأحداث غير الطبيعية، وهو من المصادر التاريخية المختصرة.

٣- ميخائيل السوري(السرياني): (ت٥٦٩هـ / ١١٩٩م)، كان ذا ثقافة واسعة، ويعرف كثيراً من اللغات منها العربية والأرمنية، وتتبع أهمية كتابه من احتفاظه بنصوص ضاعت أصولها، اعتمد في كتابته على مصادر غير سريانية فشكّل معرضاً لمصادر كثيرة، ورأى أن الفتوح إنما هي من رب الانتقام الذي بعث بأبناء إسماعيل من الجنوب ليخلِّصوهم من قبضة الرومان، وقد ترجم الكتاب لأهميته إلى الأرمنية والعربية، ومن هنا قدّم مادة غنية ومهمة عن الفتوح، وعن القبائل العربية والفلاحين والعامة.

٤- ابن العبري: أبو الفرج غوريغوريس بن اهرون، **(ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)**، اختصر بشكل أساسي تاريخ ميخائيل الكبير، وأضاف إليه ماعاصره، له كتابان واحد بالسريانية طويل، وآخر بالعربية مختصر اسمه (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق)، كتبه إلى أخيه عيسى في معرفة التواريخ الكلية من عهد آدم إلى سني الهجرة الإسلامية يليه (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي)، لمؤلفه ابن البطريق، سعيد افتيشيوس: وهو مصدر سرياني معرب بالغ الأهمية، كتب بطريقة الحوليات، ذكر فيه أخبار العرب المسلمين ودولتهم منذ عصر الرسولﷺ، وتأتي أهميته في البحث عن ذكر أوضاع بلاد الشام قبيل الفتح العربي الإسلامي منذ السيطرة الفارسية عليه، حتى استعادة الإمبراطور هرقل لهذا الجزء المهم في الدولة العربية الإسلامية وأوضاع اليهود فيه.

ثانيا- البيزنطية : ثيوفانس: مؤرّخ بيزنطي **(ت٢٠٣هـ/٨١٨م)** تكمن أهميته ضمن التاريخ الإسلامي في أنّ حوليته تكشف عن اطّلاع واسع على تاريخ بلاد الشام، وفي اعتماده على مصادر سالفة ضاع معظمها، كتبه مؤلفه بطريقة

الحوليات، وبدأ به منذ ما قبل الرسولﷺ وتتبع أهمية هذا المصدر غير المعرب أيضاً لما يظهره من وقائع وأحداث لم تذكرها المصادر العربية الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي، ولاسيّما ما يتعلق ببلاد الشام، والعناصر السكانية الموجودة فيه، والمعاهدات التي عقدت بين الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية.

ثالثاً- الأرمنية: سيبيوس الأرمني: كان أسقفاً، ألّف كتاباً تحدث فيه عن تاريخ هرقل، وأرّخ فيه لأحداث القرن الأول الهجري السابع الميلادي، ومنها مرحلة الفتوح الإسلامية التي عاصرها، فقدّم معلومات خدمت البحث في هذا المجال، إذ رأى أن الفتح الإسلامي إنما هو عقوبة تحل بالأرض بسبب آثام الناس.

رابعاً-المراجع العربية:

تأتي المراجع العربية لتوضح وجهات نظر متعددة في الأحداث، وهي رافد أساسي للمصادر لا يمكن الاستغناء عنها، ومن أهمها:

١-**الأفغاني** (سعيد): (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام)، يعد من أشهر المراجع التي تناولت مجمل أسواق العرب، وهو موسوعة ضخمة أمدت البحث بمعلومات في غاية الأهمية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية عموماً والأحوال الثقافية خصوصاً، وهي التي عاشها إقليم الحجاز قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره وانتشاره، كما أظهرت كيف تطوَرت هذه الأسواق العربية.

٢-**أكرم:** (أ) كتابه (سيف الله خالد بن الوليد)، تحدث فيه عن خالد بن الوليد منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم وموقفه في أثناء غزواته وفتح الشام، فأغنى البحث بما قدمه من معلومات.

٣- **الأنصاري:** (عبد الرحمن الطيب)، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، من أهم مراجع البحث، إذ ساهم مساهمة كبيرة في المادة العلمية، وتأتي مكانة هذا المرجع المتميزة من حيث اهتمامه بالجوانب السياسية المتعلقة بالنشاط الاقتصادي، لاسيما في حقبة ما قبل الإسلام وبعده أيضاً.

٤- **بيضون:** (إبراهيم)، (تاريخ بلاد الشام)، من المؤلفات الحديثة التي توسع فيها عند ذكر الأحوال السياسية، والمعلومات المتعلقة بالنواحي الاقتصادية، وبذلك رفدت البحث في بعض جوانبه بمعلومات تعد غزيرة في وجودها.

إضافة إلى كتب أخرى لبيضون تم الاستفادة من معلوماتها منها كتابه (من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول)، وكذلك كتابه (الحجاز والدولة الإسلامية).

٥- **حركات:** (إبراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر النبوي،،مرجع مهم، ضم بين صفحاته معلومات مهمة عن أحوال المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره، أيضاً تناول معلومات مهمة عن أهم المعارك والغزوات التي خاضها العرب المسلمون مع غيرهم من القبائل والأمم.

٦-**الخربوطلي**:(علي حسني) كتابه الدولة العربية الإسلامية، اقتصر على دراسة الحياة السياسية والدينية، إذ لم يجعل الخلفاء محوراً لدراسته، بل قسّمه إلى موضوعات حافظ من خلالها على وحدة الحركات والأحداث السياسية وتكاملها.

٧- **دسوقي:** (محمد عزب)،(القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي)،جاءت أهمية هذا المرجع بما تضمنه من معلومات غزيرة جداً عن جوانب من الحياة الاقتصادية والسياسية التي عاشتها

الجزيرة العربية، ومن ثَمَ أهم العلاقات التي قامت بين قبائل الشام وإقليم الحجاز قبل ظهور الإسلام وبعده في العصر النبوي، وقد ألقت معلوماته الضوء على نشأة الدولة الإسلامية الأولى، وتوضيح الغزوات والسرايا في تطور هذه العلاقة الشامية – الحجازية.

٨- **زكار:** (سهيل)، كتابه (اليرموك والفتح العمري الإسلامي للقدس)، وكان هذا الكتاب في البداية مجرد ترجمة لكتاب صدر بالإنكليزية من تأليف داود نيقولا، الذي لم يتحدث فيه بما فيه الكفاية عن فتح دمشق، وأهمل بعض إجراءات العرب للتحضر لهذا الفتح، لاسيما في عزل المناطق الساحلية حتى لاتصل الإمدادات البيزنطية عبرها، كما أشار إشارة عابرة إلى فتح القدس، لذلك جاء هذا الكتاب في قسمين، الأول لترجمة المُؤلَف الإنكليزي، أما القسم الثاني تدارك فيه الدكتور سهيل زكار ذلك النقص وتحدث عن كل ما يتعلق بهذه الفتوح لتلك المنطقة في تلك الحقبة، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات غزيرة شكلت الأساس لكثير من المسائل التي تناولها البحث.

٩-**سالم:** (عبد الرحمن أحمد)، (المسلمون والروم في عصر النبوة)، من أهم المراجع التي كان لها أثر كبير في بناء البحث فقد رفدته بمعلومات مستفيضة، من حيث احتواء المرجع على معلومات أساسية عن النشاط الاقتصادي والسياسي الذي قام بين الإمبراطورية البيزنطية وبين إقليم الحجاز قبل ظهور الإسلام، وكيف تطورت هذه العلاقة بعد سطوع نجم الدولة الإسلامية الأولى.

لذلك كانت معلوماته متنوعة الجوانب، إذ انفرد بمعلومات قلما نجدها في مرجع آخر إضافة إلى ما يورده من أحداث وتحليلات دقيقة للأوضاع الاقتصادية والسياسية التي شهدتها جزيرة العرب، وخاصة إقليم الحجاز.

١٠- **سحاب:** (فكتور)، (إيلاف قريش)، من المراجع المهمة التي قدمت معلومات قيمة ساعدت في بناء هيكل البحث، لا سيما المعلومات المتعلقة بالجوانب الاقتصادية والسياسية، إذ إن معلوماته جاءت مترابطة مع بعضها، وهو مرجع متعدد الاتجاهات ردفت معلوماته صفحات البحث بمعلومات عن أسواق العرب، وكذلك الأحوال السياسية والاجتماعية خاصة في القرن السادس الميلادي.

١١- **سعيد:** (أمين)، كتابه (حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية)، أفاد البحث في حديثه الذي غطى الحقبة الزمنية الممتدة بين(٥-٣٣هـ/٦٢٦م-٦٥٤م) إذ بدأ بالغزوات النبوية على مناطق الحدود الحجازية الشامية،ثم انتقل إلى الحديث عن المعارك التي حدثت في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر و عمر وعثمان رضوان الله عليهم.

١٢-**الشجاع:** (عبد الرحمن)، كتابه (دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة)، وتألف من ثلاثة أبواب، والباب الثالث تحدث فيه عن الخلافة الراشدة وعالمية الإسلام، وتضمن الحديث عن الفتوح الإسلامية في جبهات مختلفة ومن ضمنها جبهة بلاد الشام.

١٣- **الشريف:** (أحمد إبراهيم)،(دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة)، وهو من المراجع القيمة التي أسهمت في توفير المادة العلمية الخاصة بالبحث، وقد تميز بسعة الاطلاع، وقدم معلومات مفصلة جغرافية واقتصادية وسياسية وعسكرية.

١٤- **شكري:** (فيصل)، كتابه حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، أفاد البحث بما ذكره من معلومات حول فتح الشام، إذ أطلق على حركة الفتح في عهودها الأولى اسم حركة التحرير الإسلامي، وقد استخدم الكاتب في

أغلب الأحيان عبارات المؤرخين أنفسهم، وضم في كل فصل مصوراً لمنطقة الفتح. لذلك كان هذا المرجع ينبوعاً مهماً فيما يخص الدراسات الإسلامية.

١٥- **صالح:** (قاسم محمد)، كتابه (العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، اليرموك والقادسية)، أفاد البحث بما قدمه من معلومات عن المبادئ العامة العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، وعن الإستراتيجية التي اعتمدها الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وبما استعرضه من خطط عسكرية ميدانية كان قد رسمها قادة الفتح الأوائل، وأوضح سير العمليات العسكرية بمنهجية تاريخية سليمة وبخرائط دقيقة.

١٦- **الصعيدي:** (عبد المتعال)، كتابه (السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين)، وشكل جزءاً مكملاً لكتاب آخر له حمل عنوان السياسة الإسلامية في عهد النبوة، وتضمن هذا الكتاب أحداثاً مهمةً ارتبطت بتحرير جبهة بلاد الشام من الروم البيزنطيين.

١٧- **عباس:** (إحسان)، كتابه (تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي)، قدّم معلومات مهمة للبحث عن فتوح الشام، وأهم التنظيمات التي أقيمت في بلاد الشام بعد فتحها، عدت تلخيصاً لأبحاث مؤتمرات تاريخ بلاد الشام التي كانت تقام بين جامعة دمشق، والجامعة الأردنية بعمان.

١٨- **العقاد:** (عباس محمود)، كتابه (العبقريات الإسلامية)، ضم مواضيع عدة، منها ما تحدث فيه عن البعثة النبوية ونشأتها، ومنها ما تحدث عن عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم، إذ بين فيه البواعث النفسية التي توحي إلى النبي أعماله ومعاملاته، ومنها ما تحدث عن عبقرية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد رضوان الله عليهم جميعاً.

١٩-**فتحي: (عثمان)**، كتابه (الحدود الإسلاميّة بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري)، جاء كتابه في ثلاثة أجزاء، تناول فيها الأجناد الشاميَة تاريخياً وجغرافياً وحضارياً منذ العصر البيزنطي، متبعاً في ذلك المنهج المقارن، وتكلم على نظام الثيما البيزنطي، ولكن الذي يُؤخذ على هذه الدراسة عدم التعمق في التفاصيل، ولاسيّما فيما يتعلق بساحل بلاد الشام.

٢٠- **غوانمة: (يوسف)**، كتابه **(معركة اليرموك)**، أفاد البحث بما تحدث فيه عن معركة اليرموك وسيرها وطبوغرافية المنطقة، وإعداد الجند، وتحديد المواقع والتاريخ وأحداث المعركة بأيامها الستة ونتائجها.

٢١- **نجدت: (خماش)**، كتاب (الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية، دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية)، تناولت فيها الباحثة العناصر السكّانية في بلاد الشام قبل الفتح وبعده، والنواحي الإداريّة منذ الفتح حتى نهاية العصر الأمويّ، تعد هذه الدراسة دراسة عامة عن التنظيم الإداري الحربي الذي كان سائداً في بلاد الشام بوجه عام منذ عصر الرسول(ﷺ)، حتى نهاية العصر الأموي؛ أيّ أنّها لم تتفرد بالتحدّث عن مدن نظام الأجناد الساحلية الذي كان سائداً في بلاد الشام في العصرين الراشدي والأموي من الناحية الإداريّة-الحربية، والتغيرات التي طرأت عليها بنوع من التفصيل، كما جرت في هذه الدراسة المفصلة عن مدن أجناد الساحل الشامي.

٢٢- المباركفوري: (صفي الدين)، كتابه (الرحيق المختوم)، خدم البحث فيما احتواه من حديث عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأسرته، وأدوار الدعوة وما جرى من أحداث خلالها، ومن ثم هجرته، وأهم سراياه وبعوثه وغزواته كاملة.

الفصل الثاني: أوضاع شبه الجزيرة العربية

الوضع الجغرافي

الوضع السياسي

الوضع الاجتماعي

الوضع الديني

الصراع الدولي على شبه الجزيرة العربية وحولها



الوضع الجغرافي:

أ – البيئة الطبيعية :

تعدَ البيئة الطبيعية من الأسس المهمة في تكوين كل أمة من الأمم، فهي تؤثر في طباع السكان ونشاطهم وتكوين أجسامهم وتوجيه فعالياتهم، ونقصد بالبيئة الطبيعية الظروف الجغرافية والجيولوجية والمناخية، وفيما يتعلق بشبه الجزيرة العربية، هي تختلف من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها، فبعضها تغطيه كثبان رملية، وبعضها تكسوه الصخور، وبعضها منخفض، وبعضها مرتفع، كسلسلة جبال السراة[١]، التي تمتد على طول البحر الأحمر في الجهة الغربية من الجزيرة العربية، وكسلسلتي جبال أجأ وسلمى جبلي طيء[٢] الممتدة وسط الجزيرة العربية، إضافة إلى وجود الحرات[٣]، والدهناء[٤]، والنفوذ[٥].

تحسن الإشارة إلى أنه يجب التمييز بين مفهومين جغرافيين اختلف الجغرافيون الأوائل عليهما، وهما هل نسمي الجزيرة العربية جزيرة أم شبه جزيرة؟ ولماذا تسمى جزيرة، ولماذا تسمى شبه جزيرة ؟ ومالفرق بين الاصطلاحين؟

١– السراة : أعلى كل شيء، وإنما سُمي سراة لعلوه، الحموي : (ياقوت) معجم البلدان ـ دار الضياء، التراث العربي بيروت ١٩٧٩ م مادة سراة.

٢– الحموي : المصدر نفسه، مادة أجأ وسلمى.

٣– الحموي : المصدر نفسه، مادة حرة، وينظر حتي : تاريخ العرب ص ٤٣.

٤– الحموي : معجم البلدان، مادة القاف ودهنا، وينظر حتي : تاريخ العرب ص٤٢.

٥– حتي: المرجع المتقدم ص ٤٢–٤٣

لقد اختلفت التسمية بسبب الحدود الشمالية التي تضم بلاد الشام والعراق، على أساس أن مجرى الفرات الأسفل هو حدها الشمالي الشرقي، وشواطئ فلسطين على البحر المتوسط حدها الشمالي الغربي، إذ يقول الهمداني: " وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها(أطرافها)، فصار منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق[١] حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأُبلة، وامتداد البحر من ذلك الموضع مغرباً مطيفاً، منعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان، وكاظمة، ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعُمان والشحر، ومال عنه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار، وساحل المدينة وساحل الطور وخليج إيلة، حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها، وأقبل النيل من غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور وساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص، وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين، والجزيرة إلى سواد العراق"[٢]، يتضح من ذلك أن الهمداني عدَ نهر الفرات والبحر المتوسط الحد الشمالي لجزيرة

١- سواد العراق. رستاق أي مخلاف وسمي بذلك لشدة خضرته بالأشجار والغلال. الهمداني : (أبو محمد الحسن ابن أحمد بن يعقوب)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ــ دار اليمامة ــ الرياض ص ٥٧.

٢- الهمداني : المصدر نفسه ص (٥٧-٥٨).

العرب، وجاراه في ذلك الكثيرون من جغرافيي العرب القدامى كالاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت الحموي وغيرهم.

مما سلف يمكن القول إن هناك فرقاً بين السبب الذي سُميت من أجله شبه جزيرة العرب بالجزيرة والحد الجغرافي الحقيقي لها، ولأنه لا يوجد فروق تضاريسية واضحة من جهة الشمال، فقد تعسر على الجغرافيين العرب تحديد حدودها اعتماداً على مظاهر السطح.

وعلى ذلك فإن شبه الجزيرة العربية، وإن كانت تحيط بها البحار من ثلاث جهات فقط، وهي الشرق والغرب والجنوب، فإن نهر الفرات يحدها من الشمال الشرقي إلى الشمال منعطفاً عليها إلى مسافة قريبة من البحر المتوسط عند جند قنسرين حتى يصب في الخليج العربي عند الأُبلة، أي يُعدّ حداً طبيعياً شمالياً لها مما يمكن تسميتها بالجزيرة.

وبناء على ذلك فإن العرب يدخلون في جزيرتهم بلاد الشام، أي سورية الطبيعية كما يتضح ذلك من تفسير ابن الكلبي عند ياقوت الحموي[١] وغيره[٢].

ولا يشك المستشرق السوفياتي بليابيف في أن بادية الشام كانت في عصر ما قبل الإسلام جزءاً من الجزيرة العربية، وأن الحدود السياسية بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانت مرسومة على نحو يبقي بادية الشام في حوزة سكانها الأصليين[٣]، مع

١- الحموي : معجم البلدان، مادة جزيرة العرب.

٢- القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الإنشا. وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة ج٥ ص ٥.

٣- بليابيف:(ي. ام). العرب والخلافة العربية في القرون الوسطى، ترجمة أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٣ م ص ٥٣

العلم أن العرب فرقوا في تقسيمهم لجزيرة العرب بين الأقسام الإدارية والنواحي المتصلة بها، وبين الأقاليم المورفولوجية[١] القائمة على أساس طبيعي.

فالأقسام الطبيعية لجزيرة العرب عند جغرافيي اليونان والرومان تختلف عنها لدى غيرهم، فقد قسمها الأولون انطلاقاً من الوضع السياسي في القرن الأول للميلاد إلى أقسام ثلاثة :

١-بلاد العرب السعيدة اليمن.

٢-القسم الصخري في الشمال، جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

٣-القسم الصحراوي حيث القبائل الغالبة عليها حياة البداوة.

أما جغرافيو العرب فقد قسموها إلى خمسة أقسام كبرى هي: الحجاز، وتهامة، واليمن، وعروض، ونجد[٢]، وزاد ابن حوقل بادية العراق والجزيرة بين دجلة والفرات، وبادية الشام[٣]

١- الحجـــاز :

ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة[٤] الممتدة من الشام إلى نجران في اليمن، سمي حجازاً لأنه يحجز بين

١- مورفولوجية : علم الهيئة أو الشكل، وكذلك البنيـــة وتطورها الذي يؤثر في الهيئة أو الشكل. توني (يوسف) معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي ١٩٦٤ ص ٥٠٥.

٢- الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٨. البكري (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز) معجم ما استعجم. تحقيق مصطفى السقا. عالم الكتب، بيروت ج١ ص ٧. وينظر أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل) تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠ م ص (٧٨-٨٠)، الحموي : معجم البلدان مادة جزيرة ومادة حجاز. القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي). قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان. حققه إبراهيم الأبياري ١٩٦٣ م ط١ ص ١٨

٣- ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٩ قارن القلقشندي : صبح الأعشى ٢٤٥/٤.

٤- الحموي : معجم البلدان مادة سراة.

الغور[١] وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر[٢] فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما أو لكثرة الحرار فيه، واحتجاز أهله من العدو فهو الفعل حجز، والحجز الفصل بين الشيئين، والحجاز الاسم[٣].

قسم البكري الحجاز إلى حجازين: الحجاز الأسود، وحجاز المدينة، ويبدو أن المقصود من هذا التقسيم هو التفريق بين جبال السراة الجنوبية أو الحجاز الجنوبي، وبين الحجاز الشمالي، ولهذا التقسيم من الوجهة الجغرافية دلالة موروفولوجية، إذ يُعدّ كل قسم منها إقليماً موروفولوجياً لـــه خصائصه المتميزة من حيث الارتفاع والمناخ والحياة النباتية .

وقد قسمه الجغرافيون المحدثون إلى قسمين: سراة عسير وهي المرتفعات الجنوبية، وسراة الحجاز وتمتد شمال المرتفعات المتقدمة إلا أنها أقل ارتفاعاً من مرتفعات عسير، فالسراة هي العمود الفقري لجزيرة العرب.

٢- تهـــامـــة :

وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن، وسميت بهذا الاسم لشدة حرها، وركود ريحها، وهي مشتقة من التهم وهو شدة الحر وركود الريح، وقيل سميت بذلك لتغير هوائها، وقيل إن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر[٤]، ولانخفاض أرض تهامة سميت بالغور"[٥] فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد

١- الغور ما تداخل وما هبط، وغور كل شيء قعره. الحموي : المصدر نفسه مادة الغور

٢- الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٨. الحموي : معجم البلدان مادة حجاز.

٣- ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب ــ دار صادر، بيروت، مادة حجز.

٤- الحموي : معجم البلدان مادة تهامة.

٥- الحموي : المصدر نفسه مادة غور. البكري : معجم ماستعجم ٧/١.

الأشعريين وعكّ وحكم وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله "[١].

وأكثر أجزاء تهامة رملي شديد الحرارة قليل الإنبات، ويقع فيه كثير من المرافئ العربية مثل جدة وينبع والجار والحديدة والمخا في بلاد اليمن، ويقع شمال هذه المنطقة ميناء صغير يعرف باسم الوجه، وهو بلدة صغيرة تشمل عدداً قليلاً من البيوت الحجرية[٢]، وجعل الهمداني عدن من مدينة تهامة الجنوبية[٣]، وهذا يعني أن إقليم تهامة عنده يبدأ من ساحل عدن، ويمتد غربي جبال الحجاز إلى بوادي الشام.

٣- نجـد :

" النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف، وجمعه نجاد، ولا يكون ذلك إلاّ قُفّاً أو صلابة من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضاً بين يديك يرد طرفك عما وراءه "[٤].

وليس بالشديد الارتفاع، وهو عدة نجود: نجد برق وهو وادٍ باليمامة، ونجد خال، ونجد عفر، ونجد كبكب، ونجد مريع.

ويمتد إقليم نجد شرقي الحجاز، أي الناحية التي بين الحجاز والعراق[٥] والحد بين الإقليمين ليس واضحاً في الكتابات العربية، فالهمداني قال: " فالعرب تسميه: نجداً وجلساً، وحجازاً، والحجاز يجمع ذلك كله "[١].

١- الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٨.

٢- عوض الله : (أحمد أبو الفضل) مكة في عصر ما قبل الإسلام. مطبوعات دار الملك عبد العزيز ١٤٠١ هـ ـــ ١٩٨١ م ص ١٨

٣- الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٧٠.

٤- الحموي : المصدر المتقدم مادة نجد.

٥- الألوسي : (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـــ صححه محمد بهجة الأثري ـــ دار الشرق العربي بيروت ١٨٧/١

وأما البكري فقد قال: " وأما نجد فما بين جرش إلى سواد الكوفة، وآخر حدوده مما يلي المغرب الحجازان: حجاز الأسود وحجاز المدينة، والحجاز الأسود، وسراة شنوءة، ومن قبل المشرق بحر فارس ما بين عُمان إلى بطيحة البصرة، ومن قبل يمين القبلة الشامي: الحزن حزن الكوفة، ومن العذيب إلى الثعلبية إلى قلة بني يربوع ابن مالك من يسار طريق المصعد إلى مكة، ومن يسار القبلة إلى اليمني ما بين عمل اليمن إلى بطيحة البصرة ونجد كلها من عمل اليمامة ".

أطلق العرب على الأجزاء الشرقية المنخفضة من نجد اسم السافلة، أما المناطق الغربية فقد أطلقوا عليها اسم العالية أو عالية نجد(٢).

٤- العروض :

وهو الشيء المعترض،والعرض الجانب(٣) وهو يشتمل اليمامة والبحرين(٤)، سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعرق، وأغلب أرض العروض صحارى، وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية على ساحل البحر، وتشتمل العروض اليوم البحرين والأحساء وقطر واليمامة.

٥- اليمن :

القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية عند جغرافيي العرب هو القسم الجنوبي منها، أي بلاد اليمن، وكان اسم اليمن يُطلق في النصوص العربية

١- الهمداني :صفة جزيرة العرب ص ٥٩.

٢- الحموي: معجم البلدان مادة نجد، وينظر الأصفهاني : (الحسن بن عبد الله) بلاد العرب ٣٨٣، غنيم، (عبد الله يوسف): أقاليم جزيرة العرب، الكويت، ١٩٨١م، ص ٥٠

٣- الحموي : معجم البلدان مادة عروض.

٤- الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٩. الحموي : معجم البلدان مادة عروض.

الجنوبية على منطقة صغيرة بالقياس إلى التقسيم العربي المتأخر إذ كانت تذكر إلى جانب مناطق سبأ وذي ريدان وحضرموت وغيرها[١].

أما اليمن عند علماء الجغرافية المسلمين فهي منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض"[٢]، واليمن ما اشتمل عليه حدودها بين عُمان والبحرين، وليست بينونة من اليمن، وقيل حد اليمن من وراء تثليث وما صاقبها من صنعاء، وما قاربها إلى حضرموت والشحر، وعُمان إلى عدن. وما يلي ذلك من التهائم والنجود، واليمن يجمع ذلك كله"[٣].

وقال الهمداني: " سُميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب، ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عُمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث، وأنهار جرش وكتنة منحدراً في السراة على شعف عنــز إلى تهامة، على أم جحدم إلى البحر، حذاء جبل يُقال له كدمل بالقرب من حمضة، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن في بطن تهامة"[٤].

فاليمن من اليُمن والخير والبركة، وهي حضرموت وعُمان وما بينهما، وفيه التهائم والنجد[٥].

١- عوض الله : مكة ص ٢٦. عاقل : تاريخ العرب القديم ص ٩٤.

٢- عوض الله : مكة ص ٢٦.

٣- الحموي : معجم البلدان مادة يمن.

٤- الهمداني : صفة ص ٦٥. الحموي: معجم البلدان مادة يمن.

٥- البكري : معجم ماستعجم ٩/١. وينظر الخضري، (محمد بك):محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، مصر، المكتبة التجاري، ط٣. ١١/١

واليمن من " قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه، نظراً لأن الكعبة مربعة فلا يمين ولا يسار فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين "[١].

فاليمن من اليمين مقابل الشمال (الشام) وذكرها القرآن الكريم، وأشار إلى ما كانت عليه من حضارة وعمران بقوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ }[٢].

من المفيد القول أنَ أن للجزيرة العربية التي تقع بين آسية وأفريقية مجموعة من سمات الاتساع والتميز، والخصائص التي تجعلها جديرة بأن تكون قارة وحدها، ومع كونها جزءاً من آسية لكنها تتصل بأفريقيا بوساطة صحراء سيناء، وفي الماضي، وقبل أن يشق البحر الأحمر مجراه فيعزل آسية عن أفريقيا كان القسم الغربي من جزيرة العرب جزءاً من الأرض الأفريقية، وحتى اليوم نلاحظ أن النصف الجنوبي من القسم الغربي من الجزيرة يشترك في كثير من الصفات مع مقاطعات أفريقيا الشرقية كالصومال والحبشة، وهو أقرب إلى هذه الأصقاع الأفريقية منه إلى القسم الشمالي من الجزيرة أو بقية أصقاع آسية في كثير من الخصائص، ونرى من جهة أخرى أن القسم الشمالي من الجزيرة يتشابه إلى حد كبير مع الأقسام الغربية في آسية.

تبلغ مساحة الجزيرة العربية نحو ثلاثة ملايين كيلو متر مربع تقريباً، وهي هضبة متوسطة الارتفاع تسيطر عليها الصحارى باستثناء اليمن وعُمان وهي:

١- الحموي : معجم البلدان مادة يمن.

٢- سورة سبأ : الآية (١٥-١٦).

الربع الخالي: ويطلق عليه اسم الصحراء العربية الكبرى، سمي طرفها الغربي بصهيد، والشرقي وبار والشمالي يبرين.

الدهناء أو النفوذ الصغرى: وتعني الفلاة كثيرة الكلأ ليس في بلاد العرب مَرْبع مثلها، وإذا أخصبت ربعت العرب جمعاء[١] ففيها ينمو العشب كما تنمو الشجيرات القصيرة على متون التلال الرملية وهذا ما يجعلها مرعى سائغاً لدى البدو القاطنين هناك[٢]، ومن الطبيعي أن تحتوي الدهناء على مناطق لا تصلح لرعي الماشية بسبب انعدام الماء[٣].

صحراء النفوذ الكبرى: وكانت تعرف قديماً باسم عالج[٤]، تكسو وجهها شجيرات، وأحياناً أشجار، فإذا سقط المطر تحول أديم الأرض إلى مراعٍ خضر تسرح فيها الإبل والأغنام، وكانت تنزل في هذه الصحراء قبائل تميم وضبة.



١- ابن منظور : لسان العرب مادة دهن.

٢- بليابييف : العرب والإسلام ص ٧٥.

٣- بليابييف : المرجع نفسه ص ٧١.

٤- ثعلب : (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني) الصبح المنير في شعر أبي بصير – مطبعة أدولف هلزهوسن فيينا ١٩٢٧ م ص ٣١٧.

ب ــ المنـــاخ :

يختلف المناخ في شبه الجزيرة العربية باختلاف الأقسام الجغرافية، ولما كان معظم أراضيها بادية فالغالب عليها الجفاف، وعدم انتظام مواسم الأمطار مع عدم الاحتفاظ بمياه الأمطار في مجاري منظمة ودائمة. وشدة الحرارة بوجه عام، ومع إحاطة البحار بها من ثلاث جهات فإن الجو البحري لم يخفف من حدة الحرارة فيها، أو يتغلب على جفافها، فالأبخرة المتصاعدة من البحر لا تكاد تصل إلى أواسطها، إذ إن رياح السمائم شديدة الحر تقاومها مقاومة شديدة وتمنعها في الغالب من الوصول إلى أواسط شبه الجزيرة العربية(١).

والحرارة عرضة للتقلبات، ليس بين الصيف والشتاء، بل فقط في اليوم الواحد بين النهار والليل، وكان الرحالة الغربيون يتذمرون من برد الليل أكثر مما كانوا يشكون من حر النهار(٢).

وفي الشتاء تنخفض درجة الحرارة، ويتساقط الثلج، ويتجمد الماء في جبل غزوان الذي تقع عليه مدينة الطائف وصنعاء في اليمن(٣).

ولعل برد الليل في شهري كانون الأول وكانون الثاني ظاهرة طبيعية يشكو منها الرعاة إذا افتقروا إلى الوقود ليلاً، إذ تنخفض الحرارة إلى ثماني درجات، وتبقى على هذا المستوى أسبوعاً كاملاً(٤).

وتهب على الجزيرة العربية أنواع مختلفة من الرياح، عامة وموسمية ومحلية باردة، وحارة ممطرة وجافة وقد نسب العرب أمهات الرياح إلى الجهات الأربع، وأَحَبُ الرياح للعربي في الجزيرة العربية رياح تهب من

١- حتي : تاريخ العرب ص ٤٣. شريف : مكة والمدينة ص ٩.

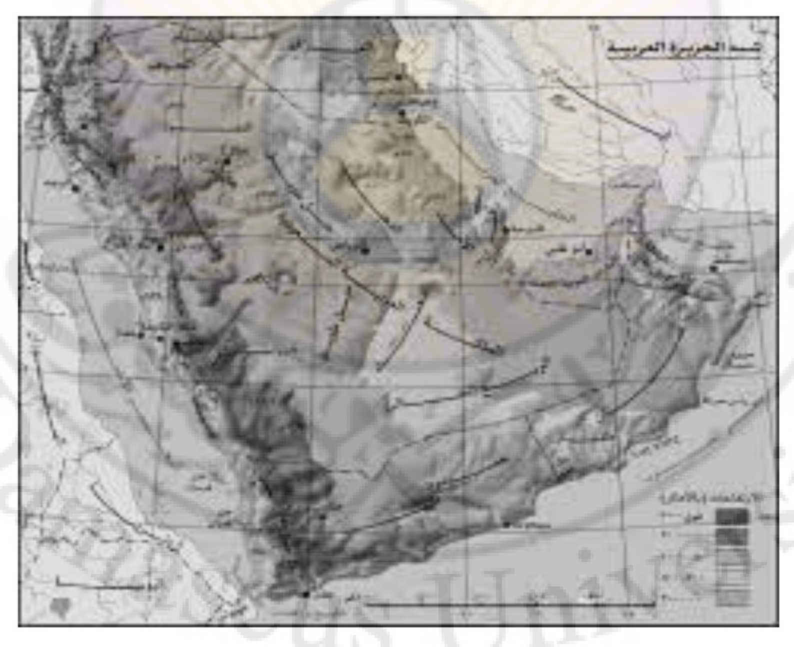
٢- بليايبيف : العرب والإسلام ص (٧٦-٧٧).

٣- الحموي : معجم البلدان مادة الطائف. أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٩٥.

٤- ابن سيدة : المخصص ١٥٩/٩.

المشرق ويدعونها الصَبا لرقتها، ويُقال لها القبول[١]، وهي ريح طيبة مقبولة، والنفس تصبو إليها، وأكثر هبوبها على إقليم نجد، وأحبها العرب لأنها تجيء بالسحاب والمطر، وفيها الري والخصب، وأكره الريح هناك رياح السّموم فهي اللهب الذي تنفثه الصحراء العربية، ما إن تهب حتى تجف مصادر المياه وتيبس القرب التي يجمع فيها البدوي ماء شربه، وهي حارة وباردة[٢].

وللرياح باستثناء ريح السّموم التي تؤذي الإنسان والحيوان والنبات، أهمية كبيرة، إذ ترتبط حياة سكان البوادي العربية بالمطر ارتباطاً وثيقاً، لذلك سموه غيثاً وقد يُحبس الماء سنوات فيضطر السكان إلى الارتحال، ويصفون هذه السنوات الجافة بالرمادية أو السنوات الشيب، لأن لون سطح السهوب يتحول إلى لون رمادي أو أشيب.



١- ابن سيدة : المصدر نفسه ١٥٩/٩.

٢- الحموي : معجم البلدان مادة وادي.

ج ـ الميـــاه :

تُعدّ شبه الجزيرة العربية من البلاد الفقيرة بالمياه لغلبة الجفاف عليها، فلا نستطيع أن نجد فيها نهراً واحداً دائم الجريان يصب ماؤه في البحر، وليس في أنهارها الصغيرة ما يصلح للملاحة، وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الأمطار، فالوادي في أكثر الأحيان كل مفرج بين جبال وآكام وتلال ويكون مسلكاً للسيل أو منفذاً.

ففي الحجاز وادٍ عظيم تغزره أودية كثيرة يسمى الحمض[١]، يرفده وادي القرى شمال المدينة، وكان يمر به طريق القوافل القديم، وقد أصبح قبيل الإسلام يعج بالقرى ويزخر بالواحات[٢]، ووادي العقيق في جنوب المدينة الذي يُعدّ أعظم أودية الحجاز، وهي مجموعة أعقة ـ أودية شقتها السيول، أحدها العقيق الأصغر وفيه بئر رومة، والآخر العقيق الأكبر وفيه بئر عروة[٣].

ووادي الرمة أعظم وديان الجزيرة العربية يتكون في التقاء بضعة شعاب ومسيلات يمتد من فدك إلى القصيم في الشرق[٤] غني بالمياه الجوفية التي تظهر أحياناً على شكل عيون ماء[٥].

١-الهمداني : صفة ص ٣٢٠.

٢- الحموي : معجم البلدان مادة قرى، علي : المرجع المتقدم ١٦٨/١-١٦٩.

٣- الفيروز آبادي : (مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب) المغانم المطابة في معالم طابة. تحقيق حمد الجاسر ١٩٦٩ م ص ٢٦٦. وينظر : الحموي : معجم البلدان مادة عقيق.

٤- الحموي : المصدر نفسه مادة رمة. وينظر: شريف : مكة والمدينة ص ١٥. وينظر بيضون : (إبراهيم) الحجاز والدولة الإسلامية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت لبنان ١٩٨٣ ط١، ص (٣٣-٣٤)

٥- بليابيف : العرب والإسلام ص ٦٤.

وفي اليمن أودية كثيرة أقيمت على بعضها السدود لتخزين مياه الأمطار والاستفادة منها لري الحقول والبساتين على مدار السنة مثل وادي زبيد[١]، ووادي مور[٢] وغيرهما.

وتتلقى وديان حضرموت مياهها من جبال اليمن وحضرموت، وأشهرها الوادي الكبير، أو وادي حضرموت، ويُعدّ أطول وادٍ في الجزيرة العربية بعد وادي الرمة.

ويخترق سطح نجد واليمامة أودية، أشهرها وادي العرض، أو وادي اليمامة الذي ينصب من مهب الشمال، ويفرغ في مهب الجنوب[٣]، وقد كان هذا الوادي غنياً بالمزروعات قُبيل الإسلام.

من كل ذلك نرى أن الجزيرة العربية من البلدان الفقيرة بالمياه، ولكن على الرغم من فقرها بالمياه يذكر أحد الشعراء أن عدد السدود في منطقة يريم في اليمن وحدها يصل إلى ثمانين، وفي أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً.

د ــ النبـــات والحيوان :

لم يترك المناخ أثره في حياة الإنسان فقط، بل أثر في حياة الحيوان والنبات، فاختلفت النباتات باختلاف التضاريس والتربة وكمية الأمطار، لذا فهي تتركز في الغابات والأحراج وسفوح جبال السراة وحضرموت، وظفار، ووديان الجبل الأخضر في عُمان، وتتقلص كلما اتجهنا باتجاه الصحارى، ولقد نبتت الأشجار التي تعطي اللبان، والمر، والصمغ، والبخور في اليمن، كما زرعت الحبوب، والكروم والعنب، والرمان، والتفاح، والمشمش، واللوز،

١- الهمداني : صفة ص ١٢٠.

٢- الهمداني : المصدر نفسه ص (١٢٣-٢٥٨-٢٥٩).

٣- الحموي : معجم البلدان مادة عرض.

والبطيخ في الحجاز، والواحات، أما شجرة النخيل الشهيرة فقد زرعت في معظم المناطق، وكانت غذاءً أساسياً للسكان الذين استفادوا من خشبها وسعفها أيضاً، ويبدو أن أصل هذه الشجرة من جنوبي بلاد الرافدين، وأدخلت من هناك إلى الجزيرة العربية، ونظراً لأهميتها الاقتصادية نظر إليها السكان نظرة قدسية، ووضعوا الأناشيد والترانيم في مدحها.

وتنمو في الصحراء أنواع من الأشجار والشجيرات والنباتات البرية كالسدر، والشوحط، والتين البري والغضال، والطلح، والصمغ، والأقحوان، والخزامى، والأثل، والحلفاء، والحنظل، والشيح، والأراك الذي تُتخذ منه المساويك، وتحبه الإبل، والأس، والعرعر... الخ، أما شجرة البن التي اشتهرت فيها اليمن في العصور اللاحقة، فقد أدخلت إليها من الحبشة في القرن الرابع الميلادي.

وقد أفاد العرب من هذه الأشجار في إقامة هياكل الخيام، وصنع السهام، والرماح، وأدوات الزراعة ووسائل الري والأدوات المنْزلية كالقصاع، والجفان، والآنية، والأقداح، والمكاييل، وصناعة السفن والحبال، والحصر، والغرابيل، وشباك السمك، وتلوين الأقمشة، والخضاب.

واستفادوا من زيتها كوقود للمصابيح والتدفئة، كما استفادوا منها كغذاء للحيوانات.

وتقديراً لأهمية الأشجار وفوائدها اتخذت بعض القبائل من الشجرة معبوداً لها، كذات أنواط، والعزى وذي غابة.

أما الحيوانات فأهمها وأشهرها الجمل الذي استخدم لحمل الأثقال، وقطع المسافات الطويلة بسبب مقدرته الفائقة على تحمل العطش لأيام طويلة في

الجو الحار، لذلك سمي سفينة الصحراء، وكان معروفاً في الشرق القديم منذ الألف الثانية قبل الميلاد.

وعرف العربي القديم الخيول، ولكن في زمن متأخر، وكانت معروفته نتيجة لاحتكاكه مع سكان العراق والشام، وجاء استخدامه أساساً للتفاخر والتباهي، غير أن العناية الشديدة به أدت إلى توليد السلالات في الجزيرة العربية وأعرقها ما كان في نجد.

وعرفت الجزيرة العربية حيوانات مدجنة كالحمير، والأغنام، والماعز، والأبقار، ومن الحيوانات البرية حُمر الوحش، والغزلان، والأسود، والفهود، والنمور، والذئاب، والثعالب، والأرانب، والنعام وغيرها[١].

الوضع السياسي:

كانت شبه الجزيرة العربيّة مُقسّمة بين حكم الممالك، وحكم القبائل، فكان فيها ملكٌ في اليمن، وملك في الحيرة، وملك في الشام، وإمارةٌ في الحجاز، وكان حكم العرب منقسماً حسب توزيع القبائل في شبه جزيرة العرب.

فمن عاشوا في منطقة قريبة من الحيرة كانوا يتبعون لملك العرب بالحيرة، والذين عاشوا في منطقة قريبة من بلاد الشام فقد كانوا يتبعون للغساسنة، وأمّا من توزّع في البوادي داخل شبه الجزيرة فقد كان حُكمُه حراً على أكثر من قبيلة.

كانت الأوضاع السياسية لدى الممالك في شبه الجزيرة متضعضعةً وفي تدنٍ، خاصة أنّ الحياة كانت مُنقسمة بين أسيادٍ وعبيد، فللأسياد الراحة والعز والجاه، وللعبيد العمل والظلم، ولم يكن باستطاعتهم أن يُبدوا الشكوى، لأن الحكم كان مُستبداً، وكانت حقوقهم مهدورة.

١- مرعي : الجزيرة العربية القديم ص٨-٩.

كانت أحوال القبائل داخل شبه الجزيرة متذبذبة، فتارةً يميلون لأهل العراق، وتارةً أخرى يميلون لأهل الشام، وكانوا متفرقين، وغير متّحدين ومتفقين على كلمةٍ واحدة، بل كانت تنشأ بينهم الخلافات والنزاعات.

وأكثر المناطق استقراراً هي الحجاز، حيث كان جميع العرب يَنظرون إليها نظرةَ احترام، ويعدَونها مركزاً لدينهم، خاصة أنها كانت تُشرف على من يَفِدُ إلى بيت الله الحرام، فقد كانت تُنفّذ شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكنّها مع ذلك كانت ضعيفة لا تستطيع حمل العبء وحدها.

والمفيد ذكره أن شبه الجزيرة العربية انقسمت إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت القبيلة تتمسك به في نظامها السياسي والاجتماعي.

وفي كل قبيلة كان هناك سيد، أو رئيس، يصل سيدُ القبيلة إلى منزلة المَلك، وجميع أفراد القبيلة يتبعون رأيه في جميع الأحوال، فإن غَضِب غضبت له السيوف، وقامت من أجله الحروب، ولأن أبناء العمومة في القبيلة ذاتها كانوا يتنافسون على سيادة القبيلة، فقد كان سيد القبيلة يُكرم الضيف، ويُظهر الشجاعة، ويُدافع عن الآخرين حتى ينال المجد، والفخر أمام الناس، وأمام قبيلته، ويَبقى مترئساً؛ فيحصل على العديد من الامتيازات، حتى إن

رؤوساء القبائل كانوا يأخذون حوالي ربع الغنائم وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله[1]:

لك المرباع فينا، والصفايا وحكمك، والنشيطة، والفضول

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسؤوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

وكان شاعرهم يقول[2]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة[3]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، أحلاف مكة بين عشائر قريش وهي: حلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم...الخ.

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، ومن أشهر هذه الحروب التي عرفت باسم الأيام، حرب الفجار، وكانت -عدا هذه الحروب الكبرى- تقع

---

١ - الأصمعي: (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك)، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف ص ٢٨. وينظر: حسن: (حسين الحاج)، حضارة العرب في عصر الجاهلية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٠٥ هــ ــ ١٩٨٤ م ط١ ص ٧٣. رفاعي: (أنور)، الإسلام في حضارته ونظمه ١٩٧٣م. ص ٢٣.

٢ -ابن أنيف: (قريط)، ديوانه،ص٥.

٣ -ابن الصمة: (دريد)، ديوانه، تحقيق عمر عبد رسول، بيروت، دار المعارف، ص٢٠.

إغارات فردية بين القبائل، تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَ عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس.

الوضع الاقتصادي:

يغلب على الجزيرة العربية الصحارى الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة، باستثناء أطرافها، ولاسيما في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة وكان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تنتقل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيماً في مكة.

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين أفريقيا وشرق آسيا، جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزاً متقدماً في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة، فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكانت لهم –بحكم كونهم أهل الحرم– منزلة في نفوس العرب فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: {أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ}[١]

---

١ –سورة العنكبوت : الآية ٦٧.

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي كانوا يقومون بها طوال العام، قال تعالى: {لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}[١].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والخمرة، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وإندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يسمى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود، وكان الأشراف وغيرهم يتعاملون به، وكانت نسبة الربا تصل في بعض الأحيان إلى أكثر من مئة في المئة.

وكانت للعرب أسواق مشهورة تبدأ من بلاد الشام بدير أيوب، أو بصرى، فيما بعد، ومنها إلى دومة الجندل لتبوك – الجوف حالياً في السعودية– ومن ثم: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن

---

١ –سورة قريش: الآية ١–٤.

العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى:

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ }[1].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت الأسواق ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية.

الوضع الاجتماعي:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل بعضها ببعض والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١ – الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

---

١ –سورة البقرة: الآية ١٩٨.

٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، أو يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣- المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعضلها عن النكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوج امرأة أبيه فنزل قول الله تعالى:

{ وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً }[1].

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات.

وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابناً صغيرًا، فجاء ابنا عمه وهما عصبته فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابناً

---

١ -سورة النساء: الآية ٢٢.

صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا، فقال عليه الصلاة والسلام:" لا تحركا في الميراث شيئًا " ونزل قوله تعالى: { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا }(١).

وكان العرب يُعيّرون بالبنات، لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وكان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت، وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت فقال تعالى: { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ ساءَ مَا يَحْكُمُونَ}(٢).

وكثيرا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى لذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى:{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ }(٣).

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرم ذلك قال تعالى:

{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ }(٤).

---

١ –سورة النساء: الآية ٧.

٢ – سورة النحل: الآية ٥٨–٥٩.

٣ – سورة التكوير: الآية ٨–٩.

٤ –سورة الأنعام: الآية ١٥١.

وقال تعالى: { وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا }[1].

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب.

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف.

٤- النكاح:

تعارف العرب على أنواع النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها:أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت، ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت

---

١ –سورة الإسراء: الآية٣١.

باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل،والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن – في الأسواق–ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم».

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها كنكاح الخدن وهو في قوله تعالى: { وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ }[١] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك.

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق.

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العد، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقاً ما كن يحلمن بها.

---

١ –سورة النساء : الآية ٢٥.

٥- الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ }[١].

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ }[٢].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة، قال تعالى: { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[٣].

---

١ –سورة البقرة : الآية ٢٢٩.

٢ – سورة البقرة : الآية ٢٣٠.

٣ –سورة المجادلة : الآية ٢-٤.

٦- الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب قبل الإسلام، وهذا ما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلا يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصًا به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة.

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحساً قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج أهل المدينة قبل الإسلام، وهم أبناء عم، فالأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، وقد استمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (بُعاث)، وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة،

واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نهايته لصالح الأوس.

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربيًّا حرًا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًّا حرًّا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب على أغنامهما.

٧- الوضع الثقافي والأخلاقي:

- العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم التقليد والجمود على القديم -وإن كان باطلاً- وكان فيهم القليل ممن يكتب ويقرأ، ولكنهم مع ذلك اشتهروا بمعارف خاصة نابعة من بيئتهم التي يعيشون فيها، فكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنياً على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة، وكانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد، ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، إذ توفرت لديهم أبجدية خاصة **(الجزم)** حلت محل المسند.

-الحالة الأخلاقية:

اتسمت أخلاق بعض العرب بالسوء آنذاك، فسادت عادة شرب الخمر، ولعب الميسر، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى،

والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين» «قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أَوَتزني الحرة؟!!.

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا. لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا، وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام، ومن تلك الخصال والسمات:

١- الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة، ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة.

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، وللجمل ألف وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقَّادة، وهو دليل حضارة وآداب واسعة.

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

٢- أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخُلُق متأصلا في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال.

٣- أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش، قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف:

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئاً على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم قال عنترة:

بَكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزلِ

فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أُسْقى بكأس المنهلِ

فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقال أيضاً:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن يستغل القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

٤- عشقهم للحرية، وإباؤهم ورفضهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته' فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار، وإليك مثال على ذلك.

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: واذلاه يا لتغلب.. فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرواق، فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، منبهاً من في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلا:

بأي مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلكم فيها قطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدًا	متى كنا لأمك مقتوينا
إذا ما الملك سام الناس خسفًا	أبينا أن نقر الذل فينا

٥- الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام، ويدل على أنفتهم من الكذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه».

أما وفاؤهم فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وَلث، وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يُغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله».

والوفاء خلق متأصل في العرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة، فغلظ على من آوى محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته، قال صلى الله عليه وسلم: " لعن الله من آوى محدثاً"([55]).

ومن القصص الدالة على وفائهم «أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه» وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار. ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه

ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦- الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده.

٧- قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام، كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، فإذا تمكنوا منهم

عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال عنترة:

وأغضَ طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الخصال والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا انطلقوا من الصحارى كما تنطلق الملائكة الأطهار، ففتحوا الأرض، وملؤوها إيمانا بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرا بعد أن طفحت شراً.

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح.

الوضع الديني: الدين ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[1]، فكل دين ظهر في التاريخ كانت له جذوره التاريخية في الموطن الذي ظهر فيه،

١-علي : المفصل ٩/٦.

وجذوره المعرفية المتصلة بالواقع البشري، إذ ارتبط الدين بمستوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري، وإمكانات الفصل بين الفكر والواقع.

ومع تطور القوى المنتجة وحدوث التقسيم الاجتماعي للعمل ظهرت أشكال عديدة من الدين كالطوطمية[١]، والتوحيدية[٢]، والحنيفية[٣]، واليهودية، والمسيحية، والوثنية... الخ. وتأثرت بمؤثرات خارجية عربية وأجنبية، وذلك بحكم صلات العرب التجارية والحضارية بعضهم مع بعض أولاً ومع بقية العالم ثانياً.

فإذا حاولنا أن نبحث عن أديان العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام نجد أن القرآن[٤] هو مصدرنا في هذا الباب ففيه ذكر لما احتوته من عبادات وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل، ثم يأتي الحديث الشريف، والشعر المنسوب إلى الشعراء قبل الإسلام إذ نجد فيه إشارة إلى بعض عقائد العرب وإلى بعض الأصنام، ثم كتب التاريخ، ومؤلفات خاصة بالأصنام، وكتب الأدب والمعاجم وغيرها.

١- اعتقاد بعض القبائل بوجود صلة لهم بحيوان أو نبات يكون في نظرها مقدساً، فإذا كان حيواناً لا تقدم على قتله، أو نباتاً فلا تقطعه ولا تأكله إلا في أوقات المجاعة والشدة. خان: (محمد عبد المعين) الأساطير والخرافات عند العرب. دار الحداثة، بيروت ١٩٨١ م ط٣ ص ٢٥. وينظر: جارم: (محمد نعمان) أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٣ م ط١ ص ١٣.

٢- الإيمان بالله وحده لا شريك له. ابن منظور : المصدر المتقدم مادة وحد.

٣- من كان على دين إبراهيم. ابن منظور : المرجع نفسه مادة حنف.

٤- وردت في القرآن الكريم آيات متعددة أشارت إلى الحالة الدينية لعرب الحجاز في الفترة السابقة على ظهور الإسلام. سورة العنكبوت : الآية ٦١-٦٣. سورة لقمان : الآية ٢٥. سورة الزمر : الآية ٣٨. سورة الزخرف : الآية ٨٧. سورة يونس : الآية ١٨-٢٥. سورة فاطر : الآية ٤٢. سورة النحل : الآية ٥٣-٥٤ سورة الأنعام الآية ١٠٠. سورة النساء : الآية ٦٠.

وقد كانت عبادة الأسلاف معروفة عند العرب قبل الإسلام تمجيداً لهم أو خوفاً منهم، ويتبين من تشدد الرسول ﷺ في تسوية القبور مع الأرض، ومن حديثه : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[١]. إن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم، ويتعبدون لها على طريقة عبادة الأسلاف، ولهذا حاربها الرسول ﷺ وأمر بتسوية القبور.

وكان يقدسون الأشياء المادية كالحجارة اعتقاداً منهم بوجود قوى سحرية (الروح) تحل فيها، وهي أكثر الديانات البدائية شيوعاً في الحجاز، كان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فانتقى أحسنها، واتخذه رباً. وجعل ثلاثة أثافي لقدره. وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منْزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون إليها.

وكان بعضهم يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها، فإذا رأى حجراً أحسن شكلاً ترك الحجارة القديمة وأخذ الحجارة الجديدة، ويؤيد ذلك قول الطبري في الآية الكريمة : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}[٢] إن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ الآخر يعبده، فكان إلهه ومعبوده ما يتخذه لنفسه[٣].

وهذا يدل على ارتباط العرب بالأرض وتقديس ترابها لدرجة جعلوا منها إلههم، ولأنَ الحجر جزء من تلك التربة، ففيه شيء من روح الإله، ولهذا كان العربي الحجازي يحتمله معه في أسفاره تيمناً به وتفاؤلاً.

١- البخاري : صحيح البخاري ١٦٨/١.

٢-سورة الفرقان: الآية ٤٣. ابن الكلبي : (هشام بن محمد بن السائب). الأصنام. تحقيق أحمد زكي. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٤ ص ٣٣.

٣- الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير) جامع البيان في تأويل آي القرآن. طبعة بولاق والبابي بمصر ١٣٢٣ هــ ج١٩ ص ١٧.

وآمنوا أيضاً بالحيوان والنبات لكنَ ذلك بقي أقل انتشاراً، مع أن آثاره بقيت في أسماء بعض القبائل، وكانوا يمتنعون عن أكل الحيوان المعبود أو النبات، فإذا فعل أحدهم ذلك فإنما يكون للضرورة، كما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس، ثم أصابتهم مجاعة دفعتهم إلى مخالفة هذا التحريم فأكلوه فقال بعضهم[١]:

أكلت حنيفــة ربهــا زمــن التقحــم والمجاعة

ويمكن الاستنتاج من روايات أهل الأخبار أن بعض العرب كان يؤمن بعقائد الطوطمية حتى الحقبة التاريخية المتصلة بظهور الإسلام، ويؤيد ذلك قول الأزرقي في أنه كان" لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يُقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً "[٢].

واعتقد بعض العرب ولا سيما البدو بالجن والغول والسعلاة. ولعلنا نجد أن للبادية الموحشة أثراً كبيراً في خلق هذه التصورات التي رسمها القصاص، فهم شعب فطري عاش في صحراء رحيبة جديبة مليئة بالقيعان والأغوار والوهاد والنجاد والتلال، يقل سكانها والجائلون فيها، ويسدل الليل ستاره فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء، مما يجعل الأوهام تتسلط وتتجسم المخاوف والأحلام، فيدعي كثير من العرب، أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها وتناكحوا معها. وفي ذلك يقول الجاحظ: "إن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض وتوسطوا بلاد الحوش خافوا

١- ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٦٦/٢. ابن قتيبة : المعارف ٢٠٥.

٢- الأزرقي : أخبار مكة ١٣٠/١.

عبث الجان، والسعالي، والغيلان، والشياطين، فيقول أحدهم فيرفع صوته إنا عائذون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة"[١].

وتصور بعضهم أن الجن تتألف من عشائر وقبائل وتربط بينهما رابطة القربى وصلة الرحم، فإذا اعتدى معتدٍ على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي، لأن بينهم عصبية كعصبية القبيلة عند العرب قبل الإسلام، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود، وتعقد الأحلاف، ومن قبائلها بنو غزوان[٢]. فإن تقاتلت الجن أثار قتالها عواصف الغبار. أي أنهم فسروا حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن[٣].

وزعم بعضهم أن الجن تعرضت كثيراً للرجل المسافر وصرعته كما حدث لعلقمة ابن صفوان وحرب بن أمية[٤]، ولسذاجة هؤلاء آمنوا أن الكهان يتلقون علمهم من الجن[٥]. قال تعالى:{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ }[٦]، فكان من عبد الجن بنو مليح من خزاعة، وهم رهط طلحة الطلحات[٧].

وأطلقوا اسم الغول على كل شيء من الجن يعرض للسُّفار ويتلون في ضروب من الصور والثياب، ذكراً كان أم أنثى، وهو في اعتقادهم أنثى على

١- الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) الحيوان. دار إحياء التراث العربي ٢١٧/٦.

٢- ابن منظور : لسان العرب مادة قرر.

٣- علي : المفصل ٧١١/٦.

٤- الجاحظ : الحيوان ٢٠٦/٦-٢٠٧. المسعودي : مروج الذهب ١٤٠/٢-١٤١.

٥- المسعودي : المصدر نفسه ١٥٢/٢. علي : المفصل ٧٥٨/٦-٧٥٩.

٦- سورة الأنعام : الآية ١٠٠.

٧- ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٤. الحوت : (سليم) في طريق الميثيولوجيا عند العرب ــ دار النهار للنشر بيروت ١٩٨٣ م ط٣ ص ١١٤.

الغالب، والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن تتغوّل لتفتن السُّفار، قالوا: وإنما هذا منها على العبث أو لرغبتها أن تفزع إنساناً فتغير عقله[١].

وكان لهذه التصورات الوهمية عن الجن وغيرها، أساسها الواقعي المرتبط بمستوى تطور الوعي عند البدو من عرب الحجاز، فإن وعي الجماعة البدوية الوثنية لم يكن في مستوى من التطور يرتفع به لتصور المعاني والأفكار تصوراً مجرداً من علاقاتها المادية بالواقع المحسوس[٢]، لهذا أثرت هذه الاعتقادات في مختلف نواحي الحياة اليومية عندهم إضافة إلى أنهم آمنوا بالسحر واستخدموه على أنه جزء من الدين، لذلك اقتصر على الكهنة الذين وجهوه لمآربهم الخاصة، ولابتزاز الأموال وترويع بسطاء الناس وإرغامهم على الخنوع، وقد ارتبط الطب بالسحر عند بدو الحجاز فبقي إنسانهم عاجزاً أمام الطبيعة لأنها حالت دون معرفته للعالم إذ ألهت عن دراسة علل الظواهر الكونية الطبيعية والاجتماعية، وعرقلت بذلك تطوره الصاعد، وهكذا كانت معتقداتهم بسيطة لبساطة حياتهم الاجتماعية.

وأثر تطور القوى المنتجة في الوضع الاجتماعي لعرب الحجاز عموماً، وأدت صلاتهم المتزايدة مع العالم الخارجي إلى جعلهم أكثر وعياً وتفتحاً، أما الوثنية فقدغدت أكثر الأشكال انتشاراً، وأقواها جذوراً في المجتمع العربي الحجازي قبل الإسلام، لأنها كانت انعكاساً لأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وشروطها المادية والتاريخية، وهي على أشكال مختلفة، بعضها على صورة إنسان كود[٣]، والعزى[٤]، وسواع[١]، وبعضها على صورة حيوان

١- الجاحظ : الحيوان ٦/١٥٨-١٥٩-١٦٠.

٢- مروة : النزعات المادية ١/٢٨٩.

٣- ابن الكلبي : الأصنام ٥٦.

٤- ابن الكلبي : المصدر نفسه ص ١٨.

أو طائر، وكان الحمام من الطيور التي عبد العرب أصنامها قبل الإسلام، فأقاموا لها أصناماً في الكعبة، وقد ذُكر أن الرسول ﷺ لما فتح مكة ونزلهاوقضى طوافه " دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها "[٢].

إذن كان الحمام مقدساً في مكة قبل الإسلام، وما تزال العرب تضرب المثل في الأمن بحمام الحرم، وكانت بعض الأصنام جماداً لا صور لها كاللَات[٣].

كان لهذه الأصنام معابد وسدنة وحجاب، تحج قبائل إليها وتطوف بها وتقدم لها القرابين والنذور، والعطايا لنيل رضاها ودفع أذاها، فلكل قبيلة آلهتها الخاصة بها، وقد تشترك في بعض الأحيان طائفة من القبائل في عبادة إله معين أو تعظيمه كاشتراك قريش وبني كنانة، وخزاعة وجميع مضر في تعظيم العزى، التي كان سدنتها بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم[٤]. واشتركت الأوس والخزرج وقريش وهذيل وخزاعة في عبادة مناة، واشتركت ثقيف وقريش وجميع العرب في تعظيم اللات[٥].

وحضت هذه العبادات المشتركة قريشاً على جمع أصنام العرب وضمَها إلى الكعبة، فعظمت جميع القبائل هذا الجمع من الأصنام، وحجت إليه سنوياً، وفي ذلك دليل على توجه العرب نحو التضامن والوحدة، لأن تعدَد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية.

١- ابن الكلبي : المصدر نفسه ص ٥٧.

٢- ابن هشام : السيرة ٥٤/٤.

٣- ابن الكلبي: الأصنام ص١٦-٠٢. ابن حبيب: المحبر ص٣١٥. الحموي : معجم البلدان مادة لات.

٤- ابن الكلبي : الأصنام ١٦-١٠٢. الآلوسي : بلوغ الأرب ٢٠٥/٢.

٥- ابن الكلبي : الأصنام ١٦-١٠٢. ابن حبيب : المحبر ٣١٠. الحموي : معجم البلدان مادة لات. ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٢/٢.

أما أول من أدخل عبادة الأوثان إلى مكة حسب أغلب الروايات الرائجة فهو عمرو بن لحي، عندما مرض وخرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يُقال له هُبل (هو – بعل)، فأتى به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته[١]، ثم شاعت عبادة الأصنام بين الناس، لكن بعض الأساطير تشير إلى الوثنية منذ أزمان أبكر[٢].

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب كانت من زمن نوح وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً[٣]. وقد ذُكرت في القرآن الكريم : { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاَّ خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا. وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ ضَلالاً }[٤] فلما صنع –كما حكي–عمرو بن لحي ما صنع دان بعض عرب الحجاز لهذه الأصنام، وعبدوها واتخذوها من جملة ما عبدوا واتخذوا.

ومن ثم كان لجرهم صنمان من حجر إساف ونائلة[٥]، وكان لها أيضاً غزالان من ذهب[٦]، وفي هذا دلالة كافية على أن عرب الحجاز كانوا يدينون بالوثنية

١– ابن هشام : السيرة ٧٩/١. اليعقوبي : تاريخ ٢٩٥/١. المسعودي مروج الذهب ٢٩/٢.

٢– المسعودي : المصدر نفسه ١٢٤/٢. زيدان : العرب قبل الإسلام ٨٥.

٣– ابن الكلبي : الأصنام ص ١٣.

٤– سورة نوح : الآية ٢١–٢٢–٢٣–٢٤.

٥– ابن الكلبي : الأصنام ص ٢٩.

٦– ابن هشام : السيرة ١٥٤/١.

منذ زمن طويل قبل ظهور حكاية عمرو بن لحي سيد خزاعة على مسرح الأحداث في تاريخ مكة والحجاز، وأن جل أوثانهم كانت شامية المنشأ والأصل، ولربما نسبت تسويفاً إلى عمرو بن لحي الرواية التي تبيَن أنه ركزها في الكعبة، بعدما استوردها ليستثمرها فيما بعد الملأ لتعزيز نفوذه.
وكان لهذه الأوثان ومارمزت إليه أثر مهم في جميع أمور الحياة آنذاك، فقد أشركتها القبائل معها في الحرب[١]، وفي الاستفتاء بمشكلات خاصة وشخصية كالزواج والولادة، والختان والسفر، والعمل والخصومات وما شابه ذلك، فكأنهم بهم مسيرون بأوامرها وقراراتها، فنفوا عن أنفسهم كل مسؤولية ووضعوها عن كاهلهم، ولكن عدَوا هذه الأمثان شركاء للإله الواحد، أي أن الوثنية العربية كانت وثنية شرك، وهي هنا اختلفت عن البوذية وعن غيرها من الوثنيات المحضة، ووجود عنصر التوحيد سهل فيما بعد هزيمة الشرك، وتدمير رموزه، والإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد.

يضاف إلى ذلك ظهور فئات لها تقاليد وأساليب في العبادة تختلف عن الشائع والمألوف عند غيرهم كالحمس والحلة والطلس.

الفئة الأولى: الحمس، والأحمس المتشدد على نفسه في الدين[٢]. والحماسة والشجاعة[٣]، والحمس قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش خاصة من العرب، وبنو ربيعة بن عامر، وهم ربيعة وكلاب وعامر ولدتهم مجد بن تيم بنت مرة، وكانوا حمساً، وفي رواية أخرى الحمس قريش وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومدلج وعدوان والحارث بن عبد مناة، وعضل

١–حملت قريش في معركة (أُحد) اللات والعزى لحمايتها وبعث الحماس في نفوس محاربيها الطبري: تاريخ ١٩٣/٢.

٢– الأزرقي : أخبار مكة ١٨١/١. ابن دريد : ديوان ٢٥٠/١.

٣– ابن منظور : لسان العرب مادة حمس.

أتباع قريش وسائر العرب الحلة[١]، وقد يكون الحمس قد تأثروا بالوثنية الشامية بوجود أناشيد وابتهالات تعبدية أثناء الحج.

ويبرز سؤال هنا من أين أتتهم التسمية ؟ هل لتشددهم في الدين، أم لأنهم كانوا يخرجون من الحرم إذا حجوا، أم أن التسمية أتتهم من الشجاعة والمنع والمحاربة؟

ولكننا نستبعد ذلك، فقريش كما نعلم قوم تجار والتاجر يهمه الأمن والسلام والهدوء، لأن توفير هذه الأشياء من شأنه أن يشيع في نفوسهم مشاعر الاطمئنان، فيزداد عدد الوافدين للحج، وهذا يجلب المنافع المادية لأهل مكة ولكبار تجارها وسدنة معابدها خاصةً، أم أنها أتتهم من الأمرين معاً ؟.

ولعل التفسير الأقرب إلى الصحة أن التسمية أتتهم من التشدد في الدين، خاصة أنهم عدوا أنفسهم أرفع مكانة ممن سواهم.

في جميع الأحوال نقول: الحمس ظاهرة دينية تتعلق بالناحية الاقتصادية، قصد منها بيع الثوب الأحمسي، فكل حاج قدم إلى لمكة عليه أن يطوف عرياناً، أو أن يشتري ثوباً أحمسياً، فكأنهم خلطوا بين الدين والناحية المعيشية، ومن المفيد تعرَف إلى الطقوس الميثراوية، والتعبدية في كعبة حمص في العصر الروماني، أيام جوليا دومنا وزوجها سبتموس سيفروس.

وكان لهم عادات متبعة فهم لا يسلؤون السمن، ولا ينسجون مظال الشعر وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة، أو في ثوب أحمسي، وإن طافوا في الثياب لم

١-الأزرقي : أخبار مكة ١/١٧٩-١٨٠. ابن حبيب : المحبر ١٧٨. الفاسي : (أبو الطيب تقي الدين بن أحمد ابن علي) شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ـــ تحقيق عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي ١٩٨٥م ط١ ص ٤٢.

يحل لهم أن يلبسوها، وكانوا لا يستظلون أيام منى زيادة في تحمل المشاق، وإمعاناً في تعذيب النفس، وهم يؤدون طقوساً من طقوس الحج. كما أنهم لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم في حالة الإحرام، وكانوا أيام الموسم لا يخرجون إلى عرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم[١].

الفئة **الثانية** الحلة: كانوا إذا دخلوا مكة تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استأجروا من ثياب الحمس تنْزيهاً للكعبة عن أن يطوفوا حولها بثياب قديمة ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة،، وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه فمن لم يجد ثياباً طاف عرياناً، فكانت الحلة تستأجر الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا شراء شيء، ولا بيع شيء حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم[٢].

وقيل إن قبائل الحلة كانت تميم، وضبة، ومزينة، والرباب، وعقل، وثور، وقيس عيلان كلها عدا: عدوان، وثقيف، وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[٣].

أما الخلاف الرئيس بين الحلة والحمس فهو في الوقوف بعرفة عند بداية الحج، وهو ما لم تكن تفعله الحمس، لأن عرفة تقع خارج الحرم -حرم مكة- والخلاف الثاني هو في لباس الإحرام.

ووجدت فئة **ثالثة** هم الطلس بين الحلة والحمس يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس. وكانوا لا

١- ابن هشام: السيرة ٢١١/١ وما بعد. الأزرقي : أخبار مكة ١٧٩/١-١٨٠.

٢- ابن هشام: السيرة ٢١١/١ وما بعد. ابن حبيب: المحبر ١٨١. الفاسي : شفاء ٤٢/٢-٤٣

٣- ابن حبيب : المحبر ١٧٩. اليعقوبي : تاريخ ٢٩٨/١.

يتعرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا من الأكثرية العربية الساحقة التي لا تئد بناتها ويقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[١].

ومع انتشار عبادة الأوثان وشيوعها، ووجود الفئات المذكورة آنفاً الذكر، كان بعض عرب الحجاز زنادقة[٢]، إذ انتقلت الزندقة إليهم بوساطة الفرس[٣]، وقد أشار ابن حبيب إلى وجود الزندقة في قريش[٤]، وآمن بعضهم بالإله الدهر(زروان) الذي قالوا بأنه ثنائي الجنس، ذكر وأنثى في الوقت نفسه، ويلقح نفسه ذاتياً، وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : { وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ }[٥].

وتسربت اليهودية إلى الحجاز بهجرة بعض اليهود في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول، وبوساطة التبشير والتجارة، ولكنها انحصرت في الواحات كيثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء[٦] والمراكز الواقعة على طرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية، وقد تهود بعض العرب، وعند قيام الإسلام كان من عشائر اليهود بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو بهدل وغيرهم[٧]، وكانوا في حياتهم الاجتماعية والسياسية متشابهين مع

١- ابن حبيب : المحبر ١٨١.

٢- الزندقة نوعان ثنوية وهي القول بالنور والظلمة ودهرية لقول من يؤمن بها بالدهر. سالم : تاريخ العرب،ص٤٨٠.

٣- سالم : تاريخ ٤٨٠.

٤- ابن حبيب : المحبر ص ١٦١. قارن : اليعقوبي : تاريخ ٢٩٨/١.

٥- سورة الجاثية : الآية ٢٤.

٦- حسن : تاريخ الإسلام السياسي ٨٧/١. سالم : تاريخ ٤٨٥. دلو : جزيرة ٢١٩/٢.

٧- السمهودي: وفاء الوفا ١٦٣/١. رفاعي: الإسلام ص ٥٦. حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٨٧/١.

العرب، حتى أسماؤهم حملت الطابع العربي، وحافظ بعضهم على العروبة، كالشاعر السموءل بن عادياء[1]، ولكنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين بقية العرب باستثناء بعض المحاولات المحدودة، فهم لم يكونوا حاخاميين، كما أنهم لم يرتبطوا بمدارس المرجعيات اليهودية في العراق، ولم تكن هناك ترجمة لأسفار الكتاب المقدس بعهديه إلى العربية، قال اليعقوبي[2]: وعلى العموم هم لم يشكلوا وحدة عشائرية أو قبلية، بل كانوا مجرد فئات مهنية عاشت كل واحدة منها في حصون منفردة(آطام)، ولم تكن لديهم مستويات ثقافية لاهوتية عالية، وعلى هذا كانت هذه الديانة جامدة خامدة لا يُعنى أتباعها بنشر الدين إنما يهمهم المحافظة على حياتهم، وأملاكهم، وتجارتهم التي تعود على ملاكهم وزعمائهم وتجارهم ومرابيهم بنفع كبير ومال وفير.

دخلت المسيحية إلى الحجاز بمساعدة التجار والرقيق والتبشير، ولا سيما الرقيق الأبيض، فقد وجد في يثرب نفر من النصارى وكان في مكة عند ظهور الإسلام عدد ضئيل من المسيحيين، وأثناء الاحتلال الأثيوبي لليمن (الحبشي)، جرت محاولة لنشر المسيحية بالإكراه، فأخفقت، وتمازجت الحركة الحنيفية في مكة مع المؤثرات المسيحية، لذلك قيل إن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة ابن نوفل بن أسد تعمدا ودخلا في المسيحية[3].

ولم يقتصر أمر المسيحية على بعض رجال مكة، فقد كان في الطائف نفر من الموالي والعبيد على دين المسيحية[4]، منهم عداس مولى عتبة بن ربيعة[5]

١-علي : المفصل ٧٧١/٩.

٢- اليعقوبي : تاريخ ٢٩٨/١.

٣- اليعقوبي : تاريخ ٢٩٨/١.

٤- ابن الأثير : أسد الغابة ٢٨٩/٣.

٥- المسعودي : مروج الذهب ٨٨/١.

علماً أن وجود النصارى في شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها في اليمن، وفي الحبشة سابق لأي وجود مسيحي آخر، فقد كانت المسيحية مزدهرة في اليمن منذ القرن الثالث الميلادي، وقد قام الصراع على أشده بين اليهودية والمسيحية في اليمن منذ القرن الثالث الميلادي[١] ومن الممكن الادعاء بأن وجود اليهودية والمسيحية أثر على الوعي الديني باتجاه النظر التجريدي نحو مشكلة الوجود، متجاوزاً النظرة الوثنية الحسية كما وتعاون مع بقايا دين إبراهيم والحج على قيام ظاهرة الحنفاء.

ومن الرجال الذين كانوا أحنافاً قس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهما[٢].

فقد شكَوا في عبادة الأصنام وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح، دين إبراهيم، وزهدوا في المجتمعات الوثنية، واعتزلوا الناس في كهوف للتأمل والعبادة والصلاة، واعتقدوا بوحدانية الله، فكان لهذا عظيم الأثر في تقويض الوثنية، فأخذت تتداعى أمام هذه الأفكار، وكثر إخفار الآلهة، لأن المتحنفين آمنوا بالله وبيوم الحساب[٣]، فواكبت الحنيفية بذلك تطور المجتمع المكي وحاجاته، وتطورت معه إلى أن دخلت في مرحلة جديدة يمكن عدَها المرحلة التي تقدمت على ظهور الإسلام.

وأعطتنا هذه الألوان والأنماط من التفكير والسلوك الديني فكرة عن الحياة التي زخرت بها حياة المجتمع العربي في الحجاز قبل الإسلام، حيث كان الناس على أقسام هي :

١- داوود : تاريخ سورية ٥٥٦-٥٥٧.

٢- ابن قتيبة : المعارف ٢٧-٢٨.

٣- عوض الله : مكة ص (٩٦-٩٧-٩٨).

– أناس جعلوا لأنفسهم مكانة أعلى وأرقى من البقية الذين دانوا بالحمس، إذ عدوا أنفسهم فوق مستوى البشر العاديين لذلك اتبعوا سلوكاً خاصاً متشدداً متحمساً في التعبد.

باحثون ابتلعهم التفكير، ففكروا بالبحث والتنقيب وقالوا إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه اليوم

–حكماء عقلاء ما فتئوا يعظون الناس، ويتنبؤون للبشرية بالخلاص من حيرة الفراغ الناجم عن الوحي المعصوم والخروج إلى دائرة اليقين.

ترقب الناس بهذه الإرهاصات يوم الخلاص، وانتظرت البيئات الاجتماعية لحظة النور، ليدركوا أن فجر الحقيقة قد آذن بالشروق.

الصراع الدولي على شبه الجزيرة العربية وحولها:

كانت الصراعات المختلفة وستظل العوامل التي تحرك الأحداث التاريخية في كل العصور، والصراع بين الأمم الكبرى يكون عادة من أجل فرض النفوذ، وهو يقوم على مبدأين، أولهما الصراع من أجل البقاء، الذي إذا ماتحقق تسعى هذه القوى إلى المبدأ الثاني، وهو الصراع من أجل فرض النفوذ على المناطق الحيوية بدعوى الأمن.

ولوجود الجزيرة العربية في قلب العالم، وإحاطة بها البحار(المياه) بها من ثلاث جهات، ومعروف أن البحار أقدم الطرق بين الأمم، وأيسرها في السيطرة عليها، فإن القوى الكبرى سعت إلى فرض نفوذها عليها، فقد كان التنافس بين قوة فارس، وقوة بيزنطة لايقتصر على ميدان القتال فحسب، بل كان للتسابق في السيطرة على البحر الأحمر، والبحر المتوسط، والخليج العربي.

فقد كون البحر الأحمر مع الخليج العربي وحدة ملاحية مرتبطة ومتكاملة، وهذا ما جعل الجزيرة العربية معبراً سهلاً، وقصيراً للتجارات بين الشرق والغرب، وملتقى للطرق بين عالم المحيط الهندي، وعالم البحر المتوسط، وعلى مر العصور صارت الجزيرة العربية موضع أطماع الدول الكبرى، فحاولت فرض نفوذها على سواحلها بقدر المستطاع، ليس طمعاً في مواردها الطبيعية، فحسب بل من أجل التحكم في منافذ البحار المحيطة بها من الشرق والجنوب والغرب[١]، وفي طريق القوافل الشهير الذي يمتد محاذياً البحر الأحمر، ويربط اليمن بالشام[٢]، ومن ثم فقد وجدت الجزيرة العربية نفسها مسرحا للصراع العالمي على النفوذ.

وبالرجوع قليلا إلى الوراء بعيداً عن التوغل في التاريخ، ورصداً لحقبة قبل الإسلام نجد الأخبار تتحدث عن ازدهار الطريق التجارية المعروفة قديماً في جزيرة العرب باسم طريق العطور، أو طريق البخور التي كانت ممراً لتجارة العطور والبخور وما أشبهها بين الهند واليمن وبلدان البحر المتوسط[٣]، أضف إلى ذلك شهرة جنوب الجزيرة العربية بإنتاج المر، واللبان، والأقاصيا، والقرفة، واللادن، والطيوب[٤].

ولأهمية هذا الطريق فقد حاول الرومان الاستيلاء عليه عن طريق الاستيلاء على اليمن نفسها، فأرسلت حملة إيليوس غالوس التي باءت بالإخفاق[٥]، ولأنَ الاستيلاء على اليمن كان يمكنهم من السيطرة على الطرق

---

١ –شهاب: (حسن صالح)، فن الملاحة عند العرب، بيروت دار العودة، ط١٩٨٢،١م،ص٣٩.

٢ –ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله)، المسالك والممالك، دار المدينة، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص١٣٤ ومابعد.

٣ –حتي: (فيليب)، تاريخ العرب، دار غندور، ط١٩٨٦،٧م،ص٧٧.

٤ –حتي : تاريخ العرب ص٧٧، ٧٨.

٥ –علي: المفصل ٥٨/١.

التجارية في المنطقة وتمرير التجارة البيزنطية بحرية تامة، فتتحرر بذلك من تحكم الساسانيين[١]، ويتمكن التجار من الوصول إلى الهند، فقد لجأت إلى أسلوب آخر يمكنها من بلوغ غايتها، وكان هذا الأمر يتطلب منها قوة يُعتمد عليها لحماية التجارة والقوافل، وهذه القوة يجب أن تكون قريبة من منطقة التجارة، وقد وجدتها بيزنطة في الحبشة(أثيوبيا)، فتوددت لها باسم الدين المسيحي الذي يربط بينهما والمصلحة المشتركة، وتحالفت معها وأوعزت لها بالسيطرة على جنوب الجزيرة العربية، لتبعد الفرس عن منطقة مُهمة، وأكثر اتصالاً بالعالم الخارجي[٢]، وفعلاً تقدم الأثيوبيون وسيطروا على اليمن[٣]، واستمالت بيزنطة الحبشة لإتمام مشروعها في السيطرة على المنطقة الغربية للجزيرة العربية فحرضتها على غزو مكة، وفعلا قام الأثيوبيون بتسيير أكثر الحملات أهمية وشهرة في التاريخ، شمالاً وهي حملة الفيل، ولكن المشروع البيزنطي الأثيوبي للاستيلاء على غرب الجزيرة العربية، وبالتالي الاستيلاء على تجارة الحجاز أصيب بالإخفاق، وعاد من تبقى من الأثيوبيين أدراجهم إلى اليمن يجرون أذيال الانكسار[٤].

لقد كانت حملة الفيل على مكة تعني امتداد سيطرة الأثيوبيين وكلاء بيزنطة على أهم شريان تجاري في بلاد العرب، لكنهم أخفقوا وأدركهم الضعف، فغير البيزنطيون سياستهم في محاولة تمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لهم، فارتضى قيصر لملك مكة رجلاً من ساداتها هو عثمان

---

١ –علي: المفصل، ٣٨٧/٤.

٢ –هل: (ي)، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، وحسين مؤنس، مكتبة الانجلو المصرية، ص٦.

٣–كوبيشانوف: (ب.م)، الشمال الشرقي الأفريقي، ترجمة صلاح هاشم، عمان،١٩٨٨م،ص١٣٦.

٤ –الأزرقي: أخبار مكة، ١٣٣/٢.

بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى القرشي، ولكن هذه المحاولة السياسية باءت بالإخفاق أيضاً[١].

والمفيد ذكره أن الأثيوبيين قاموا في اليمن بأعمال نفرت أهل اليمن منهم، فرغبوا بالتخلص من حكمهم عن طريق الاستعانة بالفرس العدو اللدود للأثيوبيين والبيزنطيين، ولذا سير الفرس حملة استطاعت الانتصار على الأثيوبيين وتحويل الجنوب العربي إلى ولاية من ولايات الفرس، واستمرت السيادة الفارسية في الجزيرة العربية إلى لحظة توحيدها على يد المسلمين[٢]، لكن قبل ذلك ازداد نفوذهم حتى كاد يعم أقطار الجزيرة العربية إذ كانوا مستولين على العراق والبحرين وحضرموت[٣].

يُذكر أن الصراع الدولي على الجزيرة العربية كان أيضاً في شمالها كما هو في جنوبها، وذلك بدافع اقتصادي أيضاً حيث كان الفرس قد سيطروا على طريق الحرير، وأقاموا تحالفاً مع المناذرة لحماية حدود بلادهم من هجمات البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة، وكانت كل حرب بين الامبراطرية البيزنطية، والامبراطورية الساسانية هي حرب بين المناذرة والغساسنة، لذلك كان الصراع في واقعه صراعاً سياسياً، اقتصادياً، ولأجل ذلك تحالفت بيزنطة مع الغساسنة المقيمين في بلاد الشام وتحالفت فارس مع المناذرة في العراق، إيماناً منهما أنه من الحماقة محاربة الأعرابي في دياره، لأنه أعلم من الحضري بالبادية، ومن الأفضل مداهنته واسترضاؤه، وذلك بالاتفاق مع

---

١ –ابن حبيب: (أبو جعفر محمد)، المنمق، صححه وعلق عليه خورشيد محمد فارق، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م،ص٥٩. عوض الله: (أحمد أبو الفضل)، مكة في عصر ماقبل الإسلام، ط٢، ١٩٨١،ص١٣٢.

٢ – كريستنتن: (ارثر)، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م، ص٣٥٥.

٣ – خربوطلي: (شكران)، شبه جزيرة العرب والصراع الدولي عليهامنذ القرن الرابع حتى ظهور الإسلام، سوريا، دمشق، دار ومؤسسة رسلان، ط١، ٢٠٠٧م،ص١٢٣.

سادات القبائل الأقوياء بدفع هبات مالية سنوية وهدايا وألطاف وخلع ترضيهم في مقابل ضبط الحدود وحمايتها من خطر هجمة الأعراب لها وغاراتهم عليها[١].

ومن المؤكد أن العلاقات بين الحلفاء كانت في أخذ ورد إلى أن ساءت، وتفاقمت حدة التناقضات الاجتماعية والسياسية، الأمر الذي شجع العرب على التصدي لنفوذ الأكاسرة، ومقاومته، تجلى ذلك بجلاء ووضوح في انتصارهم الشهير على الفرس في يوم ذي قار[٢].

وكذلك ساءت العلاقات بين الغساسنة والبيزنطيين بسبب اتباع أحد أمراء الغساسنة مذهباً مسيحياً يعارض مذهب الكنيسة الرسمي لامبراطورية الروم، فتصدع أمر الغساسنة وتفكك وانقسم الأمراء على أنفسهم واحتدم التنافس للحصول على الرئاسة والسيادة[٣].

إن الأوضاع التي هيمنت على المنطقة العربية قبل الإسلام، وماكتنفها من قلق روحي عميق، تطلعت إلى مخلص، الأمر الذي مهد السبيل لاستقبال رسالة الإسلام التي قامت على أساس شعور جديد كل الجدة بالعالم، شعور استهدف، ومايزال يستهدف إقامة علاقة جديدة بين الإنسان والله.

وقامت الرسالة الإسلامية على تقديم الإسلام نظاماً كاملاً فيه تلبية لحاجات البشر، وترسخت على مجموعة من المبادئ الأساسية التي ساعدت بمجملها على تحقيق وحدة الأمة وتحررها وتقدمها، وهذا ماسنراه في الفصول القادمة.

---

١ –علي: المفصل٦٠٣/٢، نولدكة: (ثيودور)، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية،١٩٣٣م،ص١٣.

٢ –الطبري: تاريخ الرسل والملوك٢٠٧/٢–٢٠٧. ابن الأثير: (عز الدين أبو الحسن علي ابن أبي الكرم)، الكامل في التاريخ،بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م،٤٨٢/١ ومابعد.

٣ – خربوطلي وزكار: (شكران وسهيل)، الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق،٢٠٠٩م،ص١٩.

الفصل الثالث

البعثة النبوية

- حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى المبعث
- من المبعث حتى وفاة خديجة وأبي طالب
- مشروع الهجرة إلى المدينة
- التنظيمات الإدارية والسياسية والاجتماعية والا قتصادية


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

البعثة النبوية

- حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى المبعث:

- التعريف بمحمد ﷺ :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من قبيلة قريش[١]، والدته آمنة بنت وهب من بني زُهْرة[٢]، ولد في مكة المكرمة ١٢ ربيع الأول ٥٧١ م الذي صادف تقريبًا واقعة عام الفيل[٣] يوم عزم أبرهة الحبشي على غزو مكة، كما سلف ذكره.

نشأ محمد يتيمًا، فقد توفي والده عبد الله قبل أن يرى محمد النور، فنشأ في كنف جده، وكان من عادة أشراف مكة إرسال الأطفال إلى المراضع في البادية، ليعيشوا في جوها النقي، وليكتسبوا فصاحة أهلها، وسلامة نطقهم، ولينشؤوا على النجابة، والشهامة، وقوة العزيمة، فأرضعته حليمة السعدية[٤] من قبيلة سعد بن بكر، وبقي لديها حتى سن الخامسة، ولكنْ قبل حليمة كانت أول من أرضعته من المراضع بعد مضي أسبوع من إرضاع والدته ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكلهم إخوته في الرضاعة.

ولما بلغ السادسة من العمر توفيت والدته، فتولى رعايته جده عبد المطلب الذي توفي ولمحمد من العمر ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب الذي لم يكن على جانب كبير من الغنى، ومع ذلك كان سيد قومه، وكان يقوم بالرفادة

١-ابن سعد : الطبقات ١٠٨/١

٢-ابن عبد ربه : العقد الفريد٣/٥، المسعودي : مروج الذهب ٢٦٥/٢

٣-ابن هشام : السيرة ٤٤/١-١٧٨

٤-ابن سعد : الطبقات ١٠٨/١

والسقاية في مواسم الحج، لأن ذلكالأمر مما اختص به بنو هاشم واستأثروا به، وكان عمه يُكنَ له أكبر الحب، حتى كان يفضله على أبنائه، ويخصه بالعناية والحب الكبير الذي استمر طوال حياته[1]، اشتغل محمد برعي الأغنام لأهله، وكان ﷺ يذكر ذلك ويضيف أن الأنبياء قبله قاموا بهذا الأمر.

ولما بلغ التاسعة من عمره على قول، والثانية عشرة على قول آخر، رافق عمه أبا طالب في رحلة إلى الشام واليمن وقيل التقى هناك الراهب بحيرا الذي أشار إلى نبوءة محمد[2]، ولكن مع اشتهار هذه الرواية، يبدو أنَ حديث اللقاء مع بحيرا حديث اخترع بعد قيام الإسلام.

وعندما بلغ محمد العقد الثاني من عمره شهد حرب الفجار[3] بين قريش بقيادة حرب بن أمية بن عبد شمس، وبين هوازن، فكان يرد النبال عن أعمامه، وشهد عقد حلف الفضول[4] لنصرة المظلوم، الذي أقيم في دار عبد الله بن جُدْعان، وكان حلفاً قال فيه محمدﷺ: "ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت".

يتبين من ذلك أن محمدًاﷺ شارك في نشاطات مكة التجارية والمدنية والحربية فخرج من مدرسة الحياة مزوداً بنفس عصامية مرهفة الإحساس، جياشة العواطف، صلبة المبنى، واضحة الرؤى، عملية إيجابية تعتمد الخُلق الكريم، وتتألم لآلام الآخرين، وتسعى بكل جهد لإزالتها، فنضجت شخصيته، ولمع نجمه، واشتهر بالاستقامة والأمانة، والكفاءة فسمي الصادق الأمين، الأمر الذي لفت أنظار المكيين إليه، وكانت بين هؤلاء سيدة اسمها خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزى قرشية، ذات شرف وجاه ومال، تاجرة،

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٢٧٨

٢-ابن هشام : السيرة١٩١/١، ابن حبيب : المحبر ص٩

٣-ابن هشام : السيرة ١٩٨/١.

٤-ابن هشام : السيرة ١٤٣/١، الفاسي : شفاء الغرام ١٥٧/٢-١٥٨.

تستأجر الناس في تجارتها، فسمعت بمحمد وطلبت إليه أن يعمل لديها في التجارة[١]، فلبى الطلب وذهب برفقة غلام لها اسمه ميسرة إلى الشام، ولما عاد قص عليها ميسرة ما رأى من أخلاق محمد ﷺ، ا وأمانته الأمر الذي أثلج صدرها، خاصة وأن تجارته ربحت ضعف ما كانت تربح تجارتها فيما مضى، فأحبت أن تقترن به، فطلبته للزواج.

كان محمد ﷺ آنذاك في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت خديجة –كما حكي–قد تجاوزت الأربعين[٢] وقد يكون هذا الأمر مبالغ به لأن المرأة بعد هذا السن لا تنجب هذا العدد من الأولاد الذي أنجبته السيدة خديجة سبعة ذكور وأربع إناث، ثم أنجبت له في الإسلام ولد آخر، وقد مات جميع الذكور وهم صغار.

كان لزواج الرسول ﷺ من السيدة خديجة أثر كبير عليه فقد وضع حداً لمرحلة من حياته، وافتتح مرحلة جديدة وجد فيها خير النساء، فهي ذات مال وشرف وعزة تليق بمقام النبي الكريم وهو أيضاً من أشرف البيوتات في قريش، وأكثر رجالاتها مروءة،وأفضلهم خلقًا وأدبًا،حتى كان يلقب بين قومه بالصادق الأمين كما سلف القول.

قال تعالى:{ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ .أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ.وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ.وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ.فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ.وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ .وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[٣].

١–ابن هشام : السيرة ٢٠٠/١.

٢–ابن هشام : السيرة ١٩٨/١، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٨١/٢–٢٨٠

٣–سورة الضحى : الآية ٥–١١

ولشدة حبه وإخلاصه لها لم يفكر في الزواج من غيرها، مع وجود عادة تعدد الزوجات، وتزوجت السيدة خديجة قبله مرتين، وقد أعقب جميع أبنائه منها ما عدا إبراهيم، فأمه مارية القبطية التي أهداه إياها المقوقس حاكم مصر.

ويبدو أن محمدًا ﷺ بعد زواجه من خديجة، أصبح مسؤولاً عن أعمالها التجارية والمالية، وهذه المسؤولية، هيأت له فرصًا جديدة للاطلاع عن كثب على ما كان يجري في مكة، وسواها، فقد شهدت هذه الحقبة صراعًا جشعًا من أجل المال والتجارة، إلى جانب الصراع العقائدي والثقافي بفضل احتكاكها التجاري بالشعوب المحيطة بها.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، تعرضت الكعبة لبعض أحداث الطبيعة كالسيول، ورأى أهل مكة تجديدها وإعادة بنائها، وشارك الرسول ﷺ في هذا العمل، وعندما اختلفوا على من ينال شرف إعادة وضع الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة، وكادوا أن يقتتلون من أجل ذلك، اتفقوا على أن أول من يطلع عليهم في المكان يكون الحكم في هذا الأمر، وكان أول من قدم إليهم محمد ﷺ ووجدوا فيه خير من يصلح لحل هذه المشكلة .

وتمكَن بحكمة أن يحل هذا التنافس القبلي، وكان الحل الذي اعتمده أن بسط رداءه ووضع فيه الحجر الأسود، وطلب من كل قبيلة أن تمسك بناحية منه دلالة على وقوفهم جميعاً على قدم المساواة في نقل هذا الحجر الشريف، ثم حمل الحجر بيديه الطاهرتين ووضعه مكانه.

وبذلك حصل الرسول ﷺ في مسقط رأسه، وقبل بعثته على صورة كاملة لما آلت إليه الحياة القبلية وغدت قريش تنظر إلى محمد نظرةً فيها كل التقدير والأمل بمستقبل مشرق له ولأسرته الجديدة لترفعه عن الخطايا، والإقبال على طيب الفعال والسجايا، ولا غرابة في أن يطلق عليه الناس لقب الأمين الصادق.

شهدت مكة أثناء ذلك بعض الصراعات التجارية، والمشاحنات والمضاربات المالية، رافقتها مشاحنات ومضاربات عقائدية وثقافية، ولم تعجب الرسول ﷺ عبادة قومه للأصنام، واعتقد كغيره من أبناء إبراهيم عليه السلام بانحطاط الوثنية، وبضرورة إحداث بعض التغيرات، وإصلاح المجتمع، وتغيير العقيدة.

والمفيد ذكره أنه في هذه الحقبة، تم تهذيب بعض ممارسات أعمال الحج وطقوسه، لكنَ هذا لم يؤد إلى حل المشكلة لأنه بني في الأساس على طلب الأرباح وتقوية مراكز طبقة الأثرياء، وقد سرى بين صفوف أهلها تيار ينقد بقسوة وثنية قريش ويرفضها ويفتش عن البديل، من هؤلاء: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي أخذ الحنيفية أولاً، ثم تعمد وصار قساً مسيحياً، ومع أن تيار الأحناف كما يرد في المصادر لم يكن دينًا واضحًا، أوعقيدة تدعو إلى تنظيم ديني، فهناك من يرى أنهم أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام، ويستشهدون بقول النبي ﷺ اتبعت ملة آبائي إبراهيم حنيفاً[١] مسلمًا.

وهناك من يسمي هؤلاء بالمتحنثين أي المتأملين والتحنث عادة كان يقوم بها بعض رجالات قريش إذ كانوا يلجؤون إلى غار حراء[٢] للتأمل والتفكير، وكان منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل عم الفاروق عمر بن الخطاب، وكان محمد ﷺ ممن انقطعواإلى غار حراء يتحنث به، ويتعبد، ويتأمل بعيدًا عن ديانة قريش الوثنية التي لم يؤمن بها يومًا من الأيام.

١-الحنيفية لم تكن ديناً أو تنظيماً دينياً، إنما تعني عبادة الله وهي من أقدم العبادات منذ آدم، إلا أن عقيدة الألوهية المجردة عن الأجسام عقيدة صعبة لا يدركها إلا خاصة الخاصة، ولعل هذا السبب وغيره مادفع العرب في الحجاز إلى ترك الدين الحنيف دين ابراهيم، والتحول إلى عبادة= =الأوثان، ومن أتباع الحنفية ورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو، وأمية بن أبي الصلت. قدورة : تطور ص٥٨

٢-خربوطلي وزكار: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٦٤

والجدير ذكره أنه حاولت ديانات العصر، وخاصة المسيحية أن تكون البديل لكنها أخفقت، وكل ما فعلته قيامها بإحياء فكرة أن الجدَ الأعلى لعرب الشمال، وأهل الكتاب هو إبراهيم، وأن الديانة الحق هي ديانة إبراهيم عليه السلام، وهي النبع الذي جاءت منه اليهودية والنصرانية، وأن الخلاف الواقع بين أتباع اليهودية ثم أتباع الكنائس يعني أن زيفاً قد أصاب اليهودية والنصرانية، لذا تحسن العودة إلى الأصل الإبراهيمي، وطبيعي أن يتأثر محمد ﷺ بهذا التيار، وأن يبحث عن دين إبراهيم فكان يخلو بنفسه للتعبد في غار حراء، فماذا حدث ؟

- من المبعث حتى وفاة خديجة وأبي طالب:

١-تعبده والوحي:

أثناء تعبد محمد ﷺ في غار حراء نزل عليه الوحي وكان قد بلغ الأربعين من عمره، الأربعون سن النضج والكمال، وقد تحدث النبي محمد ﷺ عن هذا فقال: "جاءني جبريل وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: وما أقرأ ؟ حتى ظننت أنه الموت، ثم كشطه عني، فقال: اقرأ، فقلت: وما أقرأ ؟ فعاد لي بمثل ذلك ثم



قال: اقرأ، فقلت وما أقرأ ؟ وما أقولها إلا تنجياً أن يعود بمثل الذي صنع بي.

فقال: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }[1] ثم انتهى فانصرف عني، وهببت من نومي، وكأنما صور في قلبي كتاب، ودخلت على خديجة، فأخبرتها، فقالت: أبشر، فوالله لن يخزيك الله أبدا، ثم انطلقت بي إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فسألني عن خبري، فقال: قدوس قدوس، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، إنك نبي هذه الأمة.

ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قلت: أمخرجي هم ؟ فقال: نعم، إنه لن يجئ رجل بما جئت به إلا وعودي"[2].

ثم فتر الوحي، وحزن محمد ﷺ لذلك كثيراً، وقال: "وبينما أنا أمشي في الوادي سمعت صوتاً فنظرت حولي عن يميني وشمالي وخلفي وأمامي، فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي، فرأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء، جالساً على كرسي بين السماء والأرض، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح: (يا محمد أنا جبريل) فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، حتى بعثت خديجة برسلها، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا وأنا واقف، ثم انصرف عني الوحي، ورجعت إلى خديجة فقلت:" دثروني دثروني "، فأنزل الله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ}[3]، ويشير القرآن الكريم إلى اليوم والشهر الذي أنزل فيه الوحي بقوله: { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}[4]، وقوله عز وجل :{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}[5].

١-سورة العلق: الآية ١-٥

٢-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٩٨-٢٩٩

٣-سورة المدثر : الآية ١-٢

٤-سورة القدر : الآية ١

٥-سورة البقرة : الآية ١٨٥



وأخذ الوحي بعد هذا يتردد على محمد ﷺ يبلغه رسالات ربه، وذلك بأشكال عدة، والغاية من الوحي رسالة جديدة، ودين ارتضاه الله لعباده الذين تركوه، وهي آخر الرسالات، وأصبح اسم هذا الدين في عهد محمد ﷺ الإسلام، والكلمة تعني الاستسلام لأمر الله تعالى، وتقبَل محمد رسولاً لله، ولعلَ كلمة الإسلام لم تكن موجودة قبل محمد، يضاف إلى ذلك أن كل ما يحيط بالإسلام يأتي عن طريق القرآن الذي أنزل بلغة أهل الحجاز، وبأسلوب خاص مختلف عن سائر الكتب المقدسة.

٢- ظهور الدعوة الإسلامية وموقف قريش منها :

مع نزول الوحي بالقرآن الكريم على الرسول الأمين، اندلعت الثورة على الحياة القبلية ونظمها ومؤسساتها، فكانت ثورة دينية اجتماعية ضد الاتجاهات القبلية ونظمها ومؤسساتها، والدعوة لإقرار نظام جديد في سبيل بناء مجتمع متحرر من النظرة القبلية الضيقة وقائم على العدالة والمساواة، وقد كان العرب مهيئين للنقلة، متأهبين للثورة الدينية السياسية الكبرى التي ظهرت في البداية بمظهر ديني، ثم اكتسبت طابعاً سياسياً وحضارياً عاماً.

وقد مرت الدعوة الإسلامية بمراحل هي:

أ- **المرحلة الأولى:** السرية الفردية كان يدعو بها الرسول الكريم أهل بيته وأقاربه على انفراد، فآمنت به زوجته خديجة، وآمن ابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، ولم يقتصر الأمر على أقاربه، بل آمن به أيضًا بعض رجالات قريش كأبي بكر الصديق الذي أسلم على يديه، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش كأبي عبيدة عامر بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم الذي أصبحت داره فيما بعد مركز الدعوة إلى الإسلام، وأبي سلمة، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مظعون، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخباب بن الأرت، وآمن به بلال الحبشي، وأم بركة الحبشية، وقد استمرت المرحلةالسرية ثلاث سنوات[١].

وكانت هذه القلة التي آمنت تمارس شعائرها الدينية في الخفاء بعيداً عن أعين قريش، ثم بدأت ب-**المرحلة الثانية** عندما نزل على الرسول ﷺ قوله تعالى:

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك٣١٨/٢، ابن الأثير : الكامل ٦٣/٢

{ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** }[١] وكذلك قوله تعالى: { **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**}[٢]، وبذلك نقل عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى العلن، فدعا بطون قريش من فوق جبل الصفا وقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أتصدقون؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً، فقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد[٣]، وما إن جهر الرسول ﷺ بدعوته وأعلن وحدانية الله تعالى حتى بدأ الكره بينه وبين قريش، فما سبب ذلك ؟ من معرفة مبادئ الإسلام يتبين ذلك.

هناك عدة أسباب مجتمعة :

-**السبب الديني:** لأن الرسول عاب على قريش آلهتها وذكرها بالسوء وسفهها، وحقر من شأنها، وانتقد آباءها، فصار من الطبيعي أن تعارض قريش الدين الجديد، وهنا يظهر مدى ارتباط قريش بالأصنام، وحرصها عليها لكونها عبادة موروثة من جهة، وعبادة قومية تؤمن لها الزعامة الدينية على جميع العرب من جهة أخرى، أضف إلى ذلك أن قريشاً كانت تكره الخروج عن دين الآباء، والإسلام يبشر بالبعث والحياة بعد الموت، والحساب والعقاب، ويتحدث عن الجنة والنار، وكل هذه مفاهيم دينية جديدة لدى البدوي، وحتى المجتمع المكي.

- **السبب الاجتماعي** : فالدين الجديد يهدد النظام الاجتماعي بفرضه مفاهيم جديدة فهو دعا إلى المساواة بين المسلمين بصرف النظر عن أي انتماء قبلي أو عرقي، وجعل المعيار التقوى، وألغى عصبية الدم، وأحلَ مكانها عصبة الإيمان، ودعا إلى مكارم الأخلاق والنهي عن الظلم والمنكر[٤].

١-سورة الشعراء : الآية ٢١٤

٢-سورة الحجر : الآية ٩٤.

٣-حسن : تاريخ الإسلام ص٨١

٤-الدوري : مقدمة في صدر الإسلام ص٢٧-٢٨

- **السبب الاقتصادي:** أضر الإسلام تجار مكة وأثرياءها، لأنه شرع فرض الزكاة، وحرم الربا، وأنكر اكتناز الذهب والفضة.

-**السبب السياسي:** أدخل الإسلام مبدأ الدين والدولة كيانواحد، وأن السلطة لله وحده، والشريعة هي القانون الإلهي، وأن نجاح دعوة محمد تعني تغيير الزعامات، لذا عارضت قريش هذه الدعوة بشدة.

أضف إلى ذلك أن المجتمع الجديد الذي كان يدعو إليه الرسول ﷺ سيكون مجتمعاً تحتاج الزعامة فيه إلى مواصفات تختلف عن المواصفات التي يحتاج إليها المجتمع القديم، وهذا ما لم توافق عليه الزعامة القرشية، إذ رأت أن الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى زعامة محمد ﷺ، وهذا ما لم ترده قريش، وحاولت دفعه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، مع أن القرآن أكد في أكثر من مناسبة أ ن الرسول ﷺ لم يكن يقصد زعامة ولا رئاسة، { **قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** }[١]، واشتدت المواجهات مع الزعامات المالية لقريش، فكان أن قدمت جماعة منها إلى عمه أبي طالب، وطلبت منه ردع محمد، ووجهت له إنذاراً معلنةً فيه الحرب على الرسول وأصحابه إذا لم يتوقف عن سب آلهتهم والتشكيك في ديانتهم، وصعب الأمر على أبي طالب، فوضع ابن أخيه في صورة الموقف، وظن الرسول ﷺ أن عمه قد ضعف عن نصرته، فقال كلمته المشهورة: " والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته "[٢]. فقال له عمه: اذهب يا ابن أخي والله لا أسلمك أبداً.

١-سورة الشورى : الآية ٢٣، سورة سبأ : الآية ٤٧، سورة يوسف : الآية ١٠٤.

٢-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٢٦/٢، ابن كثير : البداية والنهاية٤٧٤/٢-٥٠٤.

عندها أعلن زعماء قريش حربا على محمد وأنصاره، وعذبوهم تعذيباً يفوق كل وصف، فخشي الرسول ﷺ أن يؤدي هذا إلى فتنتهم عن دينهم، وهو لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فماذا فعل ؟

٣-الهجرة إلى الحبشة :

قال لهم: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة(السودان اليوم) فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه "[١]، فخرج أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، متسللين إلى ميناء الشعيبة[٢]، وتتابع المهاجرون بعد ذلك حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة[٣]، وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث النبي ﷺ وخرجت قريش في آثارهم فلم يدركوا منهم أحداً.

والسؤال البارز هنا لماذا اختار الرسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة دون سواها؟

يتوضح الجواب من عبارة قالها الرسول ﷺ لأتباعه قبل الهجرة " لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه"، فالنجاشي (الزعيم المحلي) كان معروفاً بالعدل والإيمان، وهو مسيحي من أتباع الكنيسة القبطية، أي من اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وكان هذا المعتقد قريباً من التوحيد الذي جاء به محمد وآمن به أتباعه.

وربما كان هدفه من ذلك إبعاد أتباعه عن وثنية الجزيرة العربية مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم،كي يعيشوا هناك في جو موحد، هو المسيحية.

١-ابن هشام : السيرة ٣٤٤/١-٣٤٥ وما بعد، ابن كثير : البداية والنهاية ٨٥/٣.

٢-الحموي : معجم البلدان مادة شعيبة

٣-ابن كثير : البداية والنهاية ٨٤/٣.

كانت الحبشة معروفة لدى قريشالتي ارتبطت معها بعلاقات تجارية قديمة، ومع وجود هذه العلاقات لم يكن لقريش وزعامتها سلطة فيها، لذلك هي مهيأة أكثر من أي منطقة أخرى لاستيعاب المسلمين وحمايتهم، ويُرجح أن هذا الإجراء كان سياسة مرحلية، ورداً معاكساً على قسوة قريش التي حاربت المسلمين حتى في لقمة العيش.

ولا ننسى أن الهجرة إلى الحبشة جاءت منسجمة مع الدعوة الإسلامية التي سعت إلى تحرير الإنسانية وضمان المساواة بين الجميع، سودان تلك الأيام كانت الحياة فيه بدوية ساذجة، واللغة هي العربية، وهذا يفسر عدم اتجاهه إلى الشام أو العراق، وفيها القياصرة والأكاسرة الذين كرسوا أكثر أنواع الحكم فساداً، والصدام بينهم وبين المسلمين أمرٌ محتومٌ في مقتبل الأيام، لهذا لم يكن من المعقول أن يلجأ إليهم في وقت الضعف، ويحاربهم في وقت القوة، ودعوته ﷺ أنبل وأشرف من أن يقابلوا الإحسان بالإساءة[١].

ولما علمت قريشبأمر المهاجرين خرجت في آثارهم، فلم يدركوا منهم أحدًا، فأرسلت عمرو ابن العاص،على رأس وفد قرشي إلى نجاشي الحبشة في محاولة منها لإقناعه بأن أتباع الرسول من السفهاء المرتدين عن دين الأجداد، فطلب النجاشي المسلمين، ليوضحوا حقيقة الأمر، فقال جعفر بن أبي طالب: إنهم تركوا عبادة الأوثان، وعبدوا الله، فآذاهم قومهم، فاضطروا إلى الهرب طلبًا للأمان، وطلب النجاشي من جعفر أن يقرأ ما أوحي إلى الرسول محمد ﷺفتلا عليه بعض الآيات من سورة مريم، فقال البطارقة هذه كلمات من النبع التي صدرت منه كلمات عيسى المسيح، وقال النجاشي: وهذا الذي جاء به موسى عليه السلام، انطلقوا فلا والله لا أسلمهم إليك[٢]، وقد كانت هذه الهجرة

١-زيود : تاريخ العرب والإسلام ص٤٥

٢-ابن هشام : السيرة ٣٥٦/١.

خطوة سياسية موفقة من جانب الرسول ﷺ، ولا شك أنه كان لهذه الهجرة أثر كبير في نشر الإسلام وترغيب الناس فيه، فقد سمع عن الدين الإسلامي من لم يسمع به من قبل، وتأثر الناس لحال هؤلاء المهاجرين، وحزن بعضهم عليهم، وتناقلت الأخبار قصة المهاجرين الذين تركوا معاشهم ورفاههم بمكة وذويهم وفروا بدينٍ هو أفضل من الولد والأهل والمال، فيكون بذلك قد تحقق للرسول ﷺ ما كانت تصبو نفسه إليه، وهو التعريف برسالته خارج الجزيرة العربية، يضاف إلى هذا أنه في هذه الهجرة برهان مبكر على عالمية الإسلام، لأن المهاجرين نجحوا في نشر الإسلام في ديار النجاشي والنجاشي نفسه دخل الإسلام.

وظل الرسول مقيماً بمكة يدعو إلى الله معرّضاً نفسه لعداوة قريش وخصومتها، إلى أن كفّت عن ذلك إلى حد ما بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب عم الرسول محمد ﷺ، وإسلام عمر بن الخطاب الذي كان له أثر كبير في تقوية شأن المسلمين بمكة.

فماذا فعلت بعد ذلك ؟ فكرت بطرائق جديدة، فاستعانت عليه بأحبار اليهود في يثرب، وأخفقت في تحقيق مرادها لذلك اتبعت أسلوباً آخر.



٤-مقاطعة قريش لبني هاشم ووفاة زوجة الرسول ﷺ خديجة، وعمه:

أقدمت قريش على مقاطعة بني هاشم، وبني عبد المطلب، من آمن بمحمد ومن لم يؤمن، وقررت عدم التعامل معهم أومناكحتهم، وكتبوا ذلك في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، وقد نصت بنودها ألا يبيع أبناء قريش للمسلمين شيئاً، وألا يشتروا منهم شيئاً، وألا يكلموهم أو يجالسوهم، وألا يتزوجوا منهم أو يزوجوهم، فهرب بنو هاشم إلى واحد من شعاب مكة، بات يعرف بشعب أبي طالب، وقطعت عنهم قريش المؤن، وجذبت أبا لهب عم الرسول ليعمل ضد آل هاشم، وضغطت اقتصادياً على أبي بكر فتناقصت ثروته، وبقي آل هاشم وأتباع الرسول على هذه الحال ثلاث سنوات حتى بلغ الجهد منهم مداه، وتصارع صبيانهم جوعاً، ومات بعضهم، ومات أبو طالب عم الرسول ﷺ، وماتت زوجته خديجة بنت خويلد في عام واحد سماه الرسول عام الحزن[١]، لأنه فقد سندين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق، وبقي المسلمون على هذه الحال كذلك حتى أقدم بعض شباب قريش نفسها ومزقوا الصحيفة، وطلبوا من بني هاشم وبني المطلب العودة إلى مساكنهم، وبذلك نقضت الصحيفة.

-مشروع الهجرة إلى المدينة

١-حادثة الإسراء والمعراج :

وفي هذا العام أيضاً أسرى الله بمحمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وعرج في هذه الليلة إلى السماء، قال تعالى:{ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير** }[٢].

١-ابن هشام : السيرة ١٤/٢، أبو الفدا : المختصر ١١٩/١

٢-سورة الإسراء : الآية ١

وتثير حادثة الإسراء والمعراج كثيراً من المعاني الجليلة، وكان الله جل وعلا أراد أن يخبر المسلمين أن طريق السماء يمر عبر القدس إلى مكة والمدينة، وأنَ المتهاون أو المفرط بشأن القدس هو مفرط بمكة والمدينة، لأن تعرض القدس للخطر هو مقدمة لتعرض مكة والمدينة لأكبر المخاطر، لذلك لاقت القدس العناية والرعاية الكبيرة طوال عصور التاريخ الإسلامي، وهذا سيبحث أثناء الحديث عن فتح القدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقد أثارت حادثة الإسراء والمعراج كثيراً من التساؤلات حول ما إذا كان الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسد، وهناك قول عزي إلى السيدة عائشة: " بأنه ما فقد جسد رسول الله ولكن أسرى بروحه"، ويرجح أن الإسراء كان بالروح والجسد، وكانت القدس آنذاك تحت الاحتلال الساساني، الذي ألحق عظيم الأضرار بكنائس المدينة، ومكان الإسراء معروف، هو تحت قبة الصخرة، فهناك موضع الأقصى كانت كنيسة عرفت باسم كنيسة مريم الجديدة، بنيت أيام الامبراطور البيزنطي جستنيان[١].

لقد جاء الإسراء والمعراج هدى ورحمة لمن آمن به وصدقه، وتخفيفاً عن النبي ﷺ بعد وفاة أعظم مدافعين عنه، ومع ذلك عُدَ هذا العام من أشق أعوام دعوته، إذ اجترأ سفهاء قريش على النبي، ونالوا منه بإيذائهم ووصلوا إلى ما لم يصلوا إليه، ولا قدروا عليه في حياة أبي طالب[٢] ومع الإسراء والمعراج فرضت الصلوات الخمس.

---

١ – القيساري الفلسطيني، (بروكوبيوس): أبنية جستنيان المعاصرة

٢–ابن هشام : السيرة ٥٧/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٣ / ١٥١–١٥٦ وما بعد.

زكار وخربوطلي : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص٧٥.

٢- الرحلة إلى الطائف :

أدرك الرسول ﷺ بعد نيل قريش منه، اجترائها على إلحاق الأذى به، وبعد فقده أكبر نصيرين أن بقاءه في مكة أصبح محفوفاً بالمخاطر، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس من قوم ثقيف النصر[١]، لأنهم كانوا قادرين على بذل الحماية له، وإحاطته بالرعاية، وظنَ أنهم لن يترددوا في قبول ماجاءهم به لأنه الحق، والطائف مدينة زراعية كثيرة الخيرات، وهيقريبة من مكة، حصينة، ذات مناخ لطيف، وهو ألطف من مناخ مكة، واشتهرت بخصبها، وكانت مصيفا لأهل مكة، ولذلك امتلك القرشيون كروماً في الطائف، يضاف إلى ذلك أَنالطائف بلد في اعالي الجبال، والجبال تؤمن الحماية لمن يأوي إليها لاحتوائها على التضاريس، والطريق إلى الطائف طريق جبلي كثير الالتواءات، وهذه التضاريس تؤمن الحماية لسالكها، وبذلك يستطيع أصحاب الرسول أن يختفوا عن أعين قريش عندما يريدون الانسحاب من مكة، وهي مدينة ذات حصون، فلو قدر للدولة الإسلامية أن تقام في الطائف لما استطاع أعداؤها النيل منها، لما في مدينة الطائف من حصون، ولما تمتاز به من موقع استراتيجي دفاعي يجعل من العسير إذلالها وقهرها، وكان عليه السلام يعرف الطائف جيداً، لذا توجهت أنظاره إليها دون غيرها.

ذهب رسول الله إلى هناك، ووصل إلى الطائف، واتصل عند وصوله بنفر منهم، وهم يومئذ ساداتها وأشرافها[٢]وأخذ يدعو أهلها إلى عبادة الله والمنعة بهم من قومه[٣]،يذكر أنه كان بالطائف تكتلان سياسيان هما بنو مالك، والأحلاف، والأحلاف كانوا أقدم من سكن الطائف، لأن سدانة بيوت الآلهة

١-أبو الفدا : المختصر ١٢٠/١

٢-أبو الفدا : المختصر١٢٠/١.

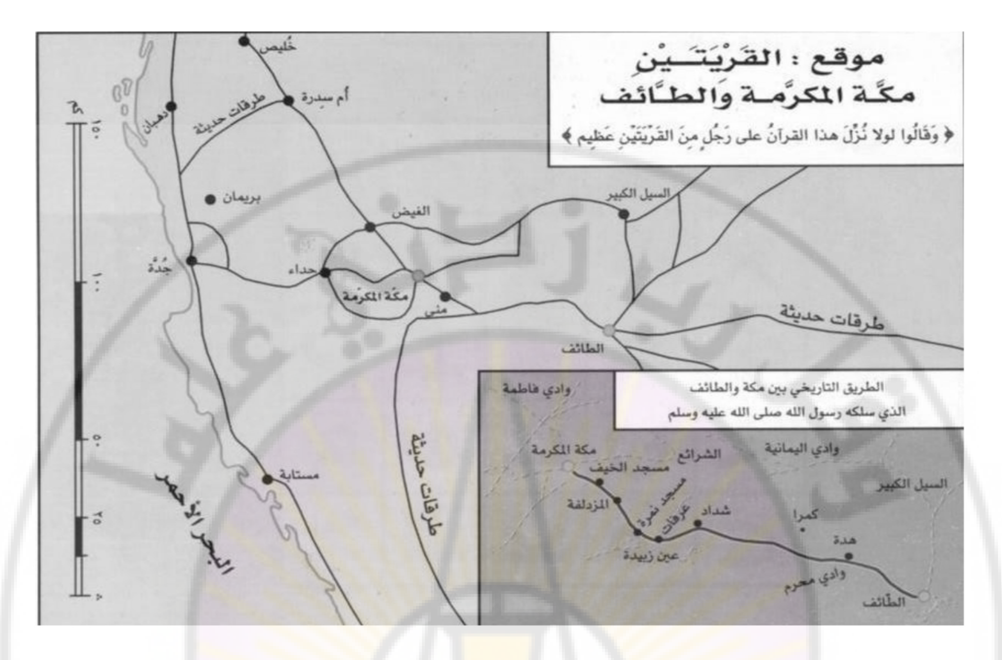
٣-ابن هشام : السيرة ٦٠/٢، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٤٤/٢

كانت بيدهم، أما بنو مالك فقد كانوا على صلات وثيقة ببني هوازن الذين كانوا أصحاب السيادة على أغلب الأراضي المجاورة للطائف، لذلك وجد الأحلاف أنفسهم مضطرين إلى أن يُمتنوا تحالفهم مع قريش حتى يقيموا التوازن بينهم وبين بني مالك حلفاء هوازن، وتوضح هذه التحالفات بين فرعي ثقيف، والقبائل الخارجية أن قبيلة ثقيف كانت تنقصها الوحدة، وقد اتصل الرسول عند وصوله الطائف بنفر من ثقيف، ودعاهم إلى عبادة الله، والمنعة بهم من قومه، فلم يجد قبولاً، وإنما استهزأ به بعضهم وكذبه بعضهم الآخر، وردوه رداً قبيحاً، فطلب منهم الرسول ﷺ كتم أمر قدومه عن قريش، حتى لا تتخذ من ذلك ذريعة للاشتطاط بتعذيبه.

ولما غادر الطائف لحق به سفهاء ثقيف وعبيدها يضربونه بالحجارة ويشتمونه، فالتجأ إلى بستان قريب حتى خفت ملاحقة مطارديه، فاشتد كربه، وعاد إلى مكة مخذولاً كسير القلب يبحث عن مخارج جديدة، فماذا يفعل الآن؟ وقد سدت في وجهه كل السبل؟

واعتمد على حكمته، وعميق تفكيره، ونحا منحى جديدًا، وهو الاتصال بأفراد القبائل المختلفة التي تزور مكة في أثناء موسم الحج، يعرض عليها دعوته، إذ يذكر ابن اسحاق أنه أتى قبيلة كندة في منازلها فدعاها إلى الإسلام، وعرض عليها نفسه فأبت، وقصد بني عبد الله الكلبيين في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم اتصل ببني حنيفة، ودعاهم إلى الإسلام، فأعرضوا عنه، وردوا عليه أقبح الرد، ودعا بني عامر بن صعصعة إلى الإسلام، وكانوا بسوق عكاظ، فاشترط عليه أحد ساداتهم أن يكون لقبيلته الأمر إذا أظهره الله على من خالفه من قريش، فلما أخبرهم رسول الله أن الأمر عائد إلى الله يضعه حيث يشاء أبوا عليه[١].

١-ابن هشام : السيرة ٦٦/٢، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٥٠/٢.



٣-بيعتا العقبة:

واستمر في الاتصال بالقبائل، فالتقى برهط من الخزرج[١] مؤلف من ستة أشخاص ينتمون إلى بطون مختلفة من حجاج يثرب (المدينة)، وقد كان أهل المدينة يعيشون بجوار اليهود، ولأن اليهودية دين سماوي كان لا بد من أن يكون عنداليهود من النضج الفكري بتأثير الجوار ما يجعلهم أكثر قبولاً للإسلام من غيرهم، وكان هناك صراع بين العرب واليهود، فلو استطاع جذب إحدى الطائفتين أمكنه السيطرة على الموقف، وامتلاك زمام الأمور، وقدر أن يكون العرب أكثر عوناً له من اليهود.

لذلك لما سمع برهط الخزرج السالف الذكر حتى أتاهم وعرض دعوته عليهم، فاستمعوا إليه، ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا إليه، وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام، ووعدوه أن يحدثوا قومهم بأمره، وقالوا: إنا قد تركنا

١ -الأوس والخزرج من أزد اليمن هاجرت بعد خراب سد مأرب وسكنت المدينة المنورة.

قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك[١]، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدقوا، ووعدوا بالعمل على نشر دعوة الإسلام.

ولما رجعوا إلى يثرب أخذوا يحدثون الناس بما سمعوا من الرسول ﷺ، ودعوتهم إلى الإسلام، وغدا ذكر الرسول يدور بين الناس هناك، وأصبحت دعوته موضع الأحاديث ومجال النقاش.

وفي السنة الثانية، جاء من يثرب اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، وبايعوا الرسول عند العقبة، وكانت هذه البيعة الأولى، وقد سميت بيعة النساء، لأنه لم تكن فيها بيعة على القتال، وإنما أخذ للعهد والميثاق فقط، أي بيعة دين وحماية فقط، وقد ذكر الله تعالى هذه البيعة في القرآن الكريم بقوله:
{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا** }[٢].

سر الرسول ﷺ بهذه البيعة، وقبل أن ينصرفوا عن النبي أرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقرئهم القرآن الكريم، ويعلمهم أصول الدين ويفقههم فيه، وكان يؤمهم في الصلاة، لأن الأوس والخرزج كرهوا إمامة بعضهم بعضاً[٣]، لما كان بينهم من عداوات، وحروب قبل ذلك.

لذلك سمي مصعب المقرئ بالمدينة، وقد كان لعودة الوفد ومعهم مصعب أكبر الأثر في انتشار الإسلام في يثرب، ودخول عدد كبير من أغلب أفراد المدينة في الإسلام.

١-ابن هشام : السيرة ٧١/٢، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٣٥٤.

٢-سورة الممتحنة : الآية ١٢.

٣-ابن هشام : السيرة ٧٧/٢.

وفي موسم الحج التالي ١٣ من البعثة ٦٢٢ م، قدم من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وثلاث نسوة، على خلاف في روايات المصادر حول العدد، وبايعوا الرسول ﷺ عند أسفل العقبة بمنى، وطلبوا منه الهجرة إلى يثرب، فعرض شروطه التي كانت تتلخص بأنه يرغب إلى اليثربيين أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، فأجاب أحد اليثربيين الحاضرين بالموافقة، والتأكيد على ما طلب الرسول ﷺ، وجرى بعد ذلك نقاش بين الرسول ﷺ وبعض أفراد الوفد حول مستقبل الصلات المشتركة، قال فيه أحد اليثربيين موجهاً الحديث للرسول ﷺ : " يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال[1] حبالاً وإنا لقاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا "[2]، فتبسم عليه الصلاة والسلام ثم قال: " بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم "[3]، ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يمثلون قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد عرفت هذه البيعة ببيعة الحرب، واشتهرت باسم بيعة العقبة الثانية، لأن الرسول ﷺ بايعهم في هذه البيعة على حرب الأسود، والأحمر، والأبيض، لإظهار الدين ولو كره الكافرون، ووعدهم بالجنة التي وعد بها المؤمنين.

تعد هذه البيعة بداية عصر جديد في حياة الجماعة الإسلامية في مكة إذ أخذ الرسول يشجع أصحابه على الهجرة إلى يثرب.

فما الأسباب التي جعلت مساعي الرسول تنجح في يثرب دون غيرها؟

١-يقصد القبائل المتهودة

٢-خربوطلي وزكار : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص٨٠

٣-ابن هشام : السيرة ٨٥/٢.

هناك جملة من الأسباب، منها يعود إلى الصراع بين اليهود وقبائل الأوس والخزرج، واستغلال اليهود لسكانها اقتصادياً، وسيطرتهم على الزراعة والتجارة، وحرفة الصاغة، ومصادر الثروة، أضف إلى ذلك الخصومات والحروب الكثيرة التي نشبت بين الأوس والخزرج وأذكى نارها اليهود هناك، وآخرها كان يوم بعاث، فقد وجد هؤلاء أنه من مصلحتهم إنهاء هذه الخصومات والحروب الطويلة، والانضواء تحت راية النبي ليوحد صفوفهم وينهي خلافاتهم، ويتخلصوا من سيطرة اليهود، الذين كانوا يقولون إن نبياً سيبعث، وإنهم سيقفون معه، ويقدمون على حرب أهالي يثرب[١].

إذن قوي هذا الشعور بسبب وجود الديانة اليهودية إلى جانبهم، إذ طالما حدثهم جيرانهم اليهود عن دعوته ونبوته، لذا أسرعوا إلى نصرته حتى لا يسبقهم اليهود، ويكون لهم النصر بواسطته، وكان أهل يثرب قد صمموا على التخلص من اليهود ونفوذهم وإجلائهم عن أراضيهم [٢].

ولا ننسى سرعة قبول اليثربيين للدين الجديد بخلاف المكيين إذ لا فائدة لهم مادية إن تمسكوا بالوثنية كما تمسك بها سادات قريش في مكة.

فليس في يثرب كعبة، ولا أصنام، ولا أماكن مقدسة، ولهذا لم تكن متضررة من قيام هذا الدين الجديد كمكة، ولم تتأثر زعامتها السياسية والدينية كما هي الحال في مكة.

يضاف إلى هذا أن يثرب كانت قرية تتمتع بمركز زراعي للتمور لصالح اليهود، ولم تكن تخشى مكة، ويمكنها أن تؤمن ما تحتاج إليه إذا ما تعرضت لأزمة عسكرية أو سياسية، كما كان لها موقع مهم على طريق القوافل التجارية يمكن أن يستغل ويهدد نشاط مكة التجاري، ولا شك أن الرسول ﷺ

١-زيود :تاريخ العرب والإسلام ص٤٧.

٢-حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١/٨٠.

كان يدرك ما يحيط بيثرب، ولا يستبعد أن يكون قد ركز على أهلها أكثر من غيرهم، وهو الواعي لكل خطوة يخطوها ومخطط لها، كما أظهرت الأحداث وبينت سير الأمور فيما بعد(١).

وأيا كانت الأسباب فإن الرسول ﷺ حرص على إخفاء أمر هذه البيعة، والتكتم عليها حتى لا تعلم بها قريش، إذ إن حماية الأوس والخزرج للنبي ﷺ لن تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب.

أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ فوق كل عصبية دموية، وفوق كل نزاع حزبي وتكتل طائفي، حيث هو داعية وحدة وتضامن تحت لواء دين يجمع ولا يفرق، وهو بالوقت ذاته يريد بلداً آمناً يبث دعوته فيه، وهكذا التقت المصالح، وتم التحالف، وكانت يثرب أفضل مكان لحل كل المشاكل وتمهدت السبل لحسن استقبال الرسول ﷺ في يثرب.

٤-الهجرة إلى المدينة :

علمت قريش بالمبايعة وبتحالف الرسول ﷺ مع عرب يثرب، فاستشاطت غضباً، واشتد أذاها على المسلمين، فأذن الرسول لأتباعه في مكة بالهجرة إلى يثرب، تاركين المال والأهل من أجل نصرة الإسلام، وتجهزوا في ستر وخفاء، وصاروا يتعاونون بالمال، وكان كل مهاجر من قريش وحلفائها يستودع دوره وماله رجلاً من قومه، فمنهم من حفظ الوديعة، ومنهم من تصرف بها وفق رغبته، وخرج المسلمون متخفين جماعة تلو الأخرى، حتى لم يبق في مكة إلا الرسول ﷺ وعلي ابن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، ومن اعتقله المشركون كرهاً(٢).

١-زيود : تاريخ العرب والإسلام ص٤٧

٢-ابن هشام : السيرة ٢/ ١٢٣، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٧/١-٣٨.

واجتمعت قريش في دار الندوة كعادتها قبل الإسلام للمشاورة، وبعد مداولات اقترح أبو جهل جمع شباب كل القبائل من ذوي الحسب والنسب، وتسليح كل واحد منهم بسيف صارم، فيضربون الرسول ضربة واحدة، فيتفرق دمه بين القبائل جميعًا، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش.

وانفض الاجتماع، وأجمعت قريش على هذا الرأي، وتفرقوا مجمعين عليه، فنزل قوله تعالى: { **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** }[١] فلم تنجح خطتهم، فقد استطاع الرسول ﷺ أن يخرج من أمامهم دون أن يروه، وترك خلفه علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه في فراشه ليوهمهم أنه مازال نائماً فيطمئنوا لذلك، ثم مضى صاحبه أبو بكر، فانطلقا يريدان المدينة، ومضيا أولاً إلى غار بجبل ثور، وبات المتآمرون أمام دار النبي طوال الليل، فلما أصبحوا وجدوا عليًا في فراش النبي، فبادروا إلى اقتفاء أثر النبي، ووصلوا إلى الغار، فجزع أبو بكر خيفة، وكان الرسول يهدئ من روعه، و في القرآن الكريم إشارةإلى ذلك، قال تعالى: { **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا.وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** }[٢].

وأمضى الرسول ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق ثلاث ليال، ارتحلا بعدها متوجهين إلى يثرب (المدينة).

١-سورة الأنفال : الاية ٣٠

٢-سورة التوبة : الآية ٤٠.



التنظيمات الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية

١– دولة الرسول في المدينة :

أ–بناء المسجد النبوي ودوره:

انتشر خبر وصول الرسول ﷺ وصاحبه في يثرب بين المهاجرين والأنصار، فخرجوا للقائه فرحين مستبشرين ينشدون الأناشيد، إلى أن وصل النبي ضاحية تسمى قباء، ونزل على بني عمرو بن عوف، وأقام عندهم أربعة أيام أو أكثر، وأسس بقباء مسجداً[١]، ثم ركب راحلته وسار الناس معه حتى بركت ناقته في مربد[٢] للتمر لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في كنف أسعد بن زرارة يقال لهما سهل وسهيل، فقال رسول الله ﷺ حين بركت ناقته

١–قباء على بعد ميلين من المدينة. الحموي : معجم البلدان مادة قباء.

٢–الموضع الذي يجفف فيه التمر.

هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا الغلامين وساومهما المربد ليتخذه مسجدا فابتاعه منهما، ونزل عليه الصلاة والسلام بدار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري سبعة أشهر إلى أن تم بناء المسجد ومساكنه[١].

وبوصول الرسول ﷺ إلى يثرب باتت تعرف باسم المدينة، وغدا قائد الأمة، وقد استقبله أهلها زعيماً سياسياً، ولم تعد مهمته تقتصر على تبليغ الوحي والدعوة فقط، ويلاحظ ذلك من سور القرآن، ففي مكة تناولت السور أمور الدين والعبادة، أما في المدينة فتحدث القرآن عن التشريع، وأمور المجتمع السياسي والديني، إذ صار القرآن دستور هذه الأمة، فالإسلام عقيدة ونظام.

ومن يرصد مهمة الرسول ﷺ بعد الهجرة إلى يثرب (المدينة) يظهر له بدايات ظهور الأمة الإسلامية[٢]، فللهجرة قيمة خاصة في تاريخ الإسلام، وانتصار على الوثنية، لذا اتخذ يومُها بداية التاريخ الإسلامي الهجري، ولأنه وضع حداً فاصلاً بين دعوة دينية يحميها نفر مستضعفون قليلون، وبين مرحلة جديدة أصبح فيها الإسلام دولةً قويةً مرهوبة الجانب، فرأى عليه السلام تنظيم الحياة في المدينة، فاهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها الدولة.

ب- المؤاخاة :

إن أول مشكلة واجهته هي المشكلة الإقتصادية التي نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين قدموا وليس لديهم ما يسد رمقهم، وبحكمة منه أقام رابطة متينة من الأخوة بين المهاجرين والأنصار –نظام المؤاخاة – فقد دعا الأنصار إلى مساعدة المهاجرين، ووحد صفوفهم عن طريق تآلفهم حتى لا تثور العداوة

١–ابن هشام : السيرة ١٤١/٢وما بعد، ابن الأثير : الكامل ١٠٩/٢ وما بعد.

٢–أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٤٧.

بينهم، كانت مؤاخاةً على الحق والمواساة، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثًا مقدمًا على القرابة[١]، وقد تمت المؤاخاة على مرحلتين، مرحلة آخى فيها الرسول بين المهاجرين بعضهم مع بعض، ومرحلة آخى فيها بين المهاجرين والأنصار، فإذا مات أحد الأنصار، ورثه أخوه المهاجر[٢] وكان الرسول يرمي من وراء المؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار أن يذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، وأن يجد حلاً للأزمة الاقتصادية التي كان يعاني منها المهاجرون المسلمون، وأن يُحل عصبية الدين محل عصبية القرابة والنسب، وبذلك حل الرسول الكريم مشكلة كبيرة، وقد تيسرت للمهاجرين سبل العيش في المدينة، وحصلوا على بعض الأموال، من إخوانهم الأنصار، وشاركوهم في التجارة، وفي بعض الأعمال الزراعية، وساهمت الزكاة بعد فرضها في تحسين أحوالهم، كما أن هذه المؤاخاة سمحت للمسلمين أن يتوارثوا إرثاً مقدماً على القرابة، واستمر التوارث بين المسلمين حتى كانت وقعة بدر الكبرى، وانتفع المسلمون بما غنموه وحققوه، وعز بذلك شأنهم المادي والمعنوي، ونزل الوحي وأرجع كل مسلم إلى نسبه وأهله، وغدا التوارث لذوي القربى فقط[٣] ولم يكتف بذلك، فقد سمح لفقراء المسلمين الذين ليس لهم منازل، ولا عشائر، أن يبيتوا بالمسجد، وكان يدعو طائفةً منهم ليلاً لتناول العشاء معه، وكان يكلف أصحابه إطعام الآخرين، وقد عُرف ذلك الفريق من المسلمين بأهل الصُفة[٤] لأنهم كانوا يأوون إلى صفة المسجد، وهي المكان المسقوف منه[١] وكان أبو ذر الغفاري واحدًا منهم.

١-البلاذري :أنساب الأشراف ١ / ٣١٨

٢-السمهودي : وفاء الوفا٢٦٨/١.

٣-المقريزي : إمتاع الأسماع ص٥٠، ابن سعد : الطبقات ٣/٣،سرور، قيام الدولة العربية ص٩٥

٤-البلاذري :أنساب الأشراف ٣٢٠/١.

ج- دستور المدينة :

لما استقر الرسول في المدينة رأى أنه من الواجب وضع دستور للمدينة ينظم الحياة فيها، ويكون أساسًا ليحقق الوحدة بين أهاليها، ويجمع شملهم، ويحدد علاقاتهم بعضهم مع بعض، فعقد حلفًا، أوضحه بالوثيقة أو الصحيفة التي تتفق مع منطق الحوادث في المدينة، وهذه الوثيقة تبين الاتفاق على النقاط التالية:

١ – عدَ جميع المسلمين المهاجرين والأنصار أمةً واحدةً.

٢ – التضامن التام، والمسؤولية بين أفراد الجماعة الإسلامية.

٣ – فتح المجال أمام اليهود الراغبين في الإسلام.

٤ – الحرية الدينية لليهود.

٥ – موقف العداء ضد قريش مسؤوليةٌ جماعيةٌ.

٦ – الدفاع عن المدينة والحرب مسؤوليةٌ جماعيةٌ.

٧ – الديات والفداء مسؤوليةٌ جماعيةٌ.

٨ – أهمية الولاء والجوار.

٩ – أهمية الصلة بين المؤمن والمؤمن إلى حد التفضيل على القرابة بالتوالد والدم.

١٠ – حرمة المدينة كحرمة مكة.

١١ – فض الخصومات مسؤولية الرسول وحده[٢].

وبذلك كانت الصحيفة (دستور المدينة) أول دستور ينظم شؤون الجماعة الإسلامية في المدينة على أساس الدين والسياسة، ويعطي الحق لنظام الجماعة الإسلامية أن يعاقب المفسد، ويؤمن المطيع، وقد عملت على تأمين الانسجام

١-ابن هشام : السيرة ١٤٧/٢وما بعد.

٢-سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص٩٦.

والوئام بين الوافدين من مكة، وأهل البلاد من أنصار ومشركين ويهود، وإيجاد صيغة مشتركة في الدفاع عن المدينة ضد العدو قريش، وشكلت الخطوة الأولى التنظيمية لإقامة الأمة الجديدة، والانتقال إلى يثرب المدينة، التي ستكون مؤهلة لإقامة حكومة مركزية تسيطر على شبه الجزيرة، ثم لتتحمل مسؤولية الفتوحات الكبرى، لاسيما أيام الشيخين : أبي بكر، وعمر.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الرابع السرايا والمغازي

السرايا حتى غزوة بدر

من أحد حتى الخندق

الحروب ضد اليهود

الحديبية

فتح مكة

مؤتة

حنين والطائف

تبوك

دخول الإسلام لليمن

عام الوفود

حجة الوداع ووفاة الرسول



السرايا والمغازي

-السرايا حتى غزوة بدر

١-تعريف السرية والغزوة لغة واصطلاحاً:

الغزوة: من الغزو، والاسم الغزاة، وجمع الغازي غزاة وغزي، والمغزاة: موضع الغزوة[١] وقيل: غزاه غزواً أراده وطلبه وقصده[٢]، أما السرية في اللغة: سميت سرية لأنها تسري ليلاً في خفية لئلا ينذر بهم العدو، فيحذروا ويمتنعوا[٣]، والسرية الطائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مئة تبعث إلى العدو، وجمعها سرايا، أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم يكونون خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري النفيس[٤]، ذكر «الحافظ ابن حجر»: «أنّها من مئة إلى خمس مئة»[٥]. وذكر «ابن منظور والفيروز آبادي»: «أن السرية ما بين خمس مئة أنفس إلى مئة»[٦].

سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم :

بانتهاء الرسول صلى الله عليه وسلم من تنظيم أموره الداخلية، شرع في تنظيم علاقات المسلمين مع بقية أجزاء بلاد العرب، ففرض الله عليه وعلى المسلمين الجهاد، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة بقوله تعالى:

{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } [٧] وبقوله تعالى:{

---

١ -ابن الأثير: النهاية٣/٣٦٦.

٢ -ابن منظور : لسان العرب، مادة غزا.

٣ - ابن منظور : لسان العرب، مادة سرا.

٤ - ابن الأثير : النهاية ٢/٣٦٣.

٥ -ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٨/٥٦.

٦ -ابن منظور: لسان العرب، مادة سرا. الفيروز أبادي: القاموس،مادة سرا.

٧-سورة الحج : الآية ٣٩.

وقَاتِلُوهُمْ حتّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[1]، وكذلك قوله تعالى: **{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَال وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** }[2]

وبهذا فقد أعطى تشريع الجهاد للمسلمين صفة سياسية، وأعطى لمجتمع المدينة صفة الدولة التي لا تستغني عن السيف لإقرار مبادئها، **فما هو الهدف من تشريع الجهاد**؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد من تبيان أن الجهاد هو بذل الطاقة لتقويم الاعوجاج، عُدَ الجهاد على هذا ليس حرباً مقدسة بل قصد منه:

١ – الدفاع عن النفس في حالة تعدي أحد على المسلمين.

٢ – الدفاع عن الدعوة وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من عذاب أو إيذاء.

٣ – محاربة من أخرجوهم من ديارهم واغتصبوا أموالهم وأملاكهم بغير حق.

وقد أدرك المسلمون أنهم لن يستطيعوا نشر الدعوة الإسلامية إلا بالقضاء على نفوذ القرشيين الذين اضطهدوا صاحب الدعوة وكل من آمن به، فما العمل؟

لابد من رصد تحركات قريش، وإيقاف المعارضة التي تقودها ضدهم بين القبائل الأخرى، ولن يتم ذلك إلا إذا قضوا على نفوذ تجارتها، ولابد لهذا كله، من الاستعداد والتخطيط في سبيل ضرب الخصم والإيقاع به.

١-سورة الأنفال : الآية ٣٩

٢-سورة البقرة : الآية٢١٦.

لذا كانت السرايا أولى أعمال الرسول الحربية [1]، وكانت السرايا استطلاعية ضد قوافل قريش، الغاية منها محاصرة قريش، وقطع الطريق عن أي صلة بالرقعة المحيطة بها، لكي يتم استدراجها إلى مواقع حربية خارج مكة أو إلى تسليم سلمي.

والمفيد ذكره قبل الحديث عن السرايا والغزوات أنه تعددت الأغراض والغايات من السرايا، إذ يمكننا القول إنه كانت هناك سرايا وبعوث لجباية الزكاة، وأخرى لضبط الحدود وحمايتها، وبعوث قضائية، وأخرى تعليمية، ودعوية وغير ذلك، وهناك سرايا لم تذكر كتب الحديث، ومعاجم الصحابة، والبلدان، والمعاجم اللغوية وغيرها الغرض منها، وعلى العموم إذاكانت السرايا والمغازي قد استهدفت الاقتصاد القرشي المنحرف، فقد أوجد النبي ﷺ اقتصاداً في المدينة يلبي حاجات أهل الجزيرة من دون ربا أو استغلال، أو غش، وباتت المدينةالمسؤولة اقتصادياً عن ديار شبه الجزيرة، وجاء فتح مكة كما سنرى ليحول مكة إلى مدينة الحج والحجاج، وتجار قريش الذين دخلوا في الإسلام، وحسن إسلامهم إلى ولاة ورجال إدارة، وقادة جيوش، وبناة حضارة عربية إسلامية، لذلك سوف نجد أن الفاتحين قاموا بهداية الناس إلى الإسلام، وأخذوا في تعريبهم، لذا هم لم يذوبوا في أجسام حضارات الشعوب القديمة، بل أعادوا صياغتها.

٢-من أهم هذه السرايا:

- سرية سيف البحر حدثت في السنة الأولى الهجرية، وكان على رأسها حمزة بن عبد المطلب[2].

١-السرية هي التي لم يخرج فيها الرسول ﷺ بنفسه فقد كان يعقد اللواء إلى رجل من أصحابه، أما الغزوة فهي التي كان يخرج فيها ﷺ مع المقاتلين.

٢ - الطبري: تاريخ ١١/٢. ابن الأثير : الكامل ١٠/٢. ابن كثير: البداية والنهاية٢٧٢/٣.

– سرية رابغ حدثت في السنة الأولى للهجرة، وكان على رأسها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب[1].

– سرية الخرّار حدثت في السنة الأولى للهجرة، وكان على رأسها سعد بن أبي وقاص[2]

– سرية نخلة وكانت في السنة الثانية للهجرة، بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي[3]، وقد أعطاه محمد ﷺ كتاباً، وأمره ألا يقرأه إلا بعد مسيرة يومين، وتضمن الكتاب الأمر بالمُضي حتى وصول نخلة بين مكة والطائف، ثم القيام برصد عيرٍ لقريش .

واعترضت هذه السرية قافلة لقريش، وأتت بأسرى، وكان ذلك في الأشهر الحرم دون أن يعلموا أن شهر رجب قد دخل، فاتخذتها قريش ذريعة لتشنع على المسلميـــــن اعتداءهم في الشهر الحرام، وتظهر محمدًا وأصحابه بمظهر المعتدي الذي لا يحترم مقدسات العرب، وينكر مقدساته، فنزلت آيات بينات صححت للمسلمين تصوراتهم وردت كيد الكافرين إلى نحورهم إذيقول الله تعالى:

{ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**

---

١ –الطبري: تاريخ٢/١٢. ابن الأثير: الكامل٢/١٠.ابن كثير: البداية والنهاية٣/٢٧٢.

٢ – الطبري: تاريخ٢/١١.ابن كثير: البداية والنهاية٣/٢٧٢.

٣ –ابن سعد : الطبقات٢/٩. الطبري: تاريخ٢/١٥.ابن الأثير: الكامل ٢/١٢.ابن كثير: البداية والنهاية٣/٢٨٥.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(١).

ب_ السرايا النبوية التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم

العدد	اسم السرية	تاريخ السرية		مكان السرية وهدفها
		الشهر	العام الهجري	
١	سرية حمزة بن عبد المطلب	رمضان	١	إلى ناحية البحر من جهة العيص
٢	سرية عبيدة بن الحارث	شوال	١	إلى بطن رابغ
٣	سرية سعد بن أبي وقاص	ذو القعدة	١	إلى الخرار قرب رابغ
٤	سرية عبد الله بن جحش	رجب	٢	إلى وادي نخلة بين مكة والطائف
٥	سرية عمير بن عدي بن خرشة الخطمي	رمضان	٢	لقتل عصماء بنت مروان التي تعيب الإسلام وتسب النبي صلى الله عليه وسلم
٦	سرية سالم بن عمير	شوال	٢	لقتل أبي عفك اليهودي من بني عمرو بن عوف وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم
٧	سرية محمد بن مسلمة	ربيع الأول	٣	لقتل كعب بن الأشرف
٨	سرية محيصة الأنصاري	قبل أحد	٣	لقتل ابن سنينة اليهودي
٩	سرية زيد بن حارثة	جمادى الثاني	٣	إلى ماء القردة بنجد واستولى على تجارة لقريش
١٠	سرية أبي سلمة المخزومي	محرم	٤	إلى بني أسد فوصل ماء بديارهم يسمى قطن
١١	سرية عاصم بن ثابت الأنصاري	صفر	٤	إلى ماء الرجيع في ديار بني لحيان من هذيل
١٢	سرية المنذر بن عمرو الأنصاري	صفر	٤	إلى بئر معونة (موضع غرب مهد الذهب) فغدر بهم الأعراب فقتلوهم وكانوا سبعين قارئاً
١٣	سرية عبد الله بن عتيك	ذو القعدة	٥	لقتل أبي رافع اليهودي
١٤	سرية عبد الله بن أنيس	محرم	٥	لقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي بعرنة قرب مكة
١٥	سرية محمد بن مسلمة	محرم	٦	إلى القرطاء من ديار بني بكر بن كلاب ناحية ضرية وقد أسروا في عودتهم ثمامة بن أثال الحنفي
١٦	سرية عكاشة بن محصن	ربيع الأول	٦	إلى مكان يسمى الغمر من ديار بني أسد
١٧	سرية محمد بن مسلمة	ربيع الأول	٦	إلى ذي القصة شرقي المدينة وكانوا عشرة فقتلوا غير محمد بن مسلمة
١٨	سرية أبي عبيدة بن الجراح	ربيع الآخر	٦	إلى ذي القصة شرقي المدينة وقد غنم منهم
١٩	سرية زيد بن حارثة	ربيع الآخر	٦	إلى بني سليم عند ماء لهم يسمى الجموم وهو في حرة كشب
٢٠	سرية زيد بن حارثة	جمادى الأولى	٦	إلى العيص يعترض تجارة قريش ويقال أن هذه سرية أبي جندل وهي بعد هذا في زمن الهدنة
٢١	سرية زيد بن حارثة	جمادى الآخرة	٦	إلى بني جذام في مكان يسمى حسمى
٢٢	سرية زيد بن حارثة	جمادى الآخرة	٦	إلى بني ثعلبة في مكان يسمى الطرف

وفرج الله بهذه الآيات كرب المسلمين، لأن الآيات الكريمة بينت للمسلمين صحة ما فعلوه، وثبتت قلوبهم، وأقدامهم، وكشفت أقنعة الكافرين، نزلت تقرر

١-سورة البقرة : الآية ٢١٧-٢١٨.

حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبير، (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل)، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، وإن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويتشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس ومسوغات لمن ينتهكون الحرمات ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر، وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان.

وهناك العديد من الغزوات يمكن الاطلاع عليها ضمن الجدول المرفق.

ولكن يمكن القول إن هذه السرايا وغيرها من السرايا كانت في جملتها تهيئة للمسلمين، وإعداداً وتمهيداً مهماً لغزوة بدر الكبرى .

وقد حققت اكثيراً من النتائج :

١-بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج، فقد استطاعت تلك السرايا أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية إلى قوة المسلمين وقدرتهم على الجهاد.

٢-مثلت السرايا الإعداد العسكري لما سيستقبله الصحابة من فتوحات لاحقة وغزوات قادمة، وكانت السرايا شاهداً على إخراج جنود وقادة قام على أيديهم نشر دين الإسلام.

٣-وكان الهدف الرئيس الذي تحقق، هو ضرب مركز العدو (قريش)، إذ إنَّ قريشاً أدركت أنّ جانب المسلمين أصبح يتسم بالمنعة والقوة، وأنّ طريق تجارتها كذلك أصبح مهدداً من المسلمين، وأنّ عليها أن تتبع الإسلام، أو على الأقل تمتنع من الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية الآخذة في الانتشار والقبول.

٤- تصغير دور الأعراب على أن يكون لهم وجود في طرق التجارة.
٥- استدراج قريش للخروج من مكة بقافلة تجارية ضخمة ثم مواجهة عسكرية في ميدان غير ميدانها[١]، ومن ثم تحويل المدينة إلى قاعدة آمنة للأمة الإسلامية، ومركز انطلاق إلى بقية المناطق[٢]، وهذا يتطلب تأمين المدينة، وتوسيع رقعة الدولة، ثم عقد مصالحات ومعاهدات، مع القبائل الواقعة في الشمال والجنوب، وهي على صلات وثيقة بقريش، ومن ثم السيطرة على طرق التجارة لتهديد مصالح قريش التي تعد الحاجز الأقوى الذي يقف حائلاً أمام انطلاق الدعوة الإسلامية، يضاف إلى ذلك العمل على إبراز قوة المسلمين أمام اليهود، وبقايا المشركين، كما أن المسلمين كانوا يدركون أنه لن يتيسر لهم نشر الدعوة الإسلامية، وإيقاف المعارضة التي تقودها قريش ضدهم بين القبائل الأخرى إلا بالقضاء على نفوذ القرشيين، ولهذا كله كان كل من الفريقين يستعد ويخطط في سبيل ضرب خصمه والإيقاع به.

لذا قامت بين الفريقين سلسلة من الأعمال الحربية المهمة كانت غزوة بدر فاتحةً لها وأهمها:

٣-غزوة بدر[٣] 17 رمضان2 هـ 624 / م:

سميت غزوة بدر بهذا الاسم نسبة إلى مكان المعركة التي وقعت على أرض بدر، وبدر اسم لعين ماء يقع بين مكة المكرمة والمدينة المنورة جنوب غرب المدينة المنورة، والمسافة بينها وبين المدينة بطرق القوافل القديمة التي سلكها الرسول نحو ٢٥٧,٥ كيلومتراً (١٦٠ ميلاً)، كما أنها تقع شمالي مكة،

١-العمري: المجتمع المدني ص٢٧

٢-شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص١٣٠-١٣١.

٣-ابن هشام : السيرة ٢٥٨/٢، ابن كثير: السيرة ٣٨١/٢.

والمسافة بينها وبين مكة بطرق القوافل القديمة التي سلكها جيش قريشنحو ٤٠٢,٣ كيلومتراً (٢٥٠ ميلاً).

أما المسافة اليوم بين مكة وبدر بطرق السيارات فهي ٣٤٣ كيلومتراً، والمسافة بين المدينة وبدر بهذا الطريق هي ١٥٣ كيلومتراً، وأما المسافة بين بدر وساحل البحر الأحمر الواقع غربيها فهي نحو ثلاثين كيلومتراً.

أسباب غزوة بدر متعلقة بقافلة مكية عائدة من الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان ابن حرب، هيقافلة ككل القوافل التي خرج إليها المسلمون قبل ذلك، ومعظم القوافل التي خرجت قبل ذلك لم يحدث فيها قتال، حتى القتال الوحيد الذي حدث في سرية نخلة كان قتالاً بسيطاً جدًّا، لكن هذه القافلة كانت تختلف عن بقية القوافل في بعض الأمور المهمة:

أولاً: هذه القافلة من أكثر قوافل مكة مالاً، وضربها يمثِّل ضربة اقتصادية هائلة لمكّة، ألف بعير مُوقَرَة بالأموال، لا تقل عن ٥٠ ألف دينار ذهبي.

ثانيًا: هذه القافلة ليست بقيادة قائد مغمور من قواد مكة أو تاجر عادي من تجار قريش، وإنما هي بقيادة أبي سفيان بن حرب، وهو من سادة قريش ومن سادة بني أميَّة، ومن الواضح أنَ كان للقافلة عند قريش أهميةً بالغةً، ومن ثَمّ جعلت لها حراسة مشددة، وقوية مكوَّنة من ثلاثين أو أربعين رجلاً، في حين لم يكن على حراسة قافلة نخلة سوى أربعة رجال فقط.

ثالثًا: وهو السبب الأهم، أن هذه القافلة تمرُّ بجوار المدينة وتخرق حرمة أراضي دولتها في شهر رمضان، أي بعد شهر ونصف فقط من أحداث سرية نخلة، وموقف المؤمنين مع هذه القافلة يؤكِّد صلابة موقف المسلمين، واستمرارية حربهم ضد قريش، ويثبت أنهم ليسوا خائفين من آثار سريَّة نخلة،

بل على العكس يُعدُ هذا الخروج تأكيدًا لقوة المسلمين وتصميمهم، ولا شك أن هذا سيهزُّ كفار مكة.

لذلك خرج الرسول ﷺ بأكبر عدد من المسلمين بعد أن استشار أصحابه، وتزود بسلاح المسافر، واتّجه مباشرة إلى بدر، لكي يقطع الطريق على القافلة، وكان على رأس القافلة المكيّة أبو سفيان بن حرب، واحدٌ من أذكى وأدهى العرب، عرف أن الرسول ﷺ خرج من المدينة المنورة قاصدًا القافلة، لكنه لا يعرف إلى أيِّ مكان وصل الرسول عليه السلام، فأرسل رسالة سريعة إلى مكة، واستنفر قريشًا للدفاع عن تجارتها حينما عرف أن المسلمين سيترصدون له[1]، فقام الناس كلهم مسرعين، وأخذوا الأمر في منتهى الجدية، فهم لم ينتهوا بعدُ من أزمة (سريّة نخلة).

وبدأت قريش بجمع المقاتلين من كل مكان، وعملوا على إعداد جيش على أعلى مستوى، وجعلوا على رأس الجيش أبا جهل.

كان الحصار الاقتصادي الذي فرض على قريش قبل غزوة بدر عاملاً مهمًا لإخراج قريش من البلد الحرام، ودفعها إلى مكان آخر تدار فيه المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين، لكن قريشاً قبل غزوة بدر مع خشيتها من ترصد المسلمين لتجارتها، استنفرت كل طاقتها المالية والعسكرية، وأخرجت تجارة ضخمة إلى الشام، ربما كانت تعويضًا عما منيت به من خسارة لانقطاع تجارتها، منذ أن بدأت السرايا والغزوات التي أزعجتها وأخرجتها عن طورها، فقررت الخروج في تجارة ضخمة كمغامرة، ومع هذا اتخذت ترتيباتها لتأمين تجارتها، فجعلت على القافلة - كما سلف القول-أربعين رجلاً لحمايتها واتخذت عيون الاستطلاع، وطرقًا متعرجة.

---

١ -ابن هشام : السيرة ٢/٢٥٨، ابن كثير : السيرة ٢/٣٨١.٠. خربوطلي وزكار : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص١٠.

خرجت قريش موتورة تدفعها الحمية مغترة بنفسها، وفي الوقت نفسه تخشى سقوط هيبتها أمام العرب، وهاهي ذي تندفع لرد اعتبارها، ورفع كرامتها أمام العرب، فنزلت بالعدوة القصوى من الوادي في الوقت الذي كان فيه أبو سفيان قد وصل بعيره إلى مكة، فأرسل إلى قريش ينهاهم عن المضي إلى بدر لمحاربة المسلمين، فإذا كان خروجهم بقصد منعة العير والقافلة والرجال والأموال، فإن هذه العير والرجال والأموال قد وصلت سالمة، ولم يعد هناك مسوغ للحرب.

ومع هذه التحذيرات، وتنبيهات أبي سفيان بعد نجاته بألا يخرجوا لملاقاة المسلمينقرر سادة قريش مواجهة المسلمين تحقيقاً للهدف الذي سيطر عليهم، وهو أن ينزلوا بدرًا باعتباره سوقًا وملتقى طرق التجارة كي يسمع بهم العرب وتظل هيبة قريش في نفوسهم[١]، ويمنعوا محمدًا ومن معه من التعرض لأموالهم، وتجارتهم كما يقول أبو جهل[٢]، فلم يستجب له من قريش إلا بنو زهرة وبنو عدي بن كعب.

ولا تعنينا التفاصيل، فكتب السيرة تغنينا عن هذا، ولكن يهمنا الخط العام، وهو جعل المدينة ومكة قاعدة انطلاق إلى بقية الجزيرة العربية.

وخرج المسلمون وفي مقدمتهم النبي ﷺ في طلب عير أبي سفيان دون أن يكون في نيتهم القتال، وقد كان موقفهم حرجاً، فقد خرجوا في قلة عدد وبغير استعداد مسبق للقتال، وإذ بهم يفاجؤون بخروج قريش لهم، بل مكة كلها بأشرافها وأفلاذ أكبادها، إذن لامناص من القتال، فلا يمكن أن يعود النبي وأصحابه إلى المدينة ناكسي الرؤوس واضعين أنفسهم موضع الضعيف المهزوم، فتطمع بهم كل الفئات، ويؤدي ذلك للإطاحة بهيبة الدولة الإسلامية

١-ابن كثير : السيرة٢ /٣٩٩.

٢-البلاذري : أنساب الأشراف١/٢٩١.

الناشئة، والقضاء على حركتها، وجعلها هدفاً أكيدا للاعتداء الوشيك سواء من الداخل أو من الخارج، ومع ذلك وقف المسلمون جميعاً صفاً واحداً وأجمعوا على خوض المعركة مهما كانت نتيجة ذلك، فاطمأنت نفس رسول الله ﷺ إلى هذه الروح العالية، وتفاءل خيراً، ووضع خطة محكمة تواءمت مع طبيعة الأرض التي ماتزال كما هي حتى الآن.

لما وصل جيش مكة إلى بدر دب في نفوس أمراءه الخلاف، وتزعزعت صفوفهم الداخلية، ولكن أبا جهلٍ رفَضَ العودة إلى مكة بدون قتال، وأصر على المضي لقتال المسلمين.

وابتدأت الحرب بالمبارزة على ما كان شائعاً بين العرب في ذاك الزمان، ثم بدأ القتال بين الفريقين، ولم تطل المعركة في ذلك النهار[1]، وحلت الهزيمة بصفوف قريش، وقتل من رجالاتها عدد غير متفق عليه بين ال٤٥-وال٧٠ رجلاً، وأسر المسلمون زهاء سبعين أسيراً من القرشيين، أما قتلى المسلمين فكانوا أربعة عشر شهيداً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

وقدم الرسول ﷺ المدينة بعد انتهاء واقعة بدر مظفراً، قد أعلى الله كلمته وأعزه ونصره، ففرّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: استوصوا بهم خيرًا، وقد روي عن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير أنه قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله:ﷺ : استوصوا بالأسارى خيرًا، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرِّ لوصية رسول الله،ﷺ، وقال أبو العاص بن الربيع: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده

١-ابن هشام: السيرة٢٧٧/٢، المقريزي : امتاع الأسماع ١٠١/١.

كسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون.

وقد كانت لهذا النصر نتائج بعيدة الأثر أهمها:

بعثت قريش إلى الرسول محمد في فداء أسراهم، ففدى كلٌ قوم أسيرَهم بما رضوا، وكان ناس من الأسرى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل الرسول فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلِّم عشرة من الغلمان يفدي نفسه.
أما النتائج المتعلقة بقريش فكانت خسارة فادحة ظهرت في الجوانب التالية:

١- قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأظهروا في مجتمع الجزيرة العربية قوة سياسية وعسكرية تستطيع أن تتحدى مكة، ولا يلزمها إلا براهين قليلة لتحتل مكان الصدارة والسيادة.
٢-دخول كثير من المشركين في الإسلام.

٣-خسارة قريش خسارة فادحة، وتدهور سمعتها السياسية والعسكرية في أنحاء الجزيرة العربية، فقد قُتل فيها أبو جهل عمرو بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء قريش الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعةً وقوةً وبأسًا، ولم تكن غزوة بدر خسارة حربية لقريش فحسب، بل خسارة معنوية أيضاً، لأن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كله.

٤- أصبح للدولة العربية الإسلامية الجديدة مصدرٌ للدخل، وانتعشت حال المسلمين المادية والاقتصادية بما اكتسبوه من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين داما تسعة عشر شهرًا إذ أفاء الله عليهم من الغنائم التي حصلوا عليها

من متاع وإبل وثياب وأسلحة، كما بعثت قريش كثيراًمن الأموال لفداء أسراها.

٥-إلغاء نظام المؤاخاة الاقتصادي إذ لم يعد له حاجة، لعودة التوارث بالقرابة.

٦-دخول علاقات الرسول مع قريش مرحلة جديدة طابعها الحرب، لذا لابد من تقوية الصفوف الإسلامية، وكسب المؤيدين والأنصار.

٧-شرعت بدر الأحكام والقواعد الثابتة المتعلقة بالأسرى وتوزيع الغنائم[١].

٨-بينت هذه المعركة أهمية التنظيم،ووجود قيادة حكيمة تعد القدوة والمثال، أي شخصية الرسول ﷺ، إضافة إلى الإيمان بالقيم والمبادئ والهدف السامي الذي يقاتل من أجله المسلمون.



١-من أجل توزيع الغنائم والأحكام الشرعية التي تتعلق بالأسرى ينظر سورة الأنفال : الآية٤١.

من أحد حتى الخندق:

١-غزوة أحد شوال ٣هـ/ ٦٢٤م:

لم ترض قريش بالهزيمة التي أَلَمَّت بها في غزوة بدر، وقررت أن تنتقم لها، لاستعادة هيبتها ومكانتها بين قبائل العرب، إضافة إلى رغبتها في تأمين طرق التجارة التي تسير بها قوافلها إلى الشام، فلذلك توجهت قريش إلى المدينة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل، لقتال المسلمين والنيل منهم، وقد كان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة، بعد ذلك رأت قريش أن تثأر لشرفها، وسمعتها، ولمن قتل من رجالاتها لذلك ظلت تستعد مدة سنة لحرب الرسول ﷺ وأصحابه، وبذلت في هذا السبيل مجهوداً كبيراً، وخصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها، وكانت السبب في وقعة بدر للإنفاق منها على تلك الحرب[١]، ودعت حلفاءها من ثقيف، وقبائل كنانة، ومنطقة تهامة للاشتراك معها في محاربة المسلمين، واستعانت أيضًا بالأحابيش[٢] ولما تم استعدادها خرجت بقيادة أبي سفيان بن حرب، إنها عملية انتحارية، لابد منها لرد اعتبار قريش، ولرفع مكانتها.

وعندما وصل خبر تحرك المشركين إلى رسول الله ﷺ، استشار أصحابه فتعددت الآراء، وكثر أنصار الرأي القائل بالخروج ومواجهة العدو، وهو من الشباب المتحمسين الذين لم يتح لهم شرف الجهاد في بدر، والقتال في سبيل الإسلام، لذلك قبل الرسول هذا الرأي، وخرج من المدينة في ألف رجل من المسلمين، ولم يكد يبلغ الشوط[٣] حتى تخلى عنه عبد الله بن أبي سلول مع فريق من الجيش بحجة أن النبي لم يأخذ برأيهم، وقد ترتب على ذلك حدوث

١-المقريزي : إمتاع الأسماع١/١١٩.

٢-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢/٥٠٢

٣-مكان خارج المدينة بينها وبين احد

انشقاق، وتبلبل واضطراب في صفوف المسلمين[1]، لكن الرسول ﷺ استطاع إعادة توحيد صف البقية الباقية من جنده.

لما وصل المشركون إلى المدينة عسكروا أمام جبل أحد، وأقاموا معسكراً، وكان معهم عدد كبير من العبيد، وربما اعتمد على مستشارين عسكريين بيزنطيين لأنهم طبقوا ماأوصى به الإمبراطور موريس في كتابه الاستراتيجيا، فحفروا حفراً واسعة ستروها وموهوها، وأخذوا يسيرون دورياتهم على الطريق العام نحو المدينة.

وفي المدينة رأى عليه الصلاة والسلام اتخاذ موقف الدفاع فيها، لكنه استجاب أخيراً لآراء المتحمسين من أصحابه، فانطلق نحو أحد، سالكاً طريقاً بين بساتين النخيل، إلى ممر الغابة، وهناك جعل ظهره إلى جبل أحد، واستثمر قلة الرماة، ووضع عليها مجموعة من الفعالة لتمنع فرسان قريش من الالتفاف.

وبدأت المعركة، وصعقت قوات قريش أمام هجوم المسلمين الكاسح، وبدأت بالهزيمة، وانشغل المسلمون بجمع الغنائم، لأن النبي ﷺ كان ينهى عن المطاردة، فحربه حرب ردع وتقويم لاحرب إبادة، فالجيوش المنهزمة تفقد معظم أفرادها أثناء المطاردة قتلاً وأسراً، وهنا خُيل للرماة أن المعركة انتهت فغادروا التلة -إلَا قليلهم- ووقتها أدرك خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين ماحدث، فقام بالالتفاف، وهنااضطرب الحال، وفوجئ المسلمون، وأعاد المشركون تنظيم صفوفهم، واخذت المعركة مناحي مأساوية خطيرة، لكن صمود النبي ﷺ أنقذ الموقف فاستطاع جمع أصحابه، وأحبط خطة

١-المقريزي : إمتاع الأسماع ١/١٢٠.

المشركين، فاضطروا إلى إيقاف القتال والانسحاب، دون نصر حاسم، ولكن تكبد المسلمون كثيراً من الخسائر.

وقد ثبت رسول الله ﷺ في مكانه، وأصيب بعدة جراح، وسالت الدماء من وجهه الشريف، كما ووقع في إحدى الحفر وأشيع أيضًا في المعركة أنه قد قُتِل، واستشهد في هذه المعركة كثير من الصحابة، وعند نهاية المعركة انسحب المشركون وعادوا إلى مكة، وتجاهلوا كل الغنائم والأسرى، ولم يأخذوا معهم منها شيئًا، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في هذه المعركة فقد كان لها حكم وغايات عديدة، إذ تبين للمسلمين أن التهور في عصيان أوامر الرسول ﷺ تكون عواقبه وخيمة وسيئة، فكان هذا درسًا وعبرةً لهم، ونزلت في هذه المعركة العديد من الآيات التي ورد فيها إحياء عزائم المسلمين ومواساتهم، ومن الفوائد الأخرى لهذه المعركة أنها قد كانت سببًا في تنقية الصف المسلم من المنافقين، إذ كشفت المنافقين وفضحتهم، وذلك عندما انسحب المنافق عبد الله بن أبي سلول ومعه ما يقارب ثلث المقاتلين ممن كانوا مثله في نفاقه .

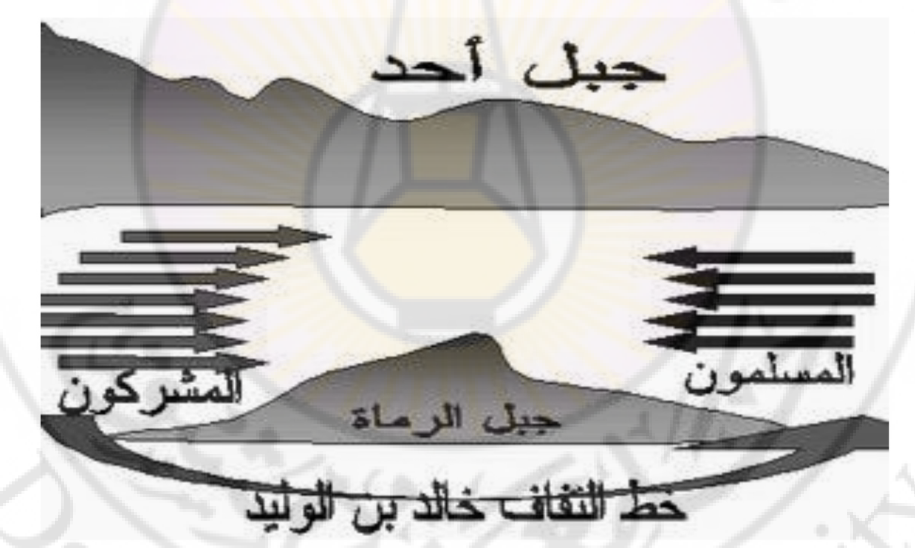
قتل في المعركة عدد من صناديد قريش بين لستة عشر، واثنين وعشرين رجلاً، وسقط من المسلمين سبعون رجلاً في بعض الروايات، وتسعة وأربعون رجلاً في روايات أخرى[1] نتيجة عدم التزامهم بالخطة التي رسمها النبي الكريم للجيش، وترك النبالة لأماكنهم.

لقد خيل لقريش أنها أخذت بثأرها من المسلمين في هذه الوقعة، ولكنها وهمت فلم تتجرأ على مهاجمة المدينة، وما ذلك إلا لضعفها وخوفها، وكان

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥١٠/٢، ابن الأثير: الكامل ١٥٤/٢.

الرسول يتوقع منها هذا لذلك أرسل علي بن أبي طالب في إثرهم ليتأكد من وجهتهم وأنهم لن يهاجموا المدينة[١].

وبعد ذلك تفرغ المسلمون لدفن قتلاهم، وقد نزل في هذه الوقعة كثير من الآيات القرآنية تضمنتها سورة آل عمران[٢]، وتحوي هذه الآيات على أمور عدة كتعزية المسلمين فيما أصابهم، وتوبيخهم على ما كان من ضعفهم حين سرت شائعة مقتل الرسول ﷺ، وبيان الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انكسارهم، والتنديد بجماعة المنافقين، والثناء على شهداء الموقعة ووعدهم بالجنان، وقد قيل في هذه الموقعة كثير من الشعر نقله ابن اسحق في السيرة، والواقدي في مغازيه.



ولابد من القول إن معركة أحد كانت خسارة ودرساً للمسلمين، ونصراً لم يكن حاسماً لقريش فقد قتلت بعض رجالات يوم بدر، لكنها لم تحقق ما كانت تصبو إليه وهو القضاء على محمد ﷺ وعلى نواة الأمة الجديدة، واستئصالها

١-ابن كثير : السيرة ٧٦/٣.

٢-الآيات ١٢١-١٧٩.

ومهاجمة المدينة وتأديبها، ولم يتحقق لها ذلك، ولم تتجرأ على مهاجمة المدينة، ولم يتحقق الربح الكبير، فقتلاها في المعركتين يعادل شهداء المسلمين فيهما[١]، ولم تتمكن من تحقيق أهدافها المعلنة والخفية.

من آثار غزوة أحد:

استغل اليهود هذه الهزيمة في بث بذور الفتن في المدينة، وتوسيع شقة الخلاف بين أصحابها، وقد جرأت على المسلمين بعض البدو المجاورين للمدينة، وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة على المدينة، وانتهاب أهلها، إذ اعتقد هؤلاء الأعراب أن معركة أحد قد غيرت ميزان القوى لغير صالح المسلمين، وقد أدرك النبي ﷺ حرج الموقف ودقته فأخذ أهبته واستعد لكل طارئ، وكان أول من أراد انتهاز هذه الفرصة والإغارة على المدينة بنو أسد، حلفاء قريش، فلم ينتظر النبي فأسرع إلى إرسال سرية يقودها أبو سلمة المخزومي في مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وأمره بالسير إلى أراضى بني أسد، فسار في هلال المحرم من السنة الرابعة للهجرة حتى بلغ قطنا (جبل لبني أسد شرقي المدينة) فأغار عليهم فهربوا من منازلهم، وهكذا رد الله كيد المشركين ودارت الدائرة عليهم، وغنم المسلمون ما وجدوه من إبل وغنم فأخذوها وساقوها إلى المدينة التي وصلوها بعد أحد عشر يوماً من خروجهم منها.

٢-يوم الرجيع:

وفي صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم على النبي ﷺ رهط من قبائل عضل والقارة، وذكروا كذباً أن فيهم مسلمين، وأنهم بحاجة إلى من يفقههم في الدين، ويقرئهم القرآن، ويعلمهم شرائع الإسلام، فبعث إليهم النبي ﷺ ستة

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٧٧/٢.

من أصحابه، وهم مرثد بن مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمر الرسول عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فخرجوا مع الوفد حتى إذا كانوا بالرجيع، وهو موضع ماء لهذيل بين عسفان ومكة، غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً، فأحاطوا بهم، وهب الدعاة يقاتلون الغادرين، ولكن ماذا عسى أن يصنع هذا العدد القليل ضد مائة من الرماة أو أكثر؟

لقد قتلوا جميعاً إلا اثنين فقط بيعا في مكة هما خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وقد بيعا لبعض الموتورين في بدر ليقتلوهما.

ولا شك في أن ما أصاب هؤلاء المجاهدين في سبيل الله قد أدخل الحزن والألم في قلوب المسلمين جميعاً، ولكنهم كفكفوا دموعهم واحتسبوهم عند الله، مؤمنين أن طريق الدعوة جهاد، وأن ما حدث إنما هو حلقه في سلسلة الكفاح المتواصل ضد أعداء الله والإسلام حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

٣-ملحمة بئر معونة

وفي الشهر نفسه وقعت بالمسلمين كارثةٌ أخرى أكبر وأشد إيلاماً من يوم الرجيع تلك هي كارثة بئر معونة، فقد قدم أبو براء عامر بن مالك المشهور بملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ، وطلب منه أن يبعث رجلاً من أصحابه إلى أهل نجد ليدعوهم للإسلام، فقال له الرسول: إني أخشى عليهم أهل نجد؟ فقال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله معه سبعين رجلاً من القراء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة من مياه بني سليم شرقي المدينة، فلما نزلوها بعثوا رسولاً منهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل من بني عامر، فلما أتاه لم ينظر في كتابه بل عدا على الرجل فقتله، واستصرخ عليهم قبائل من بني سليم، فغشوا القوم وأحاطوا بهم فقتلوهم جميعاً

إلا اثنين الأول كعب بن زيد الأنصاري الذي تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

والثاني عمرو بن أمية الضمري الذي كان في رحال المسلمين فنجا من الموت وفي طريق عودته إلى المدينة لقي اثنين من بني عامر، فاغتالهما في نومهما وهو يرى أنه قد أصاب من ثأر أصحابه وإذ فوجئ بأن معهما عهداً معهما عهد من رسول الله لم يعلم به عمرو، فلما وصل المدينة أخبر النبي ﷺ بما حدث، فبادر النبي إلى دفع ديتهما عملاً بالقانون.

وكان وصول خبر هذه الكارثة إلى النبي والمسلمين ضربة شديدة، حتى أن الرسول ﷺ ظل يدعو على الغادرين بعد كل صلاة شهراً كاملاً.

وقد وجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين في الرجيع وفي بئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش في غزوة أحد وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، فأضعفت هذه الملاحم المتتابعة من هيبة محمد وأصحابه في قلوبهم، وكان لابد من عمل يعيد إلى قلوب هؤلاء الأعداء هيبة الرسول والمسلمين، ويذكرهم بقوة المسلمين، ويجدد أمجاد بدر وذكرياتها الغالية

فشاء الله تبارك وتعالى أن يكون إجلاء يهود بني النضير وتخلص المسلمين منهم ومن شرورهم.

٤-إجلاء بني النضير:

ذهب رسول الله ﷺ إلى منازل بني النضير، وهم قبيلة عظيمة من اليهود كانوا يسكنون على بعد ميلين من المدينة على مقربة من قباء ليستعين بهم في دية القتيلتين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في بئر معونة كما ذكرنا وذلك لوجود عقد بين بني النضير وبني عامر.

فلما أتاهم الرسول ﷺ أظهروا الرضا، ورقوا في الكلام، ووعدوا بخير ولكنهم في الحقيقة أضمروا الغدر والاغتيال.

وكان رسول الله ﷺ قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم فقال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن يعلو هذه البيوت فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟ وصعد رجل ليلقي عليه الصخرة، وكان رسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، وأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما أبطأ قام أصحابه في طلبه فأخبرهم الخبر من اعتزامهم الغدر به.

فأمر الرسول بالتهيؤ لحربهم، وقبل أن يسير أرسل إليهم محمد بن مسلمة الأنصاري، يقول لهم: " إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشراً فمن رئي في المدينة بعد ذلك ضربت عنقه "، فتملكتهم الحيرة البالغة، وبدأ القوم يستعدون للرحيل، وبينما هم في حيرتهم يتجهزون إذ جاءهم رسول من عبد الله بن أبي بن أبي سلول، يقول لهم: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم، فأغراهم هذا الوعد وتأخروا عن الجلاء، وانتهت مدة الإنذار التي حددها الرسول لهم، فأمر الرسول بقتالهم فتحصنوا منه في الحصون.

وحاصرهم الرسول ست ليال ثم أمر بقطع نخيلهم وحرقها ليكون ذلك ادعى لتسليمهم، فنادوه "أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وحرقها"، فنزل قول الله تعالى: { مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ }[١]

---

١ – سورة الحشر آية ٥

ومضت الأيام ولم يصل إليهم من عبد الله بن أبي سلول مساعدة، فتسرب اليأس إلى قلوبهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفَ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم وأمتعتهم إلا السلاح، فقبل الرسول ذلك، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون، ولينقلوا مااستحسنوه منها.

وجلا اليهود عن المدينة فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من سار إلى بلاد الشام، إلا رجلين منهم أعلنا إسلامهما يومئذ فبقيت لهما أموالهما ولم يخرجا مع المخرجين.

لقد أتم الله نعمته على المسلمين بهذا النصر العظيم، وتخلص المسلمون من وكر من أوكار التآمر والمكيدة والخداع في يسر وسهولة، وبذلك ضعف اليهود المقيمون حول المدينة، وكان ضعفهم بلا شك يؤدي إلى إضعاف العنصر الثاني المعادي للرسول وهم المنافقون، وكذلك أفاء الله على المسلمين ما تركه بنو النضير من أرض ومتاع قسمها الرسول على المهاجرين وفقراء الأنصار، فرفع المهاجرون عن كاهل الأنصار بعض العبء، وكان للسلاح الذي غنمه المسلمون أثره في قوة المسلمين واشتداد بأسهم.

٥-غزوة ذات الرقاع:

قيل لها غزوة ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال: ذات الرقاع شجرة بذاك الموضع.

حدثت في شهر جمادى الأول سنة أربع من الهجرة على الأرجح، غزا رسول الله ﷺ نجداً يريد بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان، لأن الرسول بلغه أنهم جمعوا الجموع له، فخرج في أربعمئة من أصحابه، وقيل سبعمائة فلقي جمعاً عظيماً من غطفان، وتقابل الفريقان، ولم يكن بينهم قتال، وقد خاف

بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف ثم رجع بجيشه عائداً إلى المدينة.

٦-غزوة بدر الثانية:

لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة من غزوة الرقاع، أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجباً، وفي شعبان من السنة الرابعة نفسها خرج رسول الله إلى بدر لميعاد أبي سفيان، فنزله ومعه جيشه، وظل مقيماً ثمان ليالٍ ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان ثم بدا له الرجوع، ولعله تذكر هزيمة بدر وأنهم لم ينتصروا في غزوة أحد إلا بسبب خطأ الرماة، ولذلك عاد جيش قريش، وكفى الله المؤمنين القتال فسماهم أهل مكة جيش السويق، وصاروا يقولون لهم: إنما خرجتم تشربون السويق، وسميت الغزوة غزوة السويق، وغزوة بدر الثانية.

ولا شك في أن هذه الغزوة قد محت أثر غزوة أحد محواً تاماً، وأعادت للمسلمين كبرياءهم وقوتهم، وبقيت قريش عاماً آخر تنتظر لقاء المسلمين مسجلة بذلك على نفسها عار الجبن والتقاعس عن مواجهة المسلمين.

٧-**غزوة دومة الجندل** ٥هـ/٦٢٧ م:

دومة الجندل تبعد عن المدينة خمس عشرة ليلةً تقريباً وبينها وبين دمشق خمس ليال، فبعد أن توطدت مهابة المسلمين في الجنوب التفتوا إلى الشمال، وسبب الغزوة أن رسول الله ﷺ بعد عودته من بدر، واطمئنانه على دولته وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، تفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

وكان قد مكث بعد بدر في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل قريباً من الشام تقطع الطريق هناك، وتنهب مايمر بها، وتهدد وصول المؤن إلى المدينة، و أن جمعاً من الأعراب تجمعوا بدومة

الجندل يريدون غزو المدينة ومهاجمتها، فسار إليها الرسول في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة على رأس ألف من المسلمين يكمن بهم نهاراً ويسير ليلاً حتى يفاجئ أعداءه، وهم غارون (على حين غفلة)، فلما دنا منهم ولوا هاربين في كل وجه، فلما نزل الرسول ومن معه بساحتهم لم يجد أحداً، فهجم على ماشيتهم فأصاب منها ما أصاب، وأقام أياماً، وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، ثم رجع إلى المدينة ومعه بعض الغنائم.

ولا شك في أن هربهم دليل على ضعف هذه القبائل، وإمكانية الرسول ﷺ من التوسع شمالاً، وقدرته على وضع الخطط الحكيمة الحازمة ليتحقق الأمن والسلام في المنطقة، وعمله على تحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، لتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالت عليهم، وأحاطت بهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين، أضف إلى ذلك أن المسلمين وجدوا فرصة لنشر الإسلام، وتبليغ رسالة رب العالمين، فقد أحست القبائل الساكنة بين المدينة، وأطراف الشام الجنوبية بقوة الإسلام وعزته [١].



١ – البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤١.

٨-غزوة الخندق (الأحزاب) ٥هـ/٦٢٧م :

كانت المدة بين أحد والخندق استعداداً وتحضيراً أمضتها قريش في تجميع الأنصار والحلفاء، والاستعداد لضرب محمد ﷺ ضربة قاصمة، وأمضاها الرسول في تصفية عدد كبير من المشاكل، وفي الاستعداد ليوم ستحاول فيه قريش تحقيق ما عجزت عنه في أحد، وهو القضاء على محمد ﷺ وعلى دينه الذي كان شوكة في حلقها منذ اليوم الأول لمولده.

وقد عرفت هذه الغزوة بالخندق، لأن الرسول ﷺ أحاط المدينة بخندق ليحول دون مهاجمتها، ويصد به العدو، وسميت بغزوة الأحزاب لأن قريشاً لم تكن وحدها فيها، بل انضمت إليها جماعات من القبائل العربية، والقبائل المتهودة في حرب الرسول، فقد أيقن أعداء الإسلام أنهم لن يستطيعوا الانتصار على المسلمين إذا حاربتهم كل طائفة مفردة، وأنهم ربما يبلغون أملهم إذا اتحدوا في مواجهتهم، وكان زعماء اليهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فأجمعوا أمرهم على تأليب القبائل الوثنية ضد الإسلام وحشدهم في جيش كثيف ينازل محمداَ ﷺ وصحبه في معركة حاسمة، وكان هذا منهم امتداداً لسلسلة المؤامرات التي لم يدخر اليهود جهداً إلا وبذلوه في سبيل هدفهم الثابت وهو القضاء على الإسلام.

أما السبب المباشر الذي أدى إلى هياج الحرب بين قريش والرسول، فيتلخص في طرد قبيلة بني النضير التي حاول أفرادها الغدر بالرسول، فعندما أجلاهم الرسول إلى خيبر، خرج اثنان منهم إلى مكة، ودعوا أبا سفيان بن حرب، وقريشاً إلى قتال الرسول[١] ثم سعت قريش إلى حلف كبير يضم

١-البلاذري : انساب الأشراف١/٤٢٧.

العناصر المعارضة للرسول ﷺ، مثل فزارة، وأشجع، ومرة، وغطفان، وبني قريظة، وغيرهم.

وتجمع من أهل الشرك عشرة آلاف مقاتل، وخرج النبي بتسعمئة مقاتل فقط، وكان سلمان الفارسي هو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة حين رآه يهم بالإقامة في المدينة ملتزمًا الدفاع[١].

ونجحت فكرة سلمان، فعندما أقبلت قريش، هالها منظر الخندق، الذي صار خطاً دفاعياً منيعاً، وأخذ رجالها يطوفون به دون أن يستطيعوا تجاوزه، وحاولوا إيجاد مضيق بالخندق يمكنهم من العبور إلى المسلمين، ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد يردونهم على أعقابهم في كل محاولة من هذا النوع، ولم تجر حرب حاسمة بين الطرفين، وإنما اقتصر الأمر على مبارزات فردية بين أشخاص من الطرفين[٢]، واستمرت قريش في حصارها للمدينة مدة تقارب الثلاثين يوماً دون أن تستطيع الوصول إليها.

وتفرق الأحزاب وتصدع صفهم، بعد أن عمد الرسول ﷺ إلى التدبير لفك الحصار خاصة أن قريشًا كانت سباقة إلى هذا النوع من الأساليب، لذلك عهد إلى نعيم بن مسعود الغطفاني بذلك، وكان قد قدم مع قومه لحرب المسلمين، ولكن الله هداه إلى الإسلام، وجاء سرًا إلى الرسول ﷺ في ليلة من الليالي، وأعلن إسلامه، وطلب منه أن يكلفهبما يريد، فقال له الرسول: إنما أنت فينا رجل فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، وكان نعيم على جانب كبير من الدهاء، فنجح في تفريق كلمة الأحزاب، وبذلك أدت الدبلوماسية الإسلامية مهمة بارزة في تفريق كلمة الأحزاب، وزرع الشكوك بينهم.

١-المقريزي: إمتاع الأسماع ٢١٩/١-٢٢٠.

٢-خربوطلي وزكار : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص١١٠.

وفي الوقت نفسه تعرض معسكر الأحزاب لعاصفة عاتية كفأت قدورهم، وأوانيهم، وأرغمتهم على التفرق، والعودة من حيث أتوا[١].



وهكذا أثبت يوم الأحزاب أن المدينة حصن لا يرام، وأن المشركين مهما اتفقوا على قهرها، فإنهم لن يستطيعوا اقتحامها عنوة، وأن قريشاً لن تستطيع القضاء على محمد عن طريق عمل عسكري.

ثم عاد الرسول إلى المدينة، ليتحولعمل صف المسلمين الدفاع إلى الهجوم، وقد أكد هذا رسول الله ﷺ حين صرح بقوله عقب غزوة الخندق: " لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم"[٢]، أو قال : " الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم"[٣].

١-الواقدي : المغازي ٤٨٧/٢.

٢-ابن الأثير : الكامل ١٧٨/٢-١٨٤.

٣-البخاري: صحيح البخاري باب غزوة الخندق رقم ٤١٠٩-٤١١٠.

إن نظرة فاحصة إلى أحداث غزوة الخندق، تظهر لنا العنصر الأساسي في هذه المعركة، وهو الاستراتيجية الحربية، والعمل الدبلوماسي، فاستراتيجية الرسول ﷺ كانت متفوقة على استراتيجية خصومه، يضاف إليها وحدة الصف الإسلامي، وانضباط المسلمين ووقوفهم صفاً واحداً وراء الرسول، لذلك بدا واضحاً بعدها أن القضاء على محمد ﷺ عن طريق عمل عسكري لن يكتب له النجاح، خاصة أن قريشاً وضعت في هذه المعركة كل ثقلها العسكري، وحشدت لها أقصى ما تستطيع من قوة بشرية، وقد توقع المكِيون بنتيجة هذه المعركة كل شر لتجارتهم مع بلاد الشام، لأن هذه التجارة تمر من منطقة نفوذ المسلمين، أضف إلى ذلك أن هيبتها بين القبائل أصيبت بضربة قاصمة، ولم تعد مشكلة قريش الآن القضاء على محمد ﷺ بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها نفسه، هذا الوجود الذي أصبح تحت رحمة المسلمين، وهو الوجود الذي يوفره المسلمون لوقت طويل.

وكشفت هذه الغزوة عن عبقرية محمد ﷺ العسكرية والسياسية، وتعلم المسلمون المكيدة بحفر الخندق حول المدينة، كما تعلموا أسلوب التفريق والإيقاع بين الأعداء، وأسلوب المصابرة والقدرة على تحمل الجوع والصبر، الأمر الذي دفع القبائل العربية إلى التفكير وإعادة النظر بموقفها من محمد عليه السلام ودعوته، ومن ثم التوجه إليه، وإيمان بعضهم به وبرسالته والتبشير بها، كما خرجت المدينة قوية مهابة الجانب، واتضح للعرب وقبائلها أنها لا تؤخذ عنوة حتى لو حشدت آلاف الجنود من الحجاز ونجد.



٩-غزوة بني قريظة ٥هـ/٦٢٧ م :

في الآونة العصيبة التي كان فيها الرسول ﷺ يستعد لغزوة الخندق، جاءت الأخبار أن يهود بني قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف رسول الله والمسلمون من الخندق راجعين إلى المدينة، ووضعوا السلاح أتى جبريل وقال له: إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فأمر رسول الله مؤذناً فأذن في الناس أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فأسرع المسلمون لتلبية النداء، ولما رأى اليهود جيش المسلمين قاموا بإغلاق حصونهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة على رأي ابن إسحاق، واشتد عليهم الحصار فأذعنوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، سن سعد بن معاذ الحكم فيهم، بأن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال، ويقسم البقية والذراري والنساء، فقال الرسول ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة –أي سماوات–وجرى إعدام المقاتلة، وكان عددهم محدوداً، وأما البقية فجرى بيع

بعضهم في الشام، وبعضهم الآخر في نجد، من أجل تمويل حملة فتح مكة، ولا تصح على الإطلاق حكاية إعدام عدد كبير منهم بلغ ستمئة أو سبعمئة شخص.

وفي طرد الأحزاب ودحر بني قريظة نزلت الآيات: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً }[1].

١٠-غزوة بني المصطلق ٦هـ/٦٢٨م:

سببها أن النبي ﷺ بلغه أن الحارث بن أبي ضرار قائد بني المصطلق يقوم بتجمعات عدائية، وكان بنو المصطلق ممن ساعد قريشاً يوم أحد، ولعل ذلك كان بتحريض من قريش، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ليأخذهم على غرة، كعادته في أخذ أعدائه، والتقى بهم على ماء يسمي المريسيع بناحية (قديد)، وعرض عليهم الإسلام فرفضوا، إذ روي أن الرسول أمر عمر فنادى في الناس قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوا، وهنا دار القتال بينهم وانهزم بنو المصطلق، وقتل من قتل، وسقطت القبيلة بما تملك في أيدي المسلمين، وظفر المسلمون بمغانم وسبايا كثيرة، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد.

وكان بينهم برة بنت الحارث سيد القوم فأراد رسول الله ﷺ أن يجعل المسلمين يمنَون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، وذلك لأن بني المصطلق من أعز العرب، وأسرُ نسائهم شاق على النفوس فتزوج الرسول منهم برة بنت الحارث، وسماها جويرية.

---

١ – سورة الأحزاب الآيات ٢٥ – ٢٧.

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم ومنَوا عليهم بالعتق، وبذلك كانت جويرية أكثر امرأة بركة على قومها فقد أعتق في زواجها مئة من بني المصطلق.

١١-حادثة الإفك ٦هـ/٦٢٨ م:

السيدة عائشة - رضي الله عنها - هي زوجة الرسول ﷺ وأم المؤمنين، و ابنة أبي بكر الصديق، كانت أحب زوجات الرسول إلى قلبه، وهي أكثر من روت عنه الأحاديث، و قد كانت في لحظة من حياة الرسول تساعده وتقف بجانبه وقوف الزوجة الصالحة المخلصة، اتهمت عائشة -رضي الله عنها - بالخيانة، وقد برأ الله تعالى ما اتهمت به في قصة من قصص القرآن الكريم، وتسمى حادثة الإفك[1].

في غزوة المصطلق خرجت عائشة مع الرسول ﷺ وبعد انتهاء الغزوة وعودة الرسول ومن معه إلى المدينة، تأخرت السيدة عائشة رضي الله عنها عن الموكب لمدة قصيرة تبحث عن عقد قد فقدته وأثناء ذلك رجع الموكب، ولم يشعر أحد من الموكب بتأخرها، وبقيت وحيدة في الطرقات، ولكن الله تعالى لم يتركها وحدها، فوجدها شخص يدعى صفوان بن المعطل، وأعادها إلى بيتها.

لكن أعداء النبي ﷺ لم يدعوها و شأنها، فكذبوا ونشروا الشائعات عنها، و اتهموها بالخيانة، فتألم الرسول ﷺ وهجرها واستمر بسؤال أقربائه وأقربائها عما حدث، فكانوا يجيبونه بأن عائشة عفيفة، ومن المستحيل أن تقدم على مثل هذا الفعل، ومع ذلك لبثت الشكوك عند رسول الله ﷺ وكان يدعو الله دائماً أن يبرئها ويظهر الحقيقة، فذهب ليتحدث مع السيدة عائشة فى بيت أبيها، وقال

١ -ابن هشام : السيرة النبوية ٣ / ٣٠٩ وما بعد.

لها إن كان يا عائشة ما حدث صحيحاً فاستغفري ربك وتوبي إليه، فنظرت السيدة عائشة في عيون أبيها أبي بكر وأمها و قالت لهما: ألا تجيبان الرسول ﷺ ؟ فقال لها أبوها: والله ما ندرى ما نقول، فقالت السيدة عائشة: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت ابداً، والله يعلم أني بريئة، ووالله ما أقول أكثر مما قال أبو يوسف عليه السلام { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }[١].

وهنا نزل الله الوحي على الرسول ﷺ ليخبره بأن السيدة عائشة بريئة من هذه الحادثة الكاذبة و أنزل الله فى هذا الموقف قرآناً، إذ قال تعالى:
{ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[٢].

و هنا انزاح هم الرسول عن قلبه وابتسم لـــعائشة رضي الله عنها، فقالت لها أمها: ألا تشكرين رسول الله ؟ فقالت لها السيدة عائشة رضي الله عنها: بل أشكر الله الذي برأني، وأنزل فيّ قرآناً يبرئني من هذا الذنب العظيم، وهذا من أبشع المواقف التي مرت بها السيدة عائشة، وقد كان من المستحيل إقدامها على الخيانة، ولكنها اتهمت فصبرت، فأنزل الله جلت قدرته قرآناً بتبرئتها، فبقيت الصديقة ابنة الصديق

من الحديبية حتى فتح مكة:

١- الحديبية٦هـ/ ٦٢٨م :

كانت قريش قد قطعت عهداً على نفسها منذ هاجر الرسول والمسلمون معه إلى المدينة أن يصدوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبين سائر العرب، وقد كاد العام السادس الهجري أن ينتهي ولم ير المهاجرون فيها مكة.

---

١ – سورة يوسف : الآية ١٨.

٢ –سورة النور : الآية ١١.

عرف الرسول ﷺ أن دعوته لن يعترف بها العرب إلا إذا استولى على مكة، لذا قرر تحدي قريش في عقر دارها، وأعلن الخروج لأداء العمرة، وأرسل إلى القبائل المجاورة للمدينة للمشاركة في الخروج، وكان حريصاً على أن يجمع أكبر قدر ممكن من الناس، وهو يؤكد أنه خرج لأداء العمرة، وأعلن إحرامه للعمرة، وساق معه الهدي، ولم يحمل هو ومن معه من السلاح إلا السلاح الشخصي وهو سيف في قرابه، كي لاتفكر قريش في صده عن مكة، وبيَن أنه لا يريد القتال، فتجمع معه من المهاجرين والأنصار، وغيرهم ما يزيد على الألف والأربعمئة مع الأتباع والخدم والنساء والصبيان على أرجح الروايات[١].

لم يكتف ﷺ بما أعلنه بأنه لا يريد قتالاً، وأنه ما خرج إلا معتمراً زائراً للبيت معظماً له، بل اختار عينا (جاسوساً) له من خزاعة لم يكن قد عُرف إسلامه، فهو قريب عهد بالإسلام، ولم يذع نبأ إسلامه بعد، ثم سار حتى وصل قرب الحديبية، وهناك أتاه عينه، وأخبره بأن قريشاً قد سمعت بمقدمه، وأنها جمعت الجموع واستعدت لملاقاته، وأنها مصممة على صده عن البيت وعن أداء العمرة.

وخرج الرسول من المدينة إلى الحديبية في ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية معتمراً لا يريد حرباً إلى الحديبية، وركب ناقته القصواء، و أصحابه خلفه، لكن قريشاً عند علمها أن المسلمين يقصدون مكة أخذت في الاستعداد للحرب، ولم يصدق زعماؤها أن هدف الرسول الحج، وعقدوا النية على صدَ النبي عن مكة مهما كلفهم الأمر، وبذلك كان هذا الموقف من قريش دليلاً على عنادها وصلفها وتماديها في الاعتداء على المسلمين ومصادرة حرياتهم وانتهاك حقوقهم.

١-العسقلاني : شرح المواهب ٢/ ١٧٩-١٨٠.

فاستشار الرسول ﷺ أصحابه في كيفية مواجهة الموقف، واتفق الرأي على الاتجاه نحو البيت، ومن صده عنه قاتله، وظل رسول الله يراقب تحركات قريش، وعرف عنهم أنهم أرسلوا طليعة بقيادة خالد بن الوليد بلغت مئتي فارس وهي طليعة لجيش قريش تترصد لهم، ولكي يتجنب الرسول الاصطدام بقريش وتوافقاً مع الرغبة في العزوف عن القتال سلك رسول الله ﷺ طريقا آخر غير المتوقع مروره منه، حتى فاجأ طليعة قريش، ووصل إلى الحديبية على حدود أراضي مكة، وعلم الجيش القرشي بنزول النبي بالحديبية، فأسرع إلى مكة لحمايتها، وليحول بين المسلمين وبين دخولهم مكة، وعسكرت قريش بقواتها على جميع مداخل المدينة.

هنا توقع الدخول في مفاوضات مع قريش، وأنه لابد من أن يضع ثوابت للحوار لا يحيد عنها، وأعلن ذلك أمام أحد مفاوضيه بقوله: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين.

وجاء المتفاوضون ورسول الله ﷺ يردد عليهم خطته دون تراجع، وطالت المحادثات فرأى الرسول ﷺ أن يبعث عثمان بن عفان رسولاً إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لبيت معظماً لحرمته، ودخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد بن العاص الأموي، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فأبلغهم عن رسول الله ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، وتعثرت المفاوضات بين عثمان وقريش، واحتبست قريش عندها عثمان، وانتشرت إشاعة بأنه قتل، وهنا قرر الرسول ﷺ القتال فبايعه أصحابه بيعة الرضوان على أن لا يبرحوا مكانهم حتى يقاتلوا المشركين دون أن يفروا إذا ما أصاب عثمان مكروه، وقد ورد صدى هذه البيعة في القرآن الكريم.

قال تعالى: { **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** }[1]، هذا الالتفاف دفع قريشاً إلى ترك عثمان، واتضح أن عثمان رضي الله عنه لم يقتل، وتجددت المفاوضات بين الطرفين، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو للمفاوضة، وبدأ الإعداد لكتابة بنود الاتفاقية(صلح الحديبية)،وبعد مواقف متبادلة من الطرفين، وردود أفعال من المسلمين وضعت بنود الصلح:

١ – أن تضع الحرب أوزارها لمدة عامين.

٢– من أتى من المسلمين من قريش بغير إذن وليه يرد إليهم، ومن أتى قريشا ممن كان مع رسول الله لم يردوه عليه.

٣ – ألا يكون بين الطرفين اعتداء ظاهرياً و خفي.

٤– من أحب أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل، فأعلن الحاضرون من خزاعة دخولهم في عهد محمد وعقده، في حين أعلن بنو بكر دخولهم في عقد قريش وعهدها.

٥–أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة، ويأتي في العام المقبل بعد أن تخرج قريش من مكة، ويقيم ثلاثة أيام دون سلاح باستثناء السيوف في أغمادها[2]

٦ – أن يسمح للمسلمين الأفراد بالدخول إلى مكة في أي وقت للحج والعمرة أو التجارة، ويسمح لأهل مكة بالتحرك، ويحق لهم الدخول إلى المدينة مجتازين إلى مصر والشام للتجارة.

١–سورة الفتح: الآية ١٠.

٢–الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٧٩/٢.

وبذلك أصبح هذا الاتفاق نهاية مرحلة، لتبدأ مرحلة جديدة، ومع أنه كان من حيث الظاهر اتفاقاً هضم بعض حقوق المسلمين لكنه كان يحمل في طياته عزَاً لهم، وقوةً وفتحاً، لأن هذا الاتفاق هو الذي ثبت الدولةالعربية الإسلامية، وأرسى قواعدها، وجعلها شامخةً أمام كل القوى المحيطة، ومنح النبي ﷺ الفرصة للتخلص كلياً من وجود اليهود في شبه جزيرة العرب.

يضاف إلى ذلك براعة الرسول في إظهار تقديسه للكعبة، وتأكيد مجيئه في العام المقبل اعترافًا من قريش بزعامته السياسية بين العرب بعدما كانوا يعذبون ويضطهدونهم.

آثار صلح الحديبية:

دلت الحوادث التى وقعت بعد صلح الحديبية على أن الصلح كان إنتصاراً للإسلام والمسلمين، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر بنور الله وهو يقبل كل شرط من هذه الشروط، وقد استطاع أن يكتشف من خلال كل شرط المكاسب والمغانم التي ستعود على المسلمين، وأنه لم يكن من حق المسلمين أن يعترضوا أو يدخلهم ريب فيما قام به الرسول لهم، ولكن الأمر كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً: ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، ولكنَ الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه، والعباد يعجلون والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد، حقاً لقد تعجل الصحابة وقت الصلح، ونظروا إلى الشروط نظرة قاصرة محدودة، ولكن الأيام كشفت لهم خطأهم، ووضحت لهم المكاسب والمغانم التي تحققت لهم بعد ذلك، وها نحن نلقي بعض الأضواء على أهم المكاسب التي تحققت للمسلمين من خلال شروط هذا الصلح:

أولاً : كان إبرام الصلح مكسباً للمسلمين فهو اعتراف من قريش بمكانة المسلمين التي أصبحوا عليها، وأنهم أهل لأن تبرم معهم معاهدات، وأن محمداً لم يعد فى نظر قريش ثائراً خارجاً عن التقاليد والأوضاع، وفي هذا اعتراف بالدولة العربية الإسلامية وزعامة الرسول السياسية.

ثانياً : وفيما يتعلق بالشرط الأول، وهو وقف القتال سنتينباستثناء ماروي في بعض المصادر عن أن المدة عشر سنين، فإن هذا الشرط قد أتاح للمسلمين هدنة اغتنمها عليه السلام بدعوة ملوك العالم كقيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وأمراء العرب إلى الإسلام، وتبليغ دين الله إلى كل مكان، توافقاً مع عالمية الدعوة، ووجوب تبليغها إلى كل مكان من أرض الله.

كذلك أتاح هذا الصلح الفرصة للمسلمين والمشركين أن يختلطوا بعضهم مع بعض، فيطلع المشركون عن قرب على حقيقة الإسلام ومحاسنه، وكيف أنه جاء لإصلاح الفرد والمجتمع بعدما كان المشركون يتخذون منه موقفاً معادياً، بدافع العصبية والحمية دون أن يحكموا العقل والضمير، فجاءت هذه الهدنة لتتيح للكفار جواً من التأمل الحصيف والتفكير الرشيد، ومن ثم لم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل فى الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة قبله.

ولعلَ هذا الأمر أكبر رد على أولئك الذين يفترون على الإسلام، ويدَعون أنه انتشر بالسيف، فالحقيقة أن الإسلام انتصر على السيف كما نرى، ولا عجب فالإسلام هو دين العقل ودين الإصلاح والخير للإنسانية في دنياها وأخرتها، زد على ذلك أنه بفضل حقبة السلم الطويلة طهردولة المدينة وشبه الجزيرة من اليهود، واستعد لمعركة كان لابد منها لفتح مكة.

ثالثاً : وفيما يتعلق بالشرط الثاني " من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده، ومن جاء قريشاً ممن كان مع محمد لم يردوه عليه"، فإن هذا الشرط أيضاً كان فى مصلحة المسلمين لأنه سد باب التجسس أمام قريش التي كان من الممكن أن ترسل نفراً يتظاهرون بالإسلام، ويعيشون فى المدينة وهم جواسيس لقريش يدلونها على أحوال المسلمين وينقلون إليها أسرارهم.

أما المسلمون حقاً الذين يرغبون فى الذهاب إلى المدينة، فإن ردَهم إلى مكة كما اقتضى شرط الصلح قد جعل منهم طائفة قوية تعسكر على طريق مكة وازداد عندهم مع الأيام، وكونوا فريقاً جعل مهمته التصدي لقريش في رجالها وتجارتها، وقد بلغ من خطرهم على قريش أن أرسلت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تسأله أن يلحقهم به فى المدينة، وتناشده الله والرحم أن يتنازل عن هذا الشرط الذي وضعته قريش تعسفاً منها وصلفاً، وتألم منه المسلمون وقتها إحساساً منهم بأنه دليل على الضعف والهوان والاستسلام.

وأما الشق الثاني من الشرط وهو " من جاء قريشاً ممن كان مع محمد لم يردوه عليه " فإن المصلحة واضحة فيه كل الوضوح، فالذي يرتد لا حاجة للمسلمين به بل إن فى وجوده أكبر الضرر، على أنه لم يكن منتظراً بمنطق العقل أن يرتد أحد بعدما ذاق حلاوة الإيمان، فإن الواقع كان يؤكد للرسول أن الإيمان حين تخالط بشاشته شغاف القلب يجعل الإنسان يزداد مع كل يوم ثباتاً ويقيناً.

رابعاً : أما الشرط الخاص بأن "من أحب ان يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه " فإنه شرط خدم المسلمين أكثر من القرشيين، فقد شجع القبائل المترددة على الدخول فى الإسلام، وحدد موقف القبائل العربية من المسلمين تحديداً عرفوا منه العدو من الصديق.

خامساً : وفيما يتعلق بالشرط الخاص برجوع المسلمين فى عامهم هذا، ومجيئهم في العام الذي يليه – فإن هذا الشرط قد أظهر قريشاً بمظهر المعتدين الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وفى هذا خروج على تقاليد العرب وأعرافهم، كما أنه كشف عن وجه الإسلام المشرق فى السماحة والصفح والسلم، لكل هذه المكاسب التي تحققت للمسلمين من خلال " صلح الحديبية، يقول الإمام ابن شهاب الزهري (ت١٢٤ هـ): فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تلك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام : " والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمئة فى قول جابر بن عبد الله ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف " لكلِ هذا نزلت سورة الفتح في طريق عودة المسلمين إلى المدينة وسمى الله هذا الصلح فتحاً مبيناً.

٢- غزوة خيبر٧هـ/ ٦٢٩ م[1] :

أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم، منذ وطأت قدماه أرض المدينة نوايا اليهود وحرصهم الشديد على دينهم، واعتزازهم به وبجنسيتهم، وقدر مدى خطورتهم التي تفوق خطورة قريش على المستوى البعيد، ولاسيما إصرارهم على تعصبهم، وقولهم إنَ الدين والمبعث وقفاً عليهم، وقد استاء هؤلاء اليهود كثيراً لبعثته، وأدرك الرسول كل هذا، لهذا اعتمد معهم أسلوب الموادعة والملاطفة، وحاول جاهداً جذبهم للإسلام، وإقناعهم وترغيبهم به قدر

---

١ –ابن هشام : السيرة النبوية ٣٤٢/٣.

المستطاع، وتركهم ودينهم، وعمل على مصادقتهم لتلافي خطرهم، وأخذ يعاملهم بحذر، وبالمقابل كانوا ينظرون إلى الرسول ورسالته بعين الخوف والحسد، وأخذوا يعملون ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويكيدون له ولرسالته، ألم يخططوا لاغتياله، ولتطويق دعوته؟ ومن ثم فكروا في الاتفاق مع بيزنطة لحربه، فاقتنع الرسول أنهم حجر عثرة أمام نهضته، ولم يكن هناك من حل غير إنهاء سلطتهم في الجزيرة العربية، لهذا عمل على تطهير جبهته الداخلية منهم، وقد أتاح له صلح الحديبية الفرصة المناسبة لملاحقتهم وضرب تجمعاتهم الواحد تلو الأخر، وبدأها في المدينة، وأخرج اليهود منها، فتجمعوا في حصون خيبر وغيرها في وادي القرى، وفدك، وتيماء، وخشي الرسول صلى الله عليه وسلم، من هذا التجمع اليهودي الكبير، ومن قيامهم بتحصين مناطقهم، وإشادتهم للحصون، ووضعهم للخطط العسكرية والسياسية، فتوقع الرسول اتصالهم بكسرى فارس، وقيصر الروم، وسعيهم بطلب عونهم ضده، ولهذا وجد من الأفضل مبادرتهم بالقضاء عليهم قضاءً مبرماً"[١].

فبعد أقل من شهر على صلح الحديبية، وبعدما كانت الغزوات على القوافل التجارية " تحولت إلى غزوات على الحواضر التجارية، ومنها خيبر حيث رأس مال التجارة الربوية، ويمكن النظر إلى غزوة خيبر وما تلاها من وجهة نظر سياسة الرسول ﷺ الشمالية، ربما تقديراً لأهمية المنطقة اقتصادياً واستراتيجياً في صراعه مع أعدائه، لذا قرر غزو خيبر بعد صلح الحديبية مباشرة في شهر محرم سنة ٧هـ/ ٦٢٩م"[٢]، وذلك لعدة أسباب منها :

١- موقع خيبر الجغرافي المهم فهي إحدى المحطات على الطريق إلى بلاد الشام.

١-الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٥١٧.

٢-ابن هشام : السيرة النبوية،٣/ ٣٣٠، ابن الأثير: الكامل ٩٩/٢.

٢- " الخوف من تأليب يهود خيبر ليهود الواحات الشمالية الأخرى في الشمال، وبعض القبائل العربية، مثل أسد وغطفان"[١].

٣- كانت خيبر أيضاً " مصدراً هاماً من مصادر الميرة والدعم الاقتصادي والسياسي لمشركي قريش وحلفائهم، لاسيما التمور"[٢].

تبدو أهمية هذه المسائل الثلاث واضحة في الرواية التي وردت في المصادر، "وفيها أن الرسول ﷺ اتخذ دليلاً من قبيلة أشجع، فخاطبه قائلاً: "امض أمامنا حتى تأخذ صدور الأودية حتى نأتي خيبر، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان"[٣].

ويضاف إلى فتح خيبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، " صالح أهل فدك، واستطاع فتح وادي القرى، وأيضاً تمت مصالحة أهل تيماء على دفع الجزية".

هذه الواحات المهمة في الشمال، والواقعة على طريق الشام، تدل بوضوح على السياسة التي اتبعتها الدولة العربية الإسلامية الأولى وذلك بإصرارها على تأمين طريق الشام تجارياً واستراتيجياً تزامناً مع عودة السيطرة والحكم البيزنطي إلى الشام، مع العلم أن المسلمين منذ الآن وصاعداً أصبحوا في مواجهة البيزنطيين، لأول مرة في تاريخهم.

وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام في مطلع عام ٧هـ/ ٦٢٨ م في جيش بلغ عدد مقاتليه ألفاً وستمئة رجلٍ، وكانت خيبر محصنةً تحصيناً قوياً فيها ثمانية حصونٍ منفصلٌ بعضها عن بعض، وكان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأساً وأكثرها وأوفرها سلاحاً.

١-الكلاعي : الاكتفاء،٢/٢٥١

٢-الواقدي : المغازي، ٢/٤٤٢-٤٤٣/الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/١٦٨- ابن عبد البر : الدرر، ص١٩٧/ الشامي : سبل الهدي والرشاد،١١٧/٥

٣-ابن عبد البر : الدرر، ص١٩٧. الشامي : سبل الهدي والرشاد،١١٧/٢

والتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً، واليهود يستميتون في الدفاع عنها، واستمر التراشق بينهم ست ليالٍ.

وفي الليلة السابعة وجد عمر بن الخطاب يهودياً خارجاً من الحصون فأسره، وأتى به الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال اليهودي: إن أمنتموني على نفسي أدلكم على أمرٍ منه نجاحكم. فقالوا : قد أمناك فما هو ؟ فقال الرجل: إن أهل هذا الحصن قد أدركهم اليأس وسيخرجون غداً لقتالكم، فإذا فتح عليكم هذا الحصن فسأدلكم على بيت فيه منجنيق ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله "، فبات الناس ليلتهم كل منهم يتمنى أن يعطاها، فلما أصبح الصباح، قال " أين علي بن أبي طالب " ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه، فدعاه، ودعا له فبرأ بإذن الله، فأعطاه الراية وقال له: " والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم".

ولما ذهب علي بن أبي طالب إليهم خرج مرحب اليهودي يختال في سلاحه فقتله، وأحاط المسلمون بالحصون، وحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، فسقطت حصونهم حصناً بعد حصن، واستولى اليأس على اليهود، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الصلح والبقاء في خيبر، لأنهم أعلم بزراعة الأرض، وعلى أن يحقن دماءهم، فقبل الرسول عليه الصلاة والسلام، على أن تكون للمسلمين نصف غلتها، وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين.

وبذلك استولى المسلمون على خيبر، وغنموا منها العديد من السلاح والمتاع، وكان من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة، فطلب

اليهود ردها فردها المسلمون إليهم، وقد قتل من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعون رجلاً واستشهد من المسلمين خمسة عشر رجلاً.

بعد الانتهاء من خيبر عرج الرسول على فدك، وحاصرها، وقذف الله الرعب في قلوبهم، وبعثوا إلى رسول الله يصالحونه لما علموا ما حلَ بأهل خيبر، فصالحوه كمصالحة أهل خيبر[١] (على النصف من فدك) أي نصف حاصلاتهم، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه و سلم خاصة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فكان رسول الله يقسمها حيث يرى في مصلحته ومصلحة المسلمين.

ثم جاء الرسول إلى وادي القرى وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء، وفتحها عنوة، وغنم المسلمون منها أيضاً مالاً كثيراً، وقسم الرسول ما أصاب منها على أصحابه، وترك الأرض والنخل بيد اليهود وصالحهم عليها، ولما بلغ يهود تيماء ما فعل الرسول بأهل خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله أيضاً على الشروط نفسها.

وهنا تظهر حنكة الرسول صلى الله عليه وسلم الاقتصادية، فأراضي اليهود التي فتحت عنوةً تصبح ملكاً للمسلمين، أما الأراضي التي فتحت صلحاً فتبقى بأيدي أصحابها على أن يقدموا نصف الغلال، وهذا الحل الاقتصادي يوفر كثيراً من المسلمين لأعمال الجهاد والحرب، وقد ظل اليهود على هذه الحال حتى جاء عمر ابن الخطاب، وأجلاهم عن شبه الجزيرة العربية بقوله:" لايجمع في الجزيرة دينان"[٢] وأعطاهم أراضي في الشام.

وبذلك دانت مواقع اليهود كلها لسلطان النبي، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى جزيرة العرب، وأصبح الرسول بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام،

١-ابن هشام : السيرة ٣٢٨/٣.

٢- الشامي: تطور تاريخ العرب ص٩٢.

كما صار من قبل ذلك بمأمن من الجنوب بعد صلح الحديبية، فانصرف المسلمون عائدين إلى المدينة، وهناك كانت تنتظرهم مفاجأة سارة، هي عودة جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول وأصحابه من الحبشة حيث أقاموا بها مدة طويلة، وقد فرح الرسول بابن عمه جعفر فرحاً عظيماً، وتلقاه بالسرور وقال: والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.



الدعوة إلى الإسلام خارج الجزيرة العربية: ٣-

هيأ صلح الحديبية للمسلمين فرصة إيصال الدعوة الإسلامية إلى خارج جزيرة العرب، فقد وجد الرسول أن الظروف قد أصبحت مواتية لأن يقوم بهذه المهمة التي وكله الله بها بعد أن مكث هذه السنوات يدعو عرب الجزيرة إلى الإسلام، وقطع فى هذا المضمار شوطاً لا بأس به، لأن الرسول كان يعلم تمام العلم أن رسالته عامة، وليست خاصة بأمة العرب، وأن الإسلام هو دين البشرية كلها، وإبلاغه إلى بني البشر مسؤولية المسلمين الذين شرفهم الله بهذه

الأمانة ليقوموا بتبعاتها والاضطلاع بمسئولياتها قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[١].
وقال أيضا: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[٢].

ذكر ابن هشام: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم – بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية – فقال: أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليَ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، قالوا: وكيف يا رسول الله كان اختلافهم ؟ قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له فأمر من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، قال فبعث رسول الله رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

وقد اهتم الرسول ﷺ اهتماماً كبيراً بهذه المهمة فاختار لكل واحد منهم رسولاً من أصحابه الذين ترددوا على هذه الأقطار، وتعرفوا لغتها، وكان الرسول قد اتخذ لنفسه خاتماً من فضة نقش عليه محمد رسول الله فختم الكتب، وأعطاها لهؤلاء المبعوثين

٤-مراسلات الرسول صلى الله عليه وسلم :

من ضمن حركة تثبيت أركان الدولة العربية الإسلامية دعوة ملوك الدول، ورؤساء القبائل إلى الإسلام، فبعد انصرافه ﷺ من الحديبية أرسل ستة من أصحابه إلى ملوك الدول المجاورة، وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي وحمله رسالة إلى هرقل ملك الروم فتقبلها قبولا حسناً، وبعث برسوله عبد الله بن حذاقة السهمي إلى كسرى، ولكنه ثار عندما سمع برسالة محمد، لأن كسرى يحكم الفرس بذلك الحق الإلهي المقدس، وشعر أن

---

١ – سورة سبأ: الآية ٢٨.

٢ –سورة الأنبياء : الآية ١٠٧.

هذا الدين سيزلزل مكانته، وأرسل الرسول عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة فردعلى رسالة الرسول ﷺ ردًا طيبًا، وكذلك بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس نائب الامبراطور البيزنطي في مصر فرد رداً حميداً، كما بعث رسول الله ﷺ رسائل إلى أمراء العرب الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد.

وقد تضمنت هذه المراسلات دعوة هؤلاء بالحسنى إلى دين الله،وكانت دعوة للوصول إلى كلمة سواء، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي استشهد بها الرسول ﷺ في كتابه إلى هرقل، قال تعالى:

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }[١].

وبالفعل نجح الرسول في التمهيد لنشر الدعوة الإسلامية، ونجح في كسب العديد من القبائل مثل صاحب إيلة، وأهل جرباء وأذرح.

وفي الواقع كانت هذه استراتيجية جديدة لم تألفها الشعوب من قبل، فلم يدع الكافر لأمر غيرالإسلام والطاعة أسلم تسلم، إذ لم يكن هناك مفاوضات، أو تنازلات، إذ إن الحق واحد ولا يتعدد، والرد على أي قرار من طرفهم لن يكون ما يسمعونه بل ما سيرونه، وقد خاطب صلى الله عليه وسلم الجميع بلغة السيد للبشرية، بتفويض إلهي، وذلك بقوله لكل واحد " أسلم تسلم" ولم يعهد مثل هذا قط في التاريخ لامن قبل ولا من بعد، وأنكر المستشرقون المراسلات، ومنهم من قال إن خلفاء النبي هم الذين صاغوا هذه الرسائل[٢]، وذلك لإثبات عالمية الإسلام، لكنَ هذا الزعم لا يصمد أمام أمر أثبته القرآن

١-سورة آل عمران: الآية ٦٤.

2- Vasilieve; History of the Byzantine Empire p.211

الكريم بأقوى بيان، فقد كانت عالمية الدعوة الإسلامية متينة ثابتة منذ ظهور الإسلام بمكة، ولم تكن أمرًا جدَ على الساحة مع ارتفاع شأن الإسلام بالمدينة، وآيات القرآن الكريم أكدت هذه الحقيقة، قال تعالى: **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}**[١] ويسوق المستشرقون آراءهم بعدم عثورهم على ما يثبت ذلك من وثائق لدى هؤلاء الملوك والأمراء، وطبعًا هذا دليل غير ما كانوا يدعون، لأنه قد تكون الصور الأصلية فقدت بسبب ما، أما مؤرخو العرب فلا يشككون بذلك بل أثبتوا صحتها[٢]، وجرى العثور على عدد من نسخ ثبتت صحتها بوساطة التحاليل العلمية كافة، ولعل إدارة المدينة أيامه ﷺ، احتفظت من كل رسالة بنسخة لديها(أرشيف).

ويتساءل البعض عن اللغة التي كتبت بها الرسائل، وتأتي الإجابة عن ذلك في الوثائق التي عثر عليها، فجميعها أظهرت أن الخط العربي غير المنقوط هو خط كتابتها، فكيف فهمت الأطراف المتعددة قراءتها؟ قد يكون عن طريق العرب الذين خضعوا لسيطرة هذه الدول.

أضف إلى ذلك العلاقات التي كانت قائمة بين الحجاز وبلاد الشام قبل الإسلام، فقد عدت بيزنطة أن التحالف مع القبائل التي تنزل الشام، وتمدها بالمال سنويًا مقابل حماية الحدود والمواضع التي يصعب حمايتها هو حماية لها وللقوافل التجارية وللمنطقة التي تشهد الصراع الذي كان يحتدم بينها وبين فارس.

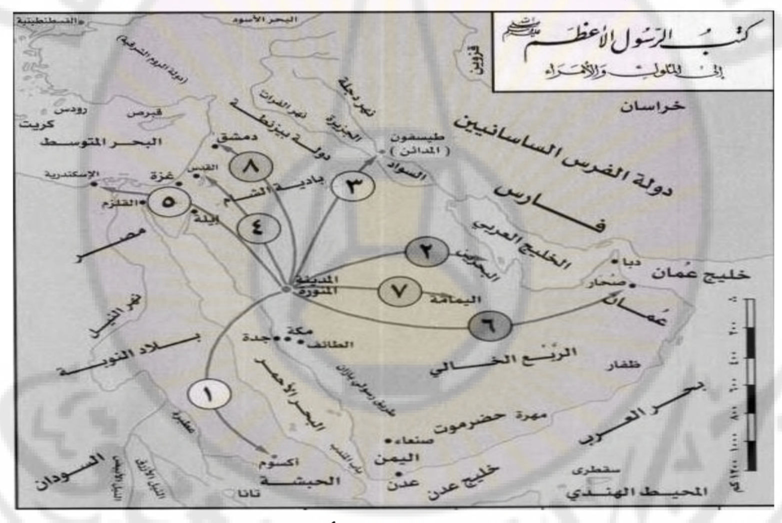
ولعل الرسول ﷺ وجد في هذه المكاتبات " وسيلة لتحقيق أهدافه الروحية ومبادئه الإنسانية، وأداة لدعم الوحدة السياسية العربية، وتأسيس الدولة العربية

١-سورة سبأ : الآية ٢٨.

٢-ابن سعد : الطبقات ١/٣٧٩-٣٧٠، اليعقوبي: تاريخ٢/٨٣.

الإسلامية، وتثبيتها والخروج بها إلى آفاق أكثر رحابة في العلاقات الدولية، إيماناً بأن المفاوضات القائمة على المساواة هي البديل للحرب، فكانت هذه المكاتبات من أوائل المناشط الإسلامية في شؤون العلاقات الدولية الدبلوماسية"[١].

وقد امتازت " هذه الرسائل النبوية الكريمة بأسلوبها الجامع المانع الموجز المحكم المضيء المبين، وقد اختير لكل مكان السفير المناسب الذي يعرفه حق المعرفة ويعرف لغته وقومه، وإذا رأوه عدوه واحداً منهم، لا يختلف عنهم في سمته ولهجته وإن تميز بشرفه وسلوكه ومنهجه"[٢].



5- سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح سنة ٨هـ /٦٢٩م :

استطاع الرسول ﷺ بعد غزوة خيبر وإخضاع يهود وادي القرى وتيماء أن يتطلع أكثر نحو الشمال، " فكان يرى في المناطق الشمالية المنفذ الطبيعي

---

١ -الباب (حسن فتح): عنوان المقال" صلح الحديبية "، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت مجلة شهرية ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، العدد ١٦٦، ص٦٥، الحجي، (عبد الرحمن علي) : جوانب من الحضارة الإسلامية، مكتبة الصحوة، بيروت،ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص١٣.

٢-الوكيل، (مختار): سفراء الرسول عليه السلام وكتابه ورسائله، دار المعارف، القاهرة د.ت ص ١٣. حمد : الجانب السياسي في حياة الرسول، ص١١١.

لانتشار الدعوة الإسلامية، فالارتباط بين هذه الجهة والجزيرة العربية ارتباط طبيعي وقديم، وبها من العرب ما يقتضي توحيدهم جميعاً، وضمهم إلى الدولة العربية الجديدة"[1].

وإذا كان أمراء الغساسنة العرب " يصانعون البيزنطيين لمصلحتهم كونهم أمراء، ويقاتلون في صفوفهم، فإنه يجب التفرقة بين مصالح الأمراء، ومصالح الشعوب إذا فضل الأمراء مصالحهم، فالحارث الغساني أظهر من الحماس ما لم يظهره هرقل نفسه حين أرسل الرسول كتابه إليه"[2].

لذلك لا يستبعد " أن يكون الغساسنة خاصة وعرب الشام عامة هم بالمقام الأول السبب في إشعال الشرارة الأولى في أتون ذلك الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، بعدما تيقنوا أن عرب الشام أسقطوا من حسابهم مبدأ التعايش السلمي مع الدولة الإسلامية، واختاروا أسلوب المواجهة العسكرية ما أمكنهم ذلك"[3].

فأستأنف الرسول محمد ﷺ إرسال بعوثه وسراياه إلى الشام للدعوة إلى الإسلام، وذلك في "**شهر ربيع الأول سنة ٨هـ/ ٦٢٩م** "[4].

وكان إرسالها حافزاً وليس سبباً " لأن سرايا الرسول ﷺ وبعوثه إلى الشام كانت سلسلة متصلة الحلقات ضمن خطة نبوية لحماية الجزيرة وللدفاع عن الإسلام من جهة الشام التي أصبحت تعد عقر دار الإسلام، فأرسل دعاته أولاً

---

١ -ابن خياط (أبي عمرو خليفة بن أبي هبيرة الليثي العصفري): تاريخ خليفة بن خياط، مراجعة مصطفى غيب فواز وآخرون، دار الليث العلمية، بيروت ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٧. المسعودي : التنبيه والأشراف، ص٣٢٤. ابن سيد الناس: عيون الأثر،١٩٧/٢. أحمد: دراسات في تاريخ الدولة العربية ص١٦٣، الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٥٣٣.

٢-الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٥٣٣.

٣-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص٨٤.

٤-الواقدي: المغازي، ٧٥٢/٢. ابن سعد : غزوات الرسول وسراياه، ص١٢٧.

وقواته ثانياً لا للحرب ولكن للدعوة إلى الإسلام، أما الحرب فهي آخر ما كان يفكر فيه"(١).

يتبين من ذلك " أن اهتمامات الرسول ﷺ، في تلك الحقبة، كانت منصبة على معرفة السبل والمنافذ التي يمكن سلوكها لنشر الدعوة خارج بلاد العرب، ولم يكن هذا التطلع منه، إلا بعد أن توفرت الأسباب الداخلية لاتصاله الخارجي"(٢).

من هنا تأتي أهمية هذه السرية لكونها" أول عمل إلى المنطقة الشمالية، منذ عمرة القضاء "القصاص" في ذي القعدة سنة ٧هـ/ ٦٢٩م، إذ كان الرسول ﷺ منهمكاً حينذاك بحسم الوضع نهائياً في الحجاز"(٣).

لذا يمكن فهم إرساله سرية سلمية بقيادة كعب بن عمير الغفاري على رأس خمسة عشر فارساً إلى ذات أطلاح من مناطق قضاعة من أرض الشام عليهم رجل يدعى سدوس، وقد دعاهم كعب إلى الإسلام فأبوا(٤).

ولم يكتفوا بذلك " وإنما قتلوا كل رجال السرية ولم يفلت منها إلا شخص واحد هو قائد السرية، إذ تمكن من الفرار بعد أن جرح، وأتى الرسول ﷺ الذي شق عليه الخبر، وهمَ بالبعث إلى قضاعة فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم"(٥).

١-الحسني (هاشم معروف): سيرة المصطفى، دار المعارف،بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٥٦٦. دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص٨٣-٨٤.

٢-الزين: خاتم النبيين محمد، ص٥٩٠.

٣-ابن شهاب الزهري: المغازي النبوية، ص ٨٥. الكتبي: فوات الوفيات١ / ٢٧٢. بيضون: من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، ص٩٥.

٤-الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٢٩. مغلطاي : مختصر السيرة النبوية، ص٩٦.

٥-ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ٢٠٧. المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ٤١١.

ويلاحظ من استقراء الروايات " أن هناك غموضاً يلف هذه السرية التي يبدو أنها لم تكن أكثر من حملة استطلاعية، لأنها من منظور عسكري لم تكن مؤهلة، وهذايعني أن إرسالها تم فعلاً في ذلك الوقت، لذلك لا يمكن عدها مجرد مصادفة، والواضح أن هدفها لم يكن القتل لأن عددها لم يتجاوز الخمسة عشر رجلاً لمواجهة ما وصفته الرواية " بجمع كثير"[١].

مهما يكن فإن ذلك الحادث " لم يروع المسلمين ويزرع الخوف في صفوفهم، ومن ثم لم يثنهم عن التطلع إلى بلاد الشام، فكان توجه اهتمام الدولة الإسلامية يتزايد تزايداً أكثر إلحاحاً من ذي قبل باتجاه التخوم الشامية"[٢].



٦- غزوة مؤتة " جيش الأمراء " سنة ٨هـ/ ٦٢٩م :

في الوقت الذي كانت الدولة العربيةالإسلامية تمضي قدماً في ترسيخ كيانها، بقيت الشام تشغل حيزاً بارزاً في سياسة الدولة الناشئة، دون غض

---

١ –البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٣٨٠. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٥/٢. بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص٨٩، الأنصاري: الجزيرة العربية ١ /١٦٩.

٢–الزين: خاتم النبيين محمد، ص٥٩٠ . حركات: السياسة والمجتمع في العصر النبوي ص١٥١.

الطرف عنها لضم قبائلها إلى المجتمع الجديد في إطار وحدة كاملة مع قبائل الحجاز، وجزيرة العرب، تمهيداً للخطوة التالية على المساحة الأوسع، تحقيقاً لعالمية الدعوة الإسلامية.

إذ إن السرايا الإسلامية جاءت مباشرة في أعقاب انتصار هرقل على الفرس بسرعة ولم تسمح له باستعادة التوازن الإمبراطوري، وقد أدى توالي الأزمات الداخلية والخارجية إلى عدم الاستقرار والتناقضات والتقلب، وهي الأمور التي بدأت من الآن وصاعداً تفرض على هرقل وحكومته أن يظلا في حالة مضطربة، وقد بدت أثار هذا الاضطراب في تنظير بعض المصادر.

فقد كان احتكاك المسلمين بعدد من قبائل الشام، " وفي طليعتها كلب، فضلاً عن قبائل قضاعة وجذام وفزارة، يثير حفيظة هرقل، ويعده تحريضاً لها على التمرد ضد السيادة البيزنطية، خاصة وأن الرسول ﷺ بات معنياً بشؤون هذه القبائل من منظور فكري، وما تواجهه من تحديات في ظل الحكم البيزنطي، فكان لابدَ من إخضاع القبائل الموالية للبيزنطيين"[١].

هكذا كانت التطورات والأحداث تنسج الأسباب الحقيقية **لغزوة مؤتة** "[٢] الشهيرة أما السبب المباشر لغزوة مؤتة والوارد في أغلب المصادر فهو مقتل الحارث بن عمير على يد شرحبيل بن عمرو الغساني.

١-بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص٩٠، الزين: خاتم النبيين محمد،ص٥٩١- ٥٩٢. العمري، (أكرم ضياء): السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٤٦٧

٢-اختلفت المصادر في تسمية مؤتة بين غزوة وسرية. فقد ورد أنها سميت غزوة لأن الرسول كشف ما بينه وبين الشام وأخبر الناس بأخبار المعركة. كذلك ورد سبب آخر لتسمية غزوة وهو كثرة عدد جيش المسلمين فيها وما لاقوه من الحرب الشديدة مع الكفار. في حين ورد في روايةأخرى أن مؤتة سرية، وليست غزوة لأنها طائفة من جيش الرسول بعثها ولم يخرج معها. الواقدي : المغازي،ج٢، ص٧٥٥، الكتبي :عيون التواريخ،ج١، ص٢٧٩، القسطلاني : المواهب اللدنية،ج١، ص٣٠٠.

هذا بكل تأكيد واحد من بين الأسباب العديدة، " لكنَه وعلى أرجح الاحتمالات ليس السبب الوحيد أو حتى المباشر لغزوة مؤتة، وإذا كان هناك سبب مباشر يرجح أنه في الغالب مقتل الدعاة المسلمين بزعامة كعب الغفاري في ذات أطلاح في شهر ربيع الأول سنة ٨هـ/٦٢٩م أي قبل حدوث غزوة مؤتة بنحو شهرين"(١).

لذلك تكمن الأسباب الحقيقية التي دفعت إلى غزوة مؤتة – كما تجمع معظم الروايات – في كل التجاوزات التي ارتكبها عرب الشام ضد المسلمين ابتداء من السنة ٥هـ/٦٢٦م، وكان استشهاد الدعاة المسلمين في ذات أطلاح بمنزلة القشة التي قصمت ظهر البعير (٢).



ومن المستبعد أن يكون إرسال الجيش إلى أرض الشام من أجل الانتقام لشخص واحد، وليس من الممكن أن ينتظر المسلمون حتى يتم الغزو في

١-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص٨٨.

٢-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص٨٨.

موطنهم فيحدث ما لا يُستطاع ردَه، ومن البديهيات في فن الحرب أن مهمة المهاجم أصعب من مهمة المدافع وأشق"[١].

في ضوء ما ذكر عن خلفيات مؤتة وملابساتها يمكن الحزم" بأن الهدف الأساسي لغزوة مؤتة هو تأديب قبائل عرب الشام الذين دأبوا على استفزاز المسلمين، وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم والحول دون تعرض تجارهم للأذى"[٢].

وتحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق، بعد أن أذعنت القبائل للدعوة الجديدة (مع العلم أنه في حالات كثيرة كان يتم الاتصال بالقبيلة دون أن يعتنق أفرادها الإسلام)، " فقد لاحظ المسلمون أن الغساسنة وجيرانهم إذا ما استضعفوا شأن دولتهم، وأفلتوا من جرائم فعل كتلك الفعلة اللئيمة فإن هذا بدون شك سينعكس انعكاساً سلبياً عليهم "[٣].

هذا بكل تأكيد، سوف يشجع الغساسنة وغيرهم من القبائل، وقد يجرئهم عاجلاً على اقتحام الصحراء للقضاء على المسلمين ودولتهم في الحجاز، " فتهب القبائل لنصرتهم في طريقهم وتمدهم الإمبراطورية البيزنطية بالمال والسلاح تقديراً لهيبتها في عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها، ووهموا أنهم قادرون عليها إذ لا مطمع للإمبراطورية البيزنطية في مقاتلة المسلمين، وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة"[٤].

إذن لا سبيل "إلى تسيير الجنود البيزنطيين بنظامهم المعروف في القتال، ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود،

١-دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص٨٤. سعيد :حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٤٠٧.

٢-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص٨٩.

٣-العقاد: عبقرية خالد ص٣٩.

٤-العقاد: عبقرية خالد ص٣٩.

وإنَ تسييرهم عن طريق البحر إلى شواطئ الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا الطلب بأتباعهم الأقدمين في تخوم الشام ".

في ظل هذا الواقع، " لابد أن يعلم العرب والبيزنطيون على حد سواء، أن الإسلام حريص على ألا تنتقض هيبته في أية ناحية، وأن القبول بتطاول الأعراب ستكون أصداؤه سيئة بسمعة دولتهم، وسيشعر الأعراب والبيزنطيون من خلال ذلك أن الإسلام يمكن النيل منه بسهولة دون عقاب"[١].

زد على ذلك، " أن مستجدات طرأت، وأن الرسول ﷺ كان ينوي فتح مكة المكرمة، ويريد الحصول على السيوف المشرفية التي كانت تصنع قرب مؤتة في مشارف المجاورة لها "[٢]، وستظهر أحداث المعركة والتطورات اللاحقة لها حقيقة هذا الأمر.

سواء أكان هذا هو السبب الظاهري أو ذاك، " فإن الغرض من غزوة مؤتة أبعد غوراً وأسمى مقصداً مما ظن المؤرخون الأولون، فمحمدﷺ الذي دان له الحجاز كله أو كاد، وأرسل رسله إلى ملوك وحكام الجزيرة العربية وما جاورها يدعوهم إلى الإسلام، وكان يرنو بعين بصيرته إلى بلاد الشام كأول هدف يرجو تحقيقه لنشر دعوته فيما وراءها من الممالك والأقطار"[٣].

ويلاحظ أن المسلمين نجحوا في اختراق الحاجز القبلي المتحالف مع بيزنطة، تلك التي عرفت بالبلقاء، وضمت أشهر القبائل التخومية النافذة، من أمثال لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلي وغيرهم من العرب

١-أبو خليل: غزوة مؤتة ص١٢٦.

٢-الواقدي: المغازي ٢/ ٨١٤. حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/ ٤. كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص٨٧.

٣-الدرة (محمود) : تاريخ العرب العسكري، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ١/ ١٦٧-١٦٨.

المسيحية، " وهي القبائل التي اعتمدت عليها بيزنطة أكثر من اعتمادها على الغساسنة الملوك التقليديين والمرتبطين رسمياً بالتاج البيزنطي"[١].

تلك الأسباب كانت قد تضافرت كلها، وجعلت الرسول محمد ﷺ يقدم على إجراء خطوة عسكرية في بلاد الشام، وذلك عندما أعد في السنة ٨هـ/٦٢٩م جيشاً من خيرة أبطال المسلمين، و أمر عليهم زيد بن حارثة مولاه، وقال: " **إن أصيب فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فأميركم عبد الله بن رواحة الأنصاري، فإن أصيب فسيفتح الله على يدي رجل من المسلمين**"[٢].

وكأن الرسول ﷺ يدرك "أهمية البعث، ويتهيب مواجهة جيش البيزنطيين وأعوانهم إذ أمر أن يخلف أحدهم الآخر إن تعرض للخطر، وهذه المرة الأولى التي يتخذ الرسول ﷺ فيها مثل هذا الاحتياط لعدة أسباب منها، وجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً"[٣].

ثمة ملحوظة مرتبطة بأرضية المعركة وتوقيتها في آن واحد، لذلك نجد أنَ تساؤلاً يفرض نفسه، وهو هل صحيح أن حملة المسلمين إلى مؤتة كانت اختياراً في حينه من الرسول ﷺ، أم أنها ردة فعل على خطر ما أخذ يلوح في المنطقة المتاخمة لدولته، في وقت كان فيه البيزنطيون مهتمين بإعادة ترتيب أوضاعهم في الشام، بعد احتلالها إبان الحرب مع الفرس؟

١-باشميل: العرب في الشام قبل الإسلام، ص١٦٧.

٢-الواقدي: المغازي،ج٢، ص٧٥٦. البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ٢٥٦ه /٨٧٠م) : الجامع الصحيح، تح محب الدين الخطيب وآخرون، المكتبة السلفية، القاهرة ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ٥٨/٣. اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٦٥/٢.

٣-عرموش : قيادة الرسول السياسية والعسكرية، ص١١١. العمري : السيرة النبوية الصحيحة ص٤٦٧.

لعل الإجابة على هذا التساؤل تكون في القول: " قد لا يكون ممكناً دون استيعاب هذه الظروف والأحداث وانعكاسها السلبي على العلاقة بين الرسول والبيزنطيين فقد وجد هؤلاء في نمو القوة الإسلامية على أطراف دولتهم، تهديداً لمصالحهم ومراكز النفوذ التابعة لهم، فأدى ذلك إلى معادلة جديدة في الصراع على المنطقة، أخذت تفرض نفسها على حساب المعادلة السالفة التي انهارت أو كادت بعد هزيمة الفرس"[١].

ومع كثرة الروايات التاريخية التي وردت في المصادر العربية، نتساءل متى تم الإعداد لغزوة مؤتة؟

إن ثمة التباساً في التوقيت يتعلق بهذه الغزوة " وهو أن الإعداد لمؤتة تم في أعقاب غزوة خيبر، وذلك انطلاقاً من علاقة ما ربطت بين الغزوتين ضمن تحرك سياسي – ديني، موحد ومتواصل في حين وجدت رواية في مصادر أخرى حددت تنفيذ هذه الغزوة في أعقاب عودة الرسول ﷺ من عمرة القضاء إلى المدينة"[٢].

على أن كلتا الروايتين، تتفقان عند نقطة وإشارة مهمة، " وهي أن اختيار اللحظة لهذا التحرك، كان مؤشراً يدل على موقع الرسول ﷺ القوي، أي أنها لم تكن غزوة عفوية في الاتجاه الشامي أو مدفوعة بهذا الاتجاه، بل كانت متصلة بهذه المنجزات السياسية المهمة، مسبوقة بحقبة من التأمل والإعداد الهادئ لها، بلغت نحواً من ستة أشهر"[٣].

١–بيضون : من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، ص١١٢–١١٣.

٢–ابن سعد : غزوات الرسول وسراياه، ص١٢٨. المسعودي : التنبيه والأشراف، ص٢٣٠. الطبري : تاريخ الرسل والملوك،٣/ ٣٦. ابن عبد البر : الدرر، ص٢٠٩، بيضون : تاريخ بلاد الشام، ص١١٣.

٣–البيهقي،(أبو بكر أحمد بن الحسين): دلائل النبوة، تعليق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،ج٤، ص٣٦٥، ابن كثير البداية والنهاية، ج٦ ص٤٢٩، بيضون : تاريخ بلاد الشام، ص١١٣.

فاستعد الجيش للمسير، ولم يكن ليغيب عن رسول الله ﷺ قط ما كان لبيزنطة من قوة العتاد والسلاح، ومن كثرة الجيوش والمقاتلين، وما حققته جيوشها من انتصارات على الفرس غير بعيدة في الزمان.

رغم ذلك، " عقد الرسول ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد، ثم أوصاه بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعو من هنالك إلى الإسلام فإن أجابوا قبلوا منهم، وإلا فليستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم"[١].

وبعد أن أتم الجيش استعداداته انطلق في أول غزوة له خارج حدود جزيرة العرب في اتجاه الشام على رأس جيش بلغ عدد أفراده ثلاثة آلاف "[٢] مقاتل طبقاً لمعظم الروايات، وهو عدد لم يصل إليه أي بعث في وقت سابق، ومنذ ذلك الوقت بدأت بعوث الرسول ﷺ إلى الشام تأخذ طابع الجيوش المقاتلة لا طابع جماعة الدعاة المدافعة بعد أن" ندب الرسول الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف، ثم انطلقوا في غزوهم وخرج الرسول ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم، بعد أن أوصى قواده بدعوة عرب الشام إلى الإسلام، وبذل جميع المحاولات لإقناعهم وأن لا يستعملوا القوة إلا إذا اضطروا إليها"[٣].

في هذا السياق، تروي إحدى المصادر البيزنطية " أنه كان لبيزنطة عيون تراقب الأحداث في الحجاز من هؤلاء شخص يدعى قطبة وهو قرشي الأصل،

١–ابن سعد : الطبقات الكبير،ج٢، ص١١٩، ابن كثير : الفصول في سيرة الرسول، ص١٩٣.

٢–البلخي: البدء والتاريخ، ٢ /٩٦. الطهطاوي (رفاعة رافع): نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز تح عبد الرحمن حسن محمود وآخرون، مراجعة عبد الحكيم راضي، تقديم سامي سليمان أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٣٤٩.

٣–ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق،ج٢، ص٩، ابن كثير : البداية والنهاية،٤١٣/٦. ابن القيم الجوزي : زاد المعاد،٣ / ٣٨١.

وكان يعمل حاجباً أو ترجماناً لثيودور شقيق هرقل، وصادف في أثناء الإعداد للحملة وجوده في الحجاز فأسرع نحو ثيودور يخبره بالأمر"[١].

وقد صمتت المصادر العربية بما فيها كتب الأنساب عن ذكر اسم قطبة، وعلى الرغم من ذلك تضفي هذه المعلومة إشارة مهمة ونادرة – مع أنها لم ترد في المصادر العربية – ويعتقد أنها ربما كانت محاولة أخيرة من مشركي قريش للكيد للمسلمين وإضعافهم بصورة غير مباشرة.

وعندما علم القائد البيزنطي ثيودور بعدد الجيش الإسلامي ووجهته استعد وجمع العسكر الموجودين في منطقة البادية، ويلاحظ أن العامل الديني وحده لم يكن محرك العلاقة بين قبائل العرب والبيزنطيين، بالمقابل من ذلك أظهر العامل الاقتصادي ضرورة واضحة في استمرار التحالف، فمن المرجح أن ثيودور ربما دفع كميات كبيرة من الذهب لقادة القبائل وزعمائها من أجل الاستنفار والاحتمال الأكبر وكان الغرض من هذا الدفع المالي أصلاً هو حماية البلاد البيزنطية إزاء هجمات عربية عدائية، ويعد هذا أسلوباً بيزنطياً كثر استعماله عند الحدود المختلفة.

وما يمكن أن يذكر، " فيما يخص استعمال النقود، يعزز الفهم للعلاقة بين هرقل والعرب إذ إنَ ذلك يكمل ما وُجد من معلومات أخرى عن أهمية المال في تجنيد العرب للخدمة في الجيش البيزنطي وضمانة استمراره فيه، وتزداد أهمية دفع المال، أو عدم دفعه وضوحاً مع هذه الحقيقة، خاصة أن أفراد القبائل التي اعتمد عليها كانوا من جنود الحراسة إزاء الصحراء، وكانوا عرباً حصراً، وكان الدفاع عن الشام من مهامهم "[٢].

---

1 Theophanes :The Chronicle of Theophanes، p.37.

٢-كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص٧٦ -١١٨-١٣٩.

وفي الوقت الذي خرج فيه الجيش من المدينة " كان المسلمون قد تقدموا في مسيرهم نحو مشارف الشام فنزلوا وادي القرى، ويبدو أن عرب الشام سمعوا بتحرك المسلمين قبل أن يصلوا إلى وجهتهم، فقام شرحبيل بن عمرو الغساني وأرسل أخاه سدوس، لكنه قتل "[١].

فلم يكن أمامه إلا أن أرسل أيضاً " أخاه وبر بن عمرو، وذلك في محاولة ربما ترمي إلى عرقلة سير جيش المسلمين، وإتاحة فرص أفضل للخطة المعادية التي كان شرحبيل بن عمرو الغساني على ما يبدو رأس الحربة فيها"[٢].

وتختلف المصادر في تقديرها عدد القوات البيزنطية وحلفائها التي واجهت المسلمين، فيروى " أن هرقل نزل بمآب ومعه مئة ألف من البيزنطيين، باتفاق معظم المصادر، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء ووائل وبكر مئة ألف عليهم رجل من أراشة، وهي بطن من بلي، يقال له مالك ابن زافلة"[٣].

وفي رواية أخرى،" كان البيزنطيون في مئة ألف وقد أنفذهم هرقل وهو مقيم بأنطاكية بقيادة تيادوقس[٤] البطريق، وعلى متنصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم شرحبيل"[٥].

١-الواقدي: المغازي،٢/ ٧٦٠. الحسني: سيرة المصطفى، ص٥٦٨، بيضون : تاريخ بلاد الشام، ص١١٦.

٢-المقريزي : إمتاع الأسماع،١/ ٣٣٩. بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص١١٦.

٣-ابن إسحاق : سيرة ابن إسحاق، ٥ /١٨٠. م. الكلاعي : الاكتفاء،ج٢، ص٢٧٧، ابن خلدون: العبر ٢/ ٤٥٦.

٤-تيادوقس: ربما هو تحريف لاسم ثيودور. بروكلمان(كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٣٨٨هــ/١٩٦٨م، ص٥٩. أحمد: دراسات في تاريخ الدولة العربية، ص١٧٠ – ١٧١.

٥-المسعودي: التنبيه والأشراف، ص٢٣٠، القسطلاني: المواهب اللدنية ١ / ٣٠١.

أيضاً يروى في المصادر، أن البيزنطيين والعرب المتنصرة معاً كانوا في " نحو مئة ألف، وهناك رواية تذكر أن البيزنطيين كانوا مئتي ألف والعرب المتنصرة خمسين ألفاً ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين"[١].

ثمة أسئلة يجب ذكرها، لماذا هذا الجمع كله؟ أهو الفزع من قوة المسلمين التي ارتجت لها أرجاء جزيرة العرب؟ أم هو انتصارهم على حصون اليهود؟ أم هي دعوة الرسول الملوك والأمراء إلى الإسلام، فتصور هرقل وحلفاؤه أن جيشاً ضخماً قادم إليهم؟

لدى التدقيق في الروايات- مع عدم الثقة بالأرقام - "يبدو أن التساؤلات الثلاثة مجتمعة هي السبب في هذا الحشد الهائل الذي سيواجه ثلاثة آلاف"[٢].

ومهما يكن، لا يهم كثيراً إجراء المقارنة و التفاوت الهائل بين الجانبين الإسلامي – البيزنطي وحلفائهم من عرب الشام، إذ إن الأعداد غالباً ما تحمل كثيراً من المبالغة، وربما تضمنت الروايات هذا العدد لتدل على صعوبة الموقف الذي سيواجهه المسلمون، وبيان الفرق الشاسع بينهما.

ويرجح أن هرقل، كما يتبين من الروايات، "اعتمد على قادة عرب، ربما لأنه يضن بالبيزنطيين في حرب العرب، لأن العرب أعلم بقتال العرب، ثم إن هذه هي الوظيفة الأساسية للقبائل العربية الضاربة بالشام منذ سمح لهم بالإقامة على تخومه"[٣].

ويتبين مما سبق، أن هرقل لم يكن من المشاركين في هذه المعركة، وإنما كان في بيت المقدس، فقد قدم حشد كبير من قبائل عرب الشام لاستقباله إعراباً

١-ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ١/ ١٢٨. ابن الشحنة: روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، ص٨٨. الحلبي: السيرة الحلبية،٢/ ١٤٦٤. دحلان : السيرة النبوية،ج٢، ص٢٣٧

٢-أبو خليل : في التاريخ الإسلامي، ص١٥٥.

٣-دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام ص٩٠.

عن إخلاصهم له، فكلف أشخاصاً من هذه القبائل بالتوجه لملاقاة المسلمين والتصدي لهم.

ولم يكن من المعقول أن يكون في حلبة الصراع إمبراطور بيزنطة هرقل وصاحب الولاية على الشام، إذ يستبعد أن يقوم بنفسه بقيادة الجيوش، إذ ستساعده جيوش القبائل الشامية لملاقاة جيش من المسلمين وصل الشام من الجزيرة العربية أياً كانت مهمته.

في حين تذكر معظم الروايات " أن هذه الجيوش كانت تحت قيادة شرحبيل بن عمرو الغساني، يمكن أن يستنتج أن القيادة العليا للقوات العربية من غسان وقضاعة وغيرهم كانت في يد شرحبيل بن عمرو، وإن اختلفت الروايات، وكان هناك عدد من القادة الآخرين – كما يرجح – يعملون حسب توجيهه من أبرزهم مالك بن زافلة وابن أبي شمر الغساني"(١).

لكن المهم في سياق غزوة مؤتة، المفأجاة المنتظرة للمسلمين " وهم بمعان التي تبعد عن المدينة ٨٤٣ كيلو متراً، بما لم يكونوا يتوقعونه عندما علموا بضخامة جيش أعدائهم، فأقاموا هناك ليلتين يتشاورون في أمرهم من هول ما فوجئوا"(٢).

فهل يتقدمون للقاء هذا الحشد الهائل من العرب والبيزنطيين على غير استعداد أم يستمدون رسول الله ﷺ يخبرونه بحجم عدوهم، مع العلم أن المدد قد يستغرق وصوله وقتاً طويلاً أم يعودون إلى المدينة ؟

١-البيهقي : دلائل النبوة،ج٤، ص٣٦٥، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق،١٠/٢.

٢-الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧. ابن الأثير: الكامل ٢/ ١١٣. الكتبي: عيون التواريخ ١/ ٢٨٠ سعيد :حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٤٨

أياً كان الأمر فإن المسلمين " تشاوروا فيما بينهم وأطالوا، وأخيراً اتفقت كلمتهم على مواصلة الزحف من دون استشارة المدينة أو طلب نجدات منها"[١].

فمضى جيش المسلمين شمالاً لمواجهة عدوه من البيزنطيين وعرب الشام المتنصرة، والتقى الجمعان على" تخوم البلقاء، حيث يمر الطريق التجاري، بقرية من قراها تسمى مشارف[٢]، فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة التي تبعد عن معان حوالي٨٠ كيلو متراً، وذلك لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيع المسلمون التحصن بها حيال تفوق أعدائهم"[٣].

وهناك في مؤتة جرت معركة ضارية ليس فيها تكافؤ في العدد والعتاد، " وقاتل زيد بن حارثة حتى شاط[٤] في رماح القوم، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وقاتل بها حتى ألحمه القتال"[٥].

وبعد قتل جعفر" أخذ الراية عبد الله بن رواحة وقد تقدم بها وهو على فرسه وقاتل حتى قتل، عند ذلك اتفق الناس على خالد بن الوليد وهو أحد المستشارين العظام، فأخذ الراية"[٦]، وقد قاربت شمس النهار على الغروب.

١–سعيد: حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٤٩

٢–مشارف: جمع مشرف، قرى قرب حوران، منها بصرى، ينسب لها السيوف المشرفية، كما قيل إنها قرية من قرى البلقاء.ابن هشام السيرة النبوية،٣ / ٣٧٦. الحموي: معجم البلدان ١٣١/٥ (مادة مشارف). ابن كثير: البداية والنهاية، ٦ / ٤١٩. سعيد: حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٤٩. العيسى: تاريخ الغساسنة، ص٩٧.

٣–طلاس : الرسول العربي وفن الحرب، ص٢٧٧.

٤–شاط : الشيء شيطاً وشياطة وشطوطاً، وشاط الرجل إذا سال دمه وهلك. ابن منظور: لسان العرب،ج٢٤، ص٢٢٦٤

٥–السهيلي : الروض الأنف ٤ / ٩٦. ابن القيم الجوزي : زاد المعاد ٣ / ٣٨٣.

6 – Theophanes :The Chronicle of Theophanes،p.37

ابن هشام : السيرة النبوية ٣ / ٣٧٨ – ٣٩٧. البلاذري : أنساب الأشراف ١/ ٣٨٠.

إن الروايات المتعلقة بهذه الغزوة تبدو مكررة في المصادر، وعلى شيء من الإيجاز في بعضها دون أن تضيف معلومات أخرى جديدة تتعلق بسير القتال وظروفه، باستثناء ما ذكرته عن خالد بن الوليد الذي كان حديث العهد بالإسلام، وعن أخذه الراية بعد الفراغ القيادي في الحملة الأمر الذي أدى إلى اتخاذه ذلك الدور الإنقاذي في مؤتة.

فأظهر خالد عبقريته العسكرية في مواجهة هذا الموقف، وبات ليلة وهو يفكر بالانسحاب ولكن كيف يتم له ذلك، وهو في وضع لا يحسد عليه ومهمته خطيرة ؟ فقد ضعف المسلمون، وترك بعضهم ميدان القتال، وقتل قبله ثلاثة من قادة المسلمين، وأمامه عدو عملاق بالعدد والعدة، ولا أمل له بوصول نجدات من المدينة المنورة لبعد المسافة وصعوبة الاتصال.

وإذا كانت الحرب مهنة فإن القيادة فن، وقد تجلى ذلك، عندما وضع خالد خطة عبقرية عجز خصومه عن استيضاح معالمها فأعاد التعبئة ورسم خطته لليوم التالي " إذ قام بتغير الوجوه إذ جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته"(١)، عندها تخبط البيزنطيون" وأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم بعدما أوهم الخصم بأن العدد يأتي بشكل مستمر لذلك جعل الخيل طيلة الليل تجري بحركة دائرية وجعل طائفة من الجيش يحدثوا ضجة عالية (ربما يثيرون الغبار) ويكثرونه عند طلوع النهار، كما نشر مؤخرة الجيش على جبهة عريضة لحماية الانسحاب ولتثبيط مطاردة البيزنطيين وحلفائهم"(٢).

١-الواقدي : المغازي،٢ / ٧٦٤. البيهقي : دلائل النبوة ٤ / ٣٧٠.

٢-ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢ / ١٦. ابن كثير : البداية والنهاية ٦ /٤٢٨. طلاس : الرسول العربي وفن الحرب، ص٢٧٧

وبهذا استطاع خالد تحقيق انسحاب مدروس منظم مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش، عند ذلك " صار يقاتل وهو يتأخر بالجيش إلى الجنوب رويداً رويداً، فلم ينسحب فجأة انسحاباً فوضوياً، كيلا ينقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة وخسائر كبيرة، فيركب العدو ظهرهم الأمر الذي جعل أهل الشام يظنون أن في الأمر خدعة وأنهم يستدرجون إلى الصحراء انتظاراً لمدد، فالارتداد المأمون أصعب من النصر في بعض المآزق"(١).

كانت نتيجة ذلك أن تمكن المسلمون من الانسحاب إلى المدينة، ومن هنا أثنى الرسول على خالد بن الوليد إذ قال: " اللهم هو سيف من سيوفك فانتصر به، فمنذ ذلك اليوم سمي خالد سيف الله"(٢).

وأما فيما يتعلق بعدد شهداء المسلمين في مؤتة، فقد تضاربت الروايات بشأن عددهم الذي ذكر أنه بين "ثمانية واثني عشر"(٣)، ولكنْ كيف يمكن أن نفسر قلة عدد الشهداء في ضوء هزيمة المسلمين وتقهقرهم في حال وقعت فعلاً مواجهة دموية بين الطرفين ؟ وتبعاً لذلك هل تعد غزوة مؤتة نصراً للمسلمين أم هزيمة ؟

ويبقى سؤال ثالث مرتبط بالسؤالين المتقدمين وهو أن المسلمين إذا لم يكونوا قد انتصروا أو انهزموا فعلى أي أساس يمكن أن يفسر الانتصار والهزيمة ؟

١- دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص٨٨- ٨٩، أبو خليل : في التاريخ الإسلامي ص١٥٧.

٢-البخاري : الجامع الصحيح ٣ /٤٨. الكتبي: عيون التواريخ ج١/ ٢٨٥. ابن كثير: البداية والنهاية ٤٣٣/٦ .

٣-ابن هشام: السيرة النبوية ٣٨٨/٣-٣٨٩. الكلاعي: الاكتفاء ٢٨٦/٢. ابن كثير: الفصول في سيرة الرسول ص١٩٤، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٤٤/١.

إن الأمر الذي يطمئن إليه الباحث من خلال اختلاط الروايات " أن المسلمين في مؤتة إن لم يكونوا قد حققوا انتصاراً ظاهراً على عدوهم فإنهم كانوا أقرب إلى النصر منهم إلى الهزيمة "(١).

وقد استطاع المسلمون خلال ذلك – بفضل أسلوبهم البارع في المناورة وقدرتهم على الكر والفر– أن يصيبوا من عدوهم أكثر مما أصاب عدوهم منهم، من ذلك أن " قطبة بن قتادة العذري قائد ميمنة المسلمين تمكن أن يقتل قائداً بارزاً من قواد العرب المتنصرة وهو مالك بن زافلة "(٢).

وتمكن المسلمون من نيل بعض الأمتعة مثل"خاتم وبيضة عليها ياقوتة"(٣) إضافة إلى ما ورد في بعض المصادر التي تحدثت عن خالد نفسه قائلاً : " لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية "(٤).

أما فيما يتعلق بعدد شهداء المسلمين في مؤتة فلا يمكن الأخذ بعين النظر إليه إلا في ضوء ما ذكر الآن " من أن المواجهة الإسلامية – البيزنطية في مؤتة كانت اشتباكاً أقرب إلى طبيعة المناوشة منه إلى طبيعة معركة انتحارية، أما فيما يتعلق بقرار المسلمين بالانسحاب فهو عائد إلى اعتقادهم بأن تحقيق النصر المؤزر الحاسم أمر صعب في ظل تلك الأحداث والأوضاع المحيطة بهم"(٥).

١–سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٠.

٢–الطبري : تاريخ الرسل والملوك،٤١/٣.

٣–الواقدي : المغازي ٧٦٨/٢. المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٤٤/١.

٤–البخاري: الجامع الصحيح، ٣ /٥٨. العامري: بهجة المحافل، ٣٩٢/١. الحميري: الروض المعطار، ص٥٢٤، حسن (إبراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي دار الجيل، بيروت، ط١٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ١١٤/١.

٥–سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٠– ١٠١.

فقد كانوا يحاربون في"أرض بعيدة ويواجهون عدواً أكثر منهم عدداً وعدة، وكانوا في الوقت نفسه مهددين بنفاد ما معهم من مؤن، ومن هنا كان قرارهم بالانسحاب قراراً صائباً أملته الضرورة، ولم يكن قراراً ناجماً عن خسارة وهزيمة بحال من الأحوال، وفي الوقت نفسه لم يتمكن البيزنطيون من حسم المعركة لصالحهم"[١]، وقد أكد هذا المعنى رسول الله ﷺ وهو يصف المسلمين العائدين من مؤتة في قوله عليه السلام " ليس بالفرار ولكنه الكرار بإذن الله "[٢].

لذلك فإن حملة مؤتة،" لا تبقى بالضرورة أسيرة الطابع الثأري المتداول، أي أنها لم تخرج للثأر، بل تعدُ خطوة طليعية في التاريخ العسكري للمسلمين خارج النطاق الحجازي، فلا شك في أن المسلمين أفادوا دروساً وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع البيزنطيين في مستقبل حركاتهم الحربية معهم، إذ تعرفوا قوتهم وعددهم وأساليب قتالهم وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها"[٣].

ومهما يكنالأمر " فإن وصول قوة عسكرية إسلامية بهذا العدد إلى منطقة مؤتة وعودة الباقين إلى المدينة، يدل بوضوح على أن الطريق إلى الشام قد غدا مفتوحاً أمامهم"[٤]، ومن ناحية أخرى" كانت غزوة مؤتة فاتحة خير على الإسلام والمسلمين، لأن بسالة الجيش الإسلامي وثباته أمام جحافل البيزنطيين

١-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠١

٢-ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق ١٧٨/٥. البستي: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء،ص ١٧٩، الكلاعي: الاكتفاء،٢٨٢/٢. إبراهيم (محمد أبو الفضل) و البجاوي(علي محمد): أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م، ص٩١.

٣-بيضون : تاريخ بلاد الشام، ص١٢٠، العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ص٤٧

٤-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/ ١٦٩.

قد بهرت القبائل العربية المتاخمة للشام، مما جعلها تتفكر في أمر هذا الدين الجديد"[١].

وما ساعد على انتشار الإسلام في تلك الربوع " اضطراب الأحوال المالية للإمبراطورية البيزنطية اضطراباً جعل أحد عمال الحكومة - وكان يدفع رواتب الجيش- يرفع صوته في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في مؤتة عندما قدموا لقبض رواتبهم وما كان منه إلا أن ردهم رداً مهيناً"[٢].

ولاشك أن ردة الفعل هذه أثرت في نفوس أولئك الأعراب، " وإذ بالإسلام يستقبل في رحابه أناساً من قبائل سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة، وغيرهم كثير من قبائل العرب أناساً كثيرين، فأظهرت غزوة مؤتة وخلال حقبة وجيزة أنها كانت سبباً من أسباب الأمن للمسلمين من شمال المدينة إلى الشام، وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة ومنعة"[٣].

أما من ناحية النتائج والآثار بعيدة المدى لغزوة مؤتة" يمكن القول رأى البيزنطيون فيها غارة اعتاد البدو أن يشنوها للسلب والنهب - ولم يقدّر البيزنطيون أهميتها - فهي غارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة، ولذا غدا انهزامها وقتل قادتها باعثاً جعل المسلمين يتطلعون بأعين واسعة إلى الشام، كذلك أضحى تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم قوة دفعت الأداة الحربية الإسلامية في انطلاقها السريع تطوي تلك البلاد"[٤].

لكن النتيجة التي لا خلاف حولها وهي التي تعد من أهم النتائج " أن هذه الغزوة لفتت أنظار المسلمين إلى أن هناك عدواً خطيراً في الشمال يتربص

١-الزين : خاتم النبيين محمد، ص٦٠٩

٢-كيغي : بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة،ص١٣٩،. الدرة : تاريخ العرب العسكري ١/١٧٤.

٣-المباركفوري (صفي الدين) : الرحيق المختوم، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، ص٣١٣. الزين : خاتم النبيين محمد، ص٦١٠

٤-العدوي : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص٤٦.

الدوائر، ويتحين الوقت للانقضاض على دولتهم، هذا العدو هو الإمبراطورية البيزنطية، وتتحصر أهميتها، في أنها أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية على المستوى الدولي"(١).

تبقى الإشارة إلى أن " أخطر ما تمخضت عنه غزوة مؤتة، هو بروز البيزنطيين على مسرح الصراع ضد المسلمين، فكانت هذه الغزوة بمنزلة البديل لتبدل العلاقات بين القوة الإسلامية البيزنطية، وكان هذا بداية لأن يأخذ اتجاه الغزوة منعطفاً خطيراً، وكان هذا الحدث تاريخاً هاماً لأنه أول لقاء بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي"(٢).

فلم يكن المسلمون يضعون في حسابهم أو حتى يسعوا إلى مواجهة مع البيزنطيين " وإنما كان هدفهم الأول هو تأديب عرب الشام ووضع حد لاعتداءاتهم المتكررة التي جاوزت حد الصبر والاحتمال، وإذا بهم يواجهون عدواً أشد خطراً وأحدّ ناباً وهو الإمبراطورية البيزنطية"(٣).

ولهذا من المرجح " أنَ كل العداوات بين المسلمين والبيزنطيين يمكن رد جذورها إلى تلك المواجهة القاسية في مؤتة، فقد كانت مؤتة هي الشرارة الأولى في ذلك الصراع الإسلامي البيزنطي الذي قدر له أن يستمر أكثر من ثمانية قرون "(٤).

منذ ذلك الوقت، أدرك المسلمون حق الإدراك أنهم لا يتعاملون مع عرب الشام بل مع جحافل بيزنطة من ورائهم، وكان عليهم أن يرسموا سياستهم على هذا الأساس، وكانوا في الوقت نفسه يدركون ما يمتلكه البيزنطيون من قوة

١-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠١. سالم: دراسات في تاريخ العرب، ص١٢٧

٢-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠١ وما بعدها. إيرفينغ: محمد وخلفائه ص٣٢٠.

٣-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠١ وما بعدها.

٤-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٢

ومنعة، ومن هنا كان على المسلمين أن يعيدوا حساباتهم ويراجعوا خططهم، ولهذا كانوا يتهيبونهم ويخشون لقاءهم.

تلك كانت غزوة مؤتة " بما حفلت به من مخاطرة وجرأة، لكنها كانت ضرورية لإرهاب البيزنطيين، ليروا فيها بأس المسلمين وقتالهم وإن قل عددهم"(١).

وفي الوقت نفسه، كانت واقعة لازمة في حقبة شهدت تطورات مهمة على مستوى الجزيرة العربية وخارجها، وذلك حتى يرتسم أمام المسلمين طريق تحرير بلاد الشام في مقتبل الأيام، وهم ينشدون نشر دينهم فيها وبغيرها، وقد دلت على ذلك الأحداث التاريخية المتعاقبة، التي تضمنتها المصادر العربية والبيزنطية.

٧- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل سنة ٨هـ/ ٦٢٩م

كانت غزوة مؤتة نكسة مؤقتة للمسلمين، فالآثار التي خلفتها كانت قاسية عليهم، عندما سادت المدينة أجواء " من القلق والاضطراب في النفوس، فلم يقتنع المسلمون بما قدمه جند هذا الجيش من حجج وبراهين دفاعاً عن أنفسهم، وبياناً للأوضاع التي سادت أجواء المعارك، بل ظلوا يعتقدون أنهم عادوا منكسرين فارين"(٢).

فوق هذه الصعاب، " علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام من ميلهم إلى البيزنطيين واجتماعهم بهم، وتقوية تحالفها معهم ضد المسلمين، لذا شعر الرسول ﷺ بمسيس الحاجة إلى التفكير بحكمة بالغة

١-الزين : خاتم النبيين محمد، ص٦٠٦.

٢-الزين : خاتم النبيين محمد، ص٦٠٧-٦١١.

توقع الفرقة بين هذه القبائل وبين البيزنطيين، وتكون سبباً للائتلاف بينهما وبين المسلمين، حتى لا تحتشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى"[١].

ولابد من الضغط اقتصادياً على قريش وكسر تحالف ربما تفكر به قريش مع بيزنطة بعد مؤتة، خاصة أن قريشاً ظلت على الوهم بأن المسلمين هزموا في مؤتة هزيمة نكراء وأنهم في حالة يرثى لها، أقلها الضعف والهوان.

من هنا لا بد من حرب استباقية تعيد للمقاتلين احترامهم بين الناس عامة، وسمعتهم على مستوى الحجاز خاصة، وتسترد هيبة الدولة في شمال الجزيرة العربية.

لذلك أراد الرسول ﷺ " كسب ولاء عرب الشام كيلا ينحازوا إلى البيزنطيين، فتقوى شوكتهم بهم، وذلك عن طريق محاولة نشر الإسلام بينهم، ففي ذلك أولاً امتداد للإسلام ورفعة لشأنه، وفيه ثانياً تأمين لجبهة خطيرة معادية مركزها الشام، وإن لم يتسن ذلك، فلا أقل من تحييد هذه القبائل في الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين عاجلاً غير أجل"[٢].

ففي الشهر التالي لغزوة مؤتة، " أي في جمادى الثانية سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، أرسل الرسول ﷺ سرية انتدب لقيادتها عمرو بن العاص، صاحب الرحم بقبيلة بلي، إذ إن أم العاص بنت وائل كانت قضاعية"[٣].

لذلك وقع الاختيار " على عمرو ليكون قائداً لهذه السرية، لكفاءته أملاً في أن يستألف قلوبهم لتنضم إليه سريعاً قبيلة بلي وتحارب مع جيشه، وفي ذلك

١-المباركفوري : الرحيق المختوم، ص٣١٣.

٢-دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص٩١. سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة ص١٠٢-١٠٤.

٣-الواقدي : المغازي ٢/٧٧٠. ابن سعد: غزوات الرسول وسراياه، ص١٣١. المسعودي: التنبيه والأشراف ص٢٣١، ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢/٢٢.

إشارة إلى أن الرسول ﷺ كان مايزال يجد في قبائل التخوم مدخلاً إلى الشام ومحاولة لاستئلافهم"(١)

وتحسن الإشارة هنا إلى اختلاف الروايات حول أسباب سرية ذات السلاسل، فقد ورد في بعض المصادر أن سبب هذه السرية " هو ما علمه رسول الله ﷺ من أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمعوا في بلادهم وراء وادي القرى، ويريدون الإغارة على الدولة الإسلامية ومهاجمتها"(٢).

لكن ثمة رواية أخرى تذكر أن الرسول ﷺ " أرسل عمرو بن العاص إلى أرض بلي وعذرة، وذلك من أجل دعوة الناس إلى الإسلام"(٣).

ومن خلال استقراء الروايات يتبين أن " الرواية الثانية تبدو أكثر اتساقاً مع ظروف هذه السرية من الرواية الأولى، وفي ضوء المناقشة لأسباب هذه السرية يمكن تحديد أهدافها، فلا يعتقد أنها كانت تهدف إلى القتال أساساً وإن كان احتمال القتال وارداً دفاعاً عن النفس"(٤).

هذا سيتضح وبدون شك، من خلال تتبع أحداثها، " ولو كان الهدف من هذه السرية القتال فعلاً كما كان الهدف في مؤتة لجهز الرسول ﷺ مع عمرو جيشاً يتفوق عدداً على جيش المسلمين في مؤتة"(٥).

١-ابن هشام: السيرة النبوية،٦٢٣/٣. ابن الأثير: الكامل ١١٠/٢. ضيف (شوقي) محمد خاتم المرسلين، دار المعارف، القاهرة،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ص٣٤٣.

٢-ابن القيم الجوزي : زاد المعاد،٣/ ٣٨٦. مغلطاي : مختصر السيرة النبوية، ص٩٧.المقريزي: إمتاع الأسماع ٣٣٤/١. مظهر: محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة،ص٣٢٤.،سعيد: حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية،ص٥١.

٣-الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٢/٣. البيهقي: دلائل النبوة ٣٩٨/٤. الكتبي: عيون التواريخ ٢٨٥/١ العامري: بهجة المحافل ٣٦٤/٢.

٤-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٤.

٥-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٤.

أياً كان سبب هذه السرية، وما يمكن أن يبذل في سياق التدقيق في تحليل الروايات الواردة في المصادر العربية والإسلامية، لكنها تتفق على وجهتها، وهي أنها كانت قبائل قضاعة من عرب الشام نظراً لكثرتها وقوتها.

بناءً على ذلك أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص " وعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وقد أمره الرسول ﷺ بأن يستعين بمن يمر به من فروع قضاعة من بلي وعذرة وبلقين"[١].

وقد تمكن عمرو من التقدم إلى " ديار قضاعة مع ثلاثمئة من سراة المهاجرين والأنصار، كان خلالها يكمن بالليل، ويسير بالنهار حفاظاً على سلامة جيشه، وليخفي تحركاته عن عدوه إلى أن اقترب منهم فنزل على ماء يقال له ذات السلاسل، إلا أن أخباراً وصلت إلى عمرو أن القبائل التي يريد حربها في الشمال جموعها كثيرة"[٢].

فلم يكن أمام عمرو إلا أن " بعث رافع بن مكيث الجهني الخبير بالمنطقة جيداً إلى المدينة ليستمد العون، فكانت سرعته فائقة في الذهاب والعودة بالمدد الذي بلغ مئتي جندي من سراة المهاجرين وكبارهم أمثال أبي بكر، وعمر، ومعهم عدة من الأنصار، وأمر الرسول ﷺ عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وعقد له لواء، وأمره أن لا يختلف مع عمرو بن العاص"[٣].

١-الواقدي: المغازي ٢/٧٧٠. ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢١٤. ابن القيم الجوزي: زاد المعاد ٣/ ٣٨٦ بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص٨٤

٢-ابن سعد: غزوات الرسول وسراياه، ص١٣١، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ٢٢. ابن سيد الناس: عيون الأثر،٢ / ٢١٤. ابن القيم الجوزي: زاد المعاد ٣ / ٣٨٦.

٣-اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٧٥. البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٣٨٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢. المسعودي : التنبيه والأشراف، ص٢٣١. البيهقي دلائل النبوة ٤/ ٤٠٠.

من الممكن أن يكون هناك تساؤل، لماذا بقي عمرو بن العاص على رأس هذه السرية ولم يأمر الرسول ﷺ بتغييره، مع وجود بعض الشخصيات القيادية التي اعتمد عليها الرسول ﷺ من قبل ؟

لاشك في أن الرسولﷺ بحكمته وفطنته السياسية أدرك " أن تعيين أبي عبيدة أو أبي بكر مثلاً قد يلغي الهدف الأساسي من هذا البعث، وهو استنفار هؤلاء العرب المتنصرة إلى الإسلام، وهو الهدف الذي يمكن تحقيقه بتعيين عمرو وهو صاحب القربى بقبيلة بلي، كما تقدم الذكر "[١].

وبعد وصول المدد للجيش الإسلامي، واتفاق كلمتهم على قيادة عمرو لهم توجه " جيش المسلمين حتى وطئ أرض عذرة، وبلقين فلقي جمعاً ليس بالكثير، فقامت بينهم معركة انتصر بها المسلمون، يفهم من ذلك أن هذه القبائل إما تعاونت مع المسلمين، أو أنها لم تتعرض لهم"[٢].

وقد أقام عمرو بجيشه " أياماً بتلك البلاد لا يسمع بجمع لتلك القبائل أو مكان هم فيه حتى يهاجمهم، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء، والنعم فينحرون ويأكلون، ولم يكن شيء أكثر من ذلك، أي لم تكن هناك غنائم تقسم، وبعث عمرو إلى المدينة عوف بن مالك الأشجعي ليخبرهم بعودتهم وسلامتهم"[٣].

كانت هذه السرية تجربة مهمة لجيش المسلمين تمكنوا فيها من إثبات شجاعتهم وقدرتهم على تأمين خطوط مواصلاتهم من المدينة إلى أطراف الشام، ونجحت في تحقيق أهدافها في اختراق الجموع وتفريقها وحماية المدينة من هجوم كان شبه مؤكد.

١-سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٥.

٢-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١ / ١١١٧٠.

٣-البيهقي : دلائل النبوة ٤ / ٤٠١. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢/ ٢٣. ابن كثير: البداية والنهاية ٤٩٧/٦.

بناء على ذلك، يمكن القول إن سرية ذات السلاسل " هي إحدى النتائج المباشرة لمؤتة، وحاملة دوافعها بصورة أكثر وضوحاً، وربما كانت استمراراً عسكرياً لها، بعد الذي فوجئ به المسلمون في مؤتة من أعداد هائلة وبعد اضطرارهم إلى الإنسحاب نتيجة عدم توازن القوى"[1].

لكن تبقى هناك إشارة مهمة، مفادها أن ذات السلاسل " أعادت الهيبة للمسلمين في هذه المنطقة، تلك الهيبة التي كانت أحداث غزوة مؤتة قد زعزعتها، واستطاعت السرية في الوقت نفسه إزالة الهزيمة من نفوس بقبائل عرب الشام في الشمال"[2].

ويلاحظ من تتبع الأحداث " سنة ٨هـ/ ٦٢٩م أنها شهدت عدة سرايا وغزوات أرسلت إلى بلاد الشام، كان أخطرها بكل تأكيد غزوة مؤتة، التي فتحت صفحة الصراع الإسلامي – البيزنطي، وشجعت المسلمين على مواصلة النضال في هذا الميدان فعادوا بقوى أكبر، ففازوا ونالوا ما أدركوه وأملوه"[3].

تحسن الإشارة إلى إرسالسرايا صغيرة مرتبطة بالشام وساحل بحر القلزم (الأحمر)، إضافة إلى غزوات كانت موجهة نحو مدن إقليم الحجاز، كان لفتحها أهمية على مستوى الجزيرة العربية و بلاد الشام.

من هذه السرايا، " سرية الخبط إلى سيف البحر من أرض جهينة، في رجب سنة ٨هـ/ ٦٢٩م بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وكان سبب هذه

١-بيضون: من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، ص١١٧، سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة ص١٠٤

٢-العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ص٤٧١، ضيف : محمد خاتم المرسلين، ص٣٤٣.

٣-سعيد : حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية ص ٥٠.

السرية أن قوماً من جهينة قد سببوا بعض المشكلات لخطوط اتصال المسلمين على طريق الساحل"[١].

ولكنْ إذا كانت حملات المسلمين العسكرية قد اتجهت نحو الشمال منذ صلح الحديبية فهذا لا يعني أنهم أوقفوا حملاتهم نحو الغرب والجنوب الغربي حيث تقبع مكة المكرمة آمنة في ظلال الصلح.

إن ذلك لم يدم طويلاً "إذ لم تقدّر قريش نعمة الأمن والسلم، فبادرت إلى نقض الصلح الأمر الذي أدى إلى عودة النشاط الإسلامي العسكري إلى سالف عهده، أي إلى نقطة البداية، قبل صلح الحديبية"[٢].

وقد ترتب على ذلك، أنه تم فتح مكة المكرمة في " شهر رمضان سنة ٨هـ/٦٢٩م، بدون حرب التحاميةشاملة، وعندما سمع العرب في أرجاء الجزيرة العربية كافة بفتحها وتحطيم الأصنام فيها عندئذ عرف العرب أن تغييراً سياسياً كبيراً طرأ على النظام القديم"[٣].

١-ابن سعد : غزوات الرسول وسراياه، ص١٣٢، ابن الأثير: الكامل ١١٠/٢. العامري: بهجة المحافل ١/ ٣٩٦.م. الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ١/ ١٧١.

٢-العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ص٤٧٢.

٣-ابن الكلبي : الأصنام،ص٢٥-٢٧. ابن خيثمة (أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب،ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): التاريخ الكبير " تاريخ ابن خيثمة " تح صلاح بن فتحي هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م،٢/ ٢٠. البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٥.



٨- فتح مكة ١٠ رمضان٨هـ/٦٢٩م:

أحدث صلح الحديبية شرخاً كبيراً في مجتمع مكة، واستمر كبار السن ورجال الأعمال فيها يرون ضرورة الاستمرار في موقفهم العدائي للرسول ﷺ ودينه الإصلاحي، أما الشبان ومن لا مصلحة لهم في الوقوف ضد حركة التطور فقد وجدوا أن لا فائدة من عداء الرسولﷺ، لهذا أخذت هذه الفئة تترك مكة، فإما أن تهاجر إلى المدينة وتعلن الإسلام، أو تنحاز له، ويؤيد هذا التوجه الكثرة ممن أسلموا بعد الصلح، وبدأت كفة المسلمين تعلو، ويقابلها هبوط كفة قريش على الرغم من تشبث الأغنياء من قريش بمواقفهم، وتتابعت الأحداث وجاءت لصالح المسلمين، الأمر الذي زاد من انحياز الشبان نحو محمدﷺ، فقد أخذوا يشعرون بقوة خفية تشدهم نحو نبيهم، فكانت روابط النسب والقرابة،

وكانت القوة وازدياد نموها وانتصار المسلمين على المستويين العسكري والسياسي من العوامل التي ساهمت في تفوق الرسول ﷺ، وخسارة قريش أمامه في أكثر من مناسبة، والتزام الرسول ﷺ بنود صلح الحديبية، ومحاولته ألا يخرقها أو تخرقها قواته.

والمفيد ذكره أن الرسول لم يطبق البند الأول من صلح الحديبية على النساء فقدعدَهن غير مشمولات به، فمن أتته مسلمة لم يُعدها إلى مكة، خاصة بعد أن جاءه الوحي يؤيد تصرفاته.

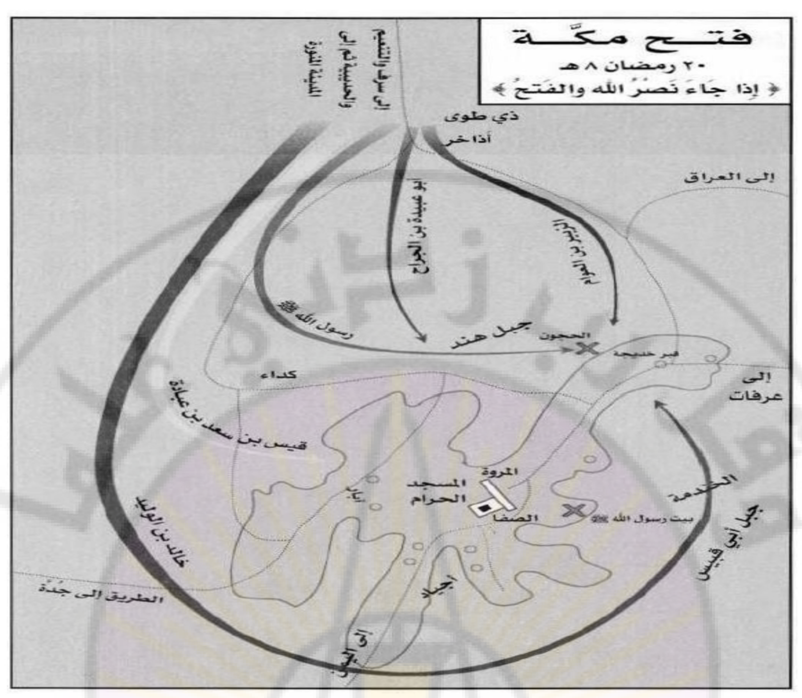
وأما قريش فلم تلتزم عهودها، وناصرت بني بكر حلفاءها على بني خزاعة حلفاء الرسول ﷺ، الأمر الذي أدى إلى نقض صلح الحديبية، وتوقف العمل بموجبه، فأعلن الرسول ﷺ التوجه إلى مكة فاتحاً، على الرغم من إرسال قريش أبا سفيان إلى الرسول ﷺ وإعلانه خطأ قريش داعياً إلى تجديد العقد معه[١]، لمضي العامين ولخرقه أيضاً، وسار الرسول ﷺ على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، واتجه نحو مكة، وفي وسط الطريق بين مكة والمدينة لقي الرسول ﷺ عمه العباس مهاجراً بعياله، فأسلم بين يديه، كما لقي بعد مرحلة أخرى بعض أقربائه الذين أعلنوا إسلامهم، وفي الطريق خارج مكة أيضا لقي العباس أبا سفيان هائماً على وجهه سعياً وراء لقاء الرسول الكريم لأخذ الأمان لقريش، وقد توسَط العباس لأبي سفيان ورافقه للحضرة الشريفة، ومنحه الرسول ﷺ أماناً مشرفاً ينصَ على أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وعاد أبو سفيان مسرعاً إلى مكة داعياً قريشاً إلى الإسلام والاستسلام للرسول، لأنها لا قبل لها بما جاءها به من قوة وعتاد.

١-الشامي : تطور تاريخ العرب ص٩٢

ودخل الرسول ﷺ إلى مكة وكان دخولاً سهلاً، ولم يلق مقاومةً يُعتدُ بها، وكان أول عمل قام به فور وصوله إلى مكة هدم الأصنام، والطواف حول الكعبة سبع مرات شاكراً الله على هذا الفتح العظيم، مردداً قوله تعالى: { **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ** }[١]، وجاءته قريش معلنة الطاعة والإسلام بين يديه، وكان الرسول ﷺ كريماً معها إلى أبعد الحدود، وقال لرجالاتها كلمته المشهورة: " اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وأعلن عليه السلام حرمة مكة، وأوقف الهجرة، ولكي يقضي على دور مكة الحربي ألغى وظيفة اللواء التي كانت قبل الإسلام نهائياً.

وقد صار الرسول ﷺ بعد سقوط مكة سيد الحجاز أو أمير مكة، وعمل على تأمين نفقة الفقراء الذين رافقوه ولم يغنموا، لأن الرسول ﷺ منع استباحة مكة، وأعلن العفو العام حتى على من أمر بقتلهم كعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل وسواهم، ومكث في مكة ما يقارب العشرين يوماً أشرف خلالها على اجتثاث الوثنية، وديانة العرب قبل الإسلام، وأنهى قوة قريش حامية الوثنية، ونقلها إلى الصفوف الإسلامية، وأعلنت قريش خضوعها التام للرسول ودعوته.

١-سورة الإسراء: الاية ٨١.



ولم يكن فتح مكة حدثاً عادياً في تاريخ الحجاز، " فقد كانت العقبة الكأداء في سبيل توحيده وتكتيله مع دولة المدينة، ولعل هذا الحدث من المنظور التغييري، يمثل هجرة ثانية في الإسلام ربما ترقى إلى أهمية الأولى، ولكنها استكمال لها بكل ما تعنيه هذه الكلمة"[١].

وبفتح مكة المكرمة، "سقط آخر خط دفاعي للنظام القبلي ضد الإسلام، وقد أفادت القبائل القريبة منها، والذين نفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية فعهد إليهم الرسول في العمالات والبعوث"[٢].

فهذه القبائل لم تقتصر خبراتها " على النشاط التجاري البري وتأمين الطريق على طول الساحل إلى أطراف الشام، بل نشطت عن طريق البحر كذلك، ولاسيما بني ضمرة "[١].

١-بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية، ص١١٧

٢-عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية،١/ ٢٩٩.

لقد عمت الدعوة الإسلامية " الجزيرة العربية كلها، حتى حدود الشام والعراق، وأصبحت الدولة الإسلامية مسؤولة عن إدارة هذه المناطق وتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية فيها حتى غدا المسلمون أكبر قوةٍ سياسيةٍ في المنطقة الممتدة من المدينة مما يليها شمالاً، بل أكبر قوة في الجزيرة العربية كلها"[٢].

من هنا كان ظهور الإسلام " الذي يحث على التكتل لا التفرقة، نذير خطر على بيزنطة لخاصة عندما أخذ سلطان الإسلام يتوسع شيئاً فشيئاً، وانتشرت الدعوة فياضةً في نواحي الجزيرة كلها، وقد نظر البيزنطيون إلى الإسلام نظرة الجد والاهتمام، فتابعوا أخباره، وأدهشهم اتساع محيطه وحلقاته"[٣].

فلم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي هرقل – بعد أن أدرك بدون شك أن الخطر بدأ يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدد الثغور الشامية – إلا التفكير في أن القضاء على محمد وأتباعه يجب أن يتم بالقوة وبأي طريقة أخرى، قبل أن تتجسد قوة المسلمين في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليه[٤].

-معركة حنين وحصار الطائف١٠ شوال ٨هـ/٦٢٩م:

على الرغم من فتح مكة عاصمة الديانة الوثنية العربية، وخضوع قريش حامية هذه الديانة ظلت بعض القبائل على معارضتها للرسول، وأبت أن تظهر الخضوع له، أو القبول بالدين الذي جاء به.

١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين،١ / ١٧١.

٢-طلاس: الرسول العربي وفن الحرب، ص٣٠١، أبو عيانة (محمد فتحي): دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٢١

٣-الزين : خاتم النبيين محمد، ص٧٤٢، أبو خليل : في التاريخ الإسلامي، ص١٩٦.

٤-المباركفوري : الرحيق المختوم، ص٣٤٣.

فلما سمعت قبيلتا هوزان وثقيف برسول الله صلى الله عليه و سلم وما فتح الله عليه من مكة، راعها إنتصار المسلمين، وعدت ذلك ضربة قاضية للوثنية في الجزيرة العربية، وأيقنت كل منهما أن الضربة التالية سيوجهها النبي إليهما لارتباط الطائف بمكة منذ قبل الإسلام.

وكانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش، فلم تخضع لما خضعت له قريش، ووجد بنو ثقيف أن لا مصلحة لهم في مسايرة الركب القرشي الذي غدا مهيض الجانب، معطل التجارة، وفضلوا التحالف، وأملوا أن يحلوا محل قريش في السيطرة على تجارة الحجاز للحلم الذي كان يراودهم من قبل، والذي لم يستطيعوا تحقيقه، إلى هذا يُشير الله عَزَّ و جَلَّ في قوله: { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ }[١].

كانت قبائل هوازن تقع على بعد بضعة عشر ميلاً من مكة من جهة عرفات، وقد أرادت أن يكون لها الفضل فى التصدي لقتال المسلمين، واستصال شأفتهم، والمبادرة بحرب الرسول ومهاجمته قبل أن يستكمل استعداداته، فقام مالك بن عوف النضري –سيد هوازن– ونادى بحرب الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمع إليه مع هوازن وثقيف كلها عدد آخر من قبائل العرب.

وساروا يريدون مكة تحت سيادة سيد هوازن مالك بن عوف، وساقوا معهم على عادة العرب قبل الإسلام أموالهم، ونساءهم وأبناءهم وأنعامهم في مؤخرة الجيش ليكون ذلك حافزًا على الاستبسال في الحرب، والاستماتة في القتال.

---

١ –سورة التوبة: الاية ٢٥.

فخرج لهم الرسول على رأس الجيش الذي قدم به مكة فاتحًا بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين، فغدت عدة الجيش اثني عشر ألف مقاتل، كان من بينهم أبو سفيان بن حرب، فلما انتهى الرسول إلى حنين، كمنت ثقيف وهوازن في شعاب الوادي، وجوانبه، وممراته الضيقة استعدادًا لمباغتة المسلمين.

أما النبي فقد ركب بغلته البيضاء التي يقال لها دلدل، واستعد لقتال المشركين، وانحدر المسلمون نحو وادي حنين، وبدأوا هجومهم في وقت مبكر ماتزال الظلمة فيه مختلطة بالنور، فخرجت هوازن وثقيف من مخابئها، وأحاطوا بالمسلمين دفعة واحدة وهم يرمونهم بالسهام، ويرشقونهم بالحجارة، ويحملون عليهم من جميع الجهات، فكان يوماً عظيم الخطب، وانهزم المسلمون وابتعدوا عن رسول الله، أما الرسول ﷺ فقد ظل صامداً في مكانه، ولم يبق معه إلا نفراً من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، ورأى أن أهم ما يجب عليه عمله هو إعادة تنظيم صفوف المسلمين بعد أن دبت الفوضى بينهم، وسيطر الرعب على بعضهم، ففر كثير منهم، ولاسيما الذين أسلموا حديثًا من قريش[١].

وتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من بث روح الجهاد في نفوس المسلمين من جديد، فاستعادوا تنظيمهم، واستأنفوا القتال وهجموا هجمة واحدة على المشركين، وأبلوا بلاء حسنًا[٢]، ومضى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى صاحب راية هوازن فقتله، وبعد مقتله كانت الهزيمة للمشركين، الذين أجبروا على الفرار، تاركين أموالهم وذراريهم غنيمة للمسلمين، وهكذا كتب الله النصر لرسوله الكريم ﷺ في حنين وكان نصرًا مؤزرًا، استطاع به أن يفرق تجمعًا قبليًا كبيرًا كان يريد الشر به وبدينه.

١-ابن هشام : السيرة ٤/٨٥-٨٦، المقريزي :إمتاع الأسماع١/٤٠٦.

٢-الواقدي: المغازي٣/٩٠١، الطبري :تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٧٨

وإلى هذا النصر يشير القرآن الكريم :{ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ }(١).

وقتل من هوازن في ذلك اليوم خلق عظيم، وحصل المسلمون من المشركين في ذلك اليوم كثيراً من السبايا والغنائم، بلغت عدّتهم ألف فارس، و بلغت الغنائم أثني عشر ألف ناقة، سوى الأسلاب .

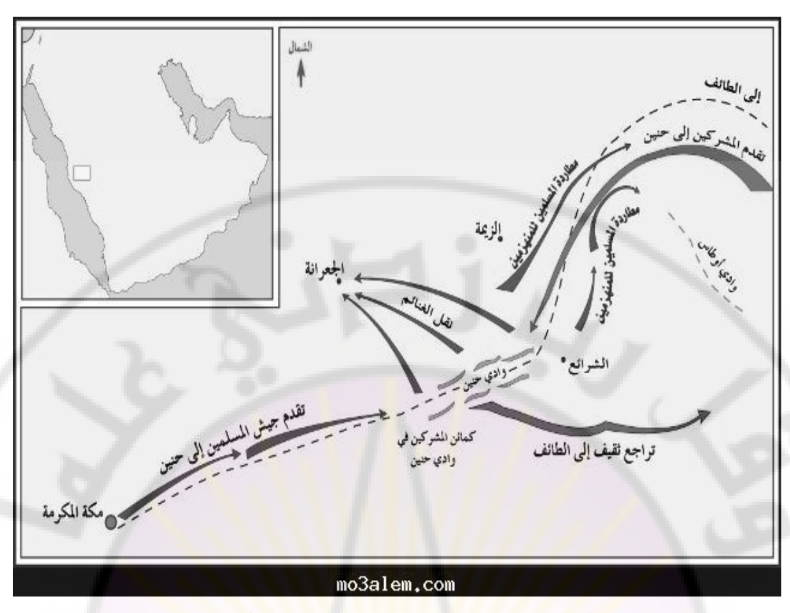
وجمعت كلها إلى رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ بالسبايا و الأموال فحبست بالجعرانة(٢)، وأرجأ توزيعها، ورد النساء والذرية إلى هوازن إلى حين عودته من الطائف حتى يفرغ من أمر العدو، وتأهب للسير إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف الذين لجؤوا إليها، وكانت هذه المدينة إنذاك محصنة، ويحيط بها سور، يحول دون اقتحامها، فنزل الرسول مع أصحابه على مقربة من حصن الطائف، فاعتدى أهل هذه المدينة بنبالهم على المسلمين، الأمر الذي اضطر الرسول إلى أن يعسكر في مكان آخر يأمن فيه على أصحابه من رمايات أهل الطائف(٣)، ونادى مناديه في أثناء حصاره هذه المدينة بأن من يأتي إليه من عبيدها يصبح حرًا، فنزل إليه ثلاثة وعشرون رجلاً، فأعتقهم، ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين، وأمر بتعليمهم القرآن والسنن، فشق ذلك على أهل الطائف.

---

١ –سورة التوبة: الآية ٢٦.

٢ –الطبري: تاريخ ٨١/٣. **وجعرانة** بكسر الجيم وتسكين العين، قرية صغيرة قريبة من المسجد الحرام، تقع على بعد ٢٠ كلم شمال شرق مكة المكرمة.

٣–الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٨٣/٣، المقريزي :إمتاع الأسماع٤١٦/١



واستمر حصار الطائف خمس عشرة ليلة، اضطر بعدها الرسول إلى رفع الحصار بحلول شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، وبينما كان رسول الله ﷺ يقود المسلمين قافلاً من حول أسوار الطائف كان يردد دعاءه لثقيف: اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم، فكانت الاستجابة لدعائه فورية، فما كاد يستقر في منطقة الجعرانة قبل مكة حتى جاءته وفود هوازن وأعلنت إسلامها[1]، وهكذا بقيت الطائف محاصرة حصاراً فعلياً من القبائل المسلمة حولها حتى رضخت، واستسلمت، وبعثت وفدها برئاسة عبد ياليل بن عمرو ليعرض على الرسول الصلح والدخول في الإسلام فأكرم وفادتهم، وطلبوا منه عدم هدم اللات، والإعفاء من الصلاة، وأن تكون الطائف مدينة محرمة، فرفض الرسول ﷺ قضية عدم هدم اللات، وأرسل معهم أبا سفيان، والمغيرة ليهدما اللات، أما الصلاة فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، وأعلن الرسول ﷺ حرمة الطائف، وغدا الثقفيون بعد ذلك من أشد أنصار الإسلام حماسًا، وقدموا للدولة

١–ابن هشام : السيرة ٢٤١/٤. الطبري: تاريخ٣/٨٢.

العربية الإسلامية عددًا من أشهر قادتها، ورجال السياسة فيها، ولكنهم حافظوا على تحالفهم مع الأمويين، ومن يدرس تاريخ الدولة الأموية، يجدها دولة أموية ثقفية، الثقفي في العراق والمشرق،حلَ محل الإمبراطور الساساني، والأموي في الشام ومصر والمغرب، حل محل الإمبراطور البيزنطي .

- **غزوة تبوك " جيش العسرة " سنة٩هـ /٦٣٠م :**

منطقة «تبوك» هي أبعد نقطة وصل إِليها النّبي ﷺ في غزواته، وهذه الكلمة في الأصل اسم قلعة محكمة وعالية، كانت في الشريط الحدودي بين الحجاز والشام، ولذلك سمّيت تلك المنطقة بأرض تبوك (الجوف حالياً في السعودية).

حاولت بيزنطة بعد غزوة مؤتة أن تفرض حصاراً اقتصادياً على الحجاز، فعمد الرسول عليه السلام إلى كسر هذا الحصار، وقد شجعه على ذلك انتصار المسلمين" في غزوة حنين في شوال سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، وقد حققت الدولة الإسلامية وحدتها السياسية بإنهاء حصار الطائف"[١].

فانقلبت الموازين لصالح الإسلام الذي أصبح قوة يحسب حسابها، الأمر الذي نتج عنه تمتين الجبهة الداخلية للرسول ﷺ، فلما تناهت " أنباء هذه الانتصارات إلى مسامع بيزنطة خافت وعقدت العزم على اكتساح المدينة والقضاء على محمد ﷺ ودولته، لينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليخرق سلطان البيزنطيين في الشام"[٢].

فانتشار الدين الجديد بين قبائل العرب في الأطراف " أخذ يقض مضاجع الإمبراطورية البيزنطية، فراح هرقل يفكر بالقضاء على هذا الدين الجديد قبل

١-ابن هشام : السيرة النبوية ٣/ ٤٣٧. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص٤٢. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٦٢/٢. ابن عبد البر : الدرر، ص٢٢٨.

٢-هيكل : محمد، ص٤٥٨. بيهم : تاريخ فلسفة محمد، ص١٦٢.

أن يستفحل أمره، خاصة أن الإسلام هو دعوة الناس كافة، وسيعمل المسلمون على تأمين حرية انتشاره، وبدون شك سيكون دعوة تستهوي سكان البلاد الذين كانوا يعانون من الظلم والاضطهاد، ويرزحون تحت ثقل الضرائب المفروضة على كاهلهم"[١]، وكان أهل المدن وسواهم خصوماً للكنيسة البيزنطية الرسمية، وأيضاً ولما رافقها من فرض للغة الإغريقية.

فقد بدا للبيزنطيين أن دولة الإسلام توشك أن تشملهم، فكيف بعدم المبالاة بهذا الأمر، وهي الإمبراطورية التي تتمتع بقوتها وعنفوانها بعد انتصارها على الفرس وهي التي تملك،- كما تعتقد – مقومات النصر كاملة على دولة وليدة ؟

عندئذ أيقن الرسول ﷺ أن الخطر بدأ يزحف ضد المسلمين، ويوشك أن يوقع بهم، ولذا رأى أنه لابد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره، " لاسيما عندما بلغت الرسول عليه السلام أنباء عن تحرك عسكري وشيك من جانب البيزنطيين ضد القبائل العربية التي أبدت تعاطفاً تجاه الإسلام والمسلمين"[٢]، ومن إغلاق لمنافذ التجارة الشامية والمصرية عبر البحر الأحمر.

الأمر الذي دفع المسلمين" وجعلهم يحسبون للإمبراطورية البيزنطية حساباً، ويعتقدون أن الصدام بهم قادم لا محالة، مع العلم أن البيزنطيين بعد غزوة مؤتة لم يتركوا جيشاً كبيراً في جنوب بلاد الشام، وأن معظم قواتهم كانت قد

١-طلاس : الرسول العربي وفن الحرب، ص٣٠٢. العيدروس : الدولة الإسلامية الأولى، ص٢٣٧

٢-الفاروقي وراجي (إسماعيل و لمياء): أطلس الحضارة الإسلامية، تر: عبد الواحد لؤلؤة مراجعة رياض نور الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٣٠١- ٣٠٢.

انسحبت في تلك السنة نحو حمص وغيرها من المعسكرات الشمالية، ولم يبق في أطراف الشام الجنوبية إلا الحاميات العادية"[1] وقبائل عرب الروم.

وقد ذكرت الروايات " أن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأن قبائل عربية كثيرة قد انضمت إليه منها لخم وجذام وغسان وعاملة، وأن مقدمة الجيش قد وصلت فعلاً موقع البلقاء"[2].

كان مصدر هذا الخبر " الأنباط الذين كانوا يعرفون باسم الساقطة، وكانوا يأتون من الشام إلى المدينة بالسلع الضرورية مثل الدقيق والزيت، فقد كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، ولعل عدم إحاطة هرقل إحاطة تامة، وعدم معرفته بالمنطقة معرفة أكيدة جعلته أكثر اعتماداً من المألوف على المعلومات من الأصدقاء العرب.

والمرجح في ضوء"ما وقع من سياق الأحداث لاحقاً أن هذه الإشاعة قد اعتمدت على أساس صحيح، وأن البيزنطيين وحلفاءهم قد فكروا فعلاً في غزو المدينة، واتخذوا بعض الاستعدادات في هذا السبيل ثم تراجعوا مؤقتاً حتى يأخذوا لذلك الغزو مزيداً من الجاهزية "[3].

ويقال إن قرار خروج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، " والتي تبعد عن شمالي المدينة حوالي ٦٠٩ كيلو متراً، من أجل المطالبة بدم جعفر بن أبي طالب "[4].

١-الزين: خاتم النبيين محمد، ص٧٤٢. الأنصاري: الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ١٧٣/١

٢-ابن سعد: غزوات الرسول وسراياه،ص١٦٥. البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٣٦٨. ابن الجوزي: المنتظم ٣ /٣٦٢، ابن الشحنة : روض المناظر، ص٩٣

٣-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١١

٤-اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٦٧/٢. سعيد: حروب الإسلام وإمبراطورية الروم، ص٥٤، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٦٥.

إن هذه الرواية بعيدة عن واقع الأحداث، ولا تبدو متسقة مع منطق الأوضاع في تلك الحقبة، ويتضح من الزمن الذي حدثت فيه الغزوة إثبات أن تجمع البيزنطيين هو السبب الأقرب إلى الواقع.

فمن الواضح " أن المسلمين أحسوا أنهم أمام تهديد خطير من البيزنطيين وأحلافهم من عرب الشام، وأن المدينة ذاتها كانت واقعة تحت طائلة هذا التهديد، من هنا قرر الرسول ﷺ إجهاض خطط البيزنطيين وأتباعهم في الهجوم على قاعدة الدولة العربية الإسلامية، وأن يفوت الفرصة على البيزنطيين وأحلافهم"[١]، لقد قدر رسول الله ﷺ الموقف، " وكان أمامه عليه السلام حلان لا ثالث لهما، **الحل الأول:** أن يدع البيزنطيين يتقدمون في الصحراء ثم يقوم بمهاجمتهم في الزمان والمكان اللذين يختارهما، وهذا يعني انحسار الانتصار الذي أحرزه الرسول ﷺ وسيكون لهذا الانحسار أثر في بث الرعب في قلوب العرب، ومن ثم تغير لصورة القوة التي ظهر بها الجيش الإسلامي، أما **الحل الثاني:** فهو أن يتقدم إلى حدود بلادهم ويهاجمهم هناك"[٢]، فسيطر على مداخل البحر الأحمر، متذكرين أن دولة المدينة كانت قد امتلكت السيطرة على شواطئ اليمن والتجارة مع الشرق الأقصى عبر بحر العرب.

وقد استقر رأي رسول الله ﷺ " على أن يتخذ الحل الثاني إذ قرر الرسول ﷺ أن يجمع جيش المسلمين ويجتاز به الصحراء شمالاً، و يدخل معركة مصير مع البيزنطيين، لما فيها من معاني القوة والعزة"[٣]، وأن يكون ذلك مقدمة لفتوح مصر وبلاد الشام، وأن تمتلك الدولة العربية الإسلامية الناشئة

١-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٠٩-١١١.

٢-فرج (محمد):العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، دار الفكر العربي، بيروت، ط ٣، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م ص٦٣٨.

٣-أبو خليل : في التاريخ الإسلامي، ص١٩٧.

ناصية التجارة العالمية عبر شبه الجزيرة، في تطوير لقواعد الإيلاف، ودور مكة قبل الفتح، وتوسعه بحرية.

ولكن لماذا اختار رسول الله الحل الثاني ؟

كان الحل الأول سهلاً يسيراً، فهو يعطي حرية الحركة والمناورة، وفرصة اختيار المكان المناسب للعمليات الحربية، ولكنه عليه السلام اختار الحل الثاني لما له من مزايا أخرى مهمة منها :

١- إن التقدم على مناطق البيزنطيين وحلفائهم " يمنح المهاجم ورجاله روحاً قتالية عالية، وشجاعة في القتال، وحماسة في مواجهتهم، ورغبة في تدمير قواه وإلحاق الهزيمة به، وهو في الوقت نفسه له تأثير مضاد على قوتهم وإلحاق الهزيمة بهم، إذ تتعرض هذه القوى لهزات قد يكون لها أثر مباشر على سير القتال"[١].

٢- كان القتال على حدود بلاد الشام " يكسب المسلمين عمقاً استراتيجياً، يستغل لصالحهم في حالة تفوق البيزنطيين وحلفائهم، فيمكنهم من الارتداد إلى الخلف لمسافات مناسبة لإعادة تنظيم القوات وتنسيقها، ثم القيام بهجوم مضاد"[٢].

٣- إن تحرك المسلمين من المدينة إلى حدود بلاد الشام واجتياز الصحراء " هو تدريب عملي لهم على تحمل مشاق التحرك، وصقل لصفات المحارب التي تتطلبها المعركة، وكان رسول الله ﷺ على علم مسبق بأن المسلمين سوف يجتازون الصحراء في المستقبل، ميممين وجوههم تجاه بلاد الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية لمواجهة جيوش الدولتين، وخوض غمار

١-فرج : العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٣٩.

٢-فرج : العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٤٠.

معارك متعددة ضدهما"[١]، ومن هذا الباب كانت هذه الحملة تكملة للإسراء والمعراج، ورسالة لهرقل الذي احتفل تواً بإعادة صليب الصلبوت إلى القدس أولى القبلتين التي لابد من تحريرها، لأن السماء يمر عبرها إلى مكة والمدينة.

٤- حين ينشب القتال على حدود بلاد الشام، " ستكون أحداث هذا القتال هي محور الحديث بين القاطنين هناك من القبائل العربية والبيزنطيين، والسريان أهل المدن، من المسيحيين المضطهدين، وستكون مبادئ الإسلام وأهدافه وتشريعاته ومنحه حرية المعتقد موضع المناقشة، وهذا الأمر سيعطي فرصة، تفهمه، وإدراك أصوله ومعرفة جوهره، وقد يؤدي ذلك إلى اقتناع كثيرين به لأنهم وجدوه ديناً يسعى إلى تحقيق الخير والعدل للناس كافة، فيدخلون فيه، ويكون ذلك مكسباً للمسلمين، وتشجيعاً للمهاجمين، وإضعافاً لقوى البيزنطيين المقاتلة ".

٥- هناك قبائل عربية كانت تعيش على حدود بلاد الشام تخضع لحكم البيزنطيين، "وقد أخذت هذه القبائل تقبل على اعتناق الإسلام، لكن البيزنطيين تعرضوا لها بالقوة، لذلك فالقتال في منطقة معيشتهم، يرفع معنوياتهم، ويدعم إسلامهم ويشجعهم على الانتفاضة في وجه البيزنطيين، وهذا مكسب للإسلام ونصر للمسلمين، خاصة بعد التجربة التي مروا بها في حقبة عدم الاستقرار أثناء الحرب الفارسية البيزنطية الطويلة، هذا من ناحية "[٢].

ومن ناحية أخرى، " هناك قبائل عربية أخرى منتشرة في أنحاء الصحراء، وهذه القبائل لم تزل على دينها وعقيدتها، وهي تنظر إلى الإسلام بالحقد والحسد والغيرة، ولكنها لا تجد لديها القدرة على مواجهة المسلمين وقتالهم، أو الفرصة للنيل منهم.

١-فرج : العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٣٩.

٢-فرج : العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٤٠.

ولعله في حال" وجود الجيش الإسلامي في الصحراء وانشغاله بقتال البيزنطيين، يمنح هؤلاء الفرصة التي يرجونها، فيكونون حرباً على المسلمين وعوناً لأعدائهم، لو أن القتال دار فوق رقعة الصحراء، وليس على حدود بلاد البيزنطيين"[١]، وإن المنافقين وأمثالهم رأوا في سفر النبي ﷺ لمسافة بعيدة فرصة لاغتياله، ولمهاجمة المدينة، وقلب الأوضاع من جديد.

فلم يكن أمام الرسول ﷺ إلا الاستعداد" من أجل القيام بعملية عسكرية ضخمة على نطاق واسع لم يسبق لها مثيل في تلك الحقبة على مستوى الحجاز، سواء من حيث العدد أم العتاد، وقد كان من عادة الرسول ﷺ إذا توجه للغزو ألا يصرح بحقيقة وجهته من أجل التمويه على العدو، لكن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك في غزوة تبوك، فقد أخبر الناس بالوجهة التي يريدها نظراً لخطورة هذه الغزوة"[٢]، كما أنه استتاب ابن عمه علي بن أبي طالب ليتولى مسؤولية ضبط الأحوال في المدينة.

هنا لا بد من التساؤل، لماذا أفصح رسول الله ﷺ عن وجهته وأعلنها خلافاً لغزوات ماضية كانت تحاك بالكتمان ؟

كان عليه السلام " يدرك أن التوجه إلى بلاد البيزنطيين عملية فيها خطورة ومشقة بسبب شدة الحر، وبعد الطريق، وقوة العدو، وكثرة عدده، وعسرة في الزاد والمال، فكان القصد من الإفصاح عن الوجهة حتى يأخذ الناس لها الأهمية اللازمة فسمي هذا الجيش بجيش العسرة"[٣].

١-فرج : العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٤٠.

٢-ابن إسحاق :سيرة ابن إسحاق، م.ج٧، ص٢٧٠، البخاري : الجامع الصحيح،ج٣، ص٨٧، البستي: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ص٢٠١، مظهر : محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة، ص٣٦٤.

٣-ابن هشام : السيرة النبوية ٥١٦/٣. البلخي : البدء والتاريخ ٩٩/٢-١٠٠. أحمد : دراسات في تاريخ الدولة العربية، ص١٧٢، الطهطاوي : نهاية الإيجاز، ص٢٧٩، هيكل : محمد، ص٤٥٨.

وقد أرسل الرسول ﷺ " إلى قبائل العرب وإلى مكة المكرمة يستنفرهم ويحضهم على القتال والجهاد والنفقة وبذل الصدقات، ويعلمهم بما عزم عليه ويدعوهم للتهيؤ لإعداد أكبر جيش يمكن إعداده، لأنه سيقابل به واحدة من أكبر الإمبراطوريات حينذاك، وهيمختلفة في طبيعتها عن الأعداء الذين واجههم من قبل، فجموعهم غفيرة، وأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، وقدراتهم القتالية وفيرة "[1].

وقد استقبل الناس" دعوة الرسول ﷺ للإنفاق والتهيؤ استقبالاً متبايناً، فمنهم من لبى مسرعاً أمثال أبي بكر الصديق الذي قد م أربعة آلاف درهم، ومثله انبرى جميعاالأشخاص الموسرين، ينفقون لتجهيز الجيش، فقدم عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وثلاثمئة بعير وخمسين فرساً، وكان لهذا التبرع السخي، الأثر الكبير في تجهيز جيش العسرة"[2].

فقد جاء " عمر بن الخطاب بنصف ماله، وعبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية من الفضة وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً كثيراً، قيل إنه بلغ تسعين ألف درهم، وقدم عاصم بن عدي كمية كبيرة من التمر، ولم يبخل طلحة عبيد الله، وسعد ابن عبادة الأنصاري، ومحمد بن مسلمة بتقديم مايستطيعون تقديمه، حتى النساء شاركن بما يملكن من الأساور والخواتم والعقود والقلائد"[3].

لم تقتصر المشاركة في هذه الغزوة "على المهاجرين والأنصار، ومسلمي قريش بعد الفتح، وإنما شاركت بها أعداد كبيرة من أبناء القبائل العربية، مثل

١-ابن سعد :غزوات الرسول وسراياه، ص١٦٥، ابن الجوزي : المنتظم ٣٦٢/٣. ابن الحلبي : السيرة الحلبية ١٧٧٣/٢. الحسني: سيرة المصطفى، ص٦٢٣- ٦٢٤ فرج: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٦٤١.

٢-الواقدي : المغازي ٩٩١/٣.

٣-المقريزي: إمتاع الاستماع ٤٨/٢. الزين: خاتم النبيين محمد، ص٧٤٧- ٧٤٨.

غفار، وأسلم، وضمرة، ومدلج، وجهينة، وأشجع، وخزاعة، وسُليم وغيرها، كما انضم إليهم أناس من: قضاعة، وطيء"[1].

ومع ذلك " لم تكن مهمة الإعداد لهذه الغزوة سهلة، فقد قام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير، فمضوا يثبطون الناس ويعرضون عليهم الانتظار حتى ينتهي الحر الشديد"[2]، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم:

{ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يفقهون فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[3].

وبالمقابل " لا يغيب عن البال أن البيزنطيين وحلفاءهم من الغساسنة، كانوا يحاولون إضعاف المسلمين، عن طريق إيجاد عملاء لهم فالروايات المتعلقة بهذه الغزوة، " توحي بوجود مثل هذه المحاولات عن طريق التجار القادمين من الشام إلى سوق المدينة، من ذلك خبر محاولة أحد أمراء الغساسنة اجتذاب الشاعر الأنصاري كعب بن مالك، ليتخلى عن الرسول ﷺ ويلحق بالشام "[4]، وهناك إشارة إلى ذلك وردت في قوله تعالى: { **الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا** }[5].

كذلك " جماعة مسجد ضرار، ولاسيما مؤامرات أبي عمرو الملقب بالراهب الفاسق واتصالاته بالشام والبيزنطيين والمعذرين، ويكفي أن نشير إلى الجد بن قيس وأمثاله وأيضاً عبد الله بن أبي سلول[6]، وقد قال الله تعالى فيهم :

١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١٧١/١.

٢-العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ص٥٢٦

٣-سورة التوبة : الآية ٨١-٨٢.

٤-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١٧١/١.

٥-سورة التوبة : الآية ١١٨.

٦-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠٢/٣- ١٠٣، البستي :السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص٢٠١، السهيلي : الروض الأنف ٣٣٤/٤ – ٣٣٥

{ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}(١).

ويمكن الإشارة هنا إلى " البكائين وقد ذكرهم الله تعالى بقوله: **{ الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ }** (٢). وكذلك الخائفين. وغيرهم من أهل المدينة ومن الأعراب"(٣) كما يتضح من القرآن الكريم وخاصة في سورة التوبة التي ورد فيها تفصيل كامل عن غزوة تبوك وفي سورة المنافقين والمصادر المختلفة أيضاً.

ومما تحسن الإشارة إليه " أن خصوم المدينة داخلها أرادوا الاستفادة من خروج الرسول ﷺ إلى بلاد الشام لغزو البيزنطيين، وكانوا يأملون أن تحيق الخسارة بالمسلمين، وتكون نهاية سلطانهم، وفي أسوأ الحالات، فإن ربحهم في تلك الغزوة إذا حصل، فسوف يكون ربحاً هزيلاً، لأنهم سيعودون منهوكي القوى، بخلاف ما هم عليه وقت خروجهم"(٤).

مثل هذا الضعف في المسلمين يبرز للمنافقين قوة، فيجعلون من أنفسهم عيوناً للإمبراطورية البيزنطية، ويقدمون لها جميع المساعدات، التي تمكنها من معاودة قتال المسلمين والقضاء عليهم وعلى دولتهم.

لكنَ الرسول ﷺ فوت عليهم فرصة الفساد بإبقائه " محمد بن سلامة الأنصاري على المدينة المنورة، وقيل في رواية أخرى سباع بن عرفطة الأنصاري وعلى أهله وجعل الإشراف العام لعلي بن أبي طالب"(٥)، إذ ضمن

١- سورة التوبة : الآية رقم (٤٩).

٢-سورة التوبة : الآية رقم (٩٢).

٣-ابن هشام : السيرة النبوية ٥٢٨/٣-٥٣٠، ابن عبد البر : الدرر، ص٢٤٢-٢٤٣

٤-الزين : خاتم النبيين محمد، ص٧٥١-٧٥٢

٥-ابن الأثير : الكامل ١٥٠/٢، ابن كثير : الفصول في سيرة الرسول، ص٢١٠

الرسول ﷺ ببقاء علي بن أبي طالب سلامة الأمور، مهما كانت النتائج التي ستسفر عنها الحرب مع البيزنطيين.

وبعد أن اكتمل استعداد تجهيز الجيش، وحانت ساعة المسير، " أصدر الرسول ﷺ أوامره، وغادر الجيش المدينة في يوم الخميس في شهر رجب سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، على رأس جيشٍ عدد أفراده ثلاثون ألفاً، منهم عشرة آلاف فارس واثنا عشر ألف راكب، وثمانية آلاف راجل، وفي رواية أخرى ثلاثون ألفاً من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، وقيل في روايةٍ ثالثةٍ، كان عدد أفراد الجيش ثلاثين ألفاً، والإبل اثنا عشر ألفاً، والخيل عشرة آلاف"[١]، فكيف تجمَع مثل هذا العدد ؟ كالعادة هناك عدم ثقة بالمصادر فيما يتعلق بالأعداد.

وقد ضرب الرسول ﷺ عسكره " في ثنية الوداع[٢]، وتمكن من الوصول إلى الحجر[٣]، ثم تابعوا مسيرتهم حتى وصلوا تبوك، وبها عسكروا"[٤].

ولكن الملاحظ كما يتبين من الروايات أن الجيش الإسلامي لم يجد أي مقاومة أو أي أثرٍ للبيزنطيين وأحلافهم من هؤلاء الذين قيل إنهم تجمعوا يريدون غزو المدينة، مما يعني أن القبائل العربية لم تعد بعيدة عن المشروع السياسي الجديد الذي اتضحت ملامحه، ووجدت فيه ذاتها المفقودة في ظل الحكم البيزنطي الطويل[٥].

وهنا لا بد من التساؤل، هل نقل الأنباط أخباراً مزيفة وغير صحيحة ؟ أم أن البيزنطيين انسحبوا ليستدرجوا المسلمين إلى بلاد الشام ؟

١-ابن سعد : غزوات الرسول وسراياه،ص١٦٥، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي١/١٣٤.

٢ -الثنية في اللغة تعني الطريق في الجبل،وثنية الوداع يقصد بها الموقع التاريخي الواقع على مدخل المدينة المنورة. ياقوت الحموي: معجم مادة ثنية الوداع.

٣-الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/ ٣٨١.

٤-ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر، ص٧٦، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص١٦١

٥-بيضون : من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، ص١١٩

لم يرد في المصادر أي معلومة تفيد في ذلك، وهناك إغفال تام لهذه الفكرة، ومن المرجح أن الأخبار التي وردت إلى المسلمين بشأن الهجوم عليهم لم تخل من المبالغة، لتخويف المسلمين وإبعادهم عن الشام[١]، لربما كان ذلك، ولكن بقي المشروع الكبير في السيطرة على مداخل البحر الأحمر قائماً، يضاف إلى ذلك أنَ هرقل افتقر إلى المال، وتولاه الرعب من المعلومات التي حصل عليها من تقارير المعارك، ومن تقصيه الحصول على المعلومات من أبي سفيان وسواه إثر مراسلة النبي ﷺ له، ومخاطبته بقوله " أسلم تسلم ".

ثم إنّ حضور جنود الإِسلام إِلى ساحة تبوك بهذه السرعة أعطى لأعدائه عدة دروس:

أولاً: إنّ هذا الموضوع أثبت أنّ المعنويات العالية والروح الجهادية لجنود الإِسلام، كانت قوية إِلى الدرجة التي لا يخافون معها من الاشتباك مع أقوى جيش في ذلك الزمان.

ثانياً: أتى كثير من القبائل وأمراء أطراف تبوك إِلى النّبي ﷺ وأمضوا عهوداً بعدم التعرض للنبي ﷺ ومحاربته، وبذلك اطمأن المسلمون من هذه الناحية، وأمنوا خطرهم.

ثالثاً: نفذ إِشعاع الإِسلام وأمواجه إِلى داخل حدود إِمبراطورية الروم، ودوّى صدى الإِسلام في كل الأرجاء، وتحقق قوله ﷺ : " نصرت بالرعب"، وهيأ هذا الأمرالأرضية لنصر حالي وانتصارات مستقبلية.

رابعاً: عبدَ المسلمون بقطعهم هذا الطريق، وتحملهم لهذه الصعاب، الطريق لفتح الشام في المستقبل، وقد اتضح للجميع أن هذا الطريق سيقطع في النهاية. وهكذا، فإنّ هذه المعطيات الكبيرة تستحق كل هذه المشاق والتعبئة والزحف.

١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/ص١٧٣.

على كل حال اعتقد البيزنطيون اعتقاداً راسخاً أن الرسول ﷺ " إنْ أقدم على تلك المجازفة خارجاً من المدينة نحو بلاد الشام فسوف تكون قفار الحجاز مأوى لعظام جندهم، لكن عندما وصل المسلمون فعلاً إلى تبوك كانت دهشة البيزنطيين لذلك شديدة، والجرأة التي واتت المسلمين على المضي لغزو الشام حيث سلطان بيزنطة"[١].

عندها تولدت لدى البيزنطيين وأحلافهم المخاطر " وقدروا أن محمداً ﷺ لو انتصر في هذه المعركة فلن يقف عند حد، وستتبعها انتصارات أخرى، هذا بدون شك سيضعف رهبة الإمبراطورية البيزنطية وجيوشها الجرارة في نفوس العرب"[٢].

ومن المحتمل أن البيزنطيين عزموا على تجنب معارك كبيرة مع المسلمين، خشية تكتيكهم الذي زودته الانتصارات بكل أسباب القوة، فقد ذاق المقاتل المسلم حلاوة النصر، وأصبح يفكر فيه، وحينما يدخل المعركة لا يتصور غيره، ويبدو أن ردَة الفعل البيزنطية الأولى كانت الانكفاء، وتجنب مواجهات حاسمة في الأرض المكشوفة قدر الإمكان[٣].

ومع تفوق البيزنطيين وأحلافهم في العدد رأوا من وجهة نظرهم أن الثبات أمامهم وهم الذين نجحوا في مغامرتهم الهائلة،سيكون جنوناً وسينتهي بالهزيمة المنكرة، فحلَ الخلاف في صفوف جيشهم العظيم، فولى دون أن يجسر على ملاقاة الجيش الإسلامي[٤].

ويمكن أن يكون هناك سبب دفع البيزنطيين إلى الانسحاب، وهو أن هرقل كان منشغلاً بمشاكله الداخلية بعد إقصائه الفرس عما اغتصبوه من أراضي

١-دينيه : محمد رسول الله، ص٣٠٢. سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٤

٢-الحسني : سيرة المصطفى، ص٦٣٤. الندوي : السيرة النبوية، ص٣٦٤.

٣-كيغي : بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص١٢٩. الحسني : سيرة المصطفى، ص٦٣٤.

٤-دينيه : محمد رسول الله، ص٣٠٢

الإمبراطورية البيزنطية، وكان يحتاج إلى إعادة تشكيل جيشه "[١]، إلى جانب الأحوال الإدارية في المناطق المستردة من الساسانيين مع إعادة الإعمار، ومشاكل خاصة به ذاتياً، وبعلاقته مع الكنيسة في عاصمة ملكه.

وعلى كل حال آثر البيزنطيون الانسحاب بالجيش الذي كانوا قد وجهوه إلى الحدود، ليحتموا داخل بلاد الشام في حصونها دون أن يلاقي جيش المسلمين في حرب أو قتال.

تحسن الإشارة إلى أن الرسول ﷺ أقام بتبوك مع جيشه عشرين ليلة دون أن يلقى كيداً أو يواجه عدواً، أو أن يقع في قتال، ولم يشأ رسول الله أن يجتاز حدودهم والتوغل في الشام، وبقي على مشارف البلاد، حتى يكون ظهره مؤمناً إلى بلاده، فلا يحاط به وهو بين القبائل الشامية"[٢].

وبدون شك، كان هذا سلوك عسكري رفيع المستوى، خاصة أنَ القتال في داخل أراضي بلاد الشام أمر عسير وصعب، يتطلب تكتيكاً خاصاً، وتموبناًكبيراً، واستطلاعاًوانضباطاً، لأن الحرب في الصحراء تختلف طبيعتها عن الحرب في المدن.

عندها استشار الرسول ﷺ أصحابه في التقدم نحو الشام لمواجهة البيزنطيين، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال له الرسول ﷺ : لو كنت أمرت به لم أستشر فيه، فقال عمر: يا رسول الله، إن للبيزنطيين جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام وقد دنوت منهم، وأفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً[٣].

١-حركات : السياسة والمجتمع في العصر النبوي، ص١٨٨

٢-الواقدي : المغازي،ج٣، ص١٠١٥، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٣٢.٣٢/٢ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ١/ ١٣٤. ابن خلدون : العبر ٤٦٨./٢ دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص٩٩.

٣-الشامي : سبل الهدي والرشاد ٥ /٤٦١- ٤٦٢، ابن الحلبي : السيرة الحلبية ٢٠/٢، العيسى: تاريخ الغساسنة، ص٩٧

في ضوء ذلك، يُضطر المرء هنا لرفض الزعم القائل " إن الرسول ﷺ كانت لديه خطة للتوغل في بلاد البيزنطيين حين خرج إلى تبوك، ولكن حالت عوامل معينة دون تنفيذها أو إن الرسول ﷺ توقف في تبوك نتيجة وهن الشيخوخة، أو لاحتمال أن يكون قد جاءه من الأخبار ما جعله يحجم عن ذلك، أو لعله عاد لقلة الزاد والماء معه "[١]، ولربما عاد لكشفه مؤامرة مدبرة لاغتياله.

وليس من المستبعد الاعتماد على هذه الآراء، لكنها بحاجة إلى مزيد من التدقيق والتحليل[٢]، خاصة أن المصادر لا تذكر مثل هذه الآراء مباشرة أبداً، لأن الطريقة التي تم بها إعداد هذه الحملة والظروف التي أعدت فيها تؤكد أنها كانت حملة أملتها الضرورة، وقصد بها صد هجوم متوقع[٣].

يبقى التساؤل، لماذا استشار الرسول أصحابه في التقدم نحو الشمال إن لم تكن لديه خطة لذلك؟

إن الإجابة واضحة، فقد خرج المسلمون لهذه الغزوة عندما علموا أن البيزنطيين تجمعوا وهموا بغزو المدينة، وقد انتهى المسير بالمسلمين إلى تبوك على حدود الشام دون أن يقابلوا عدوهم فقرروا العودة إلى المدينة.

ولذلك استشار الرسول ﷺ أصحابه في التوجه شمالاً على احتمال أن يواجهوا العدو هناك[٤].

وقد أخذ الرسول ﷺ برأي عمر في العودة إلى الحجاز، لأن التقدم إلى الشام كان يحمل في طياته خطورة على المسلمين بسبب كثرة جموع

١-بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٦٥. بتلر : فتح العرب لمصر، ص١٨١ سالم المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٤-١١٥.

٢-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٥.

٣-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٥.

٤-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٥.

البيزنطيين وحلفائهم، ولم تكن هناك خطورة في عدم التقدم إذ لم تظهر بوادر تشير إلى زحف البيزنطيين نحو الحجاز[١].

لكن هل يعود رسول الله ﷺ إلى المدينة دون أن يؤمن حدود دولته من جهة الشمال ؟

في الواقع إن أهمية غزوة تبوك ينبغي ألا تنحصر في الجانب العسكري، فلم تكن ثمة معركة في تبوك، حتى توصف بأنها حاسمة أو غير حاسمة، فماذا حققت هذه الغزوة على المدى القريب والبعيد في المجالات السياسية والاستراتيجية ؟

لابد من الإشارة إلى أن سياسة الدولة العربية الإسلامية العامة، والقائمة على الجمع بين الدبلوماسية والنشاط العسكري، كان هدفها في الدرجة الأولى كسب القبائل العربية، وتأمين الطرق التجارية والاستراتيجية بصورة سلمية.

وقد استفاد الرسول ﷺ من موقع إقامته في تبوك، فمن الناحية الاقتصادية، كانت تبوك بمأمن من خطر البيزنطيين، بسبب موقعها وسهولة المواصلات بينها وبين المدينة، ولعلها أهم محطة خاصة بعد تأمين كل المراكز الأخرى في الواحات المهمة المشار إليها (خيبر، فدك تيماء، وادي القرى) والواقعة على طريق الشام، تلك الواحات التي أصبحت الآن في ظل حكم الدولة العربية الإسلامية وإدارتها"[٢].

ومن الناحية الاستراتيجية، كانت تبوك مركزاً مهماً يمكن منه الاتصال بمراكز عربية كثيرة في الشمال، كما حصل فعلاً أثناء هذه الغزوة، فقد رأى الرسول ﷺ أنه بإمكانه كسب ولاء القبائل والتجمعات الدائرة في فلك

١-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٥-١١٦.

٢-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/١٧٣.

البيزنطيين والقاطنة على طريق الشام، وإن لم يتسن له فيكفي تحييدها في الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين"[١].

وأهم ما ترتب عن ذلك، أن الرسول ﷺ آثر الصلح، عندما وفد صاحب أيلة يوحنا بن رؤبة، وصالحه على الجزية ومقدارها ثلاثمئة دينار، كما صالح أهل أذرح[٢]، والجرباء"[٣].

ومن أجل توطيد روابط الصلح، " كتب الرسول ﷺ لهم كتاباً نص على جزية سنوية مقدارها مئة دينار، وعلى مساعدة المسلمين ونصحهم، وصالح أهل مقنا[٤]، على أن يدفعوا جزية سنوية تقدر بربع ثمارهم وغزلهم"[٥].

ولكن قد يتساءل المرء، ما الذي دفع هذه المناطق إلى عقد صلح مع الدولة العربية الإسلامية على الرغم من ارتباطها بالإمبراطورية البيزنطية ؟

لم تكن ثمة حاميات بيزنطية منظمة في مقنا، أوأيلة، أوجرباء، أوأذرح، لكن البيزنطيين يمكنهم نظرياً، أن يقوموا بعمليات عسكرية في منطقة أذرح في وقت الحملات الإسلامية، وثمة من يروي أن بعض المسلمين قتلوا في أذرح"[٦].

١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/١٧٣.

٢-أذرح : اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من أعمال البلقاء. الواقدي : المغازي ج٣، ص١٠٣١، الحموي : معجم البلدان ١/١٢٩(مادة أذرح).

٣-جرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز. ابن الأثير: الكامل ٢/١٥٢. ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/٣٢٢. أحمد : دراسات في تاريخ الدولة العربية، ص١٧٣.

٤-مقنا : قرية قرب أيلة. الحموي : معجم البلدان ٥/١٧٨(مادة مقنا).

٥-ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٢/ ٤٢. الذهبي : تاريخ الإسلام ١/٤٣٢. الشامي: سبل الهدي والرشاد ج٥، ص٤٦١.

٦-كيغي : بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص١٣١.

لكن المصادر لا تؤكد مثل ذلك، وإنما تقر بأن سكان المدينة استسلموا للمسلمين فكانت أذرح تسيطر على الطريق بين الجزيرة العربية والبلقاء ومصدر الحديد الخام"[١].

ويلاحظ أن مقنا، وأيلة، وجرباء، وأذرح، كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي رغم ارتباطها مصلحياً وجغرافياً ببيزنطة، وهذا على ما يبدو أتاح لها الفرصة لأن تتجر أو تعقد معاهدات مع الرسول ﷺ العربي دون تدخل مباشر من بيزنطة"[٢].

ويبدو أن الظروف التي حلت بالإمبراطورية البيزنطية جعل سيطرتها تتقلص تدريجياً عن تلك الأماكن التي كانت تقع تحت حمايتها المطلقة، وقد صادف ذلك أن خزينة هرقل كانت خاوية، والمرتبات توقفت، والنفوس في الشام يعمها السخط من سوء الإدارة البيزنطية، وكثرة المغارم وأيضاً المظالم[٣]، مع المشاكل الكنسية الحادة.

فضلاً عن الحروب والغارات وأطماع الفرس التي لا تنقطع، ووسط هذا كله كان الأمل يراود الناس بقرب التغيير، كل هذا هيأ النفوذ الإسلامي كي يجد طريقاً سهلاً إلى هناك [٤].

لقد اطمأن الرسول ﷺ بعد عقد هذه المعاهدات مع القبائل المتاخمة لحدود الحجاز، وذلك عندما أمن حدوده الشمالية وشلَ كل حركة لتلك القبائل، وحررها من تبعيتها للبيزنطيين، ولم يبق أمام المسلمين إلا دومة الجندل.

فأرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى أميرها أكيدر بن عبد الملك الكندي على رأس قوة مؤلفة من أربعمئة وعشرين فارساً، وتحقيقاً لسياسته

١-كيغي : بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ص١٣١

٢-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٨

٣-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٨، دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام ص٦٦

٤-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٨، دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام ص٦٦.

التي ترمي إلى بسط سلطانه على شمال الحجاز خاصة أن أهل دومة الجندل من المسيحيين، وقد اتخذوا موقفاً معادياً للمسلمين بعد عودة الإدارة البيزنطية إلى الشام، فكان ذلك السبب الدافع لإرسال هذه السرية، فحقن دمه وصالحه على الجزية ثم أخلى سبيله[١].

وبذلك تمكن الرسول ﷺ من ربط قبائل شمال الحجاز بسلطة المدينة وإرسال عماله فولى الرسول ﷺ عمالاً على تبوك وتيماء، منهم عمرو بن سعيد بن العاص الأموي، كما ولى عمرو بن العاص السهمي على صدقات سعد هذيم وعذرة ومن لفها من جذام، وولى الوليد بن عقبة على النصف من صدقات قضاعة"[٢].

ومن الضروري القول في هذا السياق إن بعض المصادر تروي أن الرسول ﷺ أثناء إقامته بتبوك بعث برسالة إعذار وإنذار إلى هرقل، مع دحية بن خليفة الكلبي وهو بحمص، قاعدة مملكته بالشام، وفيها خيَره بين إحدى ثلاث، إما الإسلام أو الجزية أو السيف. فما كان من هرقل إلا أن رد هذه الرسالة مع رجل من تنوخ وفيها رفض الإسلام والجزية"[٣].

وعلى الرغم من أن هذه الرواية " ترد في كثير من المصادر، فليس هناك ما يمنع من ذكرها، لأنها تتسق تماماً مع الهدف المعلن لهذه الغزوة. وهذا كله يتناسب مع حجم التحدي الذي كانت تتعرض له الدولة العربية الإسلامية من البيزنطيين"[٤] والاستجابة النبوية لهذا التحدي.

١-البيهقي: دلائل النبوة ٢٥١/٥. القسطلاني: المواهب اللدنية ١/ ٣٥٠ . الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١٧٤/١.

٢-ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٥٣/٢. ابن كثير: البداية والنهاية ٩ /٥٤١.

٣-ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٩/٢. السهيلي: الروض الأنف ٤٢/٤. القسطلاني: المواهب اللدنية، ٣٦٠/١. الطهطاوي: نهاية الإيجاز، ص٣٨٣.

٤-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١١٩.

عندما أنجز الرسول ﷺ كل ذلك، قفل عائداً بجيشه إلى المدينة، فوصل في رمضان سنة ٩هـ /٦٣٠م. مع الإشارة إلى أن غزوة تبوك كانت آخر غزوات الرسول ﷺ ولم يكن بعدها أي نشاط عسكري يتولى قيادته بنفسه"[١].

كانت غزوة تبوك من أكثر الغزوات التي قام بها المسلمون يمناً وبركة من حيث التجهيز والنتائج،والغايات النبيلة التي حققتها، فمن الناحية المعنوية لا يقل النصر فيها عن أي نصر عسكري ساحق، ومن الناحية المادية مكَنت المسلمين من بسط نفوذهم في منطقة الحدود (حدود الشام والحجاز) وضمنت لهم خضوعها ولذلك لم يلقوا كبير عناء"[٢]

لقد جاءت غزوة تبوك عظيمة الدلالة " كونها خطوة من خطوات التوسع الإسلامي ويبدو من دراسة أوليات اتجاه الحركة الإسلامية نحو الشمال أن الهدف الأول كان السيطرة على العرب المتنصرة عند حدود الحجاز الشمالية، ويتبين أن الاتجاه فعلاً نحو إخضاعها قد بدأ في زمن مبكر جداً من سنة ٥هـ/٦٢٦م، وهو الذي أفضى بالعرب إلى الاشتباك مع البيزنطيين بعد ذلك"[٣]، فسنة خمس للهجرة، سنة الخندق، وسنة معركة نينوى، ونصر هرقل على الساسانيين، ومن ثم حان الوقت للانتباه إلى ماكان يجري في شبه الجزيرة، والتدخل غير المباشر تمهيداً للمباشر.

وذلك لأن " ما حققه الرسول ﷺ في هذه الغزوة قد تعجز عنه المعارك الحربية نفسها إذ كانت تطبيقاً رائعاً لإستراتيجية الهجوم غير المباشر التي طبقها الرسول ﷺ من أنه ربح المعركة بالمناورة لا بالقتال"[٤]الالتحامي.

١-الكلاعي : الاكتفاء ٣٨٦/٢. عكام : الموسوعة الإسلامية الميسرة ١/ ٢٢.

٢-سعيد :حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٥٥. الخليفة: العطر النفاذ في مهاجرة الحجاز، ص٢٠١

٣-عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ٢٩٨/١.

٤-سعيد : حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، ص٥٥

ويمكن عدها في قائمة الانتصارات، وبالتالي كانت تطبيقاً لحرب إعلامية لم يألفها المسلمون سالفاً.

يضاف إلى ذلك " كسب المسلمون سكان المنطقة فأصبحوا حلفاء لهم على الحدود الشمالية، إذ مثلت المعاهدات، خاصة مع عدد من المراكز المهمة، أكبر إنجاز للمسلمين في تاريخ الصراع بينهم وبين البيزنطيين في حياة الرسول ﷺ، وجاءت بمنزلة فرض اعتراف واقعي بالقوة الجديدة"[١].

وقدمنعت البيزنطيين " من تحقيق أهدافهم المتمثلة في ضرب الدين الإسلامي، ومنع انتشاره. وهذا وحده يعد نصراً كبيراً "[٢]. والأكثر من ذلك انكسار هيبة البيزنطيين وقوتهم وارتفاع معنويات المسلمين وإسقاط نظرية قوة البيزنطيين التي لا تقهر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أثبتت هذه الغزوة عنصر الصمود عندما تمكنت من" إظهار قوة المسلمين للبيزنطيين، وزرع الخوف في قلوب الأعراب بعدما رأوا بعيونهم القوة العظمى الإمبراطورية البيزنطية الحديثة الانتصار على الفرس " بدأت تخشى المسلمين وتتحاشى لقاءهم"[٣].

وأظهرت غزوة تبوك " قدرة عظيمة في التنظيم، والخبرة الأعظم في فن قيادة الرجال وجرت فيها حرب وقائية تعلن لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية عموماً والحجاز خصوصاً عن طريق النفير العام ومبدأ الحرب الشاملة، مع سرعة الحركة في أصعب الظروف"[٤].

١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١/١٧٤. بيضون: من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول، ص١٢٠.

٢-العيدروس : الدولة الإسلامية الأولى، ص٢٣٧-٢٣٨

٣-العيدروس : الدولة الإسلامية الأولى، ص٢٣٧-٢٣٨

٤-أبو خليل : في التاريخ الإسلامي، ص٢٠٦، أبو خليل (شوقي) : غزوة تبوك " غزوة العسرة "، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٩٢.

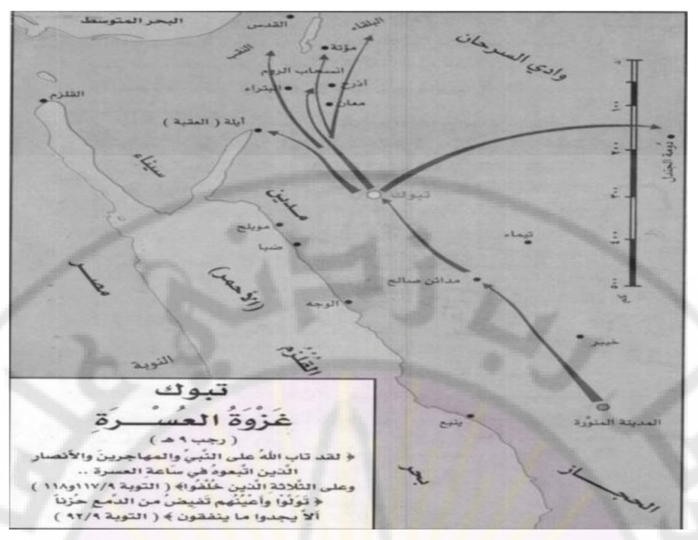
إضافة إلى ذلك " أن القبائل العربية الشامية التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك بدأت تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ كثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للإمبراطورية البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة"[١].

وعلى الصعيد الداخلي كانت غزوة تبوك امتحاناً لقوة الإسلام وتميز الصادق من المنافق، والكشف عن النوايا.

عندئذٍ بات واضحاً أن الصراع العربي الإسلامي البيزنطي بدأ يدخل طوراً جديداً ومن هذا المنظور، يمكن عد غزوة تبوك، مقدمة جذرية لحركة الفتوح التي وضعت الدولة الصاعدة على مفترق جديد، عندما نجحت في تحقيق تماس مباشر مع البيزنطيين وتنظيم نقاط ارتكاز سيكون لها أثر في الفتح الإسلامي لبلاد الشام فيما بعد، عندما أعطيت الأولوية في العصر الراشدي، تكريساً لهذه السياسة التي وضعت في هذه الحقبة خطوتها الأولى.

على كل حال، فإنّ النّبي ﷺ على عادته، قد استشار جيشه في الاستمرار في التقدم أو الرجوع، وكان رأي أكثرهم بأنّ الرجوع هو الأفضل، والأنسب لروح التعليمات الإِسلامية، خاصّة أن جيوش المسلمين كانت قد خارت قواها نتيجة المعاناة الكبيرة في الطريق، وضعفت مقاومتهم الجسمية، فأقر النّبي ﷺ هذا الرأي، وردَ جيوش المسلمين إِلى المدينة، ومع ذلك ينصح بالقراءة التأملية العميقة للقسم الثاني من سورة التوبة.

١-سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٢٠.



دخول الإسلام إلى اليمن:

كانت الحقبة الزمنية الممتدة من انهيار الحضارة اليمنية القديمة، حتى ظهور دين الإسلام في الحجاز حقبة عدم استقرار في اليمن، فلم يلتفت اليمنيون إلى إعادة حضارة أسلافهم، وانشغلوا بصراع الأديان والمعتقدات القادمة من الخارج، وساد اليمن حالة من التمزق الاقتصادي والسياسي، والديني والفكري، فكانت صنعاء والبلاد المجاورة لها تخضع للاستعمار الفارسي، وعانت من تسلَط الفرس على مقدرات البلاد التي آلت إليهم، فنهبوا ثرواتها، وحكموا الناس بالظلم والبطش، أما المناطق اليمنية التي لم يمتد إليها الحكم الفارسي، فقد كانت تعيش حالة من الصراعات والنزاعات القبلية[١]، فقد كان اهتمام الفرس في صنعاء هو جني الأموال دون مراعاة تحسين أحوال الناس المعيشية، وترك القبائل في المناطق البعيدة، في حالة صراعات وحروب، إذ انصب اهتمام زعمائها على قيادة الحروب ضد القبائل الأخرى،

---

١ –الكامل، (محمد أحمد): المسار التاريخي للوحدة اليمنية من صدر الإسلام وحتى دولة بني رسول، صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد ١٣٧١، تاريخ ١٣ اكتوبر، ٢٠١٠، ص٢٤.

تلك الحالة التي شهدها اليمن في مرحلة من مراحله التاريخية، جعلت الإنسان اليمني يعيش حالة من البؤس والفقر، حتى ضاقت البلاد بأهلها، فهاجر من استطاع إلى البلدان المجاورة والبعيدة، بحثاً عن حياةٍ معيشيةٍ مستقرةٍ أفضل.

وقد عرف اليمنيون بأمر البعثة النبوية عن طريق الرحلات التجارية التي كانت بين قريش واليمن، وما تلاها من دعوة سرية وجهرية، ثم مخاطبة الرسول محمد الوافدين من القبائل المجاورة، والهجرة إلى المدينة وبداية تكوين الدولة الإسلامية، التي ظهرت مكانتها الخاصة بعد غزوة بدر الكبرى ٢هـ/ ٦٢٣ م، لتهدد بعد ذلك دولة الروم في دومة الجندل5هـ/ ٦٢٦ م، وتتوسع فيما حولها على حساب يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ثم تقر سلطانها بعد صلح الحديبية 6هـ/ ٦٢٧م أمام زعامة قريش التي كانت قبل الإسلام، فكان لكل هذه الأحداث المتلاحقة أثر كبير على أهل اليمن، فجاء تأثرهم بالإيجاب في ذلك إما رغبة أو رهبة.

وقد كانت مناطق اليمن في تلك الأثناء منقسمة بين قوى قبلية هي: حمير، وحضرموت، وكندة، وهمدان، وبين حكمٍ فارسي في صنعاء وعدن وما حولها، وبين جيبٍ في نجران للنفوذ الروماني الحبشي، وهو الجيب الذي كان فيه نصارى نجران هناك.

تحسن الإشارة إلى أنه لم يأت إسلام أهل اليمن دفعة واحدة، بل جاء على أشكال متعددة، ولكل قبيلة في اليمن أسلوب انتهجه الرسول محمد ﷺ، واتبعه معها، وكانت المقدمة حينما أسلم أفراد من قبائل مختلفة كأبي موسى الأشعري في الأشاعرة، والطفيل بن عمرو في دوس، وقيس بن الهمداني في همدان، فأخذوا ينشطون للدعوة في قبائلهم.

أما الأبناء[1]، فإن الرسول محمد بعث رسالة إلى باذان حاكم اليمن بموافقة من قبل الفرس، دعاه فيها إلى الإسلام، فاستجاب باذان لدعوة الإسلام، وتبعه في ذلك أتباعه، وقد أقره الرسول على اليمن، فبقي حاكماً عليها حتى مات، وكان الإمبراطور الساساني أمر نائبه هذا باعتقال النبي ﷺ وإرساله له، ولكن انعكست الآية، وغدت اليمن تابعة لدولة المدينة التي سيطرت الآن على بحر العرب والتجارة مع الشرق الأقصى.

بذلك أصبحت اليمن جزءاً من الدولة العربية الإسلامية منذ عهد رسول الإسلام محمد، إذ عين عدداً من العمال عليها، وكان ممن عينهم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وسعيد بن لبيد الأنصاري، والبراء بن عازب، وخالد بن الوليد، ووبر بن يحنس، وآخرون وأوصاهم قائلاً: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وبفضل هؤلاء دخلت قبائل العرب في الإسلام، ووصل الفائض من مال الصدقات بعد توزيع ما استلزم توزيعه على فقراء هذه القبائل إلى المدينة، وأصبح الحج في ذلك العام، يشمل عددًا كبيرًا من عرب شبه الجزيرة حتى عرف باسم الحج الأكبر.

وكان النبي محمد ﷺ قد أمر عامله وبر بن يحنس ببناء جامع صنعاء الذي سمي الجامع الكبير، ولم تنقطع تبعية اليمن للدولة العربية الإسلامية طوال عصر الخلفاء الراشدين، وعصر بني أمية فيما بعد، وهذا الآن خارج إطار البحث.

---

١ – هو الاسم الذي أطلقه سيف بن ذي يزن على الفرس الذين ساندوه في إخراج الأحباش وأعوانهم وحلفائهم من القبائل من اليمن، ويقال: هم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن= =لما جاء يستنجدهم على الحبشة، فنصروه، وملكوا اليمن، وتزوجوا في العرب فقيل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم.

ولما كان موعد الحج، عهد الرسول إلى أبي بكر بإمارة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع، ثم أصدر بوحي من عند الله بيان براءة تضمنته سورة التوبة في القرآن الكريم، وفوض إلى علي بن أبي طالب مهمة قراءته على مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها، ولم تدخل بعد في الإسلام، وألغى كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشهار إسلامها، والدخول في الدولة العربية الإسلامية، فإن امتنعت عُدت خارجة على نظامها ووجب على المسلمين محاربتهم، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري وفق الشريعة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج، ويقترب من المسجد لحرام، وتعرض البيان للمنافقين فأنذرهم بالعذاب(١)، وقد كان بيان البراءة إنذاراً وجهه الرسول إلى المشركين في موسم الحج، وهو الموسم الذي يجتمع فيه كل ممثلي قبائل العرب في بلاد العرب بعد أن مكن لنفسه، ولدولته بالانتصارات التي أحرزتها دولة الإسلام في المدينة في السنين التسع التي مرت بعد الهجرة .

وهدف بيان براءة ضم جميع القبائل في شبه الجزيرة العربية إلى الدولة العربية الإسلامية عن طريق تحولها إلى الإسلام وخضوعها لدين الإسلام.

-عام الوفود:

كان لانتصار المسلمين فى فتح مكة، ولإخضاع القبائل حولها، وإجلاء اليهود، وعودة الرسول صلى الله عليه و سلم من غزوة تبوك سالماً غانماً بعد أن انسحب الروم من مواجهته وأخضع قبائل الشمال لسلطان المسلمين، أثره في استجابة القبائل التي لم تكن قد أسلمت بعد ودخلت في دين الإسلام بعد أن

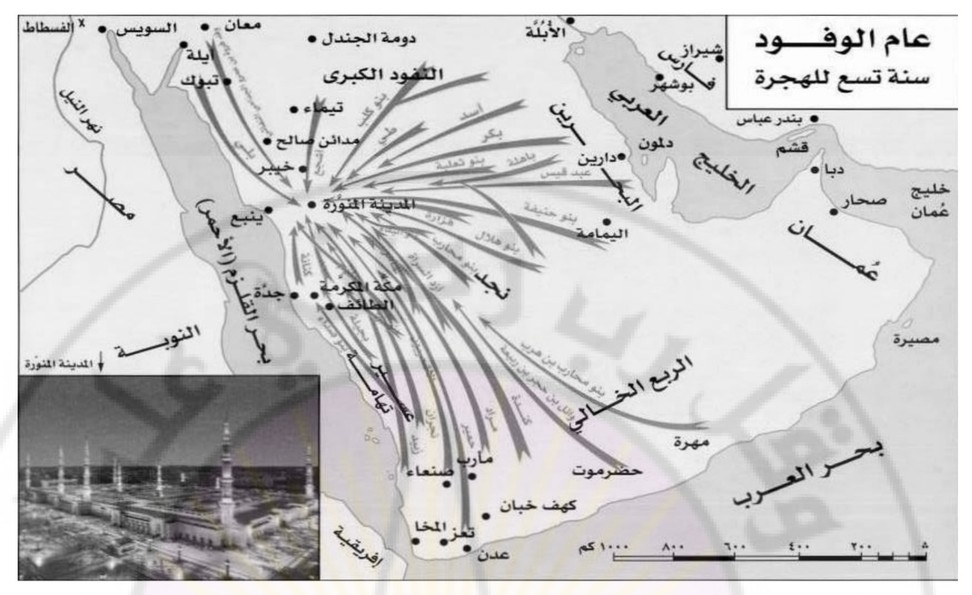
١-زكار وخربوطلي : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص١٢٧

تهيأت الظروف لانتشار تعاليم الإسلام، وأخذ الجميع يناقشون دعوة الإسلام بهدوء وإمعان بعيداً عن الإرهاب الفكري والجمود العقلي والعصبية المقيتة.

فأخذت تعاليم الإسلام طريقها إلى قلوب العرب، وزال من نفوسهم التردد والخوف، ومن ثم أخذت القبائل تتوافد على المدينة لتعلن الطاعة، ولتدين بالإسلام حتى عرفت السنة التاسعة من الهجرة بعام الوفود، وأصبح مسجد الرسول ﷺ في المدينة مركزا لهذه الوفود، حتى المسيحيين في نجران، والغساسنة في بلاد الشام، وكان رسول الله ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام، وفي الوقت نفسه تحصيل الصدقات منهم.

وكان النبي يستقبل هذه الوفود في سرور وفرح، ويأمر أصحابه بتعليمهم الإسلام، وتفقيههم في الدين، فكانت هذه الوفود تعود إلى مراكزها تحمل روحاً جديدة، وحماساً في الدعوة إلى الإسلام وكراهية شديدة للوثنية.

وبذلكلم يحل عام ١٠هـ / ٦٣١ م حتى كانت كل الجزيرة العربية دولة عربية إسلامية موحدة باستثناء مناذرة الحيرة، وغساسنة جلق والجابية، وهؤلاء الغساسنة خاصة كانوا يشكلون خطرًا ماثلاً على الدولة العربية الإسلامية من الجهة الشمالية، وقد أدرك النبي ﷺ هذه الحقيقة منذ أمد بعيد، فأراد أن يتبع دعوته السلمية لنشر الإسلام خارج الحجاز، بإعداد جيش لغزو الأراضي الجنوبية لبلاد الشام حيث أقام الغساسنة، فكان بعث جيش أسامة بن زيد بن حارثة ١١هـ /٦٣٢ م لكن وفاة الرسول ﷺ حدثت، ولم يكن قد أُرسل بعد، لذاسيتم إرساله في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسيجري الحديث عنه في حينه.



حجة الوداع ووفاة الرسول :

في ١٠هـ/ ٦٣١ م، خرج النبي ﷺ للحج في أكثر من مئة ألف من المسلمين، وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التي تُعدُ دستور الإسلام، فقد بين فيها قواعد الإسلام، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي،{ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** }[١]، وقد نزل على الرسول ﷺ قوله تعالى: { **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** }[٢].

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام مرضه الأخير، وانتقل إلى جوار ربه يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول ١١ هـ /٨ حزيران ٦٣٢ م، وهو في الثالثة والستين من عمره بعد أن أبلغ الرسالة، وأدى الأمانة على أحسن الوجوه، وأكملها.

١-سورة الحجرات :الآية ١٣.

٢-سورة المائدة: الآية ٣-٤.



الفصل الخامس: مؤسسة الخلافة الراشدة

- السقيفة وخلافة أبي بكر الصديق
- خلافة عمر بن الخطاب
- خلافة عثمان بن عفان
- خلافة علي بن أبي طالب



مؤسسة الخلافة الراشدة

ظهر في المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي مصطلح تشبث به المؤرخون، والتزمه علماء الأمة، وتناقلته الأجيال، وهو مصطلح الخلافة الراشدة أو العصر الراشدي الذي أطلق على العصر الذي أعقب عصر النبوة، والزمن الذي تولى فيه الخلفاء الأربعة الأول، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، أمر ومقاليد الأمة، وهو تجسيد للعصر الإسلامي النبوي بمنهجه وممارساته.

ولم يحقق هؤلاء الخلفاء لذواتهم أو لعشائرهم أو قبائلهم مغنماً، أومكسباً مادياً أومعنوياً، وكان الواحد منهم يدخل الخلافة وفي حوزته ما يمتلكه، ويخرج منها وهو لا يملك شيئاً.

والسؤال الذي يتبادر للذهن لماذا لم يعين الرسول ﷺ خليفة، ولماذا لم يوص بتعيين أحد؟ ولماذا ترك هذه القضية للمسلمين يحلونها بالطريقة التي يرونها مناسبة؟

في ضوء تعاليمه وإرشاداته، يتبين أنه لو حدد لهم شخصاً بعينه وعينه خليفة، لظن بعض الناس أن هذا التعيين من الله ورسوله، وفي هذه الحالة فإن هذا الشخص سيكتب له القداسة، ولا يستطيع أحد أن يناقشه، أو ينتقد تصرفاته وقراراته، ثم إن الأمر قد يؤول إلى الوراثة، مادام التعيين صادراً من النبي ﷺ وهذا أمر خطير، فولي الأمر عند المسلمين بشر، يخطئ ويصيب، فإذا أصاب أعانوه، وإذا أخطأ قوموه، وهذا أهم مبدأ قام عليه نظام الخلافة الإسلامية، أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ لم يحدد لهم الطريقة التي يختارون بها من يتولى أمورهم، لأن طريقة الاختيار تخضع لتطور الظروف والأحوال، وفي الإسلام الأساس حكم الشريعة، وتقاس أعمال الأفراد على الشريعة، وليس العكس.

سقيفة بني ساعدة:

حظيت سقيفة بني ساعدة في التاريخ الإسلامي بالشهرة، لأنها شهدت تولي أول خليفة بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومنها كانت بداية ظهور نظام الخلافة، وانتهاء عصر النبوة.

تقع هذه السقيفة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي داخل مزرعة تتخللها بيوت متفرقة حيث تسكن عشيرة بني ساعدة داخل البساتين المتجاورة، وكانت سقيفة بني ساعدة كبيرة حيث اجتمع فيها عدد كبير من الأنصار، وأمامها رحبة واسعة تتسع لهذا العدد إن ضاقت عنهم السقيفة نفسها، وكان بقربها بئر لبني ساعدة، وقد تحولت هذه السقيفة فيما بعد إلى مبنى، تغيرت أشكاله عبر العصور، وهو الآن حديقة تطل مباشرة على السور الغربي للمسجد النبوي.

والسقيفة هي كل بناء سقف وهو ما يشبه البهو الواسع منه(١)، وغالباً ما تسقف السقيفة بالقصب أو سعف النخيل أو ما شابه ذلك، وقد نسبت إلى ساعدة بن كعب الخزرجي، ولعلها كانت مقراً لتشاور الخزرجيين.

فبعد وفاة الرسول ﷺ وتيقن الناس من وفاته من البديهي أن يفكر كل من المهاجرين والأنصار في هذه القضية، ولهذا السبب كانت المبادرة من الأنصار فقد انحاز حي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة الزهراء، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر، وعمر بن الخطاب، فقال له: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا

١-ابن منظور : لسان العرب٣/٢٠٤١-٢٤٦٣، ياقوت الحموي: معجم البلدان٣/٢٢٨.

قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله في بيته لم يفرغ من أمره، وقد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبي بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه[2].

وكان سبب اجتماعهم السريع نابعاً من فهمهم لأمر هذا الدين، وأنه لا يمكن أن يعيشوا بلا قيادة، إضافة إلى أن الأنصار بحكم وجودهم في المدينة قبل الإسلام وبعده، لعلهم تصوروا أن القيادة لابد أن تكون بأيديهم، وترجع إليهم بعد وفاة الرسول ﷺ فهم كانوا يرون المهاجرين قلة في أوساطهم، ويرون أنهم أحق من غرباء هذه المدينة، كما اعتقدوا أنهم الأحق بالزعامة من غيرهم، لذا فلا لوم عليهم إن هم اجتمعوا لتقرير أمر قيادة الأمة، وعزموا على اختيار كبيرهم سعد بن عبادة الأنصاري أميراً لهم[١].

ولا ريب في أن أمر قيادة الأمة ما كان بعيداً عن محيط المهاجرين، حيث جلس أبو بكر وعمر وبعض المهاجرين يفكرون في أمر الخلافة أثناء تجهيز رسول الله ﷺ، فسمعوا باجتماع الأنصار فخرجوا إليهم، وفاجؤوهم أثناء اجتماعهم.

ولما عم خبر وفاة الرسول أخذت كل فئة منهم تتحرك في اتجاه رسمته لنفسها من قبل، وذلك نحو غاية، وهدف محددين، ولعله من الممكن القول بأن مسلمي المدينة انقسموا يومئذ إلى فئات:

١ – فئة المهاجرين من أقرباء النبي، أو أهله، منهم علي بن أبي طالب، والزبير ابن العوَام، وطلحة بن عبيد الله، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والعباس بن عبد المطلب، تجمعوا أولاً في بيت فاطمة، ثم تحولوا إلى حيث

١- ابن حجر : فتح الباري ٢٥/ ٢٩٩-٣٠٠.

توفي النبي ﷺ فانشغلوا بأمر غسله، وتجهيزه، وهؤلاء رأوا أفضلية البيت الهاشمي لقرابته من الرسول ﷺ.

٢ – فئة ضمت الأنصار، واجتمع هذا القسم فور سماع الخبر في سقيفة بني ساعدة، للمشاورة في انتخاب سعد بن عبادة حاكمًا للمدينة.

٣ – فئة أخرى من المهاجرين ضمت أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح، وتحركت بسرعة وذكاء، فأحدثت تغييرًا عاجلاً في المدينة، ونجح هذا التغيير بسبب عوامل داخلية، وخارجية، وحين تحرك رجال هذه الفئة، كانوا يعرفون أنه لا يوجد خطر سريع يخشى من المهاجرين الذين شغلوا أنفسهم بتجهيز النبي، بل الخطر كان يكمن في تحرك الأنصار .

٤ – مجموعة من أهل مكة، والطائف، فقد وجدت في وفاة الرسول فرصة لتحويل مكاسب الإسلام، وقوته من أجل تدعيم نفوذها السياسي والاقتصادي.

٥ – بعض القبائل العربية رأت في وفاة الرسول ﷺ فرصة للخروج من هذا النظام. انتشر خبر اجتماع السقيفة، وما يجري فيه، فأسرع أبو بكر وعمر إلى هناك وأخذا في طريقهما أبا عبيدة عامر بن الجراح، وفي لحظة وصولهم وجدوا أن الأنصار لم يحسموا أمرهم بعد، وكثر الجدال، وتعددت الآراء[١]، فقال أبو بكر لعمر بن الخطاب ابسط يدك نبايع لك، فقال عمر: أنت أفضل مني، فقال أبو بكر: أنت أقوى مني، فقال عمر: فإن قوتي لك مع فضلك، وهكذا حسم الموقف، فأخذ بيد أبي بكر ليبايعه، وكانت المفاجأة موقف بشير بن سعد[٢] الذي لم يرض بزعامة الخزرج، لأسباب عشائرية وشخصية، فبايع

١– للاطلاع على ما دار في السقيفة من آراء ينظر. ابن سعد: الطبقات ١٨٢/٣، ابن حجر: فتح الباري ٣٠٠/٢٥، ابن العربي: العواصم والقواصم ص٤١-٤٥.

٢– الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣ /٢٢١، بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص٤٨-٥١.

أبا بكر، وتبعه عمر، وكذلك فعل أبو عبيدة، ثم وثب جل أهل السقيفة يبتدرون البيعة [1].

تمت البيعة لأبي بكر لأنه الأكفأ والأقدر على لم شمل الأمة في أول تجربة للمسلمين في إدارة دولة رائدة بعد انقطاع الوحي، وموت رسول الله الذي كان يدير أمرهم.

في هذا الوقت القصير حسمت أخطر قضية في الأمة الإسلامية، وقد سميت هذه البيعة بالبيعة الصغرى، أو البيعة الخاصة، لأنه أعقبها في اليوم التالي بيعة جماعية في المسجدعلى الرغم من اعتراض بني هاشم على الأمر، ورأيهم بأنهم أصحاب الحق في الأمر فهم الأقرب إلى رسول الله ﷺ وهي الحجة نفسها التي ذكرها المهاجرون في السقيفة.

فقد تمت المبايعة بغياب علي بن أبي طالب، والعباس عم الرسول وطليحة بن عبيد الله وسواهم ممن كانوا يجهزون الرسول.

ولعل ما دفع عمر إلى السرعة في هذا، الخوف من الفتنة، وتفرق وحدة الصف الإسلامي، لذا في اليوم التالي لهذه البيعة الخاصة، دخل أبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح المسجد، فصعد أبو بكر المنبر، ووقف عمر إلى جانب المنبر، فتحدث معلناً ما حدث في اجتماع السقيفة، وحدث الناس بأفضال أبي بكر، ودعاهم للبيعة العامة، وعندما وجد أبو بكر نفسه في موقف الحسم، وقف خطيباً ليلقي أول بيان له مبيناً لهمبأن القرشيين هم أصحاب هذا الأمر، وهم الأقرب إلى رسول الله، وهم أوائل المسلمين، ومع اعترافه بفضل الأنصار، ودعمهم لصاحب الرسالة، فإنه أصر على أن المهاجرين هم أصحاب الحق وحدد بوضوح سياسته، التي تقوم على

١-ابن سعد : الطبقات ١٨٢/٣، ابن كثير: السيرة٤٩٠/٤، ابن حجر : فتح الباري: ١٤/ ١٦٦،و٢٥/ ٣٠٢.

مبدأ الطاعة والتزام الشريعة، وطلب من المسلمين مساعدته في إحقاق الحق، وإنصاف المظلومين بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال:

"أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم...."[١].

وقال:"إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني"، وهدأ خواطر الأنصار بقوله: " ليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء " وكلمة الأمراء لا تعني منصبًا إداريًا، إنما تعني مركزًا استشاريًا، فلا يقضى أمر بمعزل عنهم، وقد ترتب على مؤتمر السقيفة عدة نتائج، أثرت في تطور التاريخ الإسلامي بعد ذلك، وتمثلت في:

١- أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار.

٢- اعتماد مبدأ الشورى في اختيار الخليفة مع العلم أنها لم تطبق على شاكلة واحدة، وإنما بحسب ما فرضته الظروف، وتغير الأمر بعد الخلفاء الراشدين ليصبح وراثيًا ضمن منطق ولاية العهد.

٣ - الانتخاب بحسب مواصفات يرضى عنها المسلمون كالسابقة في الإسلام، والقدرة على تحمل المسؤولية، وما يتبعها من مواصفات خاصة من حيث

١- ابن كثير : السيرة ٤/ ٤٩٣.

الفضائل التي يتسم بها من يرشح لهذا المنصب، فهو زعيم ديني ودنيوي أيضًا.

٤ – اعتماد مبدأ المبايعة، أي أن يصافح (ابسط يدك لنبايعك)، يعني إبرام العقد بين الحاكم والمحكوم.

٥ – بداية نشوء الأحزاب في المجتمع الإسلامي.

أبو بكر الصديق ١١- 13هـ / ٦٣٢- ٦٣٤م

التعريف بأبي بكر الصديق:

أبو بكر الصِّديق هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي، ولَقَبه أبو بكر، وأمه سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ولَقّبه النبي محمد ﷺ كذلك بعتيق، إذ قال له النبيّ ﷺ (أنت عتيق الله من النار) أمّا لقبه الصِّديق فقد لُقّب به، لأنّه كان يُصدِّق النبي ﷺ في كل شيء.

ولد أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه بعد عام الفيل، وقد عاش في كنف والديه عزيز النفس وطيّب الخلق، وكان من وجهاء قريش وأشرافهم، وكان رضي الله عنه عالماً بالأنساب، ولم يكن يعيب الأنساب مما قرّبه من قلوب العرب.

عمل بالتجارة، ودخل بصرى من أرض الشام للتجارة، وفي الوقت نفسه كان سخيّاً وكريم النفس، فكانت القلوب تحبه وتألفه إذ كان حسن المجالسة، لم يشرب أبو بكر رضي الله عنه الخمر قط، ولم يسجد لصنمٍ مطلقاً.

وهو أوّل من آمن بالنبي ﷺ من الرِّجال، فقد كان يعرِف النبي قبل الإسلام، ويعرِف أخلاقه وصِفاته، لذلك عندما دعاه النبي للإيمان لم يتأخر أو يتلعثم وعاهد النبي على النصرة.

ساعد أبو بكر الصِّدِيق نبي الله على تطبيق دعوته، فكان نموذجاً حياً في تطبيق الدين الإسلامي ودعوة الناس إلى الإسلام، وقد أسلم على يديه كثير من الصِّحابة أمثال الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وكان يتّصف بالجرأة والشجاعة والصلابة، وعمق الإيمان،الأمر الذي جعله يدافع عن النبي ﷺ بكل جرأة.

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

كان على أبي بكر الصديق-رضى الله عنه- أن يواجه عدة أمور يمكن إجمالها بالتالي:

بالعودة قليلاً إلى الوراء كان الإسلام فى عهد النبي قد بدأ ينتشر بعد السنة السادسة للهجرة، وبعد هزيمة هوازن وثقيف، بدأت الوفود تَرِد إلى الرسول معلنةً إسلامها، وكان ذلك فى العام التاسع للهجرة كما سلف القول، لقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وقلَّ عدد المشركين الذين يعبدون الأصنام، وطهرت الجزيرة العربية من الشرك، لكن بعض الذين دخلوا فى الإسلام كان منهم أناس ضعاف الإيمان، ولم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم، وقد دخله بعضهم طمعًا فى الأراضى والأموال..

وكانت وفاة الرسول فرصةً لهؤلاء الناس لكي يُظهروا ما أخفوه خلال الحقبة الماضية، ولكي يعلنوا ردتهم عن الدين الحنيف، فماذا يفعل الصديق، والخلافة في أول عهدها ؟!

كانت هناك جماعات منعت الزكاة، وأخرى ارتدت عن الدين، بل ادعى بعض الزعماء القبليين النبوة، وليس هذا فقط بل كان عليه أن يؤمِّن حدود الدولة الإسلامية ضد الأعداء الخارجيين، وكان الرسول ﷺ قد أعدَّ لذلك جيشًا بقيادة أسامة بن زيد، ولكنه مات قبل أن يبرح الجيش المدينة، وظل أسامة بجيشه على حدود المدينة ينتظر الأوامر.

وراح الجميع يفكرون فى مواجهة أعداء الأمة الإسلامية الوليدة، وكان رأي بعض المسلمين أن توجه كل الجهود إلى محاربة المرتدين، وأن يؤجل إنفاذ جيش أسامة لمحاربة الروم إلى ما بعد القضاء على المرتدين، وأن يتفرغ أبو بكر لذلك، ولكن أبا بكر وقف شامخًا راسخًا، يؤكد العزم على قتالهم جميعًا فى كل الجبهات، قائلاً لمانعى الزكاة: "والله لو منعوني عِقَال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه "[١]، وقد أصر أن يتم بعث أسامة قائلاً: "والله لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر الرسول".

-حروب الردة ١١-١٢ هـ /٦٣٢-٦٣٣ م:

الردة لغوياً التحول والرجوع [٢]، وهو مصطلح أُطلق على من خرجوا على حكومة أبي بكر، ورفضوا الإذعان لها، لا بل قبل وفاة النبي ﷺ، فهل هي ردة عن الإسلام، ونكوصٌ عنه، أم هو تمرد على السيادة المركزية، وعدم القبول فيما بعد بأبي بكر قائداً خليفة للنبي ﷺ ؟

تباينت ردود أفعال القبائل العربية بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد رأى بعضهم أن استئثار قريش بالسلطة غير صحيح، وارأى بعضهم الآخر رأى أنه غير ملزم بطاعة أصحاب النظام الجديد فهم أسلموا والتزموا طاعة النبي الكريم، وهذا لا ينسحب على غيره .

وهناك الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، وحاولوا العودة إلىمعتقداتهم قبل الإسلام، إضافة إلى دور المتنبئين الذين ادَعوا النبوة أمثال: مسيلمة الكذاب، صاحب بني حنيفة، والكاهنة سجاح في العراق، والأسود العنسي في اليمن، وطليحة ابن عبيد الله في الحجاز، هؤلاء ظهرت نبوءتهم

---

١ -البلاذري: فتوح البلدان ص١٠٣.

٢ -ابن منظور : لسان العرب ١٦٢١/٣.

من خلفية قبلية، ومطامح شخصية، أما سجاح فكانت راهبة في أعالي بلاد الرافدين، ويحتمل أنها أرسلت من طرف بيزنطة.

ومن المعروف أن كلاً من مسيلمة، والأسود العنسي، وطليحة كانوا قبل الإسلام يتصفون بالكهانة، وكانوا يتنبؤون[١] فقدكان العرب يعتقدون أن الكاهن ملهم في نظرهم، يتلقى إلهامه من تابع أو رئي يلقي إليه الغيب[٢]، مع العلم أنهم لم يكن لديهم ما يدفعهم إلى الظهور قبل الإسلام، لأن كل قبيلة كانت لا تخلو من كاهن أوأكثر فلا جديد لديهم، فلما ظهر محمد ﷺ دبت روح المنافسة في قلوب الكهان، ودفعتهم قبائلهم إلى البروز ومنافسة قبيلة قريش.

وهناك بعض القبائل التي كانت ترى في نفسها ندًا لقريش أمثال بني تميم، فاقترحوا أن يطبقوا أركان الإسلام ما عدا الزكاة فإنهم يوزعونها في قبائلهم لأنها في رأيهم إذا دفعوها إلى قريش تعد أتاوة وهم لن يقبلوا بذلك.

ومهما يكن من أمر فقد وجد الخليفة نفسه في موقف بالغ التعقيد، فإذا قبل بما هو قائم فسينفرط عقد الإسلام، وإذا لجأ إلى استخدام القوة فهناك نتائج سلبية ستترك أثرها فيما بعد، ومع ذلك لابد من قرار للحفاظ على الإسلام والدولة العربية الإسلامية الجديدة، فالإسلام- كما هو معروف- أول من وحد العرب في دولة واحدة، لها قوانينها ونظمها، ويرى علماء الاجتماع أنه أعظم إنجاز للإسلام على الصعيد الاجتماعي.

وقد كان اختيار الخليفة للمحافظة على ما قام به الرسول ﷺ وما جاهد من أجله، لذا قرر إخضاع مختلف القبائل لسلطة القانون، والنظام، وقد صرح

---

١ -المقدسي : البدء والتاريخ٥/١٥٤-١٦٢، الطبري : تاريخ الرسل والملوك٣/١٨٥، الهمداني الإكليل٢/١٦١.

٢ -علي: تاريخ العرب في الإسلام ص١٥٦.

بذلك بكل وضوح عندما قال: " والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول لقاتلتهم عليه".

وتذكر المصادر أن بعض العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ والواقع أن ارتداد بعضهم حدث أيام الرسول، كارتداد عبد الله بن سعد بن أبي سرح (كاتب الوحي) وعبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة، وعبد الله بن ختل[١]، وكذلك طليحة، ومسيلمة، والأسود العنسي.

وهناك من يذكر أسبابًا عديدة لموقف القبائل أو لحروب الردة يمكن عرضها فيما يلي:

من الأسباب المؤدية للردة:

١- تعلق العرب بشخصية الرسول، خاصة أن أحكامه وتشريعاته من وحي الله، فشخصية الرسول، وصفاته، لا يتصف بها أي كائن بشري آخر، الأمر الذي جعل قضية الخضوع والطاعة لأبي بكر، ولحكومة المدينة أمرًا صعباً، فالعرب ارتبطوا بسيد المدينة محمد، وبالقرآن الكريم، فضلاً عن أن قصر حكم الرسول في المدينة لم يعط الفرصة لتجذر الإسلام في حياة البداة.

٢ – العصبية القبلية ضد قريش، فقد اعتقدت بعض القبائل أن قريشاً إذا وليت الخلافة فسوف تجعلها ملكًا لها، وأن من يخلف الرسول فسوف يحكم على هواه، من أجل مصلحة قبيلته، فضلاً عن أن الخلافة سوف ترفع من شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة، وتنتقص من شأن القبائل الأخرى، أضف إلى ذلك أن البدوي بطبيعته يرفض الخضوع للنظام المركزي، فقد اعتاد على الحرية، وهذا النظام السياسي المركزي الذي أوجده الرسول ﷺ في المدينة وما تبعه من تشريعات اجتماعية، حرم البدوي من أهوائه ومن انفعالات الحياة

١ – العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى ١٧٢/١.

التي اعتاد عليها بعدم الانضباط، لذلك تذمرت بعض القبائل العربية من السلطة المركزية وكانت في الوقت نفسه تمقت الغريب[1].

٣ – احتجت بعض القبائل على نظام الزكاة، وعدَوا أن الزكاة التي كانوا يؤدونها للرسول سقطت بوفاته، فقاموا بتفسير آيات القرآن وفق ميولهم، لتسويغ منع الزكاة.

٤ – عدم تمكن الإسلام من قلوب بعض أبناء القبائل، فقد كان إسلام معظم البدو والأعراب ظاهريًا، ولم تترسخ في نفوسهم تعاليم الدين، بدليل قوله سبحانه: { **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** }[2].

وأدت كل هذه الأسباب إلى ارتداد معظم القبائل العربية في نجد والأطراف، فأخذ أبو بكر الصديق على عاتقه إخضاع أهل الردة، رافضًا الصلح، أو الهدنة، لأن أي تهاون معناه هدم ركن من أركان الإسلام، وعقد أحد عشر لواءً [3]، وأمر كل جندي باستنفار من مرَ به من المسلمين التابعين من أهل القرى التي يمر بها، فقام خالد بن الوليد بمحاربة طليحة بن خويلد في بزاخة، ومالك بن نويرة بالبطاح، وسجاح، ومسيلمة.

وحارب عكرمة بن أبي جهل مسيلمة في اليمامة، ولقيطاً بن مالك الأزدي في دبا، وسبى ذراري الأزد ونساءهم، ومن بينهم قبيلة المهلب بن أبي صفرة التي أرسلت إلى المدينة، فطالب عمر بقتلهم، ولكن أبا بكر رفض، وفيما بعد قام المهالبة بدور كبير في القضاء على الخوارج[4].

---

١ – بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية ، ص ٨٣.

٢ –سورة الحجرات: الاية ١٤.

٣–الواقدي: الردة ص ٤٠ وما بعدها، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٤٨.–٢٤٩، ابن كثير: البداية والنهاية ٣١٩/٦، الكلاعي : تاريخ الردة ص٢٤–٢٩.

٤ –الشامي: تاريخ المهالبة ص٣٤.

أما القائد شرحبيل بن حسنة، فقد سيره الخليفة إلى اليمامة، وسار العلاء بن الحضرمي إلى البحرين واليمن لقتال الأسود العنسي، والأشعث بن قيس في حضرموت [١].

وفي أقل من سنة استطاع أبو بكر الصديق القضاء على الفتنة، والسبب في ذلك لا يتعلق فقط بأن القبائل لم تتحد، فسهل ذلك القضاء على حركتها وارتدادها، بل يتعلق بامتلاك المدينة قادة عباقرة وجنداً لم تعرف شبه الجزيرة مثلهم في الحنكة والتدريب،، الأمر الذي أعاد القبائل إلى نور الإسلام، وإلى هديه ونظامه، وبذلك عادت الوحدة السياسية والدينية إلى الدولة العربية الإسلامية الفتية، وأصبح العرب المسلمون يسيرون وراء زعيم واحد، وانتصر أبو بكر على الفوضى القبلية، فتدفق التيار الإسلامي خارج الجزيرة العربية لتكوين دولة عربية إسلامية لصالح البشرية جمعاء، ولسعادة بني البشر وتحررهم.

بعد كل هذا أجال أبو بكر نظره في شبه الجزيرة العربية كلها، ففاضت عيناه بالدموع فرحاً على النصر الذي عزه الله به، وأصبحت المدينة المنتصرة صاحبة السلطان على ربوع العرب كلهم.

---

٥ – ابن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ٧٨/١.



حروب الردة

- بعثة أسامة بن زيد ربيع الآخر ١١ هـ /٦٣٢ م:

على الرغم من الاضطرابات التي قامت في قلب الجزيرة العربية عقب وفاة الرسول ﷺ، حرص أبو بكر على أن يسير جيش أسامة بن زيد، الذي كان الرسول قد جهزه وأراد أن يرسله إلى بلاد الشام، ويبدو أن الرسول قصد من وراء تجهيز هذا الجيش وإرساله أن يظهر قوته أمام القبائل العربية من جهة، واختبار إمكانية نشر الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية من جهة أخرى، ولعل في اختيار أسامة لقيادة هذا البعث وفاء لذكرى أبيه زيد بن حارثة الذي قاد بعث مؤتة، وسقط وهو يحمل الراية في أرض كان يسيطر عليها البيزنطيون.

ولكن لم يكد أسامة يتجهز للخروج حتى بدأ الرسول شكاته، وثقل عليه المرض، وأسامة بالجرف قرب المدينة، وما لبث الرسول الكريم أن انتقل إلى

جوار ربه، وطبيعي أن يتريث أسامة، وأن ينتظر ما ستتمخض عنه الأمور[١].

ولما بويع أبو بكر الصديق طلب من أسامة أن يتجهز لمتابعة المهمة التي أوكلت إليه من الرسول ﷺ، إذ إن وفاته لم تمنع الجيش من متابعة مهمته بل استمر في تنفيذها، فالدعوة لم يكن ارتباطها بشخص النبي فقط، بل ارتبطت بكل الأمة، وسيتم نشرها كما خطط لها الرسول، وقد أراد أبو بكر من هذا الموقف تنفيذ أوامر الرسول التي استوعبها استيعاباً عميقاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان الهدف يتمثل بمشيئته من أن يسيء الروم الظن بالدولة العربية الإسلامية بعد انتصاراتهم على الفرس، فيقتحمون حدودها، ويدنسون أرضها.

ومن هنا كان حرصه على إنفاذه ليكون ذلك دليلاً ماديًا على أن الإسلام ما زال قويًا، وأن حالة المسلمين بعد وفاة نبيهم لا تختلف عن حالتهم قبل وفاته، وأنهم لم يتزعزعوا من هول المصاب بل هم على استعدادل أن يؤدبوا كل متمرد على تعاليم الإسلام[٢].

وانطلق أسامة، ثم عاد، بعد أن حققت الغزوة أهدافها، ونجح الجيش في تحقيق النصر، وزادت هيبة الدولةالعربية الإسلامية، وارتفعت المعنويات، ومهدت لبداية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة في خارج حدود الجزيرة، وهذا الأمر ستتم مناقشته في فصل منفرد.

١- الواقدي: المغازي ١١١٨/٣، ابن سعد : الطبقات ٢/ ١٤٥.

٢- العقاد : العبقريات، ص ٣١٦.



-جمع المصحف:

استشهد كثير من حفظة القرآن وقرائه فى حروب الردة، وهنا أشار عمر - رضى الله عنه- على أبي بكر الصديق بضرورة جمع القرآن الكريم، حيث كان مكتوبًا على سعف النخيل، وقطع الجلد، وألواح عظام الإبل، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت ومن معه من أصحابه بتولي هذه المهمة العظيمة، هذا ماكان متداولاً بالرواية حتى الآن، ولكن اكتشاف نسخة في دمشق كاملة بخط الصحابي الجليل أُبي بن كعب، وعلى كل صفحة خاتم النبي ﷺ، وتاريخ النسخة السنة الحادية عشرة للهجرة، يفيد التطابق مع قوله تعالى: { اليومَ أكملتُ لكمْ دينُكمْ}[1]، ومع إعادة النظر بقضية التأريخ بالهجرة، ويمكن فهم المسألة هنا أنها تعلقت بالتلاوة، لا بالرسم الكتابي، فالتلاوة حتى الآن هي الأساس، وجاء هذا الاكتشاف تأييداً لاكتشاف مصاحف صنعاء، فالنبي ﷺ لم يفرط ولم يتهاون بأمر من الأمور، ولعله ولعل نسخاً فردية غير معتمدة قد

١ - سورة المائدة : الآية ٣.

توفرت آنذاك، فقرر فيما بعد الخليفة عثمان بن عفان بعدم الاعتراف بها باستثناء النسخة الأصيلة التي كانت في عهدة حفصة بنت عمر، أم المؤمنين، ونصَ القرآن الكريم هو الأول، والأخير بين نصوص رسائل الأنبياء وهو الذي تعهد الله بحفظه، فبقي واحداً ولسوف يبقى كذلك إلى أبد الآبدين.

-موت الخليفة (١٣ هـ/ ٦٣٥ م):

بعد سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام من استلام أبي بكر الصديق للحكم، مرض ولازمه المرض طيلة شهر، وبعد ذلك، لقي ربه راضيًا مرضيًّا، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى وله من العمر ثلاثة وستون عامًا.

وكان آخر ما تكلم به " تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "[١] ولم يترك ثروة مادية، وإنما ترك ذكرى طيبة، وحسبه أنه جمع المسلمين، ووحّد كلمتهم، وأمَّن حدود الدولة، ولقَّن الأعداء درسًا لا يُنسى، وتولى تنفيذ مشروع الفتوحات الكبرى، المشروع الذي أكمله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

عمر بن الخطاب13- 23هـ/ ٦٣٤- ٦٤٣م

كان عمر رضي الله عنه قريبًا من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يعاونه ويؤازره، ويمده بالرأي والمشورة، فهو الصاحب وهو المشير، وإذا كان أبو بكر ثاني اثنين، فعمر كان ثالث اثنين بعد النبي وأبي بكر.

وعندما مرض أبو بكر راح يفكر فيمن يعهد إليه بأمر المسلمين، هناك العشرة المبشرون بالجنة، الذين مات الرسول وهو عنهم راضٍ.

وهناك أهل بدر، وكلهم أخيار أبرار، فمن ذلك الذى يختاره للخلافة من بعده ؟ إن الظروف التي تمر بها البلاد لا تسمح بالفرقة والشقاق، فهناك على

١ -سورة يوسف : الآية ١٠١

الحدود تدور معارك رهيبة بين المسلمين والفرس، وبين المسلمين والروم، والجيوش فى ميدان القتال تحتاج إلى مدد وعون متصل من عاصمة الخلافة، ولا يكون ذلك إلا فى جو من الاستقرار.

وكانت الجيوش فى أمسِّ الحاجة إلى التأييد بالرأي والشرعية، والإمداد بالسلاح، والعون بالمال والرجال، والموت يقترب، ولا وقت للانتظار، فاستشار أبو بكر كبار الصحابة ثم عهد بالخلافة لعمر بن الخطاب .

- نسبه وصفاته وإسلامه :

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى بن هشام بن المغيرة، ولد في السنة الثالثة عشر من ميلاد الرسول، أسلم في العام الخامس من الهجرة، وعمره سبع وعشرون سنة، وكان إسلامه بعد أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأةً أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معادياً شديد العداوة للإسلام، لكن شرح الله صدره للإسلام، استجابة لدعوة النبي ﷺ له، فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: " اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب"[1]، فكان إسلامه نصراً كبيراً للمسلمين، فرح به جميع المسلمين، وكان أكثرهم فرحاً الرسول ﷺ وهذه الدعوة لم تكن ناشئة من العدم، إنما من معرفة دقيقة بخصائص هذا الرجل.

امتلك عمر بن الخطاب شخصيةً قويةً، وإرادةً وحزماً، وهيبةً وعزماً، إضافة إلى علم وعقل وحسن تصرف ورجولة، لذا كان سفير قريش قبل الإسلام.

١-السيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٠٩، في رواية أخرى: " اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين" والمقصود عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام بن المغيرة، الملقب بأبي جهل، فكانت الاستجابة من نصيب عمر بن الخطاب (ر).

عمل في بداية حياته بالرعي، ثم اشتغل بالتجارة، التي امتدت إلى بلاد الشام واليمن، وكان يحرص على مقابلة الحكام والأمراء هناك، ليزداد علماً وخبرةً بالحياة، وكان يحسن القراءة والكتابة.

وكان قوي البنية، طويل القامة، جهوري الصوت، قليل الضحك، يضاف إلى هذه الصفات الجسدية صفاتٌ أخلاقية كالإحساس بالمسؤولية، والشدة والفراسة والعدل والهيبة، والغيرة على العرض والشرف.

احتل منذ أسلم المكانة التالية لمكانة أبي بكر الصديق عند النبي ﷺ لصفاته العالية، المذكورة آنفاً، وهي الصفات التي جعلت عباس العقاد يقول:" ومن تحصيل الحاصل أن نقول: إنَ محمداً ﷺ قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر، وكل خليقة من خلائق طباعه، وراقبه قبل إسلامه، وبعد إسلامه، فلم تفته كبيرةً ولا صغيرةً من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئاً كما حمد حبه للحق، وكراهته للباطل"(١).

ولشفافيته وإخلاصه لدينه، كان عندما يدلي برأيه ينزل القرآن مؤيداً له، وقد عدد العلماء عشرين موقفاً من هذا القبيل، منها موقفه من أسرى بدر، وتحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبي ﷺ...إلخ(٢).

-خلافته:

رشح أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب لتولي منصب الخلافة على أساس من أهليته ومناقبه، وكان قد أظهر منذ زمن الرسول ﷺ وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، اهتماماً كبيراً بشؤون الحكم وكان واسع النفوذ زمن خلافة أبي بكر الصديق لدرجة جعلت طلحة بن عبيد الله يحتج على تدخل عمر في أمور الحكم قائلاً: "أأنت الأمير أم عمر؟ " فأجابه أبو بكر : " عمر،

١- عبقرية عمر ص١٩٤.

٢- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١١٧.

غير أن الطاعة لي" فسكت طلحة[١]، الأمر الذي أهله ليكون المرشح القوي لتسلم المنصب بعد الخليفة الأول.

ولم يكن استخلاف عمر مخالفة للتقاليد العربية، أو لما يفرضه نظام الإسلام في الحكم، فمركزه القوي، ونفوذه وإخلاصه في خدمة دولة الإسلام منذ قيامها زمن الرسول ﷺ جعلت أبا بكر الصديق رضي الله عنه حرصاً منه على المسلمين من الفرقة، يفعل ذلك.

أضف إلى ذلك أن عمر كان أسن من علي، لأن عمر ولد عام ٤٠ ق.هـ، وولد علي سنة ٢٣ ق.هـ، مع العلم أنه كان للسن شأنٌ، وما زال عند العرب، وغير العرب في ولاية رئاسة الدولة، ومع ذلك، لم يستأثر أبو بكر برأيه، ولم يفرض عمر فرضًا، وإنما شاور كبار الصحابة[٢]. ففتح بعمله هذا باب الاجتهاد، لقد أراد أبو بكر رجلاً شديدًا من غير عنف وليناً من غير ضعف، فوجد هذه الصفة متوافرة في عمر، وعلي، ولكن وجد في علي شدةً تغلب على اللين، بعكس عمر الذي يشتد، ثم يدور ليصل إلى مبتغاه.

وقد أمر وهو على فراش الموت عثمان بن عفان بكتابة عهده لعمر بن الخطاب، وطلب منه أن يقرأ الكتاب على الأمة، فقرأه على الناس، فأقروا بذلك جميعًا، وبايعوا، فالمبايعة جاءت على شكل توصيةٍ خاضعةٍ لموافقة الأمة، فأبو بكر في الحقيقة لم يكن يوصي بفرد، بمقدار ما كان يوصي باستمرار منصب الخلافة على النهج الذي أخذ به.

إن بوصية أبي بكر، يمكننا القول إن ذلك كان بداية تحول في الفكر السياسي لدى العرب، وفي استعداداتهم، وسيتطور هذا التحول مع الأيام إلى درجة القبول بفكرة الملكية الوراثية.

---

١ – الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٧٥.

٢–خماش وعاقل : الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٩٥.

تم استخلاف عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٨ جمادى الآخرة ١٣هـ /٦٣٤ م، فقام بالأمر خير قيام وأتمه، وكان أول من لقب أمير المؤمنين.

-سياسة عمر:

يعد عمر بن الخطاب المنفذ لفكرة الدولة العربية الإسلامية التي بدأ بإرساء قواعدها الرسول ﷺ من خلال الصحيفة وحافظ على أسسها أبو بكر الصديق بقضائه على الردة.، وبشروعه بالفتوحات.

ولكن في أثناء حكم عمر تابع الإسلام انطلاقه خارج شبه الجزيرة، فاحتك بدول عظمى ذات أنظمة، وعراقة في القوانين والحكم، والإدارة، فوضع تشريعات، وأنظمة تتواءم مع تعاليم الإسلام، والصالح من النظم السائدة لدى الدول المغلوبة، يساعده في سلطته الدينية، والسياسية المطلقة مجلسٌ استشاري كان يضم أهل الشورى، ويعقد جلساته في مسجد الرسول ﷺ ويساعدهم أعيان المدينة، وزعماء البدو، وكان للحاضرين في المسجد حق إبداء الرأي، وسيشكل ذلك تقليدًا معروفًا منذ أيام الرسول ﷺ وسيشابه تقريبًا ما يسمى بالملأ في عصر قبل الإسلام، وهو لم يتخذ قصراً ولا حراسة، بل احتفظ بالمسجد مقراً لجميع النشاطات .

من هذا المنطلق، وضع عمر تشريعاته السياسية، وتنظيم دولته الفتية تنظيمًا لم يعهده العرب من قبل ومن بين إنجازاته:

١- إنشاؤه للدواوين، فقد أدرك سيّدنا عمر رضي الله عنه أنّ الدّولة الإسلاميّة المتسعة باستمرار تحتاج إلى تنظيم، فقام بإنشاء الدّواوين التي تشبه الوزارات في عصرنا الحاضر، ومن بين تلك الدّواوين ديوان الجند الذي كان يُعنى بشؤون الجند ورواتبهم، وديوان الخراج الّذي كان يُنظّم جمع الأموال من أصحاب الأراضي، وديوان العطاء الّذي كان يهتم بشؤون توزيع الأموال على

المستحقين من النّاس، ورتب البريد كييصل بصورة منتظمة إلى الأمكنة التي يريد أن يصل إليها، وسنعود لتفصيل ذلك في فصل لاحق.

٢ –إنشاء بيت مال المسلمين الّذي كانت مهمّته جمع المال المستحق للدّولة الإسلاميّة، لكي يصرف في وجوه الإنفاق الشرعية، وتنظيم البريد الموجّه إلى الولايات الإسلاميّة.

٣–تنظيم أمور القضاء الإسلامي، فقد أدرك عمر بن الخطّاب أهميّة القضاء في الإسلام وضرورة أن يكون منظّمًا محكومًا بضوابط وشروط، فقد عيّن على الأقاليم القضاة وفق شروطٍ معيّنة، يفصلون بين الناس، مستقلين عن الولاة والعمال، وأجرى لهم رواتب محدّدة تكفيهم، ومنعهم من التّجارة الخاصّة حتّى لا ينشغلوا عن القضاء، كما وضع سيّدنا عمر رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أسس القضاء السّليمة ومبادئه، ومن بينها المساواة بين النّاس، والابتعاد عن الهوى، وتطبيق قاعدة البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر[1]، وغير ذلك من القواعد التي تضمن وجود قضاء نزيه يرتضيه المسلمون في شؤون دينهم ودنياهم.

٤–إنشاء المدن، وتمصير الأمصار فبعد أن فتحت البلاد في المشرق والمغرب في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قام بإنشاء المدن وتنظيمها ومن بينها مدينتي الكوفة والبصرة في العراق، ومدينتا الفسطاط والجيزة في مصر، وعزل الجنود المسلمين في معسكرات خاصة، ونتيجة ذلك تكوَن من الفاتحين المسلمين حاميات عسكرية، أكملت الفتوحات، وانشغل بعضها بالمشاكل السياسية والعصبيات، والفتن الداخلية.

---

١ –ابن رجب الحنبلي، (زين الدين عبد الرحمن بن احمد): جامع العلوم والحكم، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، ٢٣٠/٢

٥-هو أول من عسعس فى الليل بنفسه، ولم يفعلها حاكم قبل عمر، ولا نعلم أحداً عملها بانتظام بعد عمر.

٦-أول من أحصى أموال عماله، وقواده، وولاته، وطالبهم بكشف حساب أموالهم، عندما كان يسألهم، من أين لك هذا ؟، إضافة إلى أنه عقد مؤتمرات سنوية للقاده والولاة لمحاسبتهم، وذلك فى موسم الحج حتى يكونوا فى أعلى حالتهم الإيمانيه فيطمئن على عبادتهم وأخبارهم وسلوكهم.

٧-أول من أتخذ الدرة (عصا صغيرة) و أدب بها.. حتى إنَ الصحابة قالوا: و الله لدرة عمر أعظم من أسيافكم، وأشد هيبة فى قلوب الناس .

٨-أول من مصر الأمصار، و مسح الأراضي وحدد مساحاتها، وحمى الحمى.

٩-أول من مهد الطرق ومنها كلمته الشهيرة: لو عثرت بغله في العراق لسألنى الله تعالى عنها: لمَ لم تمهد لها الطريق يا عمر.

١٠ -كون جيشًا لحماية الحدود، ونظم له مرتبات ثابتـــة ليكفل حماية الدولة، وأقام المعسكرات الحربية الدائمة فى الجابية، وفلسطين، والأردن، وأمر بالتجنيد الإجباري للشباب والقادرين، وحرس الحدود بالجند، وحدد مدة (التجمير)، غياب الجنود عن زوجاتهم أربعة أشهر كحد أقصى، وأول من أقام قوات احتياطية نظامية، جمع لها ثلاثين ألف فرس، وأمر قواده بموافاته بتقارير مفصلة مكتوبة بأحوال الرعية من الجيش، أضف إلى ذلك أنه أمر الأطباء، والمترجمين، والقضاة، والمرشدين بمرافقة الجيش، وأنشأ مخازن للأغذية للجيش، وترك للجيش خمس الغنائم، وأمر أن تستأثر الدولة بالفيء من الأراضي التي تركت لأصحابها، نظير الأتاوة، ولقد رأى المحاربون أن يشتركوا في الفيء، ولكن صوتهم لم يرتفع في أثناء حكمه، وبعد انتهاء حكمه تذمروا وثاروا.

١١ -أنشأ نظام الحسبة.

١٢ -اعتمد التاريخ الهجري، وبالإجمال فقد استحدث للدولة العربية الإسلامية نظامًا إداريًا، وماليًا وقضائيًا، يؤمن سير العلاقات بين أفرادها سيرًا حسنًا.

ومن اهتماماته :

١-أول من أخذ الجزية من أهل الكتاب على حسب المستوى المعيشي، وأسقط الجزية عن الفقراء والعجزة من أهل الكتاب، وأعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين، ومنع هدم كنائس المسيحيين، وعلة ذلك أن العديد منهم، أخذوا يعتنقون الإسلام تهربًا من دفع المال، لا اقتناعًا وقناعة بالدين الجديد، وقد أدى ذلك إلى خطر حقيقي على الصعيد المالي والاقتصادي، فلجأ عمر إلى هذا التدبير.

٢- أول من ضرب الدراهم، وقدر وزنها، وأول من أخذ زكاة الخيل، وأول من جعل نفقة اللقيط من بيت المال، و أقرض الفائض من بيت المال للتجارة.

٣-التوسّع في الفتوحات الإسلاميّة لنشر الإسلام، فقد بقي حلم انتشار الإسلام في ربوع المعمورة يراود عقل سيّدنا عمر وتفكيّره، ويستحوذ على اهتماماته، وقد فتحت في عهده كثيرٌ من البلدان منها: بلاد الشام، والعراق، وبلاد فارس، ومصر، والمغرب الأدنى، وأما فتحه للقدس فسنعود لذكره في فصل لاحق.

وبالإجمال: لقد حمل عمر نفسه من المسؤولية ما جعله يهتم بكل صغيرة وكبيرة في أمور المسلمين، يتفقد رعيته، ويدرس أمورهم، يداري أشجانهم، ويقضي حوائجهم بما أوتي من طول أناة وفكر ثاقب، وقد وطن نفسه إن أمد الله بعمره أن يجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعًا يسوده الأمن والعدالة الاجتماعية، وترفرف عليه أجنحة السعادة.

-وفاته:

لم تطل حياة عمر بن الخطاب حتى يحقق غايته، فتشدده في تنفيذ تعاليم الإسلام، والتزامهبفكرة الدولة، والقانون أدت إلى ازدياد الناقمين عليه بسبب ضربه لمصالحهم التجارية، ونزعاتهم الفردية، وتراثهم القبلي بصرف النظر عن انتمائهم لقريش أو غيرها من بطون القبائل العربية، وتعاطفه في العطاء مع الطبقات الوسطى، والفقيرة بقوله :لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ، كمن قاتل معه، ولكن الذي عجل باغتياله المجوس الذين أزال إمبراطوريتهم متعاونين مع يهود وصليبيين وسواهم، ففي أواخر ٢٣هـ / ٦٤٣ م، طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ولما تجمع الناس لاعتقاله، طعن منهم إثني عشر رجلاً، توفي ستة منهم، ثم انتحر بطعنة من خنجره، وقيل عن هذا القاتل إنه كان مجوسياً، وقيل كان مسيحياً، واتهم بأنه تآمر مع كعب الأحبار، ومع الهرمزان المجوسي.

عثمان بن عفان 35 - 23هـ/ ٦٤٣- ٦٥٥م

-نسبه ونشأته وأهم أعماله:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الأموي، ولد بالطائف في السنة السادسة من عام الفيل، أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو يلتقي في نسبه من جهة أبيه وأمه مع النبي ﷺ في عبد مناف، مات أبوه في إحدى سفراته بالتجارة لبلاد الشام، وخلف له مالاً نامياً، يضرب به في التجارة كما كان يصنع أبوه وأشراف قومه، فازدادت نعمة الله عنده، وكثر

ماله، واتسع ثراؤه، فأحسن إلى قومه، وأغدق عليهم عطاءه، فأحبوه حباً ضربوا به المثل[١].

كان عثمان رضي الله عنه الرابع ممن أسلموا، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، وهو أحد العشرة الأوائل الذين دخلوا في الإِسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وإسلام عثمان كان بدعوة من أبي بكر الصديق- رضي اللّه عنه- فقد كان أبــو بكــر الصديق يدعو إلى الإِسلام من يَثِقُ به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه فأسلم على يديه: الــزبــير بن العــوام، وعثــمان بن عفان، وطلحــة بن عبيــد اللّه، وسعــد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف - رضي اللّه عنهم- فانــطلقــوا إلى رسول اللّه ﷺ ومعهم أبو بكر فعرض عليهم الإِسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإِسلام فآمنوا، وقد كان لإسلامه قيمة وأهمية خاصة، لأن أغلب رجالات قومه من بني أمية عادوا الرسول والإسلام عداءً سافراً، وهونفسه قد تعرض لضغط شديد منهم ليرجع عن دينه، لكنه قاوم الضغوط، وتحمل الأذى، وحرص على إسلامه أشد الحرص، فتوثقت بينه وبين المؤمنين عرى المحبة وأخوة الإيمان، وزادها توثيقاً أنه أصهر إلى رسول الله ﷺ فتزوج من ابنته رقية رضي الله عنها التي توفيت يوم انتصار المسلمين في غزوة بدر، ثم زوَجه رسول الله ﷺ من أختها أم كلثوم رضي الله عنها ولهذا لقب بذي النورين[٢]، ولما توفيت في العام التاسع للهجرة حزن حزناً شديداً لانقطاع مصاهرته للرسول، ولكن الرسول واساه مواساةً جميلةً، تدل على رقة مشاعره وسمو ذوقه، فقد قال

١- عرجون: عثمان بن عفان ص٤٦.

٢- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٥٠ وما بعد.

له:" لو كانت لنا أخرى لزوجناكها يا عثمان" ويروى أنه ﷺ قال:"زوجوا عثمان: لو كان لي ثالثة، وما زوجته إلا بالوحي من الله"[١].

وفي السنة السادسة للهجرة بعثه رسول اللّه ﷺ إلى قريش مفاوضاً عنه وذلك عندما منعت قريش دخول رسول اللّه ﷺ مكة، وقد تقدم ذكر ذلك في صلح الحديبية.

ومن مآثره - رضي اللّه عنه - أنه حفر بئر رُومَة فعن النبي ﷺ قال: "من يحفر بئر رومة فله الجنة فحفرها عثمان- رضي اللّه عنه- وجعلها للمسلمين.

-خلافته:

لما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، ولكنه جعلها شورى بين ستة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، وقال: يحضركم عبد الله يعني ابنه، وليس له من الأمر شيء، بل يحضر ليشير بالنصح، ولم يأمر أحداً منهم أن يصلي بالمسلمين إماماً، لئلا يظن الناس أنه يميل إليه، بل أمر صهيباً الرومي أن يصلي بهم، لتكون فرصتهم متساوية في الاختيار[٢].

وكانت تعليماته المتعلقة باختيار أمير بعد وفاته مشددة فبعد مضي ثلاثة أيام بعد وفاته يجب أن يكون عليهم أمير من هؤلاء الستة، لأن الأمة في ذاك

١- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٥٣

٢-عبد اللطيف: تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة ص٤٦٥

الوقت كانت تواجه مشاكل لا حصر لها في البلاد المفتوحة، والسرعة في حسم هذه المسألة ضرورية.

لذلك لما فرغوا من الدفن شرعوا في التفاوض، وبعد سجالاتٍ طويلةٍ واختلافٍ في الرأي، عرض عبد الرحمن بن عوف فكرة الترشيح على ما جاء في كتاب الله وما قام به الرسول ﷺ وأصر علىإتباع ما قام به الخليفتان السابقان، ولم يقبل علي بهذا الشرط، أما عثمان فعندما عرض الأمر عليه وافق دون تحفظ على جميع الشروط، وبذلك تمت المبايعة له[١]، وبايعه المهاجرون والأنصار[٢].

وبعد تمام البيعة صعد منبر رسول الله ﷺ خطب فيهم، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، قال:" إنكم في دار قلعة[٣]، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بما مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة"[٤].

إن أول ما يلاحظ على الخطبة خلوها من الإشارة إلى المنهج الذي سيسير عليه في حكم الدولة الإسلامية، ولعله اكتفى بما قاله لعبد الرحمن بن عوف، لحظة البيعة، من أنه سيعمل بكتاب الله وسنة نبيه، وسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر.

---

١ – الشامي: تطور تاريخ العرب، ص ٣٣٣.

٢- السيوطي :تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠.

٣-أي دار رحلة- يقصد إنكم لستم مخلدون في الدنيا.

٤-الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٤٣/٤.

وكان عثمان قد بلغ السبعين من عمره، حين آلت إليه الخلافة، وكان سهلاً، ليناً، ولم يكن له حزم أبي بكر وعمر، تلك الصفة التي لابد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية، بعد عصر الفتوح، لذا فمصادرنا تقسم عهده إلى قسمين، أولهما ست سنوات كانت استمراراً لعهد عمر، وثانيهما ست سنوات أخرى متبدلة، شهدت تحولات سياسية واجتماعية خطيرة، لم ينجح في معالجتها، فكانت الفتنة الكبرى ومقتله.

وقد كتب في الأيام الأولى من خلافته عددا من الكتب إلى الولاة والعمال وأمراء الأجناد، وإلى عامة الناس، تتضمن نصائحه وإرشاداته لجميع رعيته، وحرصه على مصالحها[1]، وتوضيح للسياسة العامة التي سيتبعها عماله وولاته في إدارة شؤون الأمة، وهي سياسة طابعها الرفق بالرعية، والسهر على مصالحها، والإنصاف في جمع الخراج، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، والإحسان إلى أهل الذمة، ورعاية جميع طوائف الأمة، والوفاء حتى للأعداء.

-مصحف عثمان:

من الإنجازات التي تمت في عهد عثمان، وهي مدعاة للفخر، إلغاء النسخ الفردية من القرآن الكريم، واعتماد النسخة النبوية الموثقة، وإرسال نسخ عنها إلى الأمصار، فكان هذا إنجازاً على درجة عالية من الأهمية.

وللقرآن الكريم صورتان واضحتان، صورة صوتية مقروءة، وصورة مكتوبة مدونة، فقد حرص الرسول ﷺ على تدوين الآيات فور نزولها، وعندما انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكان قد تولى بنفسه ترتيب الآيات في السور، وهي السور ذاتها كما جاءت في المصحف، وقد بلغ عددها مئة وأربع عشرة سورة، وذلك على حسب العرضين الأخيرين له مع جبريل عليه السلام في السنة الأخيرة من حياته، وإلى هذا العرض تعود النسخة التي أشرنا إليها من قبل،

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٤٥/٤.

أما الصورة الصوتية فتتضح في تلقي القرآن مشافهةً من الرسول، إذ حفظ الصحابة القرآن بالقراءات فقد أجاز لهم النبي ﷺ ذلك [1].

وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه توفرت النسخة المرسومة كتابياً من دون شكل أو نقط، وبقيت الصورة الصوتية على حالها، ولما فتحت البلاد، وتفرق الصحابة فيها، أخذ أهل كل إقليم يقرؤونه بقراءة الصحابي الذي عاش بينهم، ومع اتساع الفتوحات، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحول إلى تعصب، بل كاد يؤدي إلى الفتنة بينهم، فجمع عثمان الصحابة، وأرسل إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب لترسل لهم الصحف المعتمدة التي كتبت للنبي ﷺ، وأخذها بعده عمر بن الخطاب، وحفظت بعد موته عند ابنته حفصة، فأرسلتها إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وهو الذي كان على رأس لجنة الجمع الأول في عهد أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في نسخ وزعت على الأمصار، لكنْ بقيت قضية التلاوة.

وحُرق ما سوى ذلك، حرصاً منه على عدم قيام خلاف بين المسلمين، وأمر أن يعتمدوا عليها[2]، وقد سمي بالمصحف الإمام، أو مصحف عثمان، فكان اعتماد الخليفة عثمان للقرآن خطوة دينية حاسمة، لاسيما في الأمصار المفتوحة الجديدة[3].

- **الفتنة الكبرى: ووفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه:**

ترددت هذه الكلمة في كتب التاريخ، وكثرت الكتابات عنها وتحري أسبابها، لأنهاحقاً تعد منعطفاً تاريخيًا في حياة الأمة الإسلامية، تباينت المواقف

١-شاهين: تاريخ القرآن ص٦.

٢-ابن الأثير : الكامل٣/١١١-١١٢.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية ٢/٢١٨.

والخلافات ووصلت مستوى الصراع المسلح واللجوء إلى العنف والقتال الذي كان له الأثر الكبير في تغيير وجه التاريخ الإسلامي إذا جاز التعبير.

فبعض الكتاب يُحمل الخليفة مسؤولية الفتنة متناسين مجمل تطور المجتمع بوجه عام، وظهور قوى سياسية واجتماعية تضاربت مصالحها، وأصبحت السيطرة عليها أمرًا بالغ الصعوبة.

فهناك من يرى أن الخلاف بين بني هاشم وبني أمية من الناحية التاريخية هو السبب، ولكن المرجح أن الأسباب أبعد من ذلك،وليست مجرد خلاف، لأنه من الثابت تاريخيًا أن بني هاشم قبلوا بسياسة الأمر الواقع بدافع الحرص على الإسلام والمسلمين زمن الخليفتين أبي بكر وعمر والسنوات الست الأولى من حكم عثمان على الرغم من عدم اقتناعهم، ورأيهم بأنهم أصحاب الحق في استلام الخلافة، لذلك فتوجيه الأمرإلى أنه مجرد خلاف ضمن قريش لا يصلح لأن يؤسس نزاعات وخلافات بهذا الحجم، وما تبعها من إهراق لدماء المسلمين ونشوب الحروب بينهم، خاصة أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بذل كل جهد ممكن لنصيحة عثمان، وللحيلولة دون تفجر أحداث الفتنة الكبرى.

لقد كان من أهم أسباب الفتنة هو تضارب المصالح بين أصحاب رأس المال، والتراع القبلي، إضافة إلى سوء الإدارة واستغلال السلطة من ولاة عثمان المنتسبين إلى أسرته الأموية، والتذمر الشعبي حيال هذا الأمر، إضافة إلىاإتباع سياسة مالية لم تكن ناجحة.

وما نريد قوله هو عدم تحميل المسؤولية بصورة شخصية للخليفة عثمان، ولابد من دراسة مجمل العوامل التي أدت إلى الفتنة الكبرى التي ذهبت بحياة الخليفة عثمان.

وبالعودة إلى بداية أسباب الفتنة نرى أنه من المعروف أن اتساع الدولة العربية الإسلامية والمتغيرات في تركيبة المجتمع الإسلامي، تركت أثراً في ذلك، فالفتوحات الإسلامية كانت على يد القبائل العربية، وكان دورهم في الانتصارات لا ينكر، ولكنهم بعد أن فتحوا البلاد وجدوا الإمارات والوظائف الرئيسة أسندت إلى غيرهم، لاسيما أبناء قبيلة قريش، وأبناء المهاجرين والأنصار، فلم يعجبهم ذلك الوضع، مع أنه كان ضرورياً، لأن المهاجرين والأنصار وأبناءهم أولى بالإمارة، وقيادة الجند، لأنهم يعرفون الإسلام وشرائعه أكثر من غيرهم، فقد قدمهم علمهم وفقههم في الدين وسابقتهم في الإسلام، وجهادهم مع رسول الله ﷺ لا أنسابهم، فحسب، ولكن الآخرين لم يقتنعوا بذلك، ورأوا أنفسهم أحق بالولايات التي فتحوها بسيوفهم[١] فشعروا بالغبن، فمناصب الذين تولوا شؤون البلدان التي فتحت انحصرت تقريبًا في أفراد البيت الأموي وحلفائهم.

لذلك ظهرت النقمة على الخليفة في الأمصار البصرة، والكوفة، والفسطاط، التي غدت محور الفعالية الاقتصادية بسبب تدفق أموال الفتوحات عليها، وكانت الفتوحات أيام الخليفة عمر عاملاً مهدئًا لطبيعة العلاقة بين الاتجاه الإسلامي، والاتجاه القبلي، فحمل السلاح من أجل العقيدة، وبذلك أخمد التمرد في نفوس العرب، ولكن بعد وفاة الخليفة عمر، ومجيء عثمان إلى الخلافة بدأ الصراع القبلي مع الاتجاه الإسلامي يعود إلى الواجهة، فبدأت شكوى الأمصار من الدولة، وسبب ذلك النظام المالي الذي كان مطبقاً أيام الخليفة عمر، وجاء عثمان فاتبع نظام سلفه، وخصوصًا فيما يتعلق بانتزاع الفيء من الجيش، وجعله للدولة، والخليفة عمر طبق في ذلك أحكام القرآن، ورفض الخليفة عمر أيضًا تقسيم الأراضي على المقاتلين حتى لا يتركوا الجهاد، ويصبحوا

١- ابن خلدون : العبر ٢/ ٦١٩-٦٢٠

فلاحين،ثم كانت الفتوحات عمليات تحرير للفلاحين المظلومين وإلغاء للإقطاع والاستغلال، وعندما توقفت الفتوحات تدهورت الأوضاع الاقتصادية للجنود المقيمين في الأمصار، فاعترضوا على إرسال أموال الأمصار إلى المدينة مقابل أخذ العطاء، فزاد ذلك من تذمرهم وحقدهم على الخليفة وولاته، فتوجه أبو ذر الغفاري إلى معاوية الذي أخذ مال أهل الشام قائلاً إنه مال الله، فقال أبو ذر: إنه مال المسلمين[١].

وأخذ أبو ذر يؤلب الناس على عثمان وولاته، وكانت دعوته سبباً في توجيه الانتقادات إلى سياسة عثمان المالية والدينية من موارد الصدقة في الحروب، وأخذ الزكاة على الخيل، وتقديم الخطبة في العيد على الصلاة، وإتمام الصلاة في منى، كل ذلك كان- حسب رأيه - مخالفًا لما قام به الرسول وصحابته.

وظهرت النزعة الإقليمية لدى القبائل، وكان سببها عدم ارتياح الأقاليم لسيادة بني أمية من قريش والمدينة، ولشعور القبائل في الأقاليم بأن من حقها حكم مصرها كما تشاء، وتبع ذلك ظهور النزعة الإقليمية فيما يتعلق بلهجات القرآن الكريم.

أضف إلى ذلك سياسة التساهل واللين والإقبال على الدنيا وانتشار الترف والبذخ بين الولاة واقتناء القصور والجواري[٢] فكل هذه المظاهر دفعت أبا ذر الغفاري إلى الابتعاد عن معاوية ثم عن عثمان، فنفاه إلى الربذة، ولا ننسى تقسيم عثمان ولايات الدولة بين أقربائه[٣]، فمروان بن الحكم في الحجاز، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام، وربما حاول من خلالهم ضبط أمور دولته،

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٤/٤، زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص٢٦٣ وما بعد، الدوري: مقدمة ص٥١.

٢-المسعودي: مروج الذهب ٣٣٣/٢

٣-زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص٢٦٣.

فانعكس ذلك انعكاساً سلبياً عليه، وزاد الأمور تعقيدًا عندما سمح لكبار الصحابة بترك المدينة واستملاك الأراضي خارج شبه الجزيرة العربية، فالتف المعجبون والطامعون حولهم.

وبدأت عوامل التذمر من النظام المالي الذي وضعه عمر، ومن غنى قريش، ومع أنه في الأساس اختلاف قبلي لكنه تطور إلى تباين اقتصادي واجتماعي، فأدى الصراع بين التيار القبلي والتيار الإسلامي،إلى ظهور التيار الإقليمي الذي أدى إلى تحرك الأقاليم ضد حكم المدينة.

وهكذا بدأ التمرد يظهر بين الجند، فناصرته المدينة من خلال بعض الصحابة، وباتت المعارضة علنية، وأسهمت في ذلك عناصر الأمم والديانات التي هزمها الإسلام، واستشرى التمرد، وتحول إلى عصيان ضد المدينة، وأسهم في ذلك عناصر شتى.

وثم انفجر العصيان في الكوفة التي رفضت تعيين سعيد بن العاص واليًا عليها، فخرج أهل الكوفة بالسلاح بعد أن يئسوا من حكم الأمويين الشبيه بحكم الفرس، فعاد الخليفة عن قراره، وأقر الوالي الذي طلبه أهل الكوفة، فعين أبا موسى الأشعري، وثار أهل مصر بسبب تسلط الولاة على رقاب الناسخاصة بعد عزل عمرو بن العاص، ورغبة ابن حذيفة بالولاية وتعيين الخليفة لأخيه بالرضاعة كعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فهددوا بالسلاح إذا لم يستجب الخليفة إلى مطالبهم، ولم يتفجر الوضع في الشام، لأن معاوية كان ممسكاً بزمام الأمور هناك، وبدأ التذمر في المدينة، وجاءت وفود البصرة والكوفة ومصر وانضم إليهم من في المدينة، فحاصروا الخليفة عثمان فاعترف الخليفة بأخطائه، وبأنه سيصلح الأمور، ولكن مروان بن الحكم كما تجمع المصادر، ساءه أن يذعن الخليفة لمطالب الثوار فزور رسالة على لسان عثمان، وأرسلها إلى عامل الخليفة في مصر طالبًا منه قتل وجلد وحبس

المتمردين[١]، فوقعت الرسالة في أيدي الثوار، فعادوا إلى المدينة ليجابهوا الخليفة بهذا الكتاب الذي يناقض ما كان قد قطعه لهم من عهود، وأنكر عثمان أن يكون له علم بالكتاب، وحلف لعلي أنه لم يأمر بكتابته، ولما أبلغ علي المصريين برد عثمان عدَوا أن جهله بما يصدر باسمه من أوامر لهو جريمة أشد، وحاصروا الخليفة للمرة الثانية، وقطعوا عنه الطعام والماء حتى يخلع نفسه[٢]، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضاً سابقاًمن معاوية بن أبي سفيان بأن يذهب معه إلى الشام، لأنه يخشى أن يثب عليه الثائرون، فلم يرض أن يغادر جوار الرسول ﷺ ويترك مدينته، فعرض عليه أن يرسل له جنداً من الشام يحمونه، وحتى هذا العرض رفضه أيضاً، وكره أن يضيق على أهل مدينة الرسول ﷺ بجيش يضايقهم في معاشهم.

فلما رأى الصحابة علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وغيرهم الخليفة قد حوصر في بيته وأحاط به المتمردون، أرسلوا أبناءهم لحراسته، لكنه رضي الله عنه أدرك أن أبناء الصحابة – وهم قليلو العدد– معرضون للقتل جميعاً، فحرصاً منه على هؤلاء الشباب، وكراهية سفك الدماء أقسم عليهم بما له عليهم من حق الطاعة أن يذهبوا إلى بيوتهم، ويغمدوا سيوفهم، ولعله اعتقد أن الثوار إذا قتلوه هو فستنتهي المشكلة، فرأى التضحية بنفسه لحقن الدماء، وتسوروا عليه ودخلوا بيته وقتلوه وهو جالس يقرأ القرآن، الجمعة ١٨ ذي الحجة ٣٥هـ/٦٥٦م وسقطت قطرة من دمه على الآية { **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ** }[٣]. وكان دمه الطاهر مقدمة لبحور الدماء التي سالت نتيجة الفتنة.

١- البلاذري : أنساب الأشراف ٥/٦٥-٦٦.

٢- البلاذري : أنساب الأشراف ٥/ ٩٧.

٣- سورة البقرة : الآية ١٣٨

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لما أتاه خبر مقتله رحم الله عثمان، وخلف علينا بخير، وقيل له، قد ندم القوم، فقرأ :{ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** }[١]. وخرج إلى دار عثمان، وضرب صدر الحسن والحسين، وشتم أولاد الصحابة، وأنكر عليهم قتل عثمان وهم حضور[٢].

وهكذا ذهب عثمان شهيدًا إلى ربه، يشكو ظالميه وقد رثاه الصحابة والتابعون لمعرفتهم بمقامه، وللفاجعة التي لحقت الأمة بقتله[٣] وسمي العام الذي قتل فيه عثمان عام الحزن[٤].

لقد كان لمقتل عثمان أهمية كبيرة، وخطر عظيم، إذ إنه منذ ذلك الحين، أصبح للسيف القول الفصل في تقرير أمر رئاسة شؤون المسلمين، وفتح باب الفتنة الذي لم يغلق بعد ذلك أبدًا، وانشقت الجماعة الإسلامية شيعًا وأحزابًا، يحاول كل منها أن يفرض وجهة نظره بقوة السيف، وهكذا يمكننا القول إن مقتل عثمان كان نقطة البدء في الصراع السياسي الدموي الذي طبع تاريخ العرب والإسلام بطابعه قرونًا طويلة.

وقد كتبت نائلة زوجة عثمان إلى معاوية تعلمه بالحادثة وأرسلت قميص عثمان الملطخ بالدم، والممزق، وأصابعها التي قطعت، وخصلة كانت قد انتزعت من لحيته، لينبري معاوية فيما بعد للمطالبة بدم عثمان[٥].

ومن المدهش حقًا أن مصرع عثمان لم يوصل الثوار إلى تحقيق أغراضهم، بل عجل في انهيار نظام الشورى للخلافة الراشدة،ومن ثم تحول

١- سورة الحشر: الآية ١٦.

٢- البلاذري:أنساب الأشراف ٧٠/٥، المسعودي : مروج الذهب٥٥٣/١.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية ١٩٢/٧-١٩٣

٤-ابن كثير : البداية والنهاية٢٢٨/٧.

٥- الأصفهاني : الأغاني ٣٢٥/١٦. قارن الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٦٤/٤.

وبسرعة نحو الملكية المطلقة، وذلك على يد معاوية الذي كان أول الملوك في الإسلام .

علي بن أبي طالب ٣٦-٤٠هـ/ ٦٥٦-٦٦١م:

نسبه ونشأته ومكانته :

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وهو ابن عم الرسول ﷺ وتربى في بيته، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال، فلازم الرسول، وكانت خديجة رضي الله عنها تعامله كواحد من أبنائها.

تصفه المصادر بأنه كان شجاعاً، واسع العلم، وأحد من حفظوا القرآن كله من الصحابة، وكان أكثر الصحابة معرفة به وبتفسيره، وأسباب نزوله، وأسراره وأحكامه، ولا عجب في ذلك فقد تربى في بيت النبي، وكان أول الناس إسلاماً بعد خديجة، إذ أسلم وعمره ثماني سنوات، وكان أقضى الصحابة، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بعد الهجرة، ثم زوجه من ابنته فاطمة، وأولاده منها الحسن والحسين، وهم الذين حفظوا نسل الرسول ﷺ، وموقفه ليلة الهجرة يدل على شجاعته الفائقة، فقد نام في فراش النبي وهو يعلم خطورة ذلك، ويعرف أن قريشاً عزمت على قتله، وكان من الجائز أن تُقدم على ذلك وهو نائم متدثر بغطائه دون أن تعرف من الذي في الفراش، ومع ذلك لم يتردد لحظةً واحدةً في افتداء الرسول بنفسه، أضف إلى ذلك أن مواقفه فيما بعد تدل على أن الشجاعة أبرز صفاته، وكان موضع احترام وتقدير الصحابة جميعاً.

بيعته بالخلافة:

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، انسحب الأمويون وتركوا اختيار الخليفة للأنصار والمهاجرين، والهاشميين عرب الأمصار (الثوار)، ولم يكن في قريش من يتمتع بنفوذ ومكانة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاجتماعية والسياسية والدينية.

فهو أكبر الصحابة سناً، وأكثرهم حظًا في تولي الخلافة، لأنه أكبر مقامًا ممن بقي حياً من العشرة المبشرين بالجنة، وكان في أثناء الحصار الذي فرض على عثمان هو الذي يؤم الناس في الصلاة[١]، تحسن الإشارة إلى أن الذي تولى رئاسة الحج لذلك العام كان عبد الله بن عباس، لأن موسم الحج حل وعثمان فحاصر، فطلب من ابن عباس أن يقوم مقامه في أداء الفريضة بالناس[٢]، وقد يُستدل من هذا التدبير الذي لجأ إليه عثمان أنه كان يريد أن يبعد علياً عن أية مهمة عامة قد ترشحه لخلافته في المستقبل، كما أنه قد يستدل منه أيضاً على الود المفقود بين الرجلين، وليس بمستغرب أن يكون لمروان بن الحكم وغيره من رجالات بني أمية يد في هذا التدبير.

ولابد من التنبيه في هذا المجال على أن عليًا كان يتمتع بثقة الأنصار التامة، حتى إن الطبري يذكر أنه لم يتخلف أحد منهم عن بيعة علي[٣]، كما أن هوى المصريين كان معه، وكانت خطتهم في التخلص من عثمان تقضي أن يكون الأمر له بعد عثمان، وقد تلقى علي البيعة في اليوم نفسه الذي قتل فيه عثمان، وفي المصادر خلاف حول الطريقة التي تمت فيها البيعة، وعن مدى إجماع الناس على بيعته.

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٢٣/٤.

٢- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٠٥/٤ وما بعدها.

٣- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٣١/٤.

يقال اندفع عرب الأمصار (الثوار) لمبايعته، فرفض وطلب مبايعة أهل بدر، فأتى طلحة والزبير لمبايعته، واختفى بعض الصحابة من المدينة، أو تخلفوا عن المبايعة، ومع ذلك جرت بيعته في المسجد النبوي الشريف.

وأغلب الظن أنه لم يكن هناك إجماع على بيعته، وأن هذه العملية الأولى التي واجه فيها جمهور الناس، بينت له أن مهمته لن تكون سهلة، وأن طريقه لن تكن مفروشة بالورد.

وكان لابد له حتى تستكمل سلطته جميع أوجهها الشرعية المطلوبة أن يرسل الكتب إلى الأقاليم والأمصار يشرح فيها ظروف توليه السلطة، ويطلب البيعة من الحكام والناس.

وبذلك انتقل الصراع على السلطة من المدينة إلى الأقاليم، وانقسم الناس هناك إلى فئات تؤيد الخليفة الجديد، وفئات تقف منه موقف المعارضة، وتناقش قضية رئاسة الأمة الإسلامية من وجهات نظر أخرى.

وقد زاد الأمر سوءًا لعلي أنه بادر، وبتحريض من الثوار على عثمان إلى عزل عمال عثمان، وتولية أشخاص غيرهم، وقد أذعن جميع عمال الأمصار إلى طلب الخليفة الجديد، ما عدا والي الشام معاوية بن أبي سفيان[١] الذي فتح امتناعه عن الانصياع لأوامر الخليفة المنتخب صفحة دامية من صفحات التاريخ العربي الإسلامي.

أضف إلى ذلك أن معاوية اتخذ من قضية تهاون علي في قصاص قتلة عثمان حجة للخروج عليه، وأن أهل الشام مجمعون على الأخذ بثأر الخليفة المقتول، وأنه إنما ينفذ رغبتهم، ورغبة قومه من بني أمية الذين أغضبهم مقتل قريبهم[٢]،وقد جرت بين علي ومعاوية مراسلات طويلة في شأن الخلافة[١].

---

١ – زكار وخربوطلي :تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص٢٧٨.

٢–الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٦٤/٤

ولم يكن معاوية عدوَ علي الوحيد، بل كان له أكثر من منافس، أو حاسد، أو عدو، وزاد الأمر صعوبة أنه بعد توليه الخلافة، وفي مثل هذه الظروف الصعبة قام بأعمال زادت فيها النقمة عليه، فقد استرد الإقطاعات التي كان عثمان قد منحها لبعض أقربائه، واتبع في توزيع الصدقات والأرزاق القواعد التي سنها عمر، فأدى ذلك إلى سخط الولاة، ولاسيما معاوية الذي رفض الإذعان للأمر مطالبًا بدم ابن عمه المقتول عثمان، وأعلن الثورة على الخليفة.

مما تقدم يلاحظ أن عليًا جاء ليسير وفق الاتجاه الإسلامي، وهذا الأمركان يفرض عليه عزل هؤلاء الولاة لتهدئة الأوضاع، ولكن الظروف لم تواته بسبب قوة الاتجاه القبلي، والعصبية التي أحياها معاوية بطلبه الثأر الذي يشكل خرقًا لتعاليم الإسلام، فأدى ذلك إلى تفجير الأوضاع الداخلية في الدولة الإسلامية، وعاد السيف ليحل المشكلات التي نشأت عن تضارب المصالح السياسية والاقتصادية، والإجتماعية بين الخليفة وأتباعه، وولاة الخليفة المقتول عثمان، فاندلعت المعارك، وانتهى الأمر بمقتل الخليفة علي بن أبي طالب.

-معركة الجمل ٣٦هـ /٦٥٦ م:

هي معركة لم يشهد مثلها قط من قبل، لمنطلقاتها وبواعثها، وللطريقة التي سارت فيها الأحداث، ولما خلفته من قتلى من الطرفين، ولما تركته في النفوس وفي مسار التاريخ من أثر، طرفاها المعروفان هما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من جهة، وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى، إضافة إلى طرف خفي استغل الأحداث وزادها اشتعالاً، وهو الطرف الموتور أيا كان منطلقه، وهو العنصر المحرك الموصل إلى النتائج السيئة التي حصلت[٢].

١- من أجل المراسلات بين الرجلين ينظر الدينوري: الأخبار الطوال. وكتاب صفين لنصر بن مزاحم

٢- شجاع : دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص٤١٥

واتخذ الكثيرون هذا الحدث من شتى الاتجاهات مشجبًا علق عليه كل واحد ما يريد من آراء وأفكار[١]، فمنهم من يتهم طلحة والزبير بأنهما ما خرجا إلا غضبًا على الخليفة لأنه لم يولِّ أحدًا منهما على ما أراد من الولايات طلحة على البصرة، والزبير على الكوفة[٢] ومنهم من جعل باعث خروج عائشة هو حقدها على الخليفة لموقفه الذي وقفه منها يوم حادث الإفك[٣].

ومنهم من جعل الحادث نوعًا من أنواع الصراع بين بني هاشم وبني أمية بسبب الصراع على السلطة[٤].

لا شك أن هناك عوامل وأسباب عدة لمعركة الجمل، منها ما ذكر في أسباب النقمة على عثمان بن عفان، ولاسيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة بسبب توقف الفتوح، واستئناف الارستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار،حيث أثرى بعض رجالات قريش ثراء فاحشاً كطلحة والزبير، فرجل مثل علي سيقف حجر عثرة في طريق مصالحها المادية فلابد من وسيلة، أو حجة يتستران وراءها لتسويغ ثورتهما عليه، فكان إعلانهما بأن الثائرين على عثمان غوغاء، وعبيد، وأعراب، وأن علياً بن أبي طالب استقطب ولاء غالبيتهم علماً أن المصادر التاريخية تؤكد أنه كان بين الثائرين على عثمان أشراف مثل طلحة، وسادة، وأبناء صحابة، ورجال فضل ودين، هذا فضلاً عن عامة رجال القبائل في الأمصار، وبعض أهل المدينة.

١-حسين : الفتنة الكبرى٢/٢٠-٢٥، قدورة : تطور تاريخ العرب، ص ١٣٩.

٢-قدورة : تطور تاريخ العرب ص١٣٩

٣ -خماش وعاقل :تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١٩٩

٤- المقريزي : النزاع والتخاصم ص١١. ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ١٥/٢

وقد رأى طلحة، والزبير، أنه في جلب السيدة عائشة إلى جانبهما قوة لهما، لماكانت تتمتع به هذه السيدة من مكانة كبيرة في نفوس المسلمين جميعًا، ولما لها من كلمة مسموعة فيهم، فهي زوج الرسول، وحجة للرجال والنساء في أمور الدين، فاتصلا بها، وبولاة عثمان الذين عزلهم علي، واتفق الجميع على المطالبة بدم عثمان، ولما كانت مكة بلدًا حرامًا، توجه الجميع إلى العراق وأعلنوا الحرب على الخليفة علي الذي جهز جيشه، وانتقل إلى العراق لمحاربتهم، وأشرفت عائشة على المعركة من هودجها المحمول على جمل شديد قوي اسمه عسكر(١)، وقد أدى وجودها في المعركة إلى انقسام أهل البصرة بين مؤيد ومعارض، الأمر الذي سبب قبضها على حاكم البصرة(٢). وعلى الرغم من موقف عائشة المعادي للخليفة، فإن عليًا أعادها مكرمة إلى مكة(٣).

والمفيد ذكره، أن خروج السيدة عائشة للحرب نقده الكثيرون(٤)، وسمي يوم خروجها، بيوم النحيب، حتى إن أخاها محمد بن أبي بكر،والذي وقف إلى جانب الثوار ضد سياسة عثمان وحارب إلى جانب الخليفة علي فيما بعد، عارض تحركها، وقد ندمت السيدة عائشة بعد معركة الجمل، واعتزلت الحياة السياسية(٥) وعاشت عيشة هادئة حتى ماتت سنة ٥٨ هـ /٦٧٨ م، وتمنتلو أنها لم تكن قد خرجت قط، وكانت إذا ذُكرت أحداث الجمل تبكي حتى يبتل خمارها، ذُكر أنها لما احتضرت جزعت، فقيل لها: " أتجزعين يا أم المؤمنين وأنت زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين وابنة أبي بكر

---

١ – الأفغاني، (سعيد) عائشة والسياسة، دار الفكر، ١٩٤٦، ص١٠٤.

٢–الطبري تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٨٦. الأفغاني: عائشة والسياسة ص١٣٧ وما بعد.

٣–اليعقوبي: تاريخ ٢/ ١٨٣

٤ – الأفغاني: عائشة والسياسة ص٢٩١.

٥– الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢٤/٢.

الصديق؟ " فقالت: " إن يوم الجمل معترض في حلقي... ليتني كنت نسياً منسياً "[١].

من استقراء الأحداث يتبين أن اتفاق طلحة والزبيركان اتفاق مصلحة، واتفاقهما مع السيدة عائشة أيضًاكانت الغاية منه الحفاظ على مكاسبهما التجارية، وعلاقتهما بعلي أيضًا قامت على المصلحة، فقبل الخلافة كانا من أنصاره، وبعد الخلافة باتا من ألد أعدائه، وربما لأنهما كانا يطمعان بالخلافة فهما من أهل الشورى، يضاف إلى ذلك أن وصول علي إلى الخلافة معناه كساد تجارتهما، وقد طمع الزبير بالخلافة لنفسه بناء على مراسلات مع معاوية، وقيل لابنه عبد الله، وفي ذلك يقول الخليفة علي للزبير كنا نعدك من بني عبد المطلب، حتى فرق بيننا وبينك[٢]،وهناك من يأخذ على الخليفة علي عدم مراعاته لتطور الأحداث والتفاعل معها ضمن ما هو قائم ولم يعط الأهمية الكافية إلى ما آل إليه تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية.

وبالطبع هناك آراء مختلفة كثيرة بعضها يرى أن الاعتماد على أهل العراق أذكى الخلاف القبلي.

ودرس بعضهم الآخر الموقف دراسة أكثر شمولية فرأى أن علياً مثل التيار المحافظ في الإسلام، بل المتشدد في تطبيق الشريعة والقيم والمبادئ، كما كانت عليه الحال في زمن الخليفة عمر، وليس جهلاً منه بالتطورات التي حدثت في المجتمع، فقد حاول بهذا الأمر أن يكبح جماح التيار السياسي الدنيوي الذي فرض نفسه بقوة في المجتمع، ولكن الأمور لم تنته إلى ما كان يرغب فيه الخليفة.

---

١ – الأفغاني : عائشة والجمل ص٢٩٠ .

٢– شجاع : دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٢٢.

وقد أسفرت المعركة عن قتل طلحة ثم الزبيروهو عائد نحو الحجاز، وسقوط الآلاف من القتلى،إلى جانب الألم، والحسرة، والحزن في نفس كل واحد من الطرفين، ونقل مقر الخلافة إلى الكوفة، بطلب من أهل العراق المعروفين بنزعتهم الإقليمية، وعصبيتهم القبلية، علمًا بأن الخليفة مثل النهج الإسلامي، والمدينة عُدَت معقل الإسلام،ومقر شرعيته، ولقد أدى ذلك فيما بعد إلى اصطدامه مع نزاعهم، وتقاليدهم القبلية، وبذلك باتت قوة الدولة في الأمصار (الكوفة) وانتهى دور الحجاز (المدينة) السياسي، وظهرت العصبية القبلية، وبدأ صراع الأمصار من أجل نيل الخلافة، فظهر التيار الإقليمي، (العراق والشام) من أجل نيل الزعامة السياسية.

-معركة صفين ٣٧ هـ /٦٥٧ م:

صفين اسم يطلق على موضع يطلَ على الشاطئ الغربي من نهر الفرات في طرفه الشمالي[١]، في سورية بالقرب من الرقّة، ولم يكن هذا الموقع مشهوراً ولا معروفاً، ولكنه صار فيما بعد علماً لموقعة شهيرة دارت بين فئتين عظيمتين من المؤمنين، فئة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفئة المطالبين بقتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه، بزعامة معاوية بن أبي سفيان.

وكانت موقعة صفين من أعجب الوقائع بين المسلمين، لدرجة أن القارئ يقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه، وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً، فليست معركة مدفوعة من القيادة التي تدفع الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة فريدة في بواعثها، وفي طريقة أدائها وفيما خلفتها من آثار.

١-ياقوت الحموي: معجم البلدان٣/٤١٤

بعد انتصار علي في معركة الجمل، ونقل مقره إلى الكوفة استطاع من عاصمته الجديدة (الكوفة) أن ينشر سلطانه السياسي على أغلب أقاليم الدولة الإسلامية ما عدا الشام، وقد انتظم له الأمر في العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس وخراسان وغيرها.

وظل والي الشام معاوية بن أبي سفيان لا يبايع، بل جمع صفوفه في بلاد الشام، وألب أهلها على الإمام علي، واتهمه على منبر جامع دمشق بأنه تستر على قتلة عثمان، وأن دمه في عنقه، ومبالغة منه في استثارة أهل الشام على الإمام علي، واجتذابهم حوله نصب قميص عثمان، وقد خضب بدمه على منبر دمشق، وعلى أردائه أصابع زوجته نائلة ابنة الفرافصة مدلاة، وكان يذكر لهم في خطبه صفة قتلة عثمان فيبكي الناس، فينتهز هذه الفرصة ليدعوهم إلى الطلب بدمه، وقد جرت مفاوضات ومراسلات بين معاوية والإمام علي قبل مقدم الطرفين إلى صفين، وأثناء إقامتهما في هذا الموضع، وأثناء القتال، فأمير المؤمنين يطالب بالجماعة والطاعة، ومعاوية يقول: " كيف أطيع رجلا أعان على قتل عثمان، وهو يزعم أنه لم يقتله، ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به ولكنه آوى قتلته، فليدفعهم إلينا حتى نقتلهم، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة" [١].

كما أنه بزواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية أمن سندًا قويًا له[٢]، ونجح في خطته نجاحًا لم يكن بالحسبان.، فضلاً عن ذلك، فقد كان والياً على الشام منذ عقدين من الزمن، وجيش الشام كان هو الذي شكله بعد وفاة جيش اليرموك، أو لنقل غالبيته، في طاعون عمواس.

١- ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٢٥٨. ابن أعثم : الفتوح ٣/ ٩٤.

٢-–سالم : تاريخ الدولة العربية ص٣٠٨

لكنه في الوقت نفسه خاف من خضوع مصر للخليفة علي، لأنه شعر بالخطر لقرب مصر من الشام، ومخافته أن يلجأ الإمام علي إلى خطة الإطباق عليه بجيش يقدم عليه والي مصر منها، وجيش يقدم به الإمام علي من العراق بعد خضوعها له فيقع بين كفي كماشة قوية لاطاقة له بمجابهتها[١].

وأمام هذا الأمر، حاول استمالة والي مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومناه بتوليته للعراق، وتولية من يشاء من أهل الحجاز، وينفذ كل طلب أو أمر له.

وبعد مراسلات عديدة أظهر قيس فيها ولاءه الأكيد لعلي، ووقوفه إلى جانبه لاعتقاده بأن عليًا صاحب الحق في الخلافة[٢]، ولما رأى معاوية أن مناورته مع قيس مخفقة، لجأ إلى تشويه موقف قيس، مما أدى إلى تسرب الشك في ولاء قيس إلى نفس الإمام علي فعزله عن ولاية مصر، وعين عليها بدلاً منه محمد بن أبي بكر وقد عرف علي بعد عزله قيسًا، أن قيسًا بريء مما دس ضده، وأنه تسرع في عزله[٣] فاستعد الطرفان للحرب، وتلاقى الجيشان في صفين.

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٠.

٢- زكار وخربوطلي : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص٢٨٤.

٣- الطبري :تاريخ الرسل والملوك٤/٥٥٣.



وبدأت الحرب بتبادل الخطب، والمبارزات، وتبادل علي ومعاوية الرسل، ولقد خاض الطرفان تسعين وقعة[١] تبادل الطرفان فيها النصر والهزيمة، وقتل من الجانبين أعداد كثيرة، ورجحت كفة علي، وأوشكت قواته على سحق قوات معاوية وعمرو بن العاص[٢].

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف الهزيمة، عمد إلى اصطناع الخديعة، فأمر برفع أوراق من المصاحف على الرماح وبالمناداة بتحكيم كتاب الله بين معاوية وعلي[٣].

-**التحكيم:**

جاءت المبادرة من أهل الشام، والظاهر أن عمرو بن العاص ومعاوية، دبرا ذلك مقدمًا، ووضعا علياً في موقف محرج، فاختار أبا موسى الأشعري،

١- ابن مزاحم : صفين ص١٩٠. ابن كثير: البداية والنهاية٧/٢٦٠.

٢-الطبري :تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٣.

٣ -المسعودي :مروج ٢/٣٩٠. ابن الأثير :الكامل٣/٣١٦

ليكون ممثلا للعراقيين في التحكيم المقترح، واختار معاوية عمرو بن العاص، وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن ذكر المتقاضيين علي ومعاوية دون أن يذكر للأول لقب أمير المؤمنين، وحددوا زمن التحكيم نهاية رمضان، وإن لم يتم ذلك فالطرفان في حل من الحرب، وسموا الحكمين،وهما عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري على أن يتخذا القرآن والسنة وحدهما، وأن يقبل علي ومعاوية حكمهما، واجتمع الحكمان بأذرح بين الشام والعراق وصحب كل واحد مجموعة من أنصاره، بيد أن عملية التحكيم أخفقت تماماً، وافترق الطرفان ليستعدا للحرب، ولكن الإمام علياً ابتلي بتخاذل أهل الكوفة، وبخروج المحكمة (الخوارج)، وانشغاله بحربهم..

وقعت الخسارة على علي، لأن معاوية لم يكن خليفة، بل كان أمير ولاية متمرد، وفكرة التسوية بينهما رفع للثاني وحط من شأن الأول، فخسر علي منصبه في الخلافة، بينما لم يخسر معاوية سوى حقه في الخلافة، هذا الحق الذي سعى إليه بالحيلة، وقد نسي الخليفة في التحكيم أن يفرض على معاوية عدم مقاتلة أهل مصر، الأمر الذي جعله يرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر، وتمكن من ضمها تحت إدارته، وحين أقبل العام التاسع والثلاثون كانت وجيوش معاوية تتوجه إلى أطراف المناطق التي تقع تحت يد علي بن أبي طالب وخاصة أطراف العراق، عاداً نفسه صاحب الحق في ضم البلاد إليه[١]، ولم تعد قضية قتل عثمان هي القضية التي يقاتل عليها.

لقد أدى قبول الخليفة علي بالتحكيم إلى انقسام جيشه إلى فرق، فمنهم من أنكر عليه وضع حقه في الخلافة (وهو مقدس) للتحكيم بين الناس، والحكم لا يكون إلا للمعركة لأنها الناطقة بحكم الله، وعرف أصحاب هذه الفئة

---

١ –ابن كثير : البداية والنهاية٧/ ٣٢٠.

بالمحكمة، وانسحبوا إلى حروراء بزعامة عبد الله بن وهب الراسبي وسموا بالخوارج[١].

وفئة من جيشه اعتزلت التحكيم، واعتزلت بيعة علي ومحاربته، أو الحرب معه [٢]، فكانوا رواد حركة الاعتزال وظهرت مجموعة من جيش الخليفة علي، أيدته، وأيدت معاوية، ودعت المسلمين إلى إرجاء العقاب ليوم الدين، مع الإشارة إلى أنهم أول من قبل فكرة التحكيم، وهناك قول مأثور لعلي، إنها كلمة حق أريد بها باطل، ولقد عرفوا بالمرجئة[٣].

وظهرت مجموعة التفت حول الخليفة، وشايعته، ورفضت التحكيم، لأن الخلافة ولاية من الله، ولا يجوز تركها لحكم الناس فيها، واعتمدوا في ذلك على وصية الرسول للإمام علي في غدير خَمَ.

وظهرت القدرية[٤]، وهؤلاء يؤكدون حرية الإرادة، ومسؤولية البشر عن أعمالهم، وانتقدوا الحكام، لأنهم يأخذون أموال الناس ويظلمونهم، ويسوغون أعمالهم بأنها قدر من الله، وكانوا ضد الأمويين، وهناك من يرى أن القدرية جاءت ردًا على أصحاب النظرية الجبرية، وجاء هذا كله لاحتكاك العرب المسلمين بأصحاب الحضارات في البلدان المفتوحة، ولأن الحروب الأهلية ولدت العديد من الأسئلة، المتعلقة بالإيمان والكفر، والقدر.

والجدير بالذكر أن علياً بن أبي طالب، رأى ضرورة استئناف القتال مع أهل الشام، فجمع جموعه في معسكر النخيلة، ودعا فئة من الخوارج للإنضمام

---

١ –البغدادي :الفرق بين الفرق، ص ٥٧. معلوف :الخوارج، ص ١٠٠.

٢– الشهرستاني :الملل والنحل، ص ٦٠. التوتنجي :فرق الشيعة، ص ٥.

٣– الشهرستاني :الملل والنحل، ص ٦٠. التوتنجي :فرق الشيعة، ص ٥.

٤– قدورة: تطور تاريخ العرب، ص١٥٠.

إليه في مسيره لحرب أهل الشام، لكنهم رفضوا الاستجابة لدعوته، فحاربهم، وانتصر عليهم.

وأراد مجددًا الزحف ضد معاوية بالشام، لكنه في هذه المرة فوجئ بخلو المعسكر من الرجال، فاضطر أن يعود إلى الكوفة[١].

وفي هذه الأثناء كان أهل الشام أنصار معاوية في غاية الطاعة، والانضباط، لذلك نجد معاوية يطور صراعه مع علي،فيتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وبدأت سرايا أهل الشام تغير على الأقاليم التي احتفظت بمبايعتها لعلي كالبصرة، والجزيرة، ومكة، واليمن[٢]، وفي ذلك دلالة على ازدياد قوة معاوية وأنصاره، إذ يبدو من وراء ذلك، تثبيت معاوية، وإظهار عجز الخليفة علي عن حماية الولايات التي تتبعه، وكانت خلفيات ذلك اعتماد معاوية على طاعة أهل الشام، واعتماد الإمام علي على طاعة أهل الكوفة، وكانت الشام تمتلك مجتمعاً مستقراً قديماً بينما كانت الكوفة معسكراً جديداً من دون استقرار إثني أو اجتماعي، أو عقائدي.

وبسبب كثرة غارات معاوية على العراق، وبعد أن وجد الخليفة علي أن أتباعه قد ملوا القتال، أعلن الهدنة بينه وبين معاوية، حقنًا لدماء المسلمين، على أن يكون لعلي رضي الله عنه وكرم وجهه العراق والمشرق، ولمعاوية الشام ومصر[٣]، فأصبحنا من حيث الواقع أمام دولتين إسلاميتين، لكل منهما حاكم وعاصمة.

١- المسعودي : مروج الذهب ٢/ ٣٩٥- ٤٠٤-٤٠٧.

٢-الطبري : تاريخ الرسل والملوك٥/١٤٠. ابن الأثير : الكامل ٣/٣٧٥ وما بعد.

٣ -الطبري : تاريخ الرسل والملوك٥/١٤٠. ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٣٢٢.

فقرر الخوارج قتله، وقتل معاوية، وعمرو بن العاص فعلاً قام عبد الرحمن بن ملجم بقتل الخليفة علي، وقال: " الحكم لله، وليس له "، ونجا معاوية وعمرو[1].

خلافة الحسن بن علي وتنازله عن الحكم ٤١ هـ /٦٦١ م:

اختلفت الروايات، والآراء، حول وصية الإمام علي، فمن قائل إنه أمر أن يكون الأمر من بعده لابنه الحسن، ومن قائل إنه قال حين سئل لمن يكون الأمر من بعدك؟ " ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر "[2].

وقد بويع الحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة بعد أبيه من قبل أهل العراق، وقد بايعه قيس بن سعد بن عبادة–بيعة أهل العراق– وعبد الله بن العباس–بيعة بني هاشم وآل البيت[3].

وباشر الخليفة الحسن سلطته بترتيب أوضاع البلاد الإدارية، فزاد عطاء المقاتلين، وبدأ أهل العراق بحثّ الخليفة على القتال، خاصة أن معاوية نزل بلدة مسكن، في حين أن الخليفة كان لديه شك وحذر من أهل العراق، وسرعان ما عدل عن متابعة القتال متخذاً موقفاً بالتوجه مع بعض القبائل إلى المدائن،حيث تعرض لمحاولة اغتيال، ودعا الخليفة الحسن عبد الله بن عباس، وأمره بالتوجه إلى الشام لمقاتلة معاوية، ورسم له الخطة، وخطب بجنده طالبًا السمع والطاعة في أمره[4].

يتبين من انسحاب الحسن إلى المدائن، وتوجه عبد الله إلى الشام المواقف المتناقضة بين الخليفة الحسن وأهل العراق، يضاف إلى ذلك قيام معاوية بشراء ولاء بعض القادة، مع الحرب الإعلامية الكاذبة، ومفاوضة الحسن

---

١ –ابن الأثير : الكامل ٣٨٨/٣ وما بعد.

٢–الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٤٦/٥–١٤٧.

٣–الأصبهاني : مقاتل الطالبين، ص ٥٢.

٤– ابن الأعثم : الفتوح، ص ١٥٤.

بشأن التنازل، وقام وأهل العراق بالاتصال بأخيه الحسين لمبايعته فرفض[١]، كل هذه الأسباب دفعت الخليفة الحسن إلى التنازل عن الحكم، وكان بذلك أول خليفة يخلع نفسه، ويسلم الأمر لسواه.

وبذلك انهارت الجبهة السياسية العسكرية في العراق وُقضي على معارضي خلافة معاوية الذي أرسل صحيفة بيضاء مذيلة بخاتمه مبديًا استعداده لقبول شروط الحسن كافة، والتيهي ارتكزت على عودة الخلافة إلى الحسن في حال وفاة معاوية وإعادة الأمن لأهل الكوفة وأتباع الحسن، وأخذ أموال الأهواز، وضمان عطاء وامتيازات آل هاشم، وقد دخل معاوية الكوفة وأخذ البيعة من الحسن والحسين، وانصرف الحسن والحسين إلى المدينة، ثم مات الحسن مسمومًا.

ونتج عن تنازل الحسن أن انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية، أي انتصرت الارستقراطية القرشية وأصحاب رؤوس الأموال، والمضاربات التجارية وتجار مكة[٢]، على أصحاب المبادئ والمثل، أي انتصار التيار القبلي على التيار الإسلامي.

وخسر العراق بسبب انتقال العاصمة من الكوفة إلى الشام العطاء وتحولت أموال السواد إلى خزائن معاوية.

كون ذلك منعطفًا تاريخيًا خطيرًا في التاريخ الإسلامي وتغيراً في المبادئ السياسية والدينية التي نادى بها الإسلام (من الشورى إلى الوراثة)، و (قامت عقيدة الإمامة لآل البيت)، وترك الحسن ثم الحسين قضية الإمامة والائتمان على النهج الديني الذي مثله آل البيت الهاشمي، وكان ذلك دافعًا فيما بعد للتمسك بتطور ماعرف باسم التيار الشيعي.

١- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة١/٦٥.

٢-بيضون : تاريخ العرب السياسي، ص ٨٤.

الفصل السادس: الفتوحات في عصر الخلفاء الراشدين

-الفتوحات والانطلاقة العالمية

ـ أولاً : فتوح الشام

ـ ثانياً : فتوح العراق

ـ ثالثاً: فتح مصر



الفتوحات في عصر الخلفاء الراشدين:

انتهت حروب الردة، وتم القضاء على كل من ادعى النبوة كالأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وسجاح، ورجع الهدوء والاستقرار إلى الجزيرة العربية كما سلف القول في فصل تقدم.

وبدأت أنظار المسلمين تتجه ناحية حدود دولتهم، فالفرس يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية، ويساندون أعداءها، والروم يحاربون الدعوة وينصرون خصومها.

- الفتوحات والانطلاقة العالمية:

اندفع العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية باتجاه العراق، وبلاد الشام، وكان منطلقهم في ذلك نشر الدين الإسلامي، والجهاد الذي حث عليه الإسلام.

فالإسلام رفع معنوياتهم، وإحساسهم بالرسالة العالمية، وحثهم على رفض هيمنة الفرس والرومان على القبائل العربية في الدول المجاورة لهم، خاصة أن الرسول قد مهد لذلك بغزوة مؤتة وتبوك، وتبوك، وكان الهدف الأهم تحرير الإنسانية من الشرك والظلم، ونقل بني البشر من عبادة الأوثان والبشر إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإلى المساواة.

أضف إلى ذلك أن حروب الردة أثارت، الروح القتالية بين المسلمين أنفسهم، لذا كان لابد من إيجاد مجال آخر للحرب خوفًا من الفتن الداخلية،هذا من ناحية كما يراه بعضهم، ومن ناحية أخرى كان في القضاء على المرتدين إعادة الوحدة إلى شبه الجزيرة، وإتمام لما شرع به النبي ﷺفي غزواته، ومراسلاته بالتبشير العالمي للرسالة، وقد ورد في المصادر أن أوامر أبي بكر إلى خالد حين وجهه لحرب مسيلمة، أن يمضي من اليمامة إلى العراق لفتحه، وإنَ ضعف بيزنطة وفارس سيسهل على العرب القضاء عليهما.

من ذلك يقف الباحث مشدوهًا مبهورًا أمام تلك الاندفاعة التي اكتسحت دولاً كبرى، وقبائل ذات شكيمة وقوة، ودانت لها ديانات كان لها صولة وجولة،كاليهودية والمسيحية، والمجوسية، وأصبح للإسلام قوة جعلت أعلامه ترفرف على رقعة واسعة من الأراضي.

قد نقف متسائلين: كيف حدثت هذه الفتوح؟ ولماذا حدثت؟ وما هي طبيعة هؤلاء الذين اكتسحوا هذه الرقعة الضخمة من الأرض؟ ما أهدافهم؟ ما الجذوة التي أوقدت فيهم هذه الطاقة حتى أوصلتهم إلى هذه النتيجة؟ ما هي البواعث؟ وما هي عوامل النجاح؟

من يرصد الأحداث منذ عصر الرسول ﷺ يلاحظ أن سراياه وغزواته، كانت تتجه إلى الشمال، وبناء على ذلك جمع الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه المجلس الإستشاري لديه المؤلف من عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله التيمي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، رضوان الله عليهم، ووجوه المهاجرين والأنصار[١] واستشارهم، وتم الاتفاق على التعبئة العامة، واستنفار القوى إذ خطب الخليفة في الناس يحثهم على ذلك قائلاً:" إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام "[٢]، إذن بعد أن أمن الخليفة الإسلام في داره، وعمل من أجل تأمين الإسلام في حدوده، ودفع خطر هجوم الأعداء عليه[٣]، شرع في حمل الرسالة لتبليغها تبليغاًعالمياً، بادئاً أولاً بتحرير الوطن العربي من الهيمنة البيزنطية والساسانية.

١- الأزدي، فتوح الشام ص٢. ابن عساكر التاريخ الكبير ١٢٦/١.الدواداري: كنز الدرر٣/ ١٦٢.

٢ -الأزدي : فتوح الشام ص١١. ابن عساكر التاريخ الكبير ١٢٧/١. الكلاعي:الاكتفا ص١٠٨.

٣- لجنة من أساتذة جامعة الأزهر دراسات، ص ٢٤١

أولاً-فتوح الشام:

عقد أبو بكر الصديق اللواء إلى خالد بن سعيد بن العاص، وكلفه غزو الروم ٢ ربيع الآخر١٢ هـ /١٦ حزيران٦٣٣ م، ثم سارع في عزله بعد نصيحة عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وذلك بسبب ترتيبات والفتح وخططه التي اقتضت ذلك، لا كما ادعى بعضهم بحجة تأخره عن مبايعة أبي بكر بالخلافة، وجعله على رأس قوة احتياطية في تيماء فقط[١].

وبدأ الجيش بالتجمع في المعسكرات، وفي أثناء ذلك خرج الخليفة أبو بكر الصديق، وتساءل فيما إذا كانت هذه القوة كافية، فرد عمر بن الخطاب بأنها لا تكفي، وأنه من الضروري مراسلة القبائل، ودعوتهم إلى الجهاد، فبعث أنس بن مالك إلى اليمن، وكتب كذلك إلى أهل الطائف ومكة[٢]، فأقبلت قبائل اليمن، ومعهم الذراري والأموال والنساء يتلو بعضهم بعضًا، فجاؤوا قبيلة إثر قبيلة، وقوماً إثر قوم، وكان لكل قبيلة رايتها وشعارها الذي يجتمعون عليه[٣].

وبدأ الخليفة بعقد الألوية في أوقات مختلفة، ولجبهات متعددة، مراعيًا في ذلك طبيعة الأراضي الشامية واتساعها وتوزع قوات الروم، إذ إن مركز قوة الروم لم يكن في مكان واحد ومحدد، وإنما توزع على شكل حاميات منتشرة في مناطق مختلفة، الأمر الذي فرض على القيادة في الدولة العربية الإسلامية اتباع أسلوب خاص من التكتيك العسكري، استهدف أولاً جعل دمشق حاضرة لبلاد الشام، والانطلاق من الشام الشمالي إلى آسية الصغرى، ومن الشام الجنوبي نحو مصر، وسيأتي بعد هذا بقليل دور البحر المتوسط.

---

١ -الأزدي: فتوح الشام، ص٦. الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢١٩/٣. الذهبي: تاريخ ص٨١

٢-الواقدي: فتوح الشام١١/١. الأزدي: فتوح الشام ص٨١. ابن عساكر: التاريخ الكبير ١٢٩/١ أفتيشوس: التاريخ المجموع على التحقيق ص٩.

٣-دسوقي :القبائل،ص ١٣٦ . شنيور :الفتح العربي الإسلامي،ص ١٢٣.

أضف إلى ذلك تشتيت صفوف الروم، وتوزيع قواها، فيشكل كل جيش بذلك مددًا للجيش الآخر، وهذا يسهل تصعيد القتال في المكان المحدد، إضافة إلى أنه يزيد من سهولة التموين للجيوش الإسلامية، لكن هذا التوزيع للجيوش أدى إلى توزيع العمل والسرعة في تنفيذه، وقد دلَ على وجود خطة لمتابعة الفتوحات، إذ تابعت بعض الجيوش التي أرسلت إلى الشام الفتوحات فيما بعد في مناطق أخرى مثل مصر،وأعالي بلاد الرافدين، وأرمينية، وآسية الصغرى، وغيرها من المناطق[١]

عقد أبو بكر الصديق أربع فرق يقودها قواد عباقرة عظام، كانت على الشكل التالي:

كان على رأس الفرقة الأولى عمرو بن العاص ووِجْهَتُه "فلسطين.

وكان على رأس الفرقة الثانية يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق.

وكان على رأس الفرقة الثالثة الوليد بن عقبة ووجهته وادي الأردن.

أما الفرقة الرابعة فكان على رأسها شرحبيل بن حسنة، وكانت مهمته خرق البادية نحو الشمال إلى أعالي بلاد الرافدين، ثم أرسل قوة كانت مهمتها بل بالحري الإشراف العام، والتنسيق بين الجيوش، وكان على رأسها أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ووجهته حمص.

وقد ركز أبو بكر على أهمية الاستطلاع، وجمع المعلومات عن العدو في الإستراتيجية العسكرية.

ووقعت الاشتباكات متفرقة مع البيزنطيين، وكانت في مواضع مختلفة من المناطق التي توزعت فيها قوات المسلمين، ثم بدأت المعركة، وكان أول فتح

---

١ -زكار : القدس في التاريخ،١٧/٣.

لجيوش المسلمين على يد يزيد بن أبي سفيان في تبوك[١]، التي دخلها بلا عناء كبير.

ومن تبوك توجه إلى وادي عربة فانتصر على الروم، وأجبر قائدهم على الانسحاب إلى غزة فلحق به المسلمون وقتلوه[٢]، وتقهقر جيشه، فلما علم هرقل بذلك، أمر أخاه الذي كان يتولى إمارة حمص أن يسير في جيش كبير إلى جنوب دمشق لحمايتها من الزحف العربي، كما أمر بعضاً من قادته الآخرين أن يحكموا تحصين القدس، وقيسارية تحسباً لهجوم عربي قد يقع عليهما.

في الوقت الذي كانت هذه الاشتباكات دائرة بإشراف لواء يزيد، تابع بقية القادة زحفهم، فمرَ أبو عبيدة بن الجراح بوادي القرى ثم الحجر حتى وصل مآب، فانتصر على الروم وصالح أهلها، وكان هذا أول صلح بالشام[٣] .

أما جيش شرحبيل فقد تابع زحفه، وهو الجيش الوحيد الذي لم يلق مقاومة تذكر، واستمر بزحفه باتجاه بصرى.

أما عمرو بن العاص الذي توجه إلى إيلياء، فقد شعر أثناء تقدمه أن البيزنطيين يقومون باستعدادات عسكرية لمواجهة القوات العربية المتقدمة، وقدر أن ما تحت إمرته من قوات غير كاف لمتابعة عملياته العسكرية بنجاح، فقد أحاطت المحن بالشام من كل جانب، وطفق الروم يعدون العدة ويجمعون المقاتلين، وبدا الواقع ينذر باشتعال الحرب في أية لحظة لحسم الموقف، لذا استنجد بأبي بكر، وطلب منه المدد إزاء ذلك، ولمعرفة أبي بكر بزحف جيش ثيودور، وجد أن أفضل من هو أهل لمثل هذه المواقف خالد بن الوليد، فقد

١- الواقدي : فتوح الشام١/١٥.

٢ -ابن حبيش:غزوات١/١٧٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك٣/٢٣٤. ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٧.

٣-ابن حبيش: غزوات١/١٦٠. الأزدي: فتوح الشام ص٢٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك٣/٢٣٤.

كُللت عملياته العسكرية في العراق بالنجاح، وأبدى من البطولة والإقدام مايعجز عن الوصف، وقال: " والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"[١] أضف إلى ذلك أنه أراد ضرب جيش ثيودور من الخلف، فجمع القوات العربية كلها لتخوض معركة حاسمة، ستكون معركة اليرموك [٢]، لذا كتب إليه أن يترك قيادة القوات العربية في العراق للمثنى بن حارثة، وأن يتوجه مع بعض رجاله إلى الشام لرفد الجيوش العربية العاملة هناك، وحتى يضمن الصديق أن لايقع إشكال أو تضارب في صلاحيات القيادة عند اللقاء، كتب لأمير الشام أبي عبيدة بن الجراح، يوضح له أسباب استعانته بخالد مع اعترافه المسبق بفضله وقدراته ومكانته وكفاءته، مسوغاً ذلك بالقول: " ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك "[٣]

أمام هذا الطلب من الخليفة كان على خالد معالجة أمرين: الأول هو سرعة الانتقال بقواته من العراق إلى الشام، والثاني تمثل في بعد المسافة، وعدم معرفته مواقع القوات الإسلامية على الجبهة الجديدة معرفة دقيقة، لذلك بدأ بدراسة أفضل الطرق المؤدية إلى بلاد الشام، وأقصرها مسافة للوصول إلى بلاد الشام في الوقت المناسب امتثالاً لأوامر الخليفة.

والمفيد ذكره أن الطرق المعروفة للجميع طريقان: الأول يمر عبر دومة الجندل وكان هذا هو الطريق المستخدم من القوافل التجارية التي تتجه إلى الشام، وهي سهلة ومأهولة وتتوفر فيها المياه، لكونها بعيدة المسافة، وتحتاج إلى وقت طويل، وهذا يتعارض مع أوامر الخليفة، أما الطريق الثاني فيقع في المنطقة الشمالية، ويمتد على نهر الفرات، وهذا الطريق أكثر مواءمة

---

١ –الطبري: تاريخ ٦٠٣/٢. ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٧.

٢–الأزدي : فتوح الشام ص٤٠، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٩٤/٣.

٣ – ابن دحلان، (أحمد بن زيني) : الفتوحات الإسلامية، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ٣٩/١.

من حيث سهولة التنقل عليه وتتوفر فيه المياه إلا أن سيئاته حالت دون الاستفادة منه، وذلك بسبب انتشار الحاميات البيزنطية، الأمر الذي يحول دون الاستفادة منه، إضافة إلى أنه لا يفيد في الوصول مباشرة إلى موقع القوات الإسلامية الموجودة في المنطقة الجنوبية من مسرح العمليات، لكنه يفيد في عزل عرب البادية، ويساعد على فتح دمشق، وهناك حكاية أقرب إلى الأسطورة المخترعة، ومفادها أن رافعاً بن عمير أشار على خالد ركوب طريق محفوف بالمخاطر، وقليل المياه فيما بين قراقر وسوى[١]، فالمسافة بين قراقر وسوى طويلة وتخلو من المياه، وتحتاج إلى خمسة أيام لاجتيازها على حسب ما أجمعت عليه معظم المصادر[٢]، وعلى الرغم من المخاطر التي تحيط به تم اختياره، وهو طريق الحيرة–عين التمر– قراقر–سوى– تدمر – بصرى، وقد ذكرت المصادر الطريقة التي تمت فيها معالجة مشكلة المياه إذ قام بتعطيش الإبل وملأ جوفها بالماء[٣]، فهل هذا العمل كان ممكناً ؟

المستغرب أن هناك كثيراً من الباحثين مازالوا يأخذون بهذه الحكاية التي لاتصمد أمام المنطق العلمي، لأن رأس الخيل يحتاج في اليوم الواحد إلى أربعين لتراً من الماء، مع كمية العلف التي تصل إلى ١٢– ١٥ كغ، ثم إن الماء الذي يكون في كرش الجمل لاتشربه الخيول، وحلت مشكلة المياه بالفعل بمسايرة وادي الفرات نحو الشمال، ومن ثم خرق لضرب التجمعات القبلية في البادية للحيلولة بينها وبين تقديم العون للبيزنطيين، كتغلب والنمر[٤]، وكان

١– الواقدي: فتوح الشام١/٢٦.

٢ –الواقدي : فتوح الشام ١/٢٦. البلاذري: فتوح البلدان ص١٣٥. الطبري: تاريخ ٣/٢٣٢، ٢٤٢.

٣– الواقدي: فتوح الشام١/٢٦. الأزدي : فتوح الشام ص٦٩. البلاذري: فتوح البلدان ص١٣٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك٣/٢٣٤. ابن الأعثم الكوفي: الفتوح١/١٣٥–١٣٦. ابن الأثير:الكامل٨/٢٨٠. ابن عساكر: التاريخ الكبير ١/١٣٧. الدواداري: كنز ٣/١٦٧.

٤ – البلاذري : فتوح البلدان ص١٣٥. ابن الأعثم الكوفي: الفتوح ١/١٣٥.

الموسم بداية الربيع، فأغار خالد على قبائل بهراء وغسان وكلب ونسف معسكراتهم، حتى وصل إلى تدمر، وعندما مر بتدمر تحصنوا منه فطوقهم، وعندما وجد أن الأمر سيطول تركهم، فلحقوا به وصالحوه[١]، فعلى الأغلب حصل خالد بن الوليد على الماء والمؤن من السبخ والمراعي.

اجتاز البادية بعد ذلك وصولاً إلى أطراف حمص، ثم توجه نحو الضمير فمرج عذراء بريف دمشق، حيث ضرب معسكر كلب، ثم قصد الجابية، فحوران حيث كان أبو عبيدة معسكراً وفاجأ حامية دمشق، وظهر خلف الجيش البيزنطي الذي توجه إلى أجنادين، فإذا بعمرو بن العاص معسكراً هناك، وجيش شرحبيل قرب بصرى، وبعد مشاورات بين أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، كان الرأي مراسلة القادة من أجل الاجتماع في أجنادين لمواجهة القوى الرومية لأن تجمع القوى الرومية هناك فرض هذا الوضع، وبعد تنظيم القوات واستخدام الحيل والمكائد ونصب الكمائن ومشاركة المرأة في المعركة تم الهجوم على البيزنطيين، وإحراز النصر، وكانت هذه المعركة قد أظهرت شخصية فلسطين الإسلامية، ومهدت لمعركة اليرموك ١٣هـ / ٦٣٤م[٢]، وباتت الطريق مفتوحة إلى دمشق، ومع هذا كان لابد من إكمال عزل هذه المدينة تمامًا، لذلك خاض المسلمون بعد ذلك عدة معارك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

---

١ – ابن حبيش : غزوات ١٩١/١. الأزدي: فتوح الشام ص٧٧.

٢–البلاذري:فتوح البلدان ص١٤٦. اليعقوبي: تاريخ١٤٠/٢. ابن حبيش: غزوات٢٠٩/١.



فتح دمشق:

افتتح الخليفة عمر بن الخطاب عهده بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للقوات الحربية في الشام، وأحل محله أبا عبيدة بن الجراح، فأخفى خالد الأمر عن جيشه وتابع القتال، وقد اختلفت المصادر حول المعركة التي قامت، إذ ذكرت أنّ جيش المسلمين سار إلى فحل في الأردن[١]، وذلك بتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي تسلم الخلافة بعد وفاة الخليفة أبي بكر الصديق، فطلب إليهم أن يبدؤوا بدمشق، على أن يكون إشغال أهل فحل بالخيول، وإذا تأخّر ذلك توجهوا إلى فحل، وبالفعل تم لهم ذلك[٢].

ويبدو أن تأخّر فتح دمشق لم يكن السبب الوحيد في معركة فحل، إذ كانت من دواعي استمرار الفتح الإسلامي أن يقوم المسلمون بتصفية الوجود البيزنطي من جنوب بلاد الشام، ولكون فحل كانت تمثّل حصناً عسكرياً بيزنطياً، فكان لابد من ملاحقتهم لتأمين التواصل بينهم وبين قيادتهم في المدينة، ليتمكنوا من حصار دمشق، وحدثت المعركة في ذي القعدة(١٣هـ /

١- المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٢٠.

٢- الطبري : تاريخ الرسل والملوك٣/ ٢٦٠. ابن الأثير : الكامل ١/ ٢٩٥.

٦٣٤م)، بحسب ما ورد في أغلب المصادر[١]، وقد توجه القادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبو عبيدة بن الجراح لملاقاة جيش كان قد أرسله هرقل إلى الشام[٢]، لضرب قوات المسلمين المنتشرة في بلاد الشام من جهة، ولقطع طرق مواصلات المسلمين من جهة أخرى[٣]، وأمام هذا الوضع الجديد وقف المسلمون حائرين في أمرهم، فقرروا مراسلة الخليفة عمر لاستشارته مع البقاء في حالة استنفار تام تحسباً لأي هجوم مباغت.

وقبل وصول رد الخليفة بدأ الروم بالهجوم، لكن نتيجة المعركة كانت لصالح المسلمين، إذ تمت السيطرة على القلاع التي كانت للروم وأصبحت بمنزلة موقع إسلامي أمامي لحماية ظهر الجيش الإسلامي المحاصر لدمشق من أي خطر يتهدده من جهة فلسطين، بعد أن كانت خطراً يهدد المسلمين[٤].



وبعد فحل صالح شرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص أهل بيسان بعد حصارها، وذلك في ذي الحجة (١٣هـ / ٦٣٥ م) كونها أقرب المناطق

١-البلاذري: فتوح البلدان ص١٣٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك٢٥٧/٣. ابن عساكر: تاريخ٩٩/٢.

٢- البلاذري: فتوح البلدان ص١٤٠. ماجد : التاريخ السياسي ص٨٣.

٣- أبو قدورة: الحروب العربية الإسلامية١٤٥/١.

٤-العسلي : فن ص١٣١.

إلى فحل، وقد لجأ إليها عدد من جنود الروم الفارين من فحل، فكان لابد من اللحاق بهم والقضاء على مقاومة الروم في تلك المنطقة للمضي قدماً في إخضاع بلاد الشام للإسلام.

كما أنّ شرحبيل بن حسنة افتتح الأردن عنوة في التاريخ ذاته، وصالحه أهل طبرية على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وتتابع فتح مدن الأردن من دون مقاومة تُذكر، ففتحت سوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان[1]، وبعث أبو عبيدة بخمس الغنائم إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وقد منح هذا النصر السيطرة الكاملة للمسلمين على جل الأجزاء المتصلة اتصالاً مباشراً بشبه جزيرة العرب، وبذلك بات بالإمكان جلب الإمدادات وحماية ظهر القوات العربية حتى تتفرغ لبقية مشروع فتح بلاد الشام، وفي الوقت ذاته عُزلت مصر عن بلاد الشام وبات من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك، أو إرسالها إليها براً، وفي هذا برهان أكيد على وجود خطط استراتيجية واضحة لمتابعة فتح شمال بلاد الشام ومصر، ويبدو أنّ هذا الوضع وفّر للدعوة الإسلامية مناخاً حسناً، وفي الوقت ذاته جعل مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الأولى من الحركة الإسلامية باتجاه التطلعات الإسلامية وأغراضها، وتركتها وسط تيار الإسلام المتوثب نحو بلاد الشام، وقد عملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين والمشاركة في طرد البيزنطيين.

وغدت دمشق هي الوجهة، ولكن لماذا دمشق، مع أن قنسرين، والقدس، وأنطاكية، كانت آنذاك الأهم؟ فهل هذا كان تطلعاً استراتيجياً مستقبلياً؟. نعم لأن الجغرافية السياسية، والدينية، والاجتماعية مقبلة على

---

١ –البلاذري: فتوح البلدان ص١٤٠، ١٤١ ــ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٦٤ــ ٢٦٥ ابن حبيش: غزوات، ١/٢١٩ــ ٢٢٠.

التغيير، وسوف تكون دمشق حاضرة بلاد الشام الإسلامية، ولن تبقى القسطنطينية، لأن بلاد الشام وحدها المؤهلة لإيصال الإسلام إلى بقاع المعمورة كافة، لقد أصبح فتح دمشق هو الأولوية بعد تأمين ظهور المسلمين من جهة الجنوب التي أصبحت تقريباً خالية من أية حامية أو قوة رومية يمكن أن تستخدم فيما بعد لفك الحصار عن دمشق، كما تم إبقاء قوة عسكرية في فحل لضمان الحماية ومنع تقدم أية قوات رومية نحو دمشق[١]، وقد أصبح بالإمكان الحصول على الإمدادات من شبه الجزيرة كما سلف ذكره، أضف إلى ذلك فتح كل من البقاع، وبيروت، حتى لايتسنى لبيزنطة القيام بأية عمليات إنزال بحرية، وعلى هذا امتلك المسلمون خططاً علمية، وليس من المستبعد أن هذه الخطط كانت منذ أيام النبي ﷺ، لأنها تأسست على معلومات عن بيزنطة- وعن الإمبراطورية الساسانية- وكانت اتسمت بأنها دقيقة جداً، وارتبطت بجوانب متعددة داخلية، وخارجية، ارتباطاً اجتماعياً وعسكرياً، وإدارياً، وكنسياً، وكان من غير الممكن توفر مثل هذه المعلومات إلاَ عن طريق الوحي.

لقد اجتمعت أسباب مختلفة لهذا النصر منها ما يتعلق بالإمكانات الكثيرة التي توافرت لدى قيادة جيش المسلمين من عبقرية وحنكة وفهم دقيق للوقائع، بعكس قيادة الروم التي نظرت إلى الأمور والوقائع بجهل تام.

أضف إلى ذلك أن إيقاظ الفكر لم يكن محصوراً في عرب الشام فحسب بل برز في ظلال الظروف المستجدة بالجيش الذي كان عوناً للمسلمين، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عرباً وغير عرب من الحركة الإسلامية من جهة، وبيزنطية من جهة أخرى أن العرب المتنصرة انقلب كثير

١- وتر : القيادة ص١٦٠

منهم بعد أن كانوا مع الروم فانضموا إلى العرب المسلمين، وأخذتهم الحمية وأصبحوا عوناً للمسلمين على الروم.

أضف إلى ذلك أن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين، وحسن سيرتهم صاروا أشد على الروم من المسلمين، وبعث أهل كل مدينة صالحت المسلمين رجالاً منهم يستطلعون أحوال الروم ويقدمون أخبارهم للمسلمين[١].

وأثناء التوجه إلى دمشق، وفي الطريق إليها واجه المسلمون جيشا رومياً متمركزاً في منطقة مرج الصفر(منطقة الكسوة حالياً)، وكان هدف هذه القوة محاولة إعاقة تقدم الجيش الإسلامي في أحسن الأحوال، وذلك لكسب الوقت من أجل زيادة تحصين دمشق وتموينها[٢]، فسار خالد بن الوليد إلى تلك القوة بعد أن عبّأ جيشه، وحدثت معركة بينهما بعد أن بدأت بمبارزات فردية، أدت إلى أسر من خلالها بعض قادة الروم، وانهيار معنويات مقاتليهم، وتمت فيها هزيمة الروم، ففر من بقي حياً منهم فبعضهم توجه إلى دمشق وبعضهم الآخر توجه إلى حمص ١٤هـ/ ٦٣٥م[٣]، وقد توجب على العرب السيطرة على البقاع والتوسع وصولاً حتى بيروت ثغر دمشق لأن الذي يصل دمشق بحمص يمر عبر البقاع إلى بعلبك، ولتوضيح ذلك يمكن القول: إن السيطرة على البقاع كانت أمراً مهماً، لكن ليس حاسماً فيما يتعلق بتطويق دمشق، فالطريق التي وصلت بين دمشق والبقاع كانت تمر عبر خانق الربوة وجبل قاسيون، وهذه الطريق لم تكن مفيدة من الناحية العسكرية لذا كانت الطريق العسكرية تذهب إلى جنوب دمشق، وربما إلى ما بعد مرج الصفر، ثم تنطلق شمالاً، وهنا تظهر مجدداً أهمية معركة مرج الصفر وفحل.

١- الشريف:(عبد الله بن حسين)، موقف يهود الشام من الفتح الإسلامي، مجلة جامعة أم القرى، م١٦، العدد ٢٨، ٢٠٠٣م، ج١، ص٥٠٦

٢- سعيد: حروب ص١٤١. عباس : تاريخ ص٢٣٨.

٣-سعيد: حروب ص١٤١. عباس : تاريخ ص٢٣٨.

تابع العرب المسلمون زحفهم باتجاه دمشق، وسيطروا على المناطق المحيطة بدمشق من الغوطة الشرقية وغيرها، حتى منطقة ثنية العقاب(الراية الحربية)، وتابع العرب المسلمون زحفهم باتجاه دمشق، وسيطروا على المناطق المحيطة بدمشق من الغوطة وغيرها، فذكر بعضهم أن السيطرة على تلك المناطق كان عنوة[١]، وبدأت الآن مرحلة جديدة وهي مرحلة حصار دمشق، وهنا الخلاف كبير بين المؤرخين حول تاريخ الحصار وترتيبه مع باقي المعارك فمنهم من ذكر أن هذا الحصار كان بعد اليرموك[٢] إذ انهزمت فيه قوات الروم، فكيف لقوات منهزمة أن تعاود الصمود أمام القوات الملاحقة لها، وتجارب المعارك تؤكد أنه لا يمكن لأي جيش مهزوم بمعنويات منهارة وملاحق من قوات المنتصرين بمعنويات مرتفعة أن يفكر بتكرار التجربة.

وجعل بعضهم حصار دمشق قبل اليرموك، وسبب الخلاف في تحديد تاريخ حصار دمشق هو تكرار الحصار لأكثر من مرة فقد حوصرت من أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد قبل معركة أجنادين ولكن لم يتم فتحها، والدليل على أنه حصل فتح دمشق قبل اليرموك أن المسلمين عندما قرروا الانسحاب إلى اليرموك أعادوا الأموال التي أخذوها من المدن التي صالحتهم، بما في ذلك حمص ودمشق، تنفيذاً لشرط الأمان الذي أعطاه المسلمون لأهالي المدن المفتوحة فالشرط قد انتفى برحيل المسلمين عنهم، أضف إلى ذلك أن المسلمين لما انسحبوا من حمص ودمشق إلى اليرموك عادت دمشق في حل من شروط الصلح والأمان وبعد انتصار المسلمين في اليرموك أعادوا فتح دمشق على شروط الصلح السالفة، وجاء الانسحاب بسبب قدوم جيش بيزنطي عملاق.

١- الأزدي: فتوح الشام، ص٩٥، ٩٦. البلاذري: فتوح، ص١٤٣. ابن حبيش: غزوات، ٢٠٣/١، ٢٠٤

٢- البلاذري: فتوح ص١٤٥. ابن الأثير: الكامل،٢٩٣/٢ ـ ابن كثير: البداية، والنهاية ٢٤/٧.

وعلى هذا فالمرجح أن فتحها الأول تم في (١٤هـ / ٦٣٦م)، أيام الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، الذي قام بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة لجيوش جبهة الشام كما سلف ذكره، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح، في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد يدير رحى القتال بمهارة وبسالة يستحقان الإعجاب والتقدير، فلم يغضب، ولم يتمرد وقبل بأمر العزل من دون أي تذمر، ولم يكن لهذا أي تأثير في عزيمته، أو أي تغيير في إخلاصه لدينه بل ظل فعلياًيقود الجيش ويمده بآرائه، ويرفده ببلائه على الرغم من عزله الرسمي عن القيادة، فالمهم هو القيادة الفعلية، كما سوف يتضح في معركة اليرموك.

واختلفت المصادر في ذكر أسباب العزل وتعددت الروايات[١] ومهما يكن من أمر فإن هذا العزل لم يكن له أي تأثير في مجريات الأحداث وفي علاقة القادة بعضهم مع بعض، وفي نفسيات الجنود ومدى التزامهم بأوامر خالد بن الوليد، لأن العزل كان عملاً ظاهرياً فقد ظل سيف الله هو الأول بين أمراء جيوش العرب في بلاد الشام، وصاحب الكلمة النافذة والرأي الراجح في الحروب، أضف إلى ذلك أن هذا العزل إنما كان مظهراً من مظاهر عبقرية عمر الإدارية والسياسية، فقد اختار للقيادة في الظرف الجديد شخصاً يمكن أن تلتف حوله قلوب المقاتلة، ولا يؤدي وجوده إلى تفرق الكلمة لأنه استعان ببعض قبائل الردة إلى جانب القبائل اليمانية وأبرزهم قيس بن المكشوح المرادي، وإن هذا الأمر كان يستدعي إبعاد خالد بن الوليد عن القيادة وتسليمها لأبي عبيدة، ألم يكن خالد بن الوليد هو بطل حروب الردة؟ فقد نظر عمر رضي الله عنه بعين بصيرة نافذة إلى ضرورة استثمار النصر العسكري،

١- للاطلاع : راجع الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٢٣/٢ ــ ابن الأثير: الكامل، ٢٩٣/٢، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٢٦٧/١٦.

بتحويله إلى نصر دائم، ومثل هذا كان يقوم رجال السياسة، والإدارة المثاليين، وفي ذلك إنهاء لدور العسكريين.

والمفيد ذكره أنّ تقبّل خالد لهذا الأمر دليل على تفهمه العميق للأسباب التي دعت الخليفة لاتخاذ القرار، وعلى إخلاصه للمهمة العسكرية والدينية التي اضطلع بها قائداً أول الأمر ومقاتلاً فيما بعد، ويبدو أن أبا عبيدة كان لديه من الحكمة والتفهم للأسباب التي دعت إلى هذا التغيير، وأوكل إلى خالد القيادة العسكرية الفعلية بكل ما تحتاج إليه من تقنية وعلم لا يتوافران إلا لخالد دون سواه- لدى التراجع نحو اليرموك-، وهذا الدور المزدوج لكل من أبي عبيدة وخالد سبب الحيرة والتناقض في الروايات، ومهمة المؤرخ الحديث التحليل والتركيب، والنفاذ إلى جوهر الخبر التاريخي، لأن السياسة باتت علماً قائماً بذاته، ومثل ذلك ضروري لبسط الإدارة المدنية بعد انتهاء المعارك، وأهمية استتباب السلم.

ومن المفيد ذكره أن العزل كان لأسباب تتعلق بجيش المسلمين، وترتبط باجتهاد سديد من الخليفة عمر بن الخطاب، وليس لأسباب شخصية كما ادعى أعداء المعرفة التاريخية، وعلوم السياسة.

وكانت دمشق مدينة محصنة متينة الأسوار، مفلطحة الشكل، تحيط بها البساتين من كل جانب، ومن أهم أبوابها باب شرقي من الشرق، وإلى جانبه باب توما (التوأم)، ومن الغرب باب الجابية، ومن الجنوب باب الصغير، وهي ماثلة حتى الآن بالأسماء ذاتها، وأخذت المدينة شكل البيضة المدحية، ولم تملك وقتها قلعة داخلية، لكن أبوابها كانت متينة صنعت من الأخشاب السميكة، وغطيت بصفائح من الحديد.

وأصبح أمام قوات المسلمين بذلك، سور وخندق مملوء بالماء، وأبواب متينة مصنوعة من الخشب السميك، إذا أغلقت صَعُبَ فتحها، أضف إلى ذلك

أنه لم يمتلك العرب آنذاك الأسلحة الجماعية ولا الخبرة الواسعة باستخدامها، لذلك لم يكن أمام المسلمين سوى إحكام الحصار ومطاولته من جميع الجهات، حتى تستسلم المدينة، أو يتم تسلق أسوارها، وتمركز كبار القادة عند الأبواب، فكان أبو عبيدة على باب الجابية، وخالد بن الوليد على الباب الشرقي، وعمرو بن العاص على باب الفراديس، وتُرك باب توما لشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان على باب الصغير[١] مع بقاء قوة مع ضرار بن الأزور لتكون حامية متحركة[٢] بين الأبواب لضمان القيام بالنجدة المناسبة عند الحاجة إلى ذلك، ويفيد هذا أنّ تمركز خالد بن الوليد وأبي عبيدة كان قبالة بعضهما على طرفي الشارع المستقيم لمدينة دمشق (سوق مدحت باشا وامتداداته حالياً)، أضف إلى ذلك فقد اتخذ المسلمون فرقاً احتياطية تعمل على قطع الطرق عن دمشق، فعسكر أبو الدرداء عند برزة على طريق بعلبك ليتصدى لأي هجوم آتٍ من الشمال، وأقام ذو الكلاع الحميري بين دمشق وحمص عند ثنية العقاب ليقطع الطريق، وعسكر علقمة بن حكيم ومسروق العبسي كي يتصديا لأي هجوم آتٍ من جهة فلسطين، وجعلت مسلحة عند ميسلون للتصدي لأي زحف يأتي من جهة الغرب، وقد كان لهذا الإحكام أثره في أهل البلد.

واشتد الحصار على المدينة وطال، وباءت بالإخفاق كل المحاولات لخرق الصفوف العربية ولم تصل أي نجدات بيزنطية، فعقد المحاصرون الآمال على الشتاء، ذلك لأنهم ظنوا أنَّ المسلمين لن يستطيعوا أن يصمدوا أمام الحصار ولاسيما أيام الشتاء، إلا أن المسلمين أصحاب الإيمان القوي والصبر الكبير صمدوا، وذلك بوساطة التناوب على المرابطة، مع استمرار الاستطلاع

١-البلاذري: فتوح، ص١٤٦. اليعقوبي: تاريخ، ١٤٠/٢. ابن حبيش: غزوات، ٢٠٩/١

٢- وتر: الريادة، ص١٦٦

لاختيار فجوة يمكنهم من خلالها الدخول إلى دمشق[١]، أخذت المؤن تنقص داخل دمشق، كما شرع سكان أحواز دمشق في تقديم المساعدات والإرشادات إلى العرب، وبدأت بعض شخصيات دمشق المعروفة بالاتصال بالعرب كأسقف المدينة، ومنصور بن سرجون صاحب المال وعامل دمشق بأمر الروم، وطلبوا إلى خالد بن الوليد أن يعطي الأمان لأهل دمشق جميعاً مقابل فتح أبوابها للعرب، فأجابه خالد بن الوليد إلى ما سأل وكتب له أماناً تضمن:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق، إني قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، لهم في ذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين، ولا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية ". شهد عليه أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة و قضاعة بن عامر.

ولقد كتب أبو عبيدة بن الجراح لهم كتاباً اشترط فيه عليهم حين دخلها:" أن تترك كنائسهم وبيعهم على أن لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة، على أن عليهم إرشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم، وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وعلى ألا يشتموا مسلماً ولا يضربوه، ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صليباً، ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين، وأن يوقدوا النيران للغزاة في سبيل الله، ولا يدلوا للمسلمين على عورة، ولا يضربوا نواقيسهم قبل أذان المسلمين ولا في أوقات صلاتهم، ولا يخرجوا الرايات في أيام عيدهم، ولا يلبسوا السلاح يوم عيدهم، ولا يتخذوه في بيوتهم، فإن فعلوا من ذلك شيئاً عوقبوا وأخذ منهم"[٢]. وقد اختلفت الروايات حول كيفية الدخول، بل إنها اختلفت كذلك حول اسم القائد الذي دخلها صلحاً واسم

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/٢٦١-٢٦٠.

٢- الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٦٤ــ ٢٦٥

القائد الذي دخلها عنوة، كما أنها اختلفت فيما إذا كان الدخول بالقوة أم بالصلح أم بالاثنين معاً[١]، والمرجح دخول خالد عنوة، ودخول أبي عبيدة صلحاً، حيث التقيا وسط الطريق عند " الفسقار" ليس بعيداً عن مدخل سوق البزورية الحالي.

فكيفما كانت طريقة الدخول، فقد تم ذلك من جهتين، الأولى من باب شرقي والثانية باب الجابية، واللافت للانتباه أن هناك طريقاً تربط بين هذين البابين ربطاً مستقيماً وهذا يعني أن الدخول من أحد البابين سيؤدي حتماً إلى فتح الباب الآخر، لذلك كان المسلمون مدركين أهمية هذين البابين فكان التركيز عليهما شديداًمن خالد ابن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح، ومما لا شك فيه أن تحركات جيش المسلمين إنما جاءت تطبيقاً لمبادئ مذهب عسكري جديد وقواعد ومبادئ كانوا قد اتبعوها شملت الاستطلاع واختيار الفرصة المناسبة والمباغتة وإبداعات كل قائد في مكانه، وبعد إكمال فتح المدينة، جرى اقتسام كنيسة يوحنا(موضع الأموي حالياً) بين المسلمين والمسيحيين، للمسلمين القسم الشرقي، وبقي للمسيحيين القسم الغربي.

ومهما يكن من أمر فقد باتت الآن دمشق مفتوحة وهي من أكثر المناطق أهمية من النواحي الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والجغرافية، بعد أن فر عدد كبير من روم دمشق إلى هرقل في أنطاكية، فحل في بيوت هؤلاء أفراد من الجيش الإسلامي، لذلك وأمام هذا الوضع الجديد خشي القائد أبو عبيدة بن الجراح أن يميل قادة جيش المسلمين وأفراده إلى حياة الدعة والنعيم متناسين باقي القوات التي ترابط بين دمشق وحمص، ولذلك كان لابد من وضع حد عن طريق الاستمرار في توجيه القوات، فوجه عمرو بن العاص إلى الأردن

١- ابن كثير: البداية، ٢٥/٧.ـــ الذهبي: تاريخ، ص١٢٥ ـــ البلاذري: فتوح، ص١٤٦ ـــ افتيشيوس: التاريخ المجموع، ص١٥

وفلسطين، فرأى عمرو بن العاص تجمع الروم في تلك المناطق، فأخبر أبا عبيدة بن الجراح بذلك، الذي أرسل له شرحبيل بن حسنة.

وقرر أبو عبيدة في ذلك الوقت التوجه إلى حمص، إلا أنه أجَل ذلك بعد أن أرسل خالداً بن الوليد لمواجهة جيش رومي في بعلبك[١]، ففتح خالد بن الوليد بعلبك بعد أن هزم الروم في أثناء تحصنهم في المدينة إلى أن انتهى الأمر صلحاً، وقد ظهر من كتاب الصلح أن سكان بعلبك تكونوا من أربعة عناصر رئيسة هي: الروم، والفرس، والعرب، والمسيحيون من أهل بعلبك من السكان الأصليين[٢]،وتوجه بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص[٣]، وتمكنا من دخولها صلحا بعد حصارها، وتوجه أبو عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص إلى حماة وشيزر والمعرة وحمص واللاذقية فصالحته كل تلك المناطق، كما فتح عبادة بن الصامت أنطرسوس، كما فتحوا سلمية، ووصلوا إلى قنسرين[٤] وأمام كل هذه الأوضاع كان هرقل كلما سمع بنصر للمسلمين ابتعد عن الموطن الذي فتحوه، وظل يفر من بلد إلى آخر، وينتقل من مكان إلى مكان طالباً النجاة، ومنتظراً الفرج.

معركة اليرموك ١٥هـ/٦٣٦:

بعدما تمكن المسلمون من فتح حمص توجه عدد من بطارقتها إلى هرقل وهو في أنطاكية ليعلموه بما جرى[٥]، وفي الوقت ذاته وصل وفد من أهل إيلياء وقيسارية ليعلموه أنهم متمسكين بطاعته ويطلبون منه المدد، فأبدى

١-الأزدي : فتوح الشام١/١٠٧-١٠٨-١٠٩.

٢- تدمري:(عبد السلام)، لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، طرابلس، ط١، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م، ص٣٠

٣- الأزدي: فتوح الشام،١/١٤٦ ــ البلاذري: فتوح، ص٢٥٥ ــ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ١/٢١٦.

٤- ابن الأثير: الكامل، ٢/٣٤٣.ــ ابن حبيش: غزوات، ١/٢٢٥.

٥-ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ١/٢١٨.

هرقل استغرابه لانتصارات المسلمين مع قلة عددهم أمام أعداد الروم، وهذا مāأغضبه كثيراً ودفعه إلى التفكير في معركة فاصلة، فأعلن الاستنفار والتعبئة العامة، وطالب بإرسال الجيوش من كل الجهات، فاجتمعت لديه جيوش من رومية والقسطنطينية وأهل دينه من أرمينية وعمورية ومن الروس والصقالبة والإفرنج، وكل مناطق الإمبراطورية البيزنطية، وسلم هرقل قيادة هذه الجيوش إلى باهان[١]، وإلى جانب تلك الجيوش التي استنفرت لدى هرقل كان جيش من بقايا غسان وعرب الروم بقيادة جبلة بن الأيهم[٢] وما من شك في أن تجميع هرقل لهذا العدد من أفراد الجيش يشير إلى إدراكه أموراً كثيرة، منها مدى قوة العرب المسلمين الذين لم تهزمهم كثرة الروم في كل المعارك السالفة، فكان لابد من تجهيز جيش يفوق بعدته كل قوة يمكن مواجهتها، وتحطم أعداده كل عزيمة تقابلها، ومنها إدراك هرقل حساسية الموقف ومدى أهمية هذه المعركة، لأنها ستكون الحاسمة إما لوجود العرب المسلمين في بلاد الشام أو الحاسمة لوجودهم.

لذلك إن كان النصر لصالحهم فبالتأكيد لن يتوقف على حدود الشام، بل سيسعى لمهاجمة العرب المسلمين في عقر دارهم في المدينة ومكة، وإن كان النصر للعرب المسلمين فسيؤدي إلى القضاء على وجودهم قضاء كاملاً في بلاد الشام وفي المنطقة العربية كاملة.

أمام هذا الوضع شعر قادة العرب المسلمين بحساسية الموقف، فعقد أبو عبيدة بن الجراح اجتماعاً لحظة سماعه الخبر، بدأ فيه استشارة المسلمين لمواجهة هذا الوضع الجديد، فكان رأي يزيد بن أبي سفيان أن يعسكروا على أبواب حمص ويطلبوا من باقي القادة التوجه إليه، أما شرحبيل بن حسنة فأبدى

١- ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ٢٢٢/١.

٢- عباس: تاريخ، ص٢٤٤ ــ ماجد: التاريخ السياسي، ص١٨٣.

عدم ثقته بأهل حمص، بينما رأى ميسرة بن مسروق ضرورة التراجع بعيداً عن المدن إلى بلاد تشبه بلاد العرب المسلمين والطلب إلى أمير المؤمنين إرسال المدد، فتم الاتفاق على الانسحاب من حمص إلى دمشق بعد أن أمر برد الجزية إلى أهل حمص قبل الانسحاب منها الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نفوس أهل تلك المدن التي رأت سمو أخلاق المسلمين ومدى التزامهم تعاليم دينهم السمحة وصدق معاملتهم، وهذا ما دفع أهل حمص إلى إعلان ولائهم للمسلمين، وفي الوقت ذاته أرسل كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب أعلمه فيه بكل الأحداث وطلب منه المدد[١]، ولعل هذا الانسحاب قد يكون مخططاً يتم فيه استدراج الجيش البيزنطي لمكان أنسب لقتالهم، فالعرب اعتادوا على القتال في مناطق خالية، أو قد تكون محاولة لامتصاص الحماس الذي كان لدى الجيش الرومي، إضافة إلى عدم رغبة أبي عبيدة بن الجراح في مقاتلتهم قبل وصول باقي القادة ووصول المدد المرسل من جهة الخلافة، أنهم سعوا لمعالجة إمكانية تغلب الروم عليهم وذلك من خلال تأمين مكان يمكنهم من الانسحاب بسهولة إذا ما كانت الغلبة للروم.

١- الأزدي: فتوح الشام، ١/١٥٣- ١٥٤- ١٥٥- ١٥٦ ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ١/ ٢٢٣- ٢٢٤- ٢٢٥



وفي أثناء ذلك وصلت إمدادات الخليفة، واجتمعت بقوات المسلمين في الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص يهدد مدينة إيلياء (القدس) كي تعطي ولاءها للمسلمين وليمنعهم من التحرك ضدهم(١).

واجتمع قادة المسلمين في الجابية(بجوار بلدة نوى الحالية)، وبدأ الآن التفكير بمسرح العمليات العسكرية الذي سيكون له آثار حاسمة في كثير من نشاطات قطعات الجيش وتنظيمها وسرعة عملها، ومستوى الدعم، فكل طرف سعى لاستدراج الطرف الآخر المناسب له، فالصحراء مناسبة للعرب المسلمين بعكس الروم الذين لم يعتادوا على القتال في هذه مناطق.

ونزل المسلمون في منطقة اليرموك، بينما نزل الروم على جانب وادي اليرموك وخلفهم الياقوصة لتكون خندقاً يحمي ظهرهم(٢)، وكان اختيار العرب المسلمين منطقة اليرموك له مسوغاته، فجهتها الغربية والشمالية صعبة المسالك، والجهة الشرقية واسعة وتصلح للمناورة وتتصل بالجزيرة العربية

١-الأزدي: فتوح الشام، ١/١٦١- ١٦٤

٢ – الأزدي: فتوح الشام ١/١٧٥. الطبري: تاريخ ٣/٢٢٣.

الأمر الذي يساعد في تأمين المدد، وهي تمتاز بكثرة المياه التي يحتاجها الجيش[1]، كما أن اختيار الروم لجانب وادي اليرموك له مسوغاته أيضاً فقد كانت المنطقة محاطة بثلاثة أودية وبحسب مانسب إلى هرقل فهي المكان الوحيد الذي لا يسمح لجيشه بالهرب، وهذا يدل على فقر ثقته بقواته، ووضع هذا التمركز الدفاعي حداً لمناورات جيشه ومن ثم سهل على المسلمين مواجهته، إذ قام خالد بن الوليد بإغلاق الفجوة الوحيدة أمام هذه القوة في المنطقة الواقعة بين وادي الرقاد ووادي العلان، فحوصر الروم وهذا ما أشار إليه عمرو بن العاص قائلاً: " أبشروا حصرت الروم وقلَ ماجاء محصور بخير "[2]، وتحصنت النسوة بالتل القريب من اليرموك خلف القوات المسلمة تماما[3]، وبدأت الاستعدادات لخوض المعركة الفاصلة، وهي المعركة التي عُقدت عليها الآمال من الطرفين، وأعدوا لها العدة واتخذوا من أجلها كل الاستعدادات، وحاول البيزنطيون التغرير بالمسلمين بحسب مذاهبهم القتالية، وقاموا بهجوم مفاجئ، لكنَ النسوة قمن بصد هذا الهجوم حتى استعاد المتراجعون تنظيم صفوفهم، وقام خالد في الوقت نفسه، وميسرة بن مسروق العبسي، بهجوم من المجنبتين بوساطة الفرسان، وكان ذلك اليوم ذا ضباب غابت فيه الشمس، وانهزم الروم وتراجعوا فسقط جلهم في الياقوصة العميقة، ثم استكملت بعد ذلك عملية مطاردة الفلول للعودة إلى دمشق والأراضي المفتوحة من قبل، ولم يعد ثمة مايعيق العرب المسلمين عن التقدم نحو الشمال بعيد تدمير القوة البيزنطية، وما أعقب ذلك من فرار هرقل والانسحاب من أنطاكية إلى القسطنطينية ومعه ذكريات هزيمته الحزينة، والأولى في حياته،

---

١ – كثرة السدود المقامة حالياً في تلك المنطقة تؤكد ذلك.

٢ – ابن الأثير : الكامل ٢٧٨/١.

٣– هذا التل يعرف حالياً بتل الجموع إلى الشرق من منطقة المعلقة في الجولان،والروايات المحلية تقول إن سبب هذه التسمية تعود لتجميع نساء المسلمين عليه.

وانتشر المسلمون في كل الأراضي الشامية حتى جبال طوروس[١]، وبعد ذلك بات من الضروري تصفية الروم تصفية كاملة، فلم يعد لهم إلاَ مراكز محدودة كان منها قنسرين، وحاضرها، وحلب، وأنطاكية، ثم توجب الالتفاف نحو القدس لفتحها.

-اجتماع الجابية وفتح بيت المقدس (١٧هـ / ٦٣٨م):

بعد مشاورات بين القادة والخليفة عمر بن الخطاب استقر الرأي على التوجه إلى بيت المقدس، فقسم الجيش إلى سبعة أقسام أرسلت بالتتابع بفاصل يوم أو أكثر بين القسم والآخر، ربما خشية الوقوع في كمين لم يحسب حسابه، وبوصول جميع القوات تمت محاصرة القوات المسلمة لبيت المقدس لمدة ثلاثة أيام دون أي مقاومة تذكر، على الرغم من تحصينه بأفضل الوسائل[٢]، وامتلاك بيت المقدس أسواراً قوية، ولم يمتلك العرب آنذاك أسلحة جماعية لدك الحصون، لذلك شرعوا في تطويق المدينة، واعتمدوا على عامل الزمن على أمل أن تنقص المؤن داخل المدينة فيضطر أهلها إلى الاستسلام، وفي الوقت نفسه اعتمد سكان المدينة أيضاً على الزمن، إذ عقدوا الآمال بوصول نجدات بيزنطية في فك الحصار[٣]. ولكنّ شيئاً من هذا القبيل لم يحصل، وكانت مقاليد الأمور في المدينة بيد البطريرك صفيرونيوس الدمشقي الأصل، وكان عدواً كنسياً لهرقل.

وعندما خابت آمال السكان في وصول النجدات البيزنطية، وساءت أحوالهم بعد اشتداد الحصار وطوله، وزادهم الزمن والحصار ضيقاً وهزالاً وضعفاً، سعوا إلى عقد الصلح، واشترطوا أن يكون عمر بن الخطاب هو من يكتب لهم

١- بيضون: من دولة عمر، ص٦٦

٢- علي: تاريخ، ص١٥٣

٣-زكار: اليرموك، ص٢٤٤

الأمان ويتسلم المدينة، لأنها مدينة لها مكانة كبيرة، وقد كبر على المسيحيين في القدس تسليم المدينة للقائد المسلم الذي يحاصر المدينة بجنوده، أما إذا جاء عمر بن الخطاب بنفسه فإن الأمر يختلف لخاصة وأن قائد القوات البيزنطية كان قد فر إلى مصر، فآلت مقاليد الأمور إلى البطرك صفيرونيوس، ورجحت لغة السلم والصلح، وهنا راسل القائد أبو عبيدة بن الجراح الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بذلك.

وعندما وصل الكتاب إلى المدينة، جمع عمر وجوه الصحابة وشاورهم في الأمر[١]، فكان رأي علي الاستجابة، ورأى جمع كثير منهم جماعة تصدرها عثمان ابن عفان عدم الاستجابة وتشديد الحصار على القدس قائلاً:" إنهم يا أمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عز وهم يعطونكها الآن في العاجل في عافية وليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم ولك يا أمير المؤمنين الأجر ولست آمن لو أنهم آيسوا من قبولك الصلح، ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم لعلهم أن يأتيهم من عدونا مدد لهم فيدخلون معهم في حصنهم، فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول لهم الحصار، ويقيم المسلمون عليهم فيصيب المسلمون من الجهد والجوع نحو ما يصيبهم"، فقال عمر: قد أحسن عثمان في مكيدة العدو وقد أحسن علي النظر لأهل الإسلام. ثم قال سيروا على اسم الله[٢].

وبالفعل توجه الخليفة إلى الشام واستخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣]، وذلك في سنة(١٧هـ / ٦٣٨م)[١]. وهنا لابد من عرض التساؤل

١-البلاذري: فتوح، ص١٦٣

٢- ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج١، ص٢٩١ــ ٢٩٢ ــ زكار: القدس، ٣٢/٣ ــ زكار: اليرموك، ص٢٤٥

٣- البلاذري: فتوح، ص٦٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٠٣/٣ــ ابن كثير: البداية والنهاية، ٦٥/٨

الآتي: هل صدق سكان بيت المقدس في طلبهم إلى الخليفة؟. أم كانت حيلة منهم لكسب الوقت استعداداً للانقضاض من جديد؟. أم ظنوا أن الخليفة لن يقدم لبعد المسافة؟. ولكن مهما يكن من أمر تحرك ركب الخليفة على الرغم من بعد المسافة نحو الشام، وخرج معه أشراف الناس وبيوتات العرب وبعض المهاجرين والأنصار، ورافقه العباس بن عبد المطلب مودعين، في موكب صغير من دون جلبة أو صخب(٢)، كما اعتاد أباطرة بيزنطة أن يفعلوا، لذلك لم يصدق الناس الذين شاهدوا الموكب أنه موكب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أعظم شخصيات عصره وأقواهم، لكنه أكثرهم تواضعاً.

وليس مدهشاً أن يضرب عمر المثل الأعلى في الزهد والتواضع والبعد عن الخيلاء، ومظاهر التجبر، ولكن المثير للدهشة أن يتمكن من السفر من الحجاز إلى بلاد الشام المفتوحة حديثاً من دون حراسة، ففي هذا دليل على أمرين، أولهما: سحق القوى البيزنطية وزوالها كلياً من بلاد الشام، وثانيهما: أن الحكم الجديد نال رضا الناس جميعاً، لذلك انعدمت القلاقل والفتن والاضطرابات، وتوفر الأمن بشكل منقطع النظير بين سكان البادية والأرياف والمدن.

أتى الخليفة ليتسلم المدينة التي تعني للمسلمين الشيء الكثير، أتى لتفقد جيشه ولإجراء التنظيمات اللازمة توافقاً مع الوضع الجديد. وعند وصوله إلى مشارف الشام نزل في الجابية(٣)، فكان في مقدمة مستقبليه أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وبلال، وأبو هريرة،وأبو الدرداء، وهناك تفقد أحوال الجند، وناقش خطط المستقبل، وذلك قبل أن يتوجه نحو القدس، وسيظل دخوله القدس حدثاً بارزاً في تاريخ المدينة المقدسة وفي

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٠٤/٣

٢- ابن حبيش: غزوات، ٣٠٥/١- ٣٠٦

٣- البلاذري: فتوح، ص١٦٣

تاريخ الشعوب، والسؤال الذي يفرض نفسه، لماذا سار عمر رضي الله عنه إلى الجابية وتمهل هناك من دون أن يسرع إلى مدينة القدس؟.لقد فعل ذلك لإكمال ترتيبات استسلام المدينة له، وللاتفاق حول ماسيبقى فقط بيد المسيحيين، وماسيؤول إلى ملكية المسلمين، وفي الجابية أبرم الاتفاق على أن تبقى كنيسة القيامة وأماكن محددةللمسيحيين، وعلى أن يتسلم المسلمون كنيسة مريم الجديدة التي بنيت أيام جستنيان، قرب موقع صخرة المعراج، الذي يدعي الصهاينة باطلاً أنه موقع هيكلهم المزعوم، وهذا ما توثقه قصيدة لصفيرونيوس معاصرة للأحداث، وخريطة كنيسة مادبا للقدس من القرن السادس للميلاد، وكتاب المؤرخ بروكوبيوس القيساري الفلسطيني حول أبنية جستنيان.

وعند وصول الخليفة عمر رضي الله عنه إلى القدس أذن بلال الحبشي، فأقام الصلاة، وصلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمسلمين[١] ثم دخل المدينة بناء على الاتفاق المبرم، وأعطى إلى المسيحيين كتاب أمان ومصالحة، وشهد على ذلك الكتاب خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، ودخل إلى المدينة وخط فيها موضع مسجده[٢]، وهذا نص العهدة العمرية:

" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء[٣] من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا

---

١ – الواقدي: فتوح الشام، ١/ ٢٠٥ ــ الطبري: تاريخ، ٢٠٤/٣ – ٢٠٥ ــ ابن كثير: البداية والنهاية ٦٥/٨ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ٢٩٤/١

٢ – البلاذري: فتوح،٢٠٨/١ ــ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ٢٩٦/١ ــ ابن كثير: البداية والنهاية ٦٦/٨

٣ – حملت القدس منذ النصف الأول للقرن الميلادي الثاني اسم " إيلياء" أي الزيتون باللاتينية، وهكذا ورد اسمها في القرآن الكريم: { والتين والزيتون} فالتين دمشق، والزيتون جبل الزيتون

من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم، وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثلما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية"[١].

وفي هذا النص يظهر مدى التسامح الذي اتسم به الإسلام، فلم يجبرهم المسلمون على دخول الإسلام، بل تركوهم لأنفسهم، فمن رغب دخل ومن لم يرغب لم يدخل الإسلام. بل إنهم لم يكتفوا بذلك بل أحسنوا معاملتهم وحرصوا على عدم الإساءة إلى أي فرد منهم، ومن هنا ظهر الإسلام بصفته الطبيعية ألا وهي احترامه للأديان الأخرى، وصونه للدماء والحقوق، وظهر من هذه العهدة كذلك رجحان موازين القوى لصالح المسلمين؛ إذ إنّ الأعداء هم الذين يطلبون الصلح الآن. فهل عرف التاريخ جيشاً يضرب الحصار، ويأتيه المدد من الجند والسلاح، يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما تضمن هذا العهد العمري من مبادئ إنسانية بلغت درجة عالية من العدل والتسامح ؟

١ــ–النجار:(عبد الوهاب)، الخلفاء الراشدون، تحقيق خليل الميس، دار الأرقم، ص١٥١وحوى نص العهدة العمرية هذا مواد مرسوم هرقل الذي أعطاه إلى أهل المدينة بعد إجلاء الساسانيين عنها، ولاسيما شرط عدم سكنى اليهود في المدينة، فذلك بسبب دور اليهود في قتل أعداد هائلة من أهل المدينة أيام الاحتلال الفارسي، وقد جرى دفن القتلى في تربة مشهورة حملت اسم "ماملا" أي " مأمن الله".

ومكث الخليفة في القدس عدة أيام، كشف فيها عن موضع الصخرة المتعلقة بمعراج النبي صلى الله عليه وسلم، واختط محراب المسجد العمري، الذي اشتهر أكثر باسم الأقصى، والاختطاط هنا لم يكن بناء مسجد؛ فهذا ما سيكون فيما بعد؛ بل كان الذي فعله أمير المؤمنين هو أنه خط بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة.

لقد رفض الفاتح العظيم – وفاء بالعهد– أن يصلي في كنيسة القيامة، لا لأن الصلاة فيها لا تجوز، ولكنه خشي أن يستولي عليها المسلمون فيما بعد بحجة أن أمير المؤمنين صلى فيها، وهذا منتهى العدل، والوفاء، والإنصاف للمغلوبين.

ويفيد ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى بأصحابه في مكان كان مشعثاً،هو موضع كنيسة مريم الجديدة، وقد أراد بذلك أن يرعى حرمة الأماكن المقدسة المسيحية، مؤكداً احترام الإسلام للأديان الأخرى، وأطلق الصهاينة في هذه الأيام اعتماداً على أساطير العهد القديم، على الموقع الذي اختاره الخليفة، واختط به مسجده اسم(بيدر آرونا)، وهذا باطل. ويضاف إلى ماتقدم ما ذكره القديس جيروم(٣٤٠/٤٢٠م) في أثناء حديثه عن أعمال الإمبراطورة هيلانة في القدس، وفي ذلك الوقت لم يكن فوق هذا المكان سوى بقايا الكنيسة، وكان المكان كله من دون أي تشريف[١].

وفي حوالي (٥٠هـ / ٦٧٠م) أي بعد فتح القدس بثلاثة عقود تقريباً زار المدينة المقدسة رحالة فرنسي اسمه أركولف، فذكر أن المسلمين كانوا يترددون على مكان قائم إلى الجهة الشرقية من السور، وهو بيت للصلاة مربع الشكل قد بنوه بشكل بدائي بوساطة ألواح مرفوعة، وعوارض فوق بقايا

---

١ –زكار: الموسوعة الشامية، ٤٢/ص١٠٦٠ – ١٠٦١.

الخرائب، ولقد قيل إن هذا البيت يمكن أن يتسع لثلاثة آلاف رجل في وقت واحد[1].

وبعد أركولف بأمد قصير قام لاهوتي آخر اسمه بيد المبجل فصنف من عدة كتب مصنفاً وصف به الأماكن المقدسة، وقد جاء عنده أنه في الجزء الأدنى من المدينة بجوار السور من جهة الشرق هناك الآن بناء مربع يبدو أنه قادر على استيعاب ثلاثة آلاف رجل عليه يتردد المسلمون للصلاة، ولقد بُني بشكل بدائي، وقد رفع فوق ألواح، وعوارض خشبية كبيرة فوق بقايا الخرائب.

أضف إلى ذلك أن صفيرونيوس كتب قصيدة حنين إلى القدس تشوق فيها إلى الأماكن المقدسة بالقدس، ولم يذكر لا بقايا هيكل، ولا غير ذلك مطلقاً[2]، ويرجح أن الأماكن التي أشار إليها القديس جيروم، قد تعرضت للدمار على أيدي الفرس، وبقيت هناك بعض خرائبها العادية، فاستفاد منها المسلمون في الإنشاء البدائي لمسجدهم الأول، وذلك حتى أيام عبد الملك بن مروان، ثم ابنه الوليد. حيث كان إنشاء قبة الصخرة، ثم المسجد العمري، أو الأقصى الموجود حالياً. هذا ولدى استعراض الروايات العربية، ولاسيما المتأخرة منها حول اختطاط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مسجده جرى إقحام كعب الأحبار الذي كان يهودياً من أهل اليمن، وجعل أمير المؤمنين يستشيره بشأن القبلة إذ قال له: أين ترى أن نجعل المصلى؟ قال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله يا كعب اليهودية، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله صلى الله عليه

---

١ - زكار: القدس، ٣/٤٥.

٢ - زكار: القدس، ٣/٤٦ــ- ١١٥- ١١٦- ١١٧.

وسلم قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة، ولكن أمرنا بالكعبة[١].

وفي الحقيقة إن إقحام كعب الأحبار هنا لأمر عجيب، لأنه ليس من المعروف بشكل أكيد تاريخ إسلام كعب، فقد أورد الأزدي:" إن إسلام كعب إنما كان في قدوم عمر رضي الله عنه الشام، وإنه كان من مشجعيه على التوجه إلى الشام، لكنه لم يرافقه" [٢]. كما أن هناك روايات أخرى مخالفة حول تاريخ دخوله الإسلام، والمهم في الأمر أنه لم يرافق أمير المؤمنين في رحلته إلى الشام لانعدام الأسباب، ولأنه لم يكن موضع ثقة، ولأنه كان يمانياً لم يزر القدس قط قبل إسلامه. والعلاقة في فتح القدس إسلامية مسيحية لا شأن له بها، وكان كعب في المدينة حتى اغتيال أمير المؤمنين عمر، ونظراً لأن الشكوك حامت حوله، هرب إلى الشام خشية المحاسبة [٣].

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة واسعة جداً لكعب الأحبار، فيها تقريباً كل ماحوته المصادر العربية عنه، وذكرت هذه الترجمة الروايات المختلفة حول سنة إسلامه، ومن ثم قدومه إلى المدينة. وواضح من مواد هذه الترجمة أنه لم يرافق عمر بن الخطاب إلى القدس، بل لحق بدمشق بعد اغتياله، ثم استقر في حمص فمات فيها قبل مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بعام[٤].

بالعودة إلى فلسطين فقد تفقد الفاروق رضي الله عنه أجناد المسلمين، وناقش القضايا العامة الخاصة ببقاء الجنود المسلمين بالشام، كما أنه قسم

---

١ –العليمي:(مجير الدين الحنبلي ت ٩٢٨هـ ١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، ١٩٧٣م، ٢٥٦/١ ــ زكار: القدس، ٤٧/٣.

٢ – الواقدي: فتوح الشام، ٢٠٩/١ــ ٢١٠.

٣– زكار: القدس، ٤٧/٣.

٤ – ابن عساكر: تاريخ، ١٥٣/٥ــ ١٧٢.

الإقليم إلى منطقتين إداريتين[1]، هذا ويذكر أنه مع قدوم عمر بن الخطاب إلى القدس انتهت حقبة من عدم الاستقرار السياسي، والمظالم الدينية الكنسية التي مارسها أباطرة بيزنطة ضد الذين خالفوهم بالمعتقد الكنسي، وثبت للناس أجمعين أن المسلمين أقدر الناس على حماية أماكن العبادات، وصيانة المؤسسات، فحرية المعتقد التزم بها المسلمون دون سواهم، واستردت بعد أمد وجيز من تحريرها اسمها الأصيل رسمياً وشعبياً وهو القدس، كما باتت في كثير من الأحيان تعرف باسم بيت المقدس.

وباتت بلاد الشام جزءاً من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنورة، ولم تعد تتبع روما الغربية أو الشرقية، بل تعاديها، لذلك قسم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد بن معاوية قسم جند حمص قسمين، هما جند حمص وجند قنسرين[2]، وبات لكل جند خراجه، ونواة إدارة مستقلة، ووال وحامية. فقد تمركزت غالبية القوات التابعة لجند فلسطين في عمواس، وآثر الصحابة سكنى البلدة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس، ولأنها كانت حصينة،وفيها ماء وافر، ولم يسكنوا في القدس تجنباً لاغتصاب دور أهلها، أو مضايقتهم بمشاركتهم في دورهم لأن المدينة كانت مسورة، لكن مع الأيام أخذوا يتحولون إلى الإسلام، والمدينة نفسها اتسمت بسمات إسلامية.

فتح بقية المناطق(١٧هـ / ٦٣٨م):

بعد أن كتب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه العهدة العمرية لأهل القدس، اجتمع بالقادة ونظم الأمور فيما بينهم، إذ قسّم الغنائم على الفاتحين بعد أن أخذ الخمس لله، وقام بتقسيم الشام إلى قسمين ليسهل فتحها؛ القسم الأول

---

١ – لجنة من أساتذة الأزهر: دراسات، ص٢٧٥.

٢ – زكار: القدس، ٣/٣٩– ٤٠.

شمل الشام من حوران إلى حلب وما بعدها وعين عليها أبا عبيدة بن الجراح، وكلفه المسير إلى حلب لفتحها[١]، بينما القسم الثاني شمل أرض فلسطين والقدس والساحل وعيّن عليه يزيد بن أبي سفيان وكلفه فتح المناطق التي لم تفتح بعد[٢]، على أن تكون القيادة العامة في بلاد الشام لأبي عبيدة بن الجراح، فتوجه كل قائد إلى المنطقة التي كلف فتحها.

وبدأت مرحلة التصفية الكاملة للوجود البيزنطي في جنوب بلاد الشام، ولم تبق مدينة حصينة في فلسطين سوى عسقلان، فحاصرها معاوية بن أبي سفيان وفتحها صلحاً، ووضع فيها المقاتلين لضمان عدم نقضهم للصلح مرة أخرى، وأعطى فيها المقاتلين القطائع[٣]. وبهذا تمت تصفية الوجود البيزنطي تصفية كاملة من فلسطين.

هذا وقبل ختم الفتوحات في جنوب بلاد الشام لابد من الإشارة إلى الخطة التي اقترحها الخليفة عمر بن الخطاب لفتح الشام، فقد جعلت ظهر القوات العربية محمية عند وقوفها على أبواب فلسطين، ومكَنت من جلب الإمدادات أيضاً، وفي الوقت ذاته عزلت مصر عن بلاد الشام إذ أصبح من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك أو إرسالها براً، وفي هذا تأكيد على وجود خطة استراتيجية واضحة لمتابعة تحرير مصر والمغرب الكبير، وهذا ما حدث فيما بعد.

أضف إلى ذلك أن هزيمة قائد الروم جعلته ينسحب إلى مصر على أمل العودة إلى الشام مرة أخرى.

---

١ –ابن سعد: الطبقات الكبرى،٢٨٣/٣.

٢ – الواقدي: فتوح الشام، ٢١٠/١ ــ البلاذري: فتوح، ص١٦٥.

٣– البلاذري: فتوح، ص١٦٧ ــ عباس: تاريخ، ص٢٧٠.

وقد ذهب بعضهم إلى القول إنه كان هناك خطة مدبرة بين البطريرك صفيرونيوس، والقائد البيزنطي الذي تقهقر إلى مصر، ولكن الأحداث اللاحقة حملت على الاعتقاد بأن أهل البلاد لا يريدون حرباً مع هؤلاء العرب المسلمين، وكان صفيرونيوس متمرداً على هرقل، ولأن أهل فلسطين ينتمون إلى العرب، وكانوا قبل الفتح يتكلمون العربية، ولا شك في أن رابطة اللغة والأصل المشترك بينهم وبين المسلمين جعلتهم يشعرون بأن هؤلاء الوافدين عليهم من الجزيرة العربية ليسوا غزاة غرباء كما كانوا يشعرون تجاه حكامهم الروم، أضف إلى ذلك أن أهل فلسطين كانوا ساخطين ناقمين أشد النقمة على الروم وحكمهم، فقد ذاقوا منهم كل صنوف الاضطهاد والتعذيب عندما كان الروم وثنيين، بينما اعتنق أهل فلسطين الديانة المسيحية، فلما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، وتحول الروم إلى المسيحية لم يخفَ عن الفلسطينيين المسيحيين بطش الروم وقسوتهم وجبروتهم إذ ظل الروم المسيحيون يعاملون الفلسطينيين المسيحيين معاملة الحاكم المتجبر للمحكوم المقهور بدعوى أن الروم يقولون إن مسيحية أهل فلسطين تختلف عن مسيحية روما والبابوية في بعض التفاصيل حول طبيعة المسيح والعلاقة بين الأقانيم الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس.

أفلا يكون بعد كل هذا عامل الأصل العربي وعامل النقمة والكراهية للروم كفيلين بإقامة صلة تفاهم قويةبين المسلمين القادمين وبين أهل فلسطين صلة قوية قد تغني عن الحرب!؟ وماذا يفعل جيش الروم مهما كان عدد جنوده، ومهما تكن قوة سلاحه إذا انضم أهل فلسطين جميعاً إلى المسلمين القادمين وفتحوا لهم مدنهم وقراهم وبيوتهم متعاونين مرحبين؟.

أضف إلى ذلك أنه لا بد وأنَ سكان فلسطين سمعوا عن انتصارات العرب المسلمين في فارس والعراق وبلاد الشام، ومعاملة المسلمين لأهل البلاد

المفتوحة، وكل هذا يجعل أهل القدس راغبين في تفادي الحرب مع المسلمين، وفي عقد صلح معهم بشرط أن يكون صلحاً مشرفاً من ناحية المظهر وعادلاً كريماً في مضمونه وشروطه.

طاعون عمواس(١٨هـ / ٦٣٩م)[١]:

بعد النجاح الذي رافق كل الأعمال والفتوحات التي قام بها المسلمون، أصيبوا ببلاء ومرض أودى بحياة أغلب القادة، وعدد كبير من الصحابة عدا الأعداد الكبيرة من الجنود وغيرهم، وكان ذلك سنة (١٨هـ / ٦٣٩م)[٢]، والسبب الذي أدى إلى ظهور هذا المرض التعفن الذي انتشر في الجو بسبب كثرة الجثث[٣]، مما أدى إلى فساد الهواء، وما زاد في انتشار هذا المرض اجتماع الجيوش في مكان واحد، إضافة إلى باقي السكان؛ إذ لم يكن هناك أي وقاية صحية تحول دون ظهوره وتضع حداً لانتشاره. فهلك عدد كبير من الصحابة بهذا الوباء ومنهم أبو عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبلة، وشرحبيل بن حسنة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وغيرهم [٤].

ويبدو أن السبب في اشتداد الطاعون في دمشق ارتبط باعتماد أهلها في الشرب على نهر بردى، الذي كان عرضة للتلوث بجراثيم الوباء، ونقل العدوى بواسطته سهل[٥]، ولم ينته هذا الوباء إلا بعد أن انتقل أهل دمشق و سكان باقي المناطق للإقامة في المرتفعات الجبلية بتوجيه من عمرو بن

---

١ عمواس: منطقة في شمال فلسطين بين بيت المقدس والرملة على ستة أميال من الرملة عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، ص٣١.

٢-البلاذري: فتوح، ص١٦٤ ــ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٦٢/٣.

٣-النجار: الخلفاء الراشدون، ص١٥٣.

٤ – البلاذري: فتوح، ص١٦٤ ــ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٦٣/٣.

٥ – النجار: الخلفاء الراشدون، ص١٥٣.

العاص[1]، وفيها العيون التي كانت أقل عرضة للتلوث ونشر المرض، وفي ذلك دلالة على أن رأي عمرو بن العاص كان صواباً فكان هذا الانتقال سبباً في زوال ذلك المرض.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مصر فتحها عمرو بن العاص، وتولى حكمها، أما بلاد الشام، فإن موت قادة الصحابة دفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى تولية معاوية بن أبي سفيان على جميع بلاد الشام، وعندما حلت أيام الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، عهد إلى معاوية بولاية الجزيرة، وأرمينية لإحكام الحصار على بيزنطة، وللاستعداد لجبهة أذربيجان وما خلفها(دربند، باب الأبواب)، جبهة الخزر، الذين سوف يتحولون إلى اليهودية.

ــ بناء الأسطول والمعارك البحرية، وفتح الجزر في عهد عثمان بن عفان:

في عهد عثمان بن عفان تمكن معاوية والي الشام من تحقيق حلمه ببناء الأسطول العربي الذي كان عمر بن الخطاب قد مانع في تكوينه خوفًا على المسلمين من ركوب البحر، وقد كانت الموافقة حسب ما تردده بعض المصادرمنذ عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ولكن بناء الأسطول يحتاج إلى مدة زمنية طويلة، وكان هذا الأسطول قد أصبح جاهزًا عند موافقة الخليفة عثمان وهذا يرجح أن الموافقة تمت زمن الخليفة عمر، وبُدئ ببناء الأسطول الذي أصبح جاهزًا في زمن عثمان، وهذه الروايات أقرب إلى الصواب.

إن موافقة عمر كانت مشروطة بألا يحمل مسلمًا على ركوب البحر والغزو فيه إلا بمحض إرادته واختياره، فاتفق معاوية وعامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح على غزو جزيرة قبرص ٢٨هـ/٦٤٨م وشارك في

---

١ – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٦٣/٣.

هذه الغزوة نفر من الصحابة، منهم أبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وفضالةابن عبيد الأنصاري، والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، الذي حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، فاستشهدت في قبرص، ودفنت هناك، وعرف قبرها باسم قبر المرأة الصالحة[١]، وقد أبلى معاوية في هذه الغزوة بلاءً حسناً، واقتحم جيشه عاصمة قبرص، فطلب القبارصة الصلح، فشرط عليهم ألا يساعدوا البيزنطيين في غاراتهم على الشام، ولا يطلعوهم على أسرار العرب، وأن يقوموا بتزويد معاوية وحامياته بنبأ التحركات البيزنطية، وحملاتهم ضد الثغور العربية فقبلوا[٢].

وفي سنة ٣٣هـ/٦٥٣ م، قام حاكم جزيرة قبرص بالإخلال بشروط الصلح مع العرب المسلمين، عندها أرسل معاوية أسطولاً بقيادة أبي الأعور عامر بن سفيان السلمي فتم فتح الجزيرة، وتحويلها إلى قاعدة متقدمة للعرب المسلمين وأسطولهم، بعد أن استقر فيها القائد جنادة ومعه ١٢ ألف جندي.

ونظم معاوية بعد ذلك شؤون الغزو البحري، حيث حاصر جزيرة أرواد، وألحقها بحكومة الشام[٣]. وفي عام ٣٢ هـ/٥٦١ م، اتجه الأسطول العربي إلى صقلية، وكانت القوات البيزنطية قد تجمعت فيها، وبدأت قواتها المرتدة إلى الشام ومصر، تستعد لمهاجمة القوة البحرية العربية، ومحاولتها منع التعاون بين الشام ومصر، وهذا ما شجع القبارصة على نقض الصلح الذي كانت عقدته مع معاوية، فهاجمتها القوات العربية المصرية الشامية بقيادة معاوية بن حديج ونزلت أرض الجزيرة، وانتصرت على بعض مدنها، وقضت على مراكز الإغارة البيزنطية القريبة من السواحل العربية.

١-ابن حبيش :غزوات ٣٧٧/١.

٢- البلاذري : فتوح البلدان ص١٥٤، بركات : فن ص٤٢.

٣-زيود : التاريخ الاقتصادي ص١١١، بركات : فن ص ١٩١.

وفي عام ٣٤ هـ /٦٥٤ م، بعث معاوية حملة بحرية لفتح رودس، وجزيرة أقريطش (كريت)، بقيادة جنادة بن أمية الأزدي[١] بسبب أهميتها وتحكمها بعدد من الممرات المائية الواصلة إلى بحر إيجة وسواحل آسيا ومقدونية، ومجاورتها لعدد كبير من الجزر التي تشكل بمجموعها خطاً دفاعياً أمامياً لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجة وبحر مرمرة، لهذا كان على المسلمين تأمين هذه الجزيرة، والإسراع من خلالها لتهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديداً مباشراً.

أما أهم المعارك البحرية فكانت معركة ذات الصواري (السواري) هذه المعركة التي طغت على أسطورة البحر الرومي، ولم يعد بعدهاالمتوسط بحيرة رومية،بل بحيرة شامية إذ تشير المصادر إلى خروج قوة بحرية من الشام ومصر قوامها مئتا سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، هادفة الدولة البيزنطية فتصدى لها قسطنطين بن هرقل بقوة بحرية هائلة قدرت بخمسمئة سفينة، وقيل ستمئة، أو أكثر على خلاف في المصادر[٢].

ودارت المعركة على ساحل الأناضول بالقرب من كليكيا، ومع الفارق الكبير بين القوتين البحريتين، فإن نصر العرب جاء نتيجة لحظة غير عادية، إذ قام العرب بربط سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم، واستخدموا في تلك المعركة الخطاطيف الطويلةالتي استطاعوا بوساطتها إصابة سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة للبيزنطيين بعد أن حول العرب المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية، ونجا القائد البيزنطي قسطنطين بفضل سفينة من السفن

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨/٤ وما بعد.

٢ -ابن حبيش :غزوات ١/ ٣٧٨-٣٧٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨/٤. ابن الأثير : الكامل ٢/ ٤٨٨. ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٧/٧.

السريعة، وهرب إلى صقلية[١]، وبهذا الانتصار تحققت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط، والتفوق على البيزنطيين[٢].

وبذلك كانت معركة ذات الصواري يرموكاً ثانياً بحرياً ضد الإمبراطورية البيزنطية، حيث انفتح البحر المتوسط أمام المسلمين ليكون بحراً عربياً إسلامياً شامياً خالصاً لهم، خاصة وأنه بعد هذه المعركة تخلت بيزنطة عن فكرة محاولة طرد العرب المسلمين من بلاد الشام ومصر، فقد كانت تعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام ومصر احتلالاً وغزواً لا بد أن ينتهي، كيترجع إليهم السيطرة على هذه البلاد.

وتحول العرب المسلمون إلى قوة بحرية كبيرة، على الرغم من أنهم استخدموا الأساليب القتالية البرية كالقوس والنشاب وربط السفن، ولكن لم يترتب على هذه المعركة أية نتائج مباشرة فورية بسبب الخلافات التي وقعت بين العرب المسلمين في أواخر خلافة عثمان بن عفان، وتوقفت المعارك البحرية كغيرها من المعارك بسبب تفجر أحداث الفتنة الكبرى، ومقتل الخليفة عثمان بن عفان والحروب الأهلية، ومن ثم انتقال الخلافة إلى البيت الأموي ليعاود معاوية معاركه البرية والبحرية بعد أن يصبح حاكمًا على المسلمين.

وقد حرك قوات من العراق لنجدة أهل الشام من غدر الروم، الأمر الذي يدل على يقظته وحراسته لثغور المسلمين، وحماية بلادهم[٣].

ثانياً-فتوح العراق:

أما جبهة العراق، فقبل الانتهاء من حروب الردة، أراد الخليفة أبو بكر التوجه للعراق الذي كان خاضعًا للإمبراطورية الفارسية وكان سكانه، ولاسيما

١-ابن الأثير : الكامل ٢/ ٤٨٩. المقريزي : المواعظ ٣١٤/١

٢- زيود : التاريخ الاقتصادي ص١١٣.

٣- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٧-٢٤٨.

سواد الشعب في الأرياف والمدن من أصل عربي، وكانوا يكرهون الفرس، وعلىاإستعداد للتعاون مع أية قوة تنقذهم منهم، وعندما كان النبي محمدصلى الله عليه وسلم يبشر بالإسلام حققت هذه القبائل نصرًا كبيرًا على الفرس في معركة ذي قار، وكانت قبائل بكر بن وائل من أعظم قبائل العرب المعادية للفرس، وعندما عم الإسلام شبه جزيرة العرب تأثرت هذه القبائل بالإسلام، وتبناه عدد كبير من أفرادها[١] وفي أثناء حروب الردة، قدم وفد من شيبان إلى المدينة فيه المثنى بن حارثة، ونال التفويض من الخليفة بالشروع بفتح العراق، وعندر الفراغ من ردة مسيلمة الكذاب أمر الخليفة الصحابي الجليل خالد بن الوليد بالتوجه إلى العراق فتعاون مع المثنى في عمليات الفتح في العراق زمن أبي بكرالصديق رضي الله عنه، وكان له الفضل الأول في رفع راية الإسلام في العراق وفارس، فلم يكن يفرغ من نصر يتوج به هامات المسلمين حتى يستقبله نصر أعظم، وأروع، ولم يكن الفرس يفيقون من هول هزيمة منكرة حتى يتلقوا من البطل المظفر هزيمة أنكر وأوجع وبذلك أصبحت الجيوش الإسلامية على مشارف الحيرة حيث دخلها في ربيع الأول١٢هـ /٦٣٣ م[٢]، وكان ذلك فتحًا عظيمًا وسع أمل المسلمين، وفتح باب فارس،وتهيأ المسلمون للقادسية، وقد اتخذها خالد بن الوليد مقرًا لقيادته العليا، ومركزًا رئيسيًا تتلقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم، والدفاع، والإمداد، والنظم، وجعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة التي يقوم عليها تنظيم ما وقع في يد المسلمين، وبفتح الحيرة انتهت المرحلة الأولى من فتوح العراق، التي عرفت باسم " الأيام"، فمن الحيرة توجه نحو بلاد الشام عندما أتاه أمر أبي بكر بالتحول من هناك،

١-زكار : تاريخ العرب والإسلام، ص ٧٧.

٢-ابن خميس: غزوات ٤٢٨/٢. شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص٣٤٦.

فحل محله المثنى في قيادة قوات الجبهة العراقية[1]، وبقي في منصبه حتى توفي أبو بكر الصديق في السابع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشر للهجرة، عندما اشتد عليه المرض، فدعا صحابته واستشارهم في أمر الخلافة بعده، وذكر اسم عمر بن الخطاب، فجاء الجواب بالموافقة من كثير من أصحابه.

بعد أن رحل خالد بن الوليد عن العراق تولى قيادة المسلمين المثنى بن حارثة، وأثناء ذلك حدثت وفاة الخليفة أبي بكر الصديق وتولي عمر بن الخطاب أمر المسلمين، كان أول عمل عمله الخليفة عمر بن الخطاب أن أرسل جيشاً إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي، فخاض أبو عبيد معركة ضد جيوش الفرس سميت موقعة الجسر.

موقعة الجسر:

خاض أبو عبيد بن مسعود معركة ضد جيوش الفرس، سنة ١٣هـ/٦٣٤م، سميت موقعة الجسر، لأن المسلمين أقاموا جسراً على نهر الفرات لعبور قواتهم، وكان هذا العبور خطأً عسكرياً جسيماً وقع فيه أبو عبيد، إذ لم يأخذ بنصيحة القادة الآخرين، ومنهم المثنى نفسه، فقد حذروه وبصروه من أن موقف المسلمين غربي النهر أفضل لهم، وليترك الفرس يعبرون النهر ويقاتلهم، فإذا انتصر المسلمون فسيكون العبور إلى الشرق أسهل، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون إليها ويعيدون ترتيب قواتهم، ولكنه لم يستجب، فحلت بالمسلمين هزيمة على يد القائد الفارسي بهمن جاذويه، واستشهد أبو عبيد نفسه، وأربعة آلاف من المسلمين، لأن الفرس

١- ابن خميس: غزوات ٤٤٣/٢.

استخدموا الفيلة في الحرب لأول مرة، والمسلمون لم يكن لهم دراية بمواجهتهم في الحروب فكانت المفاجأة، مع قطع الجسر.

موقعة البويب:

استلم القيادة بعد استشهاد أبي عبيد، المثنى بن حارثة الشيباني، فبذل جهداً كبيراً لتأمين عبور من بقي من قوات المسلمين النهر، وأدرك أنه لابد من خوض معركة أخرى، وعلى وجه السرعة ضد الفرس لرفع معنويات المسلمين، فاستدرج الفرس إلى غربي النهر، فعبروا مدفوعين بنشوة النصر الذي حققوه في معركة الجسر، وظنوا أن انتصاراً جديداً على المسلمين سيكون أسهل من الانتصار الأول، ولكن المثنى فاجأهم وأوقع بهم هزيمة على شاطئ نهر البويب الذي سميت المعركة باسمه.

وفي الوقت الذي انتصر فيه على الفرس أدرك بخبرته العسكرية أنه ليس قادراً بما معه من قوات على مواجهة الفرس الذين ألقوا بكل ثقلهم في الميدان، فتراجع إلى الوراء، ليكون في مأمن من هجماتهم، وأرسل في الوقت نفسه إلى الخليفة عمر يعلمه بحقيقة الموقف، وطلب منه النصح على ضوء ماهم فيه[١].

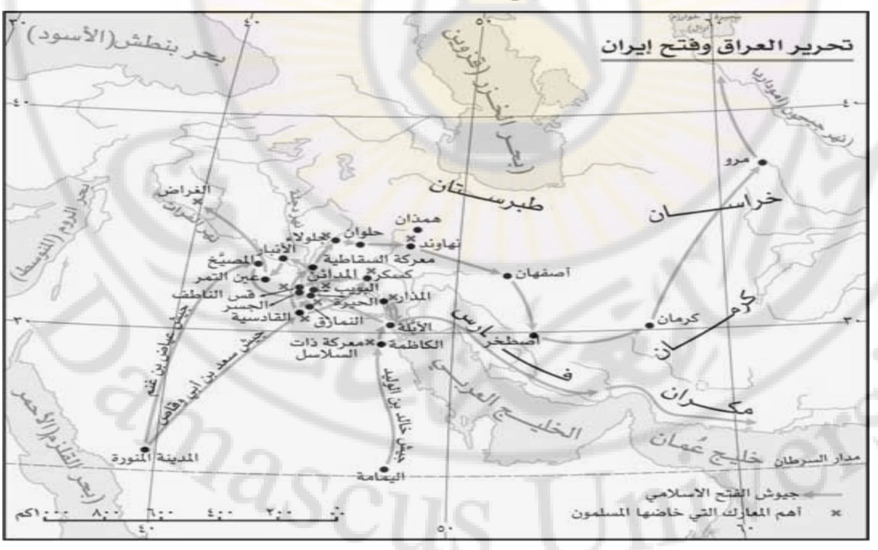
معركة القادسية:

كان عمر بن الخطاب يتابع مواقف الجيوش في كل الجبهات بكل اهتمام وإحساس بالمسؤولية، وفهم عميق وتقدير سليم للقوى التي ينازلها المسلمون، فرأى أن جبهة الفرس تستحق الاهتمام خاصة بعد أن وصلته تقارير المثنى عن وضع المسلمين في العراق، فعزم على قيادة الجبهة بنفسه، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، قائلين أن الأفضل له وللمسلمين أن يبقى في المدينة يدير أمور الدولة، ويشرف على تجهيز الجيوش، ويختار لقيادة

١- عبد اللطيف : تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة ص٤٠٩-٤١٠.

الحرب ضد الفرس قائداً محنكاً، فقبل نصيحتهم، وأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص، فاستدعاه على الفور، وأمره على جيش كبير، ووجهه إلى القادسية، ولما وصل سعد وعسكر في القادسية، وقبل نشوب المعركة، أرسل وفداً إلى بلاط فارس، لمقابلة آخر ملوكهم، يزدجرد الثالث، يعرض عليه الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، لكن يزدجرد رد باستعلاء[١]، لأنه على حسب زعمه أن يثق ثقة كبيرة بجيوشه، وبأكبر قواده رستم.

وبدأت الاستعدادات للحرب، ودارت معركة القادسية الشهيرة، التي استمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع، وأسفرت عن نصر ساحق للمسلمين، وهزيمة منكرة للفرس، وقد قتل قائدهم رستم، وتشتت من نجا من القتل من جنودهم، وقد عُدَت معركة القادسية من المعارك الفاصلة في التاريخ، لأنها حسمت أمر العراق العربي نهائياً، وأخرجته من السيطرة الفارسية التي استمرت عليه قروناً طويلة وأعادته إلى أصحابه[٢].



١- ينظر رد يزدجرد الثالث ملك فارس الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٩٩/٣.

٢-الطبري : تاريخ الرسل والملوك٤٧٧/٣ وما بعد.

فتح المدائن عاصمة الفرس:

انفتحت الطريق بعد القادسية أمام المسلمين إلى عاصمة الفرس المدائن، فعبر سعد بن أبي وقاص نهر دجلة من أضيق مكان فيه حسب نصيحة سلمان الفارسي، ودخل عاصمة كسرى، ليجده قد فر منها، فدخل سعد قصره–القصر الأبيض–وكان آية من الفخامة والبهاء، فصلى لله صلاة الشكر على هذا الفتح العظيم، وتلا قوله تعالى:{ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ }[١]. وجلس سعد في إيوان كسرى، وأرسل بالبشائر إلى الخليفة، واستأذنه في متابعة الفتوح، ولكن عمر رفض ذلك[٢].



موقعة نهاوند:

كانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب أن يقف بالفتوحات الإسلامية في حدود العراق والشام، ولا يتعداهما، فقد كان بالعراق قبائل من العرب نزحت

١– سورة الدخان: الآية ٢٥–٢٩.

٢– ينظر رد الخليفة عمر الطبري: تاريخ الرسل والملوك٤/٢٨.

من شبه الجزيرة العربية، وأقامت مملكة المناذرة، وببلاد الشام قبائل من العرب الذين أقاموا مملكة الغساسنة، وهم يمتون بأوثق الصلات إلى المسلمين، فمن حق المسلمين أن يطمعوا في مؤازرتهم، وانضمامهم إليهم، ومن واجبهم أن يحرروا تلك البلاد من سيطرة الفرس والروم، أما ماوراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم، فلم يكن للمسلمين الأولين مطمع في غزوها وفتحها.

ولعل الحوادث كثيراً ما كانت أقوى من الرجال، الأمر الذي حمل الخليفة على تعديل سياسته، فقد كان يعتقد أن الفرس بعد هزيمتهم في القادسية، سوف يجنحون للسلام مع المسلمين، لأن الأرض التي أخذوها منهم أرضا عربية- العراق- وليست أرضا فارسية، لكنهم التفوا حول ملكهم وشجعوه على خوض حرب جديدة ضد المسلمين، واحتشدت قواتهم في نهاوند[١].

أمام هذا الموقف استشار الخليفة أصحابه، فأشاروا عليه بضرورة ردع الفرس، فجهز الخليفة جيشاً وأمر عليه النعمان بن مقرن، ودارت معركة نهاوند وانتهت بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمى المؤرخون ذلك النصر الذي تحقق في نهاوند فتح الفتوح، "وافتتحت نهاوند، فلم يكن للأعاجم – الفرس- بعد ذلك جماعة"[٢]، وتفرقت كلمتهم ولم تقم لهم قائمة أبداً بعد ذلك، وزالت دولتهم من الوجود.

بعد ذلك قرر عمر بن الخطاب القضاء تماماً على التهديد الفارسي للدعوة والدولة الإسلامية، وتحرير الشعب الفارسي نفسه من ظلم الأكاسرة، واستبدادهم، فأصدر أوامره للقادة المسلمين بالانسياح في أرجاء الإمبراطورية الفارسية لفتحها جميعها[٣].

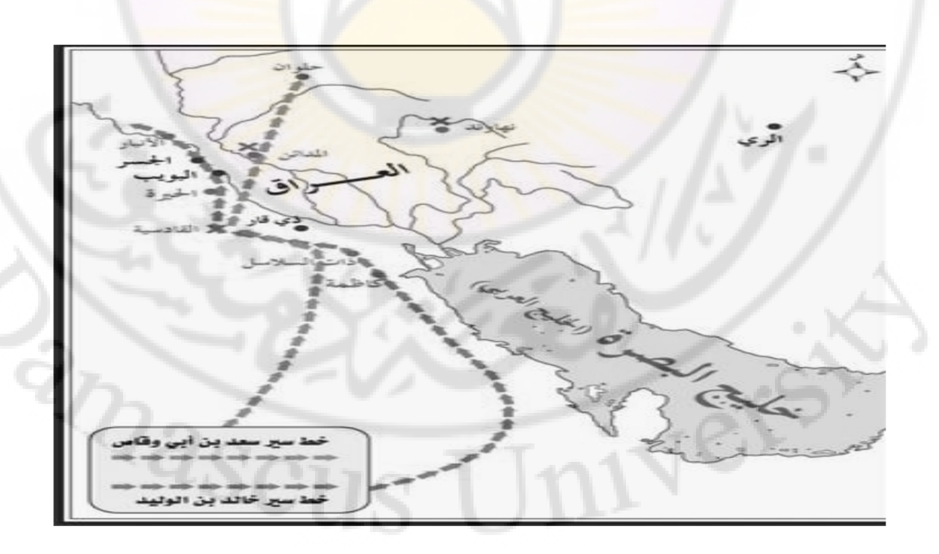
١- هيكل : الفاروق عمر ٥/٢.

٢- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١١٦/٤.

٣- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٤٦/٤ وما بعد.

وقد غطت جيوش الإسلام جميع المقاطعات الفارسية، واللافت للانتباه أن حكام تلك المقاطعات الذين كانوا هم الذين كاتبوا يزدجرد الثالث، وحرضوه على خوض معركة نهاوند ضد المسلمين، نراهم هنا بعد انتصار المسلمين الساحق في المعركة، يتخلون عن ملكهم، ويتركونه، يهيم على وجهه في البلاد، ويسارعون إلى تسليم مقاطعاتهم إلى المسلمين دون قتال تقريبا- حرصاً على مصالحهم- فلم نشهد معارك كبيرة كالقادسية أو نهاوند.

والخلاصة أنه خلال عامي ٢٢-٢٣هـ/٦٤٣-٦٤٤م فتحت المسلمونكل بلاد فارس، وأصبحت تحت السيادة الإسلامية، ولم يجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، وإنما قبلوا منهم الجزية، وأعطوهم معاهدات[١]، ضمنوا لهم فيها حرية العبادة وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم، وبذلك بدأ لبلاد فارس تاريخ جديد، وانتهى أمر الفرس جميعاً – تقريباً – إلى اعتناق الإسلام، وأصبحت بلادهم ركناً ركيناً، وحصناً حصيناً من حصون الإسلام[٢].



١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك٤/١٥٢ وما بعدها.

٢- عبد اللطيف: تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة ص٤١٦.

ومهم التذكير هنا أن الامبراطورية الفارسية الساسانية كانت تتألف من أربعة أقاليم رئيسة، هي: فارس، والعراق، وخراسان، حتى واحة مرو ونهر المرغاب، فبعد هذا النهر كانت دول الهياطلة الأتراك، وكان الإقليم الرابع هو ميديا، وحاضرته الري(ضاحية طهران حالياً)، وامتلك العرب خطة محكمة لفتح هذه الأقاليم، ففتحوها واحداً إثر الآخر براً، وجاء فتح إقليم فارس بحراً عبر الخليج من أراضي الإمارات العربية، والبحرين، حالياً وبعد إكمال الفتوح لهذه الأقاليم استجاب الخليفة العبقري عمر بن الخطاب لتبدل الجغرافيا السياسية، وأمر بتأسيس معسكري : البصرة والكوفة، لتكون مهام البصرة إكمال فتوحات المشرق إكمالاً رئيساً، فقد كان الامبراطور الساساني قد التجأ إلى الهياطلة، ثم من بعد ذلك، اجتاز نهر جيحون، والتجأ إلى الصين، ثم عاد ليقتل في خراسان.

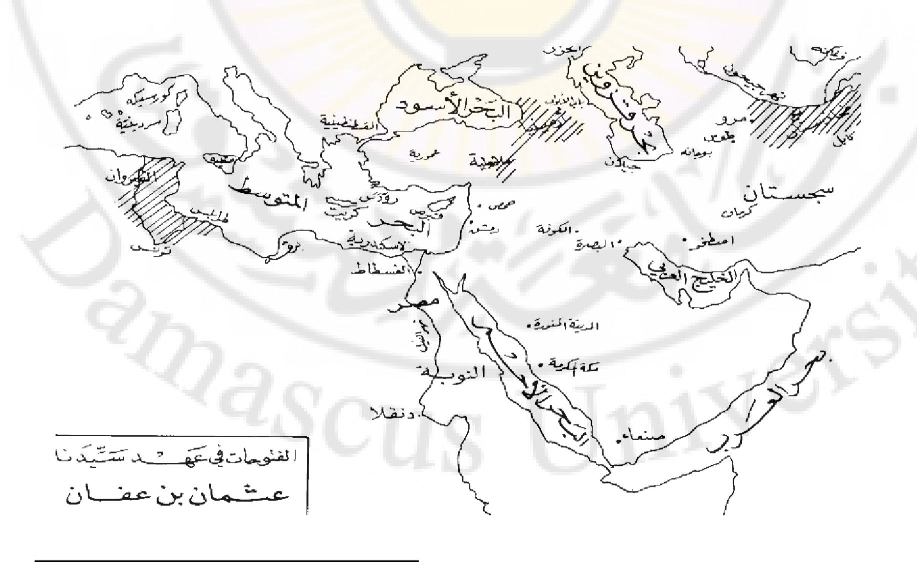
وأما معسكر الكوفة فكان مسؤولاً مسؤولية رئيسة عن فتوحات أعالي بلاد الرافدين، ومن ثم إرمينية، وأذربيجان، وجورجيا، ثم جبهة الخزر، وهذا كله فيه أدلة لاتدحض، على امتلاك قيادة المدينة خططاً علمية، لاشك في أن مصدرها الوحي، وهذا مسألة سوف تنال المزيد من التعمق في الدراسة.

-متابعة الفتوحات في عهد عثمان بن عفان:

نقضت معظم المقاطعات الفارسية معاهداتها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ظناً منها أنه بمقتل عمر أتت فرصتها لطرد المسلمين من البلاد التي فتحوها، وقد تمردت عليه منطقة أذربيجان، وأرمينية، وكل المقاطعات الفارسية، فقام رضي الله عنه بإرسال الجيش لإعادة فتحها، وإحباط مؤامرات حكامها الفرس السالفين الذين أرادوا من وراء التمرد استعادة سلطانهم القديم، والحق أن إعادة فتح المقاطعات الفارسية كانت أصعب من فتحها الأول في عهد عمر بن الخطاب، لأنها حينذاك سلمت بدون قتال

تقريباً بعد هزيمتهم في نهاوند، أما الآن في عهد عثمان فقد خاض المسلمون معارك شرسة في كل المقاطعات، وأثبتوا للفرس أن غياب عمر عن الساحة لم يفت في عضدهم، وكان عثمان وأمراؤه وقواده على مستوى المسؤولية، وفي بضع سنين ٢٤-٣١هـ/ ٦٤٤-٦٥٠م نجح المسلمون في إعادة فتح كل بلاد فارس مرة أخرى، وشهدت تلك المعارك الفصل الأخير من حياة آخر ملوك آل ساسان[1].

لقد امتدت رقعة الدولة العربية الإسلامية في عهد الخليفة عثمان- رضي اللّه عنه- حتى وصلت شرقاً إلى بحر قزوين آسيا، واستمر المسلمون يطاردون ملك الفرس (يزدجرد) حتى قتل في خراسان، وبموته كتبت شهادة الوفاة للدولة الفارسية نهائياً، وطويت صفحتها من التاريخ، وبدأ للبلاد تاريخ جديد تحت راية الإسلام، تاريخ كله عدل ورحمة وتسامح، وأسلمت الأمة الفارسية، وأصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً مهماً من العالم الإسلامي، وأسهمت إسهاماً كبيراً في الحضارة العربية الإسلامية.



الفتوحات في عهد سيدنا عثمان بن عفان

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٩٣ وما بعدها.

فتح مصر:

كانت مصر إحدى الولايات البيزنطية، وكانت مصدراً للغلات، وبحكم كونها إحدى الولايات البيزنطية فرضت روما الجديدة الضرائب على الشعب، الأمر الذي أرهق كاهلهم، يضاف إلى ذلك أنها ألزمت المصريين بإطعام الجند الإمبراطوري، لذا عندما قدم العرب فاتحين رحب المصريون بهم، واعتقدوا أن الخلاص سيكون على يد العرب.

فبعدما تسلم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مفاتيح القدس، وعقد مؤتمر الجابية، عرض عليه عمرو بن العاص ضرورة فتح مصر، لأن القوات البيزنطية التي نجت من حروب الشام، لجأت إلى مصر، وكذلك بعض قبائل غسان وسواها، وخوفاً من أن يقع المسلمون بين فكي كماشة في آسية الصغرى، ومصر، إضافةً إلى وقوع السواحل تحت رحمة أسطول بيزنطة، امتثل الخليفة لطلب عمرو بن العاص، وهناك روايات عديدة حول فتح مصر[1]، والحق أن الإنسان لا يملك إلا أن يبدي تقديره العظيم لفهم عمرو بن العاص لأهمية فتح مصر على الأقل من الناحية العسكرية.

اخترق عمرو رمال صحراء سيناء، ودخل **العريش**، بدون قتال، ثم توجه إلى الفرما – مدينة قديمة شرق بور سعيد الحالية- ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها البيزنطية، ويقال إن القبط ساعدوا العرب، وذلك بسبب الاضطهاد الديني الذي لاقوه من بيزنطة، ثم توجه إلى **بلبيس**، فهزم جيشاً بيزنطياً كبيراً، ثم هزمهم في عين شمس، فتجمعت كل قواتهم في **بابليون** (قرب قاهرة اليوم)، الأمر الذي جعل عمرو بن العاص يطلب المدد من الخليفة، فحصن بابليون كان قوياً منيعاً، محصناً بعدد من الأبراج، والأسوار الشامخة، ويطل من الناحية الغربية على النيل، مقابلاً لجزيرة الروضة التي كانت محصنة

١- ابن عبد الحكم: فتوح مصرص٤٧ وما بعدها. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة١/٤-٧.

تحصيناً قوياً، ومع ذلك منذلك ضرب الحصار عليها سبعة أشهر، وجرت مفاوضات بينه وبين المقوقس، وبعد مشاورات قرر المقوقس دفع الجزية، ولكن لابد من أخذ رأي الإمبراطور هرقل في ذلك، الذي اتهم المقوقس بالخيانة والتواطئ مع المسلمين[1] حين علم بالأمر.

أمام هذا الوضع اقتحم المسلمون الحصن وفتحوا أبوابه في حركة بطولية نادرة ٢٠هــ/٦٤٠م، فهرع قائد الحصن طالباً الصلح، فاتفق الطرفان على:

-أن يخرج جنود الروم من الحصن في مدة ثلاثة أيام.

- أن يرحلوا مبحرين من نهر النيل إلى الإسكندرية ومعهم ما يكفيهم من الطعام.

-أن يستولي المسلمون على الحصن، وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب. وبذلك فتح الله على المسلمين أقوى حصن في مصر[2].

بعد ذلك توجه عمرو بن العاص إلى الإسكندرية، عاصمة مصر آنذاك، وفي طريقه فتح كل ما مر به من مدن وقرى، ولما وصل الإسكندرية ضرب عليها حصاراً، ودار بينه وبين حاميتها قتال متقطع استمر عدة شهور، أثناء ذلك توفي هرقل، فطلب الإمبراطور الجديد عقد صلح مع المسلمين، كانت أهم بنوده:

-عقد هدنة لمدة أحد عشر شهراً، يجلو خلالها الروم عائدين إلى بلادهم.

---

١ - حول شخصية المقوقس، انظر: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي -القاهرة، ٢٠٠٠م، وفتح العرب لمصر لبتلر، ترجمة عربية، القاهرة ١٩٩٦م.

٢- ابن عبد الحكم: فتوح مصرص٥٩-٧٠. البلاذري: فتوح ٢٤٩/١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك١٠٤/٤. خليفة بن خياط: تاريخ ص١٤٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة٨/١-٢٠.

– أن يظل المسلمون في مواقعهم أثناء الهدنة، وأن يمتنعوا عن القتال وكذلك الروم.

–ألا يعود جيش الروم إلى مصر مرة أخرى ولا يسعى لاستردادها.

–ألا يتعرض المسلمون للكنائس بأي أذى، ولا يتدخلوا في شؤون المسيحيين الدينية.

– السماح لليهود بالإقامة في الإسكندرية.

– أن يأخذ المسلمون من الروم رهائن ١٥٠ جندياً و٥٠ مدنياً يحتفظون بهم حتى يتم تنفيذ بقية الشروط.

– يجب على كل من دخل في ذلك العقد من الروم، وأراد البقاء في مصر أن يدفع الجزية[١].

بعد ذلك أرسل عمرو فرقاً من قواته لفتح بقية مصر، ولتأمين غرب مصر اكتسح برقة وكانت تعرف بمدينة أنطابلس، وتبعها بفتح طرابلس، وأرسل كتاباً إلى الخليفة يستأذنه في الاستمرار في فتح بلدان المغرب[٢].لكن الخليفة رفض وأمره بالعودة إلى مصر.



١– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة١/ ٧٥. ابن عبد الحكم : فتوح مصرص٧٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/١٠٤.

٢– ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص١١٦–١١٧.

وقد حاول البيزنطيون استعادة سلطتهم، وحكمهم في مصر باحتلال الإسكندرية في عهد عثمان ابن عفان، فأرسل جيوشاً بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية (تونس الحالية)، وصلت قفصة وافتتحتها[١]، وتعرف على أهمية البلاد بالنسبة للمسلمين، لذا سيعقب ذلك جهود أخرى موفقة في عصر الدولة الأموية التي تنتهي بفتح المغرب كله وتعريبه من جديد.

وفي ذلك دليل على أن المسلمين لم يكونوا دعاة حرب وطلاب توسع، وإنما كانواأصحاب رسالة سامية، حملوا أمانتها، وأرادوا إشراك غيرهم معهم في حملة رسالة التوحيد وتحرير البشرية.

وفي عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه توقفت الفتوحات العربية الإسلامية على كل الجبهات، ماخلا توغل جرى في جبهة السند، وذلك بسبب الفتن التي ثارت في عهده، وظلت متوقفة حتى استؤنفت في العصر الأموي عندما انتقلت السلطة إلى معاوية بن أبي سفيان.

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٧٢. ابن الأثير : الكامل٣/٩٠-٩١.



الفصل السابع : الحضارة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

-مقدمة

أولاً: الحياة الدينية

ثانياً: النظم السياسية

ثالثاً: النظام المالي والاقتصادي

رابعاً: النظم العسكرية

خامساً: النظام القضائي

سادساً: النظام الاجتماعي

سابعاً: الحياة الثقافية والفكرية

ثامناً: الحياة العمرانية



الحضارة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

مقدمة:

شكل قيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة منعطفاً تاريخياً في حياة العرب والعالم، فقد بدأ الرسول ﷺ حياته في مكة نبياً، وبعد الهجرة إلى المدينة صار سيداً لأمة جديدة شرعية وبوحي من الله تم تنظيم شؤونها داخلياً وخارجياً.

والرسول ﷺ لم يقم بتأسيس دولة وراثية، أو مملكة، أو إمبراطورية، ولم يقم بتوريث السلطة من بعده لأحد، فخاض المسلمون بعد وفاته غمار تجارب سياسية ابتداء من السقيفة إلى شورى الستة، فأحداث الفتنة الكبرى، فخلافة الإمام علي بن أبي طالب، والحروب الأهلية.

وخلال هذا كله تفجرت الصراعات في صورة علنية، ولجأ العرب إلى السلاح، وبعد حقبة من الزمن تمكن معاوية بن أبي سفيان من الاستيلاء على السلطة عن طريق البراعة السياسية، والمقدرة العسكرية، وبالاستخدام الكبير للمال، فجاءت خلافته خلافة غلبة، لذلك استمرت قوى المعارضة وتطورت إلى أحزاب مزجت العمل السياسي بمفاهيم دينية.

أضف إلى ذلك أن الدولة العربية الإسلامية، تحدت وبثقة كبيرة الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام ومصر، والإمبراطورية الفارسية في العراق، وهما اللتان كانتا مهيمنتين على المنطقة بأسرها، لذلك يمكن القول إن حقبة صدر الإسلام من أخطر الحقب التاريخية.

لقد نتج عن هذه التحديات المختلفة والخلافات السياسية حركات فكرية، وحضارية حملت جملة من الخصائص من أهمها:

الاهتمام بالإنسان فهو قيمة أساسية هادفة لإسعاده في الدنيا والآخرة، وقد كانت حضارة أخلاقية مفتوحة على الحضارات، أخذت منها وأعطتها، وذلك نتيجة الوعي الثقافي العربي، ولولا هذا الوعي لضاع معظم ما أنتجته القرائح.

وقد سلكوا في ذلك المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة، وعدم قبول ما وصل إليه الآخرون دون تحقيق ودراسة علمية، فكانت معرفتهم ليست لتحقيق المعرفة النظرية فحسب، إنما كان الدافع النفعي وحاجة المجتمع والدولة الواسعة الأرجاء وراء السعي لتلك المعرفة، فانعكس ذلك بالخير لصالح المجتمع وبيئته، وقد شملت حضارة العرب مختلف نواحي الحياة.

أولاً – الحياة الدينية:

يعد القرآن الكريم أساس التشريع الإسلامي، وعماد الدعوة الإسلامية، لذا فأثره يظهر أثره في المجالات الدينية، وقد نزل الوحي كما سلف القول في مكة، واستكمل النزول في المدينة، لذا من قراءة السور المكية يتبين أنها اهتمت بأحكام الله، وما شرع لعباده من أمور دينية، الشهادة، الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج...

أما السور المدنية فيلاحظ أنها نظمت المعاملات بين الناس كالبيع والشراء، والمكاييل والموازين، وأمور الزواج....

وفي كلتا المرحلتين المكية والمدنية كان القرآن رائداً للرسول ﷺ نظم به أمور جماعته المسلمة، فكان لدعوته أثر في إيجاد صلة بين الخالق والمخلوق تقوم على الطهارة والصدق والمحبة، ولا يدخل بين العبد والخالق وسيط، والمسؤولية تقع على المخلوق وحده، والهدف من ذلك ربط الإنسان بخالق قوي يبين له الخير من الشر، ويعده بالثواب والخلود جزاء لطاعته وعبادته واستقامته .

ثانياً–النظم السياسية وتشمل :

١ – الخلافة:

هي نظام مستحدث في الإسلام، ظهر ليكون نتيجة اقتضتها الحالة السياسية الإسلامية عقب وفاة الرسول ﷺ دون أن يعين للمسلمين من يقوم مقامه، لذا سمي من خلفه في إجراء الأحكام الشرعية، وإقامة الحدود، والاهتمام بأمور الدنيا بالخليفة، بمعنى إنه الحاكم الزمني والروحي، ويعرفها ابن خلدون: الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها[١]، وقد ورد في القرآن الكريم كلمة خليفة بقوله تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ }[٢].

وأول من لُقب (خليفة) أبو بكر الصديق رضي الله عنه،ولعله حمل هذا اللقب منذ أيام مرض النبي ﷺ لأنه بات خليفته على الصلوات، ومن بعد أبي بكر حمل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لقب خليفة خليفة رسول الله، ثم استبدل بهذا اللقب لقب أمير المؤمنين وهو لقب يحمل معنى السلطتين السياسية والإدارية، ويصل الخليفة للسلطة بالبيعة على مبدأ الشورى، {**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**}[٣]،{ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**}[٤] الأمر الذي يدل على أن اختياره مرتبط مباشرة بالأمة، ومن يمثلها من أهل الحل والعقد، وأنه لا وراثة في الحكم، ولا يسمون أحدًا من أبنائهم أو أقربائهم، وقد سار أبو بكر في الحكم على هدي القرآن الكريم، فعندما أحس بدنو أجله، فكر في أمر المسلمين من بعده، وخاف عليهم الفرقة، فأحب أن يجمع أمرهم قبل وقوع القضاء، ولذلك أخذ

---

١ – ابن خلدون : مقدمة ص١٦٦.

٢– سورة ص : الآية ٢٦.

٣–سورة آل عمران:الآية ١٥٩.

٤– سورة الشورى: الآية ٣٨.

عليهم بالمشورات، عهد الله بالرضا، واتجه فكره إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل كل الناس، ولا ريب في أنه فكر بعلي أيضاً فشاور كبار الصحابة، ويبدو أن المشاورة كانت سرية، فقد ذكر الطبري:" أشرف أبو بكر على الناس، وأسماء بنت عميس ممسكته، وهو يقول: أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ماألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، فقالوا: سمعنا وأطعنا"(١)، فعهد بالخلافة إلى عمر، فالخلافة جاءت على شكل توصية خاضعة لموافقة الأمة، وهو يوصي باستمرار منصب الخلافة على النهج النبوي الذي أخذ به والتزم، ولا يوصي بفرد.

وأما خلافة عثمان رضي الله عنه فقد تمت استناداً إلى هيئة انتخابية ابتكرها عمر بن الخطاب قبيل وفاته، عرفت فيما بعد باسم شورى الستة، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العوام، وهي تسمية إصطلاحية لا تطلق في اللغة العربية، وفي التاريخ الإسلامي إلا على حادثةٍ واحدةٍ، وأناط بأهل الشورى وحدهم أمر اختيار الخليفة من بينهم، وضمن مهلة محددة بثلاثة أيام من وفاته، وهذا التنظيم الجديد يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام، ولاسيما فيما يتعلق بالشورى، وقد كانت حجته في اختيار هؤلاء أنهم من العشرة المبشرين بالجنة، وأن الرسول ﷺ مات وهو راض عنهم، فهم إذن أهل ليتولى واحدٌ منهم الخلافة، لأنه يفترض فيهم أكثر من غيرهم التقوى والتجرد والحرص على المصلحة العامة، وقد اختاروا من بينهم للخلافة عثمان بن عفان، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أحدث هيأة سياسية عليا مهمتها انتخاب حاكم للدولة، وكانت ولاية العهد لا تعد صحيحة إلا

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣/٤٢٨.

عندما يوافق المسلمون جميعًا عليها في المسجد بوساطة البيعة العامة، وقد تم ذلك للخليفة عثمان بن عفان.

أما علي بن أبي طالب فقد جاء للخلافة بطلب من جمهور الصحابة[١]، وبهذا تكون الطريقة التي تولى فيها علي كرم الله وجهه الخلافة الرابعة من بين الطرق الشرعية التي عرفها تاريخ نظام الحكم في الإسلام.

والغاية من الشورى تحقيق العدالة، والتعاون بين الحاكم، والمحكوم، وقضية الشورى كما وردت في القرآن لا تخضع لأي تحديد في شكلها، ونظامها وزمنها، وهي تفسر كل مفاهيم الديمقراطية القائمة على العدالة والرحمة بين الحاكم ورعيته، هذا وقد أوضح الفقهاء أن الخلافة تقررت وفق القواعد التالية:

١- إقامة حاكم للدولة يرأسها ويخلف الرسول ﷺ فالخلافة واجب مقدس على ما سواه.

٢- تحديد النظام السياسي الجديد، وهو نظام يتولى صاحبه رعاية الجانب الديني والمدني، وذلك بالحفاظ على الدعوة الإسلامية، ونشرها، والإشراف على تماسك المجتمع الجديد في مجال الدين والدنيا، وهذا يفهم من قول أبي بكر، وهو يخاطب المسلمين: " لابد لكم من رجل يلي أمركم، ويصلي بكم، ويقاتل عدوكم"[٢].

٣- إقرار الانتخاب قاعدة للخلافة وليس الوراثة، وجمعت قاعدة الانتخاب وفق السوابق في اجتماع سقيفة بني ساعدة، ثم في حكم الخلفاء أنفسهم في المبادئ الإسلامية، والتقاليد العربية، وتجلت المبادئ الإسلامية في مراعاة

١- القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ٢١٥/١.

٢ - خماش وعاقل : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ص١٠٣.

السبق في الإسلام، والخدمة له، والصلة القوية بالرسول، أما التقاليد العربية فاتضحت في مراعاة السن والتجربة والتقوى، والكفاءة.

٤- تحديد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها أيضاً بدستور الإسلام، وهو القرآن والسنة، والخلافة لمدى الحياة، وبعد أن ينتخب الخليفة الراشدي يخطب بالناس في المسجد، ويوضح سياسته التي سينتهجها، وقد ارتبط بظهور مؤسسة الخلافة نظام سياسي آخر كان من اختصاصاته مساعدة الخلافة على أداء سياستها، ومعاونتها على اجتياز ما يواجهها من مشاكل، وقد اشتهر هذا النظام باسم الشورى، وهونظام استمد مقوماته من المبادئ والتقاليد العربية[١].

والمفيد ذكره أن هناك أموراً صارت تتعلق برسوم الخلافة، وهي علامات الخلافة، كالبردة وهي بردة رسول الله ﷺ خلعها على الشاعر كعب بن زهير[٢]، لما رجع تائباً مسلماً، وظلت عند أهل كعب، حتى اشتراها معاوية بن أبي سفيان من الورثة بعشرة آلاف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون على السواء.

وللخلافة خاتم اتخذه رسول الله من الفضة، وجعل نقشه" محمد رسول الله"[٣] فلما توفي لبسه أبو بكر بعده، ثم لبسه عمر بن الخطاب بعد أبي بكر، ثم لبسه عثمان ابن عفان، فوقع في بئر أريس[٤]، فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه، ثم اتخذ الخلفاء أختاماً خاصة على بعضها مواعظ وحكم.

ومن الأمور التي تتعلق برسوم الخلافة **القضيب:** وهو عود كان رسول الله ﷺ يأخذه بيده، فقلده الخلفاء في حمله، يقال تناول جهجاه بن قيس عصا رسول

---

١ – خماش وعاقل : تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص١٠٤.

٢-الزركلي : الأعلام ٢٢٦/٥.

٣-البلاذري : فتوح البلدان ص٤٤٨.

٤-الحموي : معجم البلدان مادة بئر أريس.

الله ﷺ من يد عثمان بن عفان، وهو يحطب فكسرها على ركبته فأخذته الإكلة في ركبته فمات منها[١].

وصار مع الأيام للخلافة **شارات:** وهي الخطبة أي الدعاء للخليفة على المنابر في المساجد، وشاركهم الأمراء بذلك عند ضعفهم، والسكة هي ضرب النقود المتعامل بها بين الناس باسم الخليفة، وكان عليها آية كريمة قصيرة، أو دعاء موجز، والطراز وهي ثياب الخلافة، فقد كانت ثياب الخلفاء الراشدين لا تختلف عن ملابس أقل رعاياهم شأناً، ومن شارات الخلافة لون الأعلام: فالراشدية اتخذت اللون الأبيض.

أما **راتب الخلفاء:** فلما ولي أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة حمل على عاتقه أثواباً ومضى للسوق يبيع ويشتري على عادته، فالتقى بعمر، وبأبي عبيدة اللذين أنكرا عليه ذلك، وفرضا له بعض شاة كل يوم ومئتين وخمسين ديناراً في السنة، ثم جعلوها شاة كاملة وثلاث مئة دينار في السنة.

وكان أبو بكر يقول:" لقد أقمت نفسي في مال الله، وفيء المسلمين، مقام الوصي في مال اليتيم، إن استغنى تعفّف، وإن افتقر أكل بالمعروف، وإنَ والي الأمر بعدي عمر بن الخطاب، وإني استسلفت من بيت المال مالاً، فإذا مت فليبع حائطي (بستاني)، في موضع كذا ويرد إلى بيت المال"[٢].

فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكث زماناً لا يأكل من أموال المسلمين العامة شيئاً، وكان يتجر وهو خليفة، فيعامل الناس ويستدين ويوفي ويبيع ويربح، ولما افتقر دخلت عليه خصاصة، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته، لأنه اشتغل عنها بأمور الرعية، فعُرض له ما يصلحه، ويصلح عياله بالمعروف، فكان يأخذ كل يوم من بيت المال ثلاثة دراهم أجرة، وقال رضي

١-ابن الأثير : الكامل ٣٦٥/١.

٢-اليعقوبي : تاريخ ١٣٧/٢. أبو خليل : الحضارة العربية الإسلامية ص٢٣٨.

الله عنه كما قال الصديق من قبل إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت[1].

وهذا ما كان يأخذه الخلفاء الراشدون من بيت المال من خزينة الدولة، ثمن طعامهم وكسوتهم.

٢- مؤسسات السلطة :

- **الولايات** : وهي تقليد عامل معين إدارة إقليم من الأقاليم نيابة عن الخليفة في أعمال محددة ومعروفة تخدم مصلحة الدولة ورعاياها[2].

فباتساع الدولة العربية الإسلامية ظهرت الحاجة إلى إدارة الولايات، فبدأ الرسول ﷺ بتعيين بعض الأمراء والعمال في مختلف المناطق الإسلامية بعد أن وضع لهم أسساً للتعامل مع الناس من جانب، ولتنظيم تلك الولايات على حسب قواعد الشريعة الإسلامية من جانب آخر، لأن الإسلام قلب المفاهيم السياسية بجمعه للقبائل العربية، والتآلف فيما بينها، تحت شعار توحيد الصفوف في السياسة والإدارة والاجتماع.

ومعروف أن الإسلام اعتنى بالإمرة بصفة عامة، وحرص عليها الرسول ﷺ فلم يبعث مجموعة من أصحابه في أية مهمة حربية أو مدنية إلا ويجعل لهم أميراً يقودهم، ويأمر الذين معه بالسمع والطاعة، كما كان عليه الصلاة والسلام يستخلف على المدينة من يختاره من أصحابه أثناء غيابه عنها، وقد ينص الاستخلاف أحياناً على إقامة الصلاة بالناس[3].

١-ابن الجوزي: المنتظم ص٩٠. ابن سعد : الطبقات ١/ ١٩٨. أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٣٨.

٢- ملي : نظام الحكم الإسلامي ص ٣٠٣-٣٠٤.

٣- العمري : الولاية على البلدان ص ٢٧.

وحينما اتسعت الدولة االعربية الإسلامية في عصره، وتجاوزت حدود المدينة المنورة أخذ الرسول ﷺ يرسل العمال من الولاة والقضاة وغيرهم إلى مختلف المناطق والأقاليم، لا بل إلى القبائل لأمور مختلفة وبصلاحيات منضبطة، حددها لهم الرسول ﷺ، وهي في مجملها ضوابط عامة، وقد يختلف بعضها من إقليم إلى إقليم، ومن ولاية إلى ولاية.

وعلى هذا لم تكن الإدارة قائمة على نصوص مكتوبة، أو قرارات مجالس عامة، وإنما كانت في أساسها نابعة من مبادئ الإسلام، وفي تطبيقاتها من متطلبات المصلحة العامة، وكان الرسول ﷺ يشاور أصحابه دائماً، ولا يفرض آراءه، ولكنه لم يؤسس للاستشارة مجلساً خاصاً ولم يحدد من يشاورهم، وكانت القرارات تصدر باسمه، بحكم النبوة وأنه كان لا ينطق عن الهوى.

وقد اقتضت الأحوال إقرار تنظيمات تتناسب مع الأوضاع المحلية المتعددة التي كانت قائمة في جزيرة العرب آنذاك، وطريقة انضمام أهلها إلى الإسلام، والسبيل الأمثل في توثيق صلتهم بدولته، الأمر الذي يقتضي أن يراعى فيها الرضا دون الفرض التعسفي، لذلك كانت هذه التنظيمات متنوعة، ولكنها جميعاً كانت تؤول إلى تحقيق الهدف الأوسع في تثبيت دولة الإسلام، وتعزيز العقيدة ومتطلباتها، فالتنظيم الإداري تابع لهذا الهدف الأعلى وتالٍ له.

ومادامت المدن والقرى والمجموعات القبلية ورؤسائها مقرين بالإسلام وسيادة دولته، فإنه أبقاهم ولم يأمر بعزلهم، أو التدخل في مكانتهم، وأبرز مثال على ذلك الكتب والرسائل التي أصدرها إلى أشخاص وجماعات متنوعين، والأمان الذي قدمه إلى من توَجّه إليهم هذه الكتب، وقد وردت في ذلك ثلاثة تعابير هي: الجوار، والأمان، والأمة[١] وأكثر ما يتردد فيها هو الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

---

١ –من أجل هذا الموضوع راجع،حميد الله : مجموعة الوثائق.

وقد أبقى التجمعات القبلية، وربما نُظمها وشيوخها، مادامت لا تتعارض مع الإسلام ودولته وذلك بهدف الاستقرار، وكانت مرحلية لأن اعتناق الإسلام والانضمام إلى دولته يؤول إلى قبول التوجهات التي تصدرها السلطة المركزية في الدولة، لأن طاعة الله والرسول واجب ديني ملازم للإسلام بحكم القرآن الكريم، وإذا كان التركيز في هذه المرحلة المبكرة على إقرار سيادة الدولة وتأمين السلم، فإن هذه الأحكام تيسّر المجال لإدخال تطورات تالية تصدرها السلطة المركزية، وتراعى فيها مصلحة العموم دون الحصر في المصالح المحلية المتعددة كما أنها تسير على هدي مبادئ الإسلام دون الاقتصار على المصالح الشخصية المحددة.

وبعد وفاة الرسول ﷺ نجح أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تنظيم الدولة العربية الإسلامية من جديد، وترتيب شؤون الولايات وتعيين العمال والأمراء، وعمد إلى إعادة تقسيم الجزيرة العربية إلى ولايات بلغ عددها اثنتي عشرة ولاية أو عمالة[١].

وكان ينظر إلى حسن اختيار الرسول للأمراء والولاة على البلدان، أضف إلى ذلك أنه كان يكتب للشخص المعين عهداً له على المنطقة التي يوليه عليها[٢] ويحدد له طريقة ولايته.

أما أهم مسؤوليات الولاة فيمكن إجمالها فيما يلي:

- في عصر أبي بكر هي:

١ – إقامة الصلاة وإمامة الناس، وهي المهمة الرئيسة لدى الولاة، نظراً لما تحمله من معان دينية، ودنيوية، وسياسية، واجتماعية وغير ذلك.

١–دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ٢٦٨/٢.

٢–القلقشندي: صبح الأعشى ١٠ /١٩٢.

٢ – الجهاد، وإدارة شؤون البلاد المفتوحة، وتعيين القضاة والعمال عليها من الأمراء أنفسهم، وبإقرار من الخليفة أبي بكر، أو تعيين من الخليفة عن طريق الأمراء.

٣ – أخذ البيعة للخليفة.

٤ – كانت هناك أمور مالية توكل إلى الولاة أو إلى من يساعدهم ممن يعينهم الخليفة، أو الوالي لأخذ الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، أو أخذ الجزية من غير المسلمين وصرفها في محلها الشرعي وهي امتداد لما قام به ولاة الرسول ﷺ في هذا الخصوص.

٥ – تجديد العهود القائمة من أيام الرسول ﷺ إذ قام والي نجران بتجديد العهد الذي كان بين أهلها وبين الرسول، بناء على طلب من نصارى نجران[١].

٦ – إقامة الحدود، وتأمين البلاد، وكانوا يجتهدون رأيهم فيما لم يكن فيه نص شرعي.

٧ – كان للولاة دور رئيس في تعليم الناس أمور دينهم، وفي نشر الإسلام في البلاد التي يتولون عليها، وكان كثير من هؤلاء الولاة يجلسون في المساجد يعلّمون الناس القرآن والأحكام، وذلك عملاً بسنة الرسول ﷺ وكانت هذه المهمة تُعدّ من أعظم المهام وأجلّها في نظر الرسول، وخليفته أبي بكر[٢].

وقد كان الوالي هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن إدارة الإقليم الذي كان يتولاه، وفي حالة سفر الوالي فإنه يتعين عليه أن يستخلف أو ينيب عنه من يقوم بعمله إلى أن يعود هذا الوالي إلى عمله[٣].

١–الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٦٥/٣.

٢–الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٦٥/٣. العمري : الولاية على البلدان ٦٠/١.

٣– الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٧١.

وحينما تسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه زمام الدولة الإسلامية بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كانت الدولة قد بدأت تمتد في الشام والعراق وفارس ومصر مع استمرار هذا الامتداد، إضافة إلى سيطرتها على مختلف الأقاليم داخل الجزيرة العربية وبذلك زادت الولايات الإسلامية في عصره، وكثرت الأمصار، وتعددت البلدان، واقتضى ذلك من عمر تنظيم هذه الولايات، بل اقتضى الأمر أحياناً تشكيل أمصار جديدة تضم المسلمين الفاتحين، إضافة إلى من يدخل في هذا الدين من أهل البلاد المفتوحة، ومن ثم أصبح لزاماً إدارة هذه البلدان، وتنظيم مختلف شؤونها وتدبير أمورها وسياستها، وقد اختلفت هذه الولايات، وتنوعت وضم بعضها إلى بعض، وتولى عليها أمراء وولاة مختلفون، وجرت داخل هذه الولايات أحداث كثيرة، ويعدّ تقسيم الولايات في عهد عمر امتداداً من بعض نواحيه لما كانت عليه في عهد أبي بكر إقليمياً، مع وجود تغييرات في المناصب القيادية لهذه الولايات في كثير من الأحيان[١].

فتطلَّب منه الوضْع الجديدُ أن يضعَ نظامًا إداريًّا حقيقيًّا، يُعينُه في إدارة الدَّولة الواسعة، والإشراف على تنْظيمِ مواردِها، فعمل على تقسيم الدولة إلى ولايات أهمها: ولاية الأهْواز والبحرين – ولاية سجستان ومكران – ولاية طبرستان – ولاية خراسان – ولاية البصْرة – ولاية الكوفة – ولاية المَوْصل – ولاية حمْص – ولاية دِمَشْق – ولاية فِلَسْطين – ولاية مصر.

ومهما يكن الأمر فإن عمر رضي الله عنه كان يتميز في اختياره للولاة بأسلوب خاص يستحق الوقوف عنده.

١- العمري : الولاية على البلدان ٦٥/١.

لقد امتاز عمر رضي الله عنه بأسلوبه الخاص في مشاورة شيوخ الصحابة في مختلف شؤون الدولة، وعلى رأس ذلك تعيين الولاة[١]، الأمر الذي أعانه على اتخاذ الخطوات الصحيحة، فقد ذكر البلاذري أن عمر بن الخطاب كان له مجلس في المسجد يجلس فيه مع شيوخ المهاجرين يحدثهم في أمور الدولة، ثم يجمع الناس في المسجد دعوة عامة يستشير فيها عامة الناس في أمور تعيين الأمراء والقواد، بعد أن يكون قد استشار خاصتهم[٢].

وقد كان يختار الولاة من كبار الصحابة ونظرائهم، وممن اتصف بصدق العقيدة والهيبة مع التواضع والرحمة بالناس، والمقْدرة على إدارة شؤون الولاية، والقِيام بالمهام المُلْقاة على عاتقِه. والحلم والرفق بالرعية والبعد عن زخرف الدنيا ومطامعها، معتمداً بالدرجة الأولى المصلحة العامة للأمة الإسلامية[٣].

وكان عمر رضي الله عنه يوصِي أولئك الوُلاةَ بحُسْن معامَلة الرعية، والرِّفْق بهم، وعدم تكْليفهم فوق طاقتهم، ويحملهم مسؤولية تطْبيق شرائع الإسلام وسُننه؛ فقال مُوَضِّحًا واجباتِهم" :أيُّها الناس، إنِّي والله ما أرسل إليكم عمَّالاً ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أعْشاركم؛ ولكن أرسلهم ليعلِّموكم دينكم وسُنَنكم، فمَن فُعل به شيءٌ سوى ذلك، فليرفعه إليَّ، فوالَّذي نفس عمر بيده، لأقتصّنَّ له منه."

وإذا كان عمر رضي الله عنه لا يرضيه ظُلْم العمَّال للرعية، فإنه كذلك كان يكْرَه أن يتطاوَل أحدٌ من الرَّعيَّة على العمَّال، "فهو حينما شكا إليه أهلُ

١-خريسات : عمر بن الخطاب والولاة ص١٢٦.

٢-البلاذري : فتوح ص ٢٦٦-٢٦٧.

٣-ابن الجوزي : مناقب عمر ص١٢٠-١٩١. خطاب : عمر بن الخطاب القائد ص٥٧. العمري : الولاية على البلدان ١٤١/١.

الكوفة سعدَ ابن أبي وقاص، وطَلَبَ وفْدٌ منهم عَزْلَه، قال: مَن يعذِرني مِن أهل الكوفة؟ إن ولَّيتُهم التَّقيَّ ضعَّفوه، وإن وليتهم القوي فجَّروه، فقال له المُغِيرة بن شُعبة: يا أمير المؤمنين، إنَّ التَّقيَّ الضعيف له تقْواه ولك ضعْفه، وإنَّ القويَّ الفاجِر لك قوته وعليه فُجُوره، فقال عمر: صدقْتَ،" وولاه الكوفة.

وكان إضافة إلى ذلك يختبر عماله قبل أن يوليهم، ويحدد لهم أسلوب العمل وقواعده ليكون أساساً في محاسبتهم فيما بعد، ولم يكن يعين الولاة فقط، وإنما كان يعين عمال الخراج، وكتاب الدواوين والقضاة على الأمصار، وهؤلاء جميعاً كانوا مسؤولين عن أعمالهم مسؤولية مباشرة أمام الخليفة الذي كان يراقبهم مراقبة شديدة، فكان لا يخفى عليه شيء في عمله[١].

وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد، وعلى وساد واحد[٢]، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد علم أن عامل البحرين قدامة بن مظعون الجمحي يشرب الخمر، فلما ثبتت التهمة عليه عزله عن عمله ونفذ فيه الحد[٣].

وحاسب أبا هريرة عامل البحرين حين علم أنه اجتمعت له عشرة آلاف درهم، ولما ناقشه في مصدرها، قال: إن خيلاً له تناسلت وعطاءات تلاحقت وسهاماً اجتمعت، وأنه كان يعمل في التجارة فشاطره أمواله، ودفع الشطر المأخوذ منه إلى بيت المال، ونهاه عن التجارة، وحفظ له ما كان مصدره عطاؤه[٤].

وقد اشتهر عمر رضي الله عنه بأنه ترك بابه مفتوحاً لتلقي أية شكاية ضد أي أحد من هؤلاء، وكان يصرف لأمراء الجيش والقرى وجميع العمال

١-الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٧/٤.

٢-الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك ص١٦٨.

٣- العمري : الولاية على البلدان ٧٣/١.

٤-ابن سلام : الأموال : ص٣٨١. العمري : الولاية على البلدان ٧٤/١.

من العطاء ما يكفيهم بالمعروف، نظير عملهم على قدر ما يصلحهم من الطعام ما يقومون به من الأمور[١]، وكان حريصاً على نزاهة العمال عما بأيديهم من الأموال العامة فيقول لعماله: " قد أنزلتكم من هذا المال ونفسي منزلة وصي اليتيم، من كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف "[٢]

إضافة إلى ما سلف فقد كان لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يشبه جهاز التفتيش على الولاة، وكان على رأسه محمد بن مسلمة الذي كثيراً ما كان يبعثه عمر كثيراً لتفقد أحوال الولاة، والتحقيق في الشكايات، ومقابلة الناس والسماع منهم ونقل آرائهم عن ولاتهم إلى عمر مباشرة[٣].

كما كان حريصاً كل الحرص على حفظ الأوراق الخاصة بالولايات وبالخلافة عموماً، وكان أكثر حرصه على حفظ المعاهدات التي يجريها الولاة مع أهل البلاد المفتوحة، منعاً لظلم أحد، فقد ورد أنه كان هناك تابوت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده[٤].

ولعل الولاة أيضاً كانوا يحتفظون بأوراقهم ومكاتباتهم للعودة إليها عند الحاجة، وحتى لا تلتبس عليهم الأمور.

وبعد كل ذلك علينا أن نتذكر أن الولاة كانوا يحكمون مناطق متطورة ومتغيرة، ومجتمعات مختلفة يوجد فيها المسلم والذمي، والعالم والجاهل، والضعيف والقوي، والمرأة والرجل، مجتمعات متنوعة ومتعددة، وبلدان راسخة في الإسلام، ومجتمعات نشأت حديثاً في ظل الإسلام، وهي الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط، ومجتمعات كانت في الأصل غير إسلامية ثم بدأ

١- أبو يوسف: الخراج ص٥٠.

٢-ابن شبة : تاريخ المدينة ٦٩٤/٢. الماوردي : نصيحة الملوك ص١٠٠. العمري : الولاية على البلدان ١٤٩/١.

٣- العمري : الولاية على البلدان ١٦٣/١.

٤- المقريزي : الخطط ٢٩٥/١.

يطرأ عليها التحول والتغير، وبدأت تتحول إلى الإسلام، وبدأ المسلم يسكن مع غيره في مدينة واحدة، ولذلك كان على الولاة أن يتعاملوا مع هذه المجتمعات المتغيرة، وقد اختلفت بعض الولايات عن بعضها الآخر في أحوالها الداخلية، ومع ذلك فقد كان عمر رضي الله عنه يستشعر حاجة كل ولاية، ويطالب الولاة بتلبية تلك الحاجات المتغيرة والمتطورة من تعليم وجهاد وغيره.

وتوفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبويع عثمان بن عفان بالخلافة فكان ولاته هم الولاة السالفين في أول سنة من خلافته ثم وقعت بعد ذلك تعديلات في مناصب الولاية أجراها عثمان بن عفان لما رآه في صالح الدولة الإسلامية.

ويلاحظ أن الولايات في عهد عثمان كانت هي الولايات في عهد عمر بن الخطاب إضافة إلى أقاليم أرمينيا وطبرستان وخراسان وجزء من المغرب الأوسط الذي انضم إلى الدولة الإسلامية لأول مرة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما أن الولاة كان لهم دور كبير في المحافظة على الولايات القائمة، وقد انشغلوا بمدافعة الأعداء وجهادهم وردوهم ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية ومد نفوذها في مناطق جديدة.

وقد اتهم ولاة عثمان بالاعتداء على الناس، ولكننا لم نلمس حوادث معينة يتضح فيها هذا الاعتداء المزعوم والمشاع، كما اتهم عثمان بتولية أقاربه، ولم يأل جهداً في نصح الأمة وفي تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم ولا ولاته من اتهامات وجهت إليهم من أصحاب الفتنة في حينها، كما أنه رضي الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين في كتاباتهم غير المنصفة، وغير المحقة عن عهده رضي الله عنه ولاسيما الباحثين المُحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة يعتمدون فيها على مصادر موثوقة.

لقد كان عثمان – حقاً – الخليفة المظلوم الذي افترى عليه الأولون، ولم ينصفه المتأخرون.

وبويع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في ظروف صعبة بدأت الدولة أثناء ذلك تفقد جانباً كبيراًا من استقرارها ونشاطها، وأحس المستشارون والنصحاء بخطورة ما سيقع، فتقدم بعضهم بنصائح إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فيما يمكن أن يفعله من البداية، ولاسيما ما يتعلق بالولاة على البلدان[1] لكنه لم يأخذ بالنصح، فقد عين أمراء جدد لمختلف الولايات بعثهم إلى الأمصار، البصرة والكوفة واليمن ومصر والشام، بعد مبايعته مباشرة، وقد اختلف الباحثون في تحليل موقف علي كرم الله وجهه من عزل الولاة وتعيين ولاة جدد[2]، فقام بعض الأمراء السالفين بمواقف سلبية من علي بن أبي طالب واشترك بعض منهم في جيش الجمل وفي تجهيزه[3]، وأعلن معاوية والي الشام عدم رضاه، ورفض إقرار عزله عن ولاية الشام، وبذلك بدأ الاضطراب في الدولة وخرجت أولى الولايات عن حكم علي.

ومع ما بذله علي رضي الله عنه من جهود في توجيه ولاته، وما بذله الولاة في تنظيم شؤون الدولة، فقد قامت ثورات كثيرة تسببت في قتل العديد من الولاة، وصاحب ذلك اضطرابٌ أضر بتلك الولايات وأبعدها عن سلطته المباشرة، وسبَب فرار بعض الولاة من مناطقهم نتيجة النزاع بين علي رضي

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥/١٦٠-١٦١. المسعودي: مروج الذهب ٣٥٤/٢. ابن الأثير : الكامل ١٩٧/٣. النويري : نهاية الأرب ٢٠/ ١٨. العمري : الولاية على البلدان ٢٩/٢.

٢- كرد علي : الإدارة الإسلامية في عز العرب ص٦٣-٦٤. اليوزبكي: دراسات في النظم الإسلامية ص١٠٤.

٣ -الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦٢-١٦٦.

الله عنه ومعاوية بالدرجة الأولى، ونتيجة الثورات التي قامت في بعض أنحاء المشرق بالدرجة الثانية.

وبدأت بوادر نهاية الخلافة الراشدية وبداية عصر جديد استلم فيه الأمويون زمام الحكم.

٣- الدواوين:

الدواوين: قيل الديوان كلمة فارسية معناها السجل، أو الدفتر، ثم أطلق الاسم على المكان الذي تحفظ فيه السجلات، ويجلس الكتاب[١].

وقد عرّفه الماوردي: "الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بأمن الجيوش والعمال"[٢].

وقد أخذ الديوان ملامحه منذ أن كتب الرسول ﷺ إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام، وعندما كتب على أصحاب السرايا من أصحابه، ولكن لم يكن الديوان بتلك الشهرة التي كانت زمن الخليفة عمر بن الخطاب، فهو أول من دون الدواوين في الإسلام بناء على مشورة أصحابه عندما كثرت أموال المسلمين فأمر بإنشاء ديوان لكتابة أسماء الجند المجاهدين، وما يخص كلاً منهم من عطاء، مراعياً في ذلك السبق في الإسلام، ونصرة الرسول ﷺ والقرابة من الرسول والبلاء في الجهاد[٣]، وديوان الخراج يختص ببيت المال من دخل وإنفاق[٤]، وقد كان في كل ولاية ديوان أشبه بالإدارة المالية المحلية يجمع الخراج، ويحتفظ بما يحتاج إليه الولاة من نفقات، ويرسل الفائض إلى

١- القلقشندي: صبح الأعشى ٩٠/١.

٢-الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٩٩-٢٠٠- ٢٢٦.

٣ - الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٨٩. زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ١٧٢/١.

٤-الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٩٩- ٢٠٠- ٢٢٦. العمري: الولاية على البلدان١٥٨/٢-١٥٩.

العاصمة، حيث يجمع دخل الأراضي الزراعية في ديوان مركزي، لقاء إيصالات استلام وصرف، وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات[1].

آ – ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء:

وهو يشبه رئاسة الوزراء في أيامنا، فرئيس الديوان يسمى الكاتب، وهو ينشئ الرسائل التي يبعث بها الخليفة إلى الولاة والعمال والملوك، ويتلقى الرسائل التي ترد إلى الخليفة أي تحفظ فيه الوثائق الرسمية.

وقد وجد هذا الديوان في عهد الرسول ﷺ إذ استخدم كتاباً يكتبون عنه إلى أمرائه وأصحاب سراياه، وإلى من قَرُبت منطقته من شبه الجزيرة العربية من ملوك وأمراء يدعوهم إلى الإسلام، كما كتبوا له العهود والإقطاعات والهدن والأمانات وإلى غير ذلك[2].

فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم الديوان، كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل، وقد كتب هذا الديوان باللغة العربية منذ إيجاده، وكان الكاتب مأموناً في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يوقع، ولذلك كثيراً ما كان الكتاب يتلاعبون بالأمور.

ب – ديوان الخاتم :

لم يكن القصد من الختم أن يوضع في أدنى الرسالة، وإنما كانت الرسالة تطوى، ويلصق طرفها بالشمع الأحمر الذي يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة، ويترك حتى يجف، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك.

وقد عرف منذ زمن الرسول ﷺ عندما أراد الكتابة إلى هرقل إمبراطور الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، قيل له: إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان

١–رفاعي: الإسلام في حضارته ص١٣٣.

٢– القلقشندي: صبح الأعشى ٩٠/١. رفاعي : الإسلام في حضارته ص١٣٣.

مختوماً فاتخذ الرسول ﷺ خاتماً من فضة وختم به، وقلده في ذلك الخلفاء وأصبح علامة من علامات الخلافة.

جـ – ديوان البريد :

البريد واحد من الأعمال الضرورية لتنظيم الاتصال بين مراكز الدولة والولايات التابعة لها خدمة لأغراض الدولة[١].

وقد اختلف في أصل الكلمة فبعضهم قال: هي عربية من أبرد أي أرسل، وبعضهم قال: هي فارسية بوريدان أو بريدة أي قطع، لأن أذناب خيل البريد وأعرافها كانت تقطع لتمييز راكبها بأنه رسول الدولة.

وقد كان في عاصمة كل ولاية صاحب بريد مهمته لا تنحصر في الإشراف على إرسال البريد الرسمي فحسب، بل تعداه إلى إطلاع الخليفة على جميع الأحداث المهمة، فقد كان صاحب البريد في الواقع معتمداً سرياً للحكومة المركزية، وكان يقدم بصورة دورية تقارير سرية عن أحوال الإمارة، وسير الإدارة، وحالة الفلاحين والزراعة، وتصرفات السلطات المحلية وحالة النقد، وكمية الذهب والفضة المسكوكة، وكان عليه أيضاً أن يكون حاضراً وقت دفع المرتبات للجند.

وقد كانت الرسائل الخاصة تنقل مع بريد الحكومة وتسلم إلى أصحابها، غير أنه من العسير البت فيما إذا كان هؤلاء يدفعون أجوراً لقاء هذه الخدمة[٢].

ومما يذكر في هذا الصدد أن عمر بن الخطاب كان يرسل البريد إلى الولاة في الأمصار، وكان يوصي حامل البريد بالطواف في الشوارع عندما يريد العودة إلى المدينة، والمناداة في الناس ليسمع من يريد إرسال رسالة إلى

١- حسيني : الإدارة ص١٦٩.

٢ – سيد علي أمير : مختصر ص ٣٦١.

أمير المؤمنين حتى يحملها إليه دون تدخل من الوالي، وكان صاحب البريد نفسه لا يعلم شيئاً عن هذه الرسائل، ومن ثم يكون المجال مفتوحاً أمام الناس لرفع أي شكوى أو مظلمة إلى عمر نفسه دون أن يعلم الوالي ورجاله بذلك، وعندما كان حامل الرسائل يصل إلى عمر ينثر ما معه من صحف ويقرؤها ويرى ما فيها[١].

د- ديوان الجيش :

أوجده عمر بن الخطاب ﷺ، وهو في حقيقته سجل للجيش، أما الذي دعا إلى إيجاده فهو أن الهرمزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان قال له: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلّف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديواناً، فسأله عن الديوان حتى فسره له فاستشار المسلمين في تدوين الدواوين، فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: تقسم كل سنة ما اجتمع عندك المال ولا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان رضي الله عنه: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، فإن لم يُحصوا لن يُعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشية أن ينتشر الأمر، وقال خالد بن الوليد، قد كنت بالشام، فرأيت ملوكها دونوا ديواناً، وجندوا جنوداً فدون ديواناً وجند جنوداً فأخذ بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش فقال لهم: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدؤوا ببني هاشم وكتبوهم ثم أتبعوهم أولاد أبي بكر وقومه، ثم عمر وقومه، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ذلك إلى عمر، فلما نظر قال لا: ولكن ابدؤوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله فشكره العباس على ذلك[٢].

---

١ - ابن شبة: تاريخ المدينة ٣/ ٧٦١. العمري : الولاية على البلدان ١/ ١٥٧.

٢- المقريزي : خطط ١٦٤/٢.

وقد كان لديوان الجند فروع، بعضها للمراسلة، وبعضها للعطاء، وبعضها للنفقات أو لغير ذلك بما يختلف باختلاف الأحوال والأزمان[١]. فنظم الخليفة عمر العلاقة بين هذا الديوان المركزي وبين فروعه في الولايات التي تم فتحها، وظل ديوان الجند في دولة بني أمية هو ديوان الجند نفسه زمن الراشدين، ولكن كان هذا الديوان يخضع لبعض التعديلات على حسب ما يطرأ على أصحاب العطاء من تبدل أو تعديل، سواء بالزيادة أو النقصان، وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة حتى انقرض أهل السوابق، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب، وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط منها: من أراد الانتظام في الجندية يقدم طلباً إلى صاحب ديوان الجند، وهو ينظر في أهليته، ولا يكون أهلاً لذلك إلا من كانت تتوفر فيه الشروط التالية:

١ – أن يكون بالغاً.

٢ – أن يكون حراً مسلماً.

٣ – أن يكون سليماً مقداماً.

فإذا استوفى هذه الشروط قُبل ودوِّن اسمه في سجلات الجيش مع نسبه وقدِّه ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به من غيره لئلا تتفق الأسماء[٢].

كانت هذه التنظيمات للجيش براً، **أما عن التنظيمات البحرية والأسطول** والسفن، فالحقيقة أن العرب لم يهتموا بركوب البحر، فقد استأذن معاوية والي عمر على الشام عمر في ركوب البحر، فلم يأذن له، لكنَ أوامر الخليفة جاءته بترميم الحصون وترتيب المقاتلة، وإقامة الحرس واتخاذ المواقيد في الثغور البحرية، ولم يأذن له الخليفة بغزو البحر.

١- زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١/١٤٣.

٢- الماوردي : الأحكام السلطانية ص٢٠٤.

وكان قد استشار عمرو بن العاص رضي الله عنه على مصر وهو أهل للاستشارة، فكتب له عمرو يقول: يا أمير المؤمنين، إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق فلما وصل الكتاب إلى عمر رضي الله عنه أرسل إلى معاوية كتاباً يمنعه فيه من ركوب مخاطر البحر، ولعل سياسة عمر تجاه منع معاوية من ركوب أهوال البحر سببها أن العرب في وسط شبه الجزيرة العربية لم يكونوا يعنون بالبحر في بداية دولة الإسلام، وإن عمر رضي الله عنه بما جبل عليه من روية ورزانة كان يستهدي المنطق السليم، ويكبح جماح قواده من الغزوات التي تبدو له فيها المخاطر بأرواح المسلمين، ولو كانت نزراً يسيراً، ويتضح من هذا الإجراء أن الخليفة عمر اعتمد أسلوب الدفاع البحري لأنه كان يدرك أن العرب ليسوا بالمستوى الذي يسمح لهم بالهجوم البحري، ولم يخاطر بزجِ القوات العربية في معركة خاسرة، وركز على العمليات البرية، وتثبيت العرب المسلمين في الأرض والمدن.

فإن كان رأيه في الغزوات البرية يقوم على التريث والحكمة فكيف بركوب البحر؟ فقد عارض فتح مصر وكانت براً، ولهذا لم يجد ابن الخطاب رضي الله عنه من استشارة عمرو بن العاص بداً، خاصة أن الولاية التي يقوم عليها تطل على هذا البحر، وقد كانت ممانعته بسبب الخوف على المسلمين، ولهذا لم يوافق على طلب معاوية في غزو قبرص.

ولم يختلف موقف عمر بن الخطاب عندما قام والي البحرين عثمان بن العاص الثقفي بأول حملة بحرية في بحر الهند، فقد أبحر من عمان ووصل إلى "تانة" القريبة من بومباي، واتجه أخوه في خط آخر إلى مصب نهر السند، وحين عاد كتب إلى عمر يعلمه بذلك، فكتب إليه عمر جواباً على كتابه يقول

فيه "يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود، إني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم"، وقد غزا الصحابي الجليل العلاء بن عبدالله الحضري والي البحرين بعد الوالي عثمان بن العاص الثقفي بلاد فارس بحراً، وعندما علم الخليفة بذلك، استنكر عليه ذلك لأنه لم يستشره، مع أن العلاء كاتب وحي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحامل رسالته إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى، فذلك هو موقف عمر رضي الله عنه تجاه البحر والغزو فيه.، حسب المرويات المتأخرة، ولابد من إعادة النظر فيها، فلغة جواب عمرو بن العاص، ليست لغة القرن الأول، كما أن أوراق البردي المكتشفة في مصر تدفع إلى إعادة النظر.

ومن المفيد القول: وقف العرب وجهاً لوجه أمام القوى التي كانت تسيطر على عالم البحر المتوسط، وأدركوا أن استمرار انتصاراتهم مرهون بقوى بحرية عسكرية عمدوا إلى إحياء دور صناعة السفن القديمة، وقاموا في الوقت نفسه إنشاء أسطول بحري في دور الصناعة في كل من مصر والشام ابتداءً من السنين الأولى لعمليات الفتح.

ويرجع الفضل في إنشاء الأسطول العربي إلى معاوية بن أبي سفيان عامل الشام أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه إذ وضح للخليفة أهمية الأساطيل في الدفاع عن السواحل، فمنذ أن دُحرت القوات البيزنطية براً، وبحكم وجود معاوية في الشام أدرك أهمية إنشاء الأسطول العسكري البحري ضد العدو البيزنطي سيد البحر المتوسط آنذاك ليصبح البحر المتوسط فيما بعد بحيرة إسلامية.

كما كان للمحاولات البيزنطية لاسترجاع المدن الساحلية لاسيما الإسكندرية في سنة ٢٥ هـــ / ٦٤٥ م أكبر الأثر في تحمس معاوية لفكرته الماضية التي

جاءت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما طلب منه موافقته لغزو البحر وإنشاء أسطول.

٤- الوزارة:

يتفق المؤرخون واللغويون على أن لفظ الوزارة مشتق من ثلاثة مصادر لغوية عربية: الأول من الوزر وهو الثقل لأن الوزير يحمل عن الملك أثقاله، والثاني من الوزر وهو الملجأ لأن الملك يلجأ إلى وزيره ويستعين به، والثالث من الأزر بمعنى الظهر، فالملك يقوى بوزيره كما يقوى البدن بالظهر[١].

جاءت كلمة وزير في كتاب الله المجيد في سورة طه بقوله تعالى: { وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}[٢]، وهي تعني المشير والمؤازر، ووردت في أحاديث الرسول ﷺ بقوله: "من ولي منكم عملاً، فأراد الله به خيرًا جعل له وزيرًا صالحاً "[٣] وقد كانت معروفة عند ملوك اليمن والحيرة والشام قبل الإسلام، وبأسماء عديدة كالراهن والزعيم والكامل[٤].

ولما اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ وردت الكلمة: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء"[٥] ووردت لدى زيد بن ثابت عندما قال لخطيب بني تميم: " نحن أنصار الله ووزراء رسوله "[٦]

وقد استعمل الرسول كبار الصحابة في قضاء شؤون دولته، وأعمال رعيته دون أن يتسموا بالوزراء لسببين: الأول: إن الوزارة من مستلزمات

١-الماوردي : الأحكام السلطانية ص٢٠٠. الكردي : نظام الوزارة ص١٣.

٢- سورة طه : الآية ٢٩-٣٠-٣١-٣٢.

٣- خربوطلي و العلي: تاريخ العرب ص١٣٠.

٤- المسعودي : التنبيه والإشراف ص٢٩٤.

٥-ابن الأثير : الكامل ٢/٢٠٢.

٦- الخالدي: شذرات في مادة النظم ص٤٩.

الملك وسياسة الرسول والخلفاء الراشدين تقوم على البساطة مما يتعارض مع مظاهر الملك، والثاني أن الرسول والخلفاء الراشدين كانوا أقوياء يجمعون بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية[١]، كذلك كانت حال عمر مع أبي بكر فقد قام بالقضاء، وتوزيع الزكاة، والخليفة عمر خصَ عثمان بأمور الدولة، وخص عليًا بالقضاء وكتابة الرسائل، وفداء أسرى المسلمين، واستعان بالعباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله، وقد أرسل الخليفة عمر أرسل إلى الكوفة عمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا[٢].

ثالثاً- النظام المالي والاقتصادي:

النظام المالي والاقتصادي في الإسلام نظام إلهي، راعى مصالح الفرد والجماعة، وازن بين النزعة الفردية للإنسان في التملك، وبين مصلحة الجماعة، فمنع الاحتكار والربا، والغش والقمار، وشجع وسائل العيش الكريم عن طريق الاهتمام بالزراعة والصناعة، وإعانة المحتاجين، وقد أنشأ الرسول ﷺ بيت مال للمسلمين من الزكاة لمساعدة المسلمين، وتأمين العطاء للمقاتلين من أجل الجهاد، ونشر الدعوة الإسلامية، فأوجد التوازن بين مداخيل الدولة ومصاريفها.

وقد تطور نظام المال في عصر الخلفاء الراشدين، لاسيما عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن اتسعت الدولة الراشدية، وتدفقت الأموال من البلاد المفتوحة، فشملت موارد بيت المال إضافة إلى الزكاة، الخراج الذي فرض على الأرض التي صولح عليها عند الفتح، وبقيت بأيدي أصحابها، وهي مقدار معين من حاصلات الأرض الزراعية، وهذا ما يسمى بالمزارعة أو المقاسمة،

١- ابن خلدون :المقدمة، ص ٢٠٦.

٢- حسن : النظم الإسلامية، ص ١١٤.

أو يفرض مبلغ مقرر من المال[١] .ويرفد بيت المال الجزية وهي ضريبة كان يدفعها غير المسلمين على الرؤوس، ولم تكن متساوية، وكانت تسقط بالإسلام.

ومن موارد بيت المال الفيء، وهو الذي كسبه المسلمون دون قتال، وكان يضم خمسة أقسام عملاً بقوله تعالى: { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}. [٢].

وبعد موت الرسول رد نصيبه من الفيء إلى بيت المال، وقام عمر بإحصاء الناس ليضبط عملية توزيع الفيء والغنيمة بين أقرباء الرسول والمهاجرين والأنصار والصحابة، وأهل السيف والمقاتلين والمعوزين والموالي.

والغنيمة هي كل ما أخذه المسلمون من المشركين بالقتال، وهي تشمل الأسرى (المحاربون و السبايا نساءً وأطفالاً وشيوخًا) والأرض والمال، وتقسم كما يلي: خمس للإمام، وأربعة أخماس هي حق للفاتحين، بحسب قوله تعالى: **{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ }**[٣]

والمفيد ذكره أن الخليفة عمر كان يشرف بنفسه على الجباية، ويحصي أموال العامل المختص بالجباية قبل استلامه المنصب، وبعد تركه منصبه، إلا ما اكتسبه من طرق مشروعة، وهؤلاء العمال مستقلون عن الولاة، ويقومون بدفع أرزاق الجند، وينفقون ما تحتاجه المصلحة العامة، ويرسلون ما تبقى إلى بيت المال.

١- أبو يوسف : الخراج ص٨٨-٨٩.

٢- سورة الحشر : الآية ٧.

٣- سورة الأنفال : الآية ٨.

وهناك صفات لمن يلتزم الجباية، كأن يكون فقيهًا مشاورًا لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم، وكان للجباية أنظمة مختلفة قسمت بين المحاسبة والمقاسمة والالتزام.

أما نفقات بيت المال، فكانت تشمل رواتب الموظفين عمومًا، وأعطيات الجنود، وتسليحهم، وبناء المصانع الحربية، وصيانة المنشآت العامة، وتحرير العبيد، وكفالة اليتامى والمساكين، وابن السبيل، وإنما يتوخى في ذلك إقامة العدل.

ولعل التعامل في هذه الأمور تم بالعملات التي كانت سائدة البيزنطية والفارسية وهيالتي كان يجري التعامل بها قبل الإسلام، إلى أن كان عهد عمر بن الخطاب، فضرب دنانير نقش عليها عبارة الحمد لله ومحمد رسول الله، وذلك إلى جانب العملات البيزنطية والفارسية[١]، ثم نقش عثمان نقودًا عليها عبارة الله أكبر، وضرب علي نقودًا في البصرة أيضاً[٢]،ولكن ظل التداول بالنقود العربية محدودًا حتى تم تعريب النقود في عصر الدولة الأموية.

أما النشاط الاقتصادي، وهو يشمل الزراعة والصناعة والتجارة، فقد حث الإسلام بالقرآن والسنة على العمل، وعلى الاهتمام بالزراعة، وإحياء الأرض الموات، واستصلاحها والاستفادة من الأنهار في البلاد التي فتحوها، وضموها إلى الدولة الراشدية فتحسنت المواسم.

وبقيت الأرض مصدر الثروة في معظم أقاليم الدولة العربية الإسلامية واستمرت في ازدهار وتطور، وتوسع في الإنتاج، وكثرة في التنوع والتجديد.

ومع انهماك المسلمين في توطيد دعائم الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ونشره خارجها، فهم لم يهملوا الزراعة توافقاً مع القرآن الكريم،

١- قدورة : تطور تاريخ العرب ص١٦٤.

٢- قدورة : تطور تاريخ العرب ص١٦٤.

والسنّة الشريفة، قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيراً أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[١].

وقوله: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[٢].

ولما رأى عليه الصلاة والسلام يداً خشنة من أثر المر والمسحاة قال: «هذه يد يحبها الله ورسوله»[٣].

وقد أخذ الرسول ﷺ تقطيع الأراضي غير المزروعة لمن يتعهدها بالإصلاح والاستثمار، ويكفي أن نتذكر وصاياه التي كان يزود بها القادة إذ قال: « انطلقوا باسم الله... لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين، ولا تغوروا عيناً، ولا تقطعوا شجراً إلا شجراً يضركم، ولا تمثلوا بآدمي، ولا بهيمة، ولا تظلموا، ولا تعتدوا...».

وبعد فتح خيبر دفع الرسول ﷺ الأرض إلى أهلها، وأعمرها بنصف ما يخرج منها[٤] كما سلف القول.

وقد سار أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خطا الرسول ﷺ، ملتزماً القرآن والسنة، وشجع على الزراعة، وأوصى قادة الفتوح وصايا تصب في معين الرسول ﷺ، وشجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الزراعة قائلاً: « اتقوا الله في الفلاحين »[٥]، وكانت له سياسة حكيمة حاسمة تجاه الأراضي الزراعية الجديدة في سواد العراق وبلاد الشام فقد أبقاها في أيدي أصحابها، يستمرون في زراعتها واستثمارها لصالح الدولة العربية الإسلامية، على أن يدفعوا عنها

١- البخاري: صحيح البخاري ٨١٧/٢.

٢- البخاري: صحيح البخاري٨٢٣/٢ . أبو خليل : الحضارة ص٣٧٦.

٣- ابن الأثير: أسد الغابة ٢٦٩/٢.

٤- ابن هشام : السيرة ٣٤٢/٣.

٥- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٤١١/٣-٢٢٦. ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ٣٩.

ضريبة الأرض الخراج، وضريبة الرأس الجزية[1]، وأصبح هذا الدخل يخصص للمسلمين كافة، ثم أمر الخليفة عمر بمسح هذه الأراضي وقياسها في سواد العراق بهدف تنظيم ملكيتها، وزراعتها، وتقدير خراجها، كما ألزم أصحابها مواصلة العناية بها والاهتمام بالقنوات والجسور، وبوسائل خدمتها وازدهارها.

وبذلك ترك الخليفة عمر أمر الأرض لأصحابها فهم أعرف بها وباستغلالها، ولعله ضم هذه الأراضي إلى بيت المال، وعدّها من الصوافي، وأقطع منها[2]، وقد صرح أبو يوسف قائلاً: « وذلكم بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد، ولا في يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه، ويعطي من كان له غناء في الإسلام، ويضع ذلك موضعه، ولا يحابي به، فكذلك هذه الأرض »[3].

وهذه القطائع متروكة لتقدير الإمام يأخذ منها العشر أو العشرين أو الخراج تبعاً لطريقة استغلالها وريَها، وقد كان العدل أساس الحكم في الإسلام، ودعامة العمران البشري، وإذا ما حدث غير ذلك فهو استثناء على القاعدة الإسلامية السليمة.

من ذلك نرى أن النشاط الزراعي الإسلامي كسائر الأنشطة الاقتصادية الأخرى الساعية إلى تحقيق أهداف مادية معينة كالوصول بالإنتاج إلى أقصى توسعة، وتحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية وذلك بإعادة توزيع الدخل بين فئات المجتمع، وقد يكون الهدف تنويع الإنتاج.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي شجع على تنمية الزراعة، فأقطع من أرض العراق التي كانت لكسرى وأتباعه إلى جماعة قاموا بإعمارها،

١- ابن آدم : الخراج ص١٣.

٢- ابن آدم : الخراج ص٤٥. البلاذري : فتوح ص٢٧٢. أبو يوسف : ص٥٧-٥٨

٣- أبو يوسف : الخراج ص٥٧-٥٨.

واستغلالها، واشترط على مستغليها أن يؤخذ منهم الفيء، فأصبحت هذه الأراضي كأنها مؤجرة لا مستملكة[١].

وبقي الأمر على حاله في عهد الخليفة علي بن أبي طالب ﵁، فتحسنت المواسم الزراعية خاصة بعد أن استفادوا من الأنهار في البلدان التي فتحوها، وضمّوها إلى الدولة الراشدية، كنهر النيل ودجلة والفرات، فأقاموا السدود، وشقوا الأقنية، وزادوا من استصلاح الأراضي فتحسنت المواسم الزراعية، خاصة عندما أولوا الطرقات عناية كبيرة بتسويتها وصيانتها، وإقامة الجسور على الأنهار، لمنع فيضانها، يذكر أنه كانت أقسام كثيرة من أراضي فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة، فأصبحت غنية عامرة بالسكان[٢].

وأما الصناعة، فقد كانت الصناعة قبل الإسلام بسيطة، وقد تركت للعبيد والموالي، لأن العربي كان يأنف من العمل في الحرف، وينظر إلى العاملين بها نظرة ازدراء، لأنها كانت لا تليق بحسب اعتقادهم بالحرَ، وقد كان الشريف منهم وصاحب الجاه لا يحضر وليمة يدعوه إليها رجل من أصحاب الحرف لأنه ليس في مكانته ومنزلته.

وجاء الإسلام فقلب المفاهيم وخالف الأعراف والتقاليد ورفع من مكانة العمل والعمال والصناع عموماً، ثم بدأت الحرف تدريجياً تلقى القبول، وينخرط فيها العربي كغيره من أبناء الجنس البشري.

فالعمل كان ومايزال ميزان تقدم الأمة، والمهارة في إتقانه هي مقياس الحضارة، والوفاء بالعمل هو الهدف الذي يسعى إليه الإصلاح الاجتماعي.

١- الماوردي : الأحكام السلطانية ص١٤٣- ١٨٣.

٢- ديو رانت : قصة الحضارة ١٣/ ١٥٠. أبو خليل : الحضارة ص٣٧٦.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم[١] تحض على العمل وتؤكد حرمته وتجعل من الإنتاج عبادة، وتقرباً إلى الله بل جهاداً في سبيله، وفي الحديث الشريف « طلب الكسب فريضة على كل مسلم، كما أن طلب العلم فريضة »، وأيضاً: « أفضل الأعمال الاكتساب للإنفاق على العيال»[٢].

ومما روي عن عمر بن الخطاب ﵁ القول: « إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول هل له حرفة ؟ فإن قالوا لا سقط من عيني ».

وأدى التوسع والامتزاج مع الشعوب التي انضوت تحت راية الإسلام إلى اهتمام الجميع بالحفاظ على التراث الحضاري القديم في الميادين المختلفة، وساهم العرب وغيرهم في تطوير الصناعة كغيرها من المعارف، بسبب الفتوحات، والحصول على المواد الأولية كالحديد والنحاس والذهب، والفضة، فاشتغلوا بالصناعات المرتبطة بهذه المواد كالأسلحة وصناعة أدوات الزراعة، وحولوا المزروعات إلى صناعات.

والمفيد ذكره أنه في المناطق الساحلية ازدهرت صناعة السفن، لتوافر الأخشاب اللازمة لصناعتها.

وتبع تطورَ الزراعة والصناعة، واتساعَ البلاد ازدهارُ التجارة، وهي التي اشتغل بها العرب قبل الإسلام، وكانت لهم تقاليدهم وأعرافهم فيها، إن وقوع المنطقة العربية في قلب العالم القديم المتحضر، وتحكمها بمفاتيح التجارة العالمية والمنافذ الواصلة بين الشرق والغرب، أسهم في ازدهار التجارة، فموقع هذه الدولة العربية هو الذي عمق مكانة المنطقة العربية وزاد من فعالياتها وذلك لخضوع هذه المناطق في الجزيرة العربية والشام والعراق

١- سورة التوبة : الآية ١٠٥. سورة الأنفال: الآية ٦٠. سورة الأحقاف: الآية ١٩. سورة آل عمران الآية ١٩٥، سورة النجم : الآية ٩-٤١.

٢- الشيباني : الكسب ١٩-٣٣-٦٢. الصالح: النظم الإسلامية ص٣٩٨.

ومصر لسيطرة هذه الدولة الجديدة التي قامت وكانت تحمل في طياتها بذور الإصلاح والتقدم والتطور.

وبذلك ظهر وضع جديد قلب المفاهيم من جهة، وخلق ظروفاً جديدة من ناحية أخرى، وذلك بسيطرة الدولة العربية الإسلامية على مساحات كبيرة من الطرق التجارية، وامتدادها إلى حدود فرنسا غرباً، وحدود الصين والهند شرقاً، وضمان هيمنتها على الطرق التجارية ومراكزها، وهذا ما شجع التجار على البحث والاندفاع نحو مناطق جديدة وموارد جديدة، وهذا ما خلق بالضرورة فروعاً جديدة على هذه الطرق القديمة، وأدى ذلك إلى امتداد هذه الخطوط والتفرعات عنها إلى مناطق أبعد ولم يصل إليها التجار العرب قبل هذه الحقبة.

وبذلك امتدت الخطوط التجارية شرقاً وشمالاً، وقادت إلى إيجاد علاقات تجارية جديدة مع مناطق لم تكن معروفة أو أنها كانت بعيدة الصلة.

وما ساعد على ازدهار التجارة قيام الدولة العربية الإسلامية وإنشاء العرب الفاتحين للمراكز العسكرية المتعددة، والتي نمت وتطورت وتحولت إلى مراكز سياسية وتجارية وغدت مدناً هامة، وأصبحت بحاجة كبيرة إلى السلع والمواد المتنوعة العسكرية منها والكماليات، وكان على التجار أن يؤمنوا مطالب هذا المجتمع الجديد بجميع فئاته إذ أدى ذلك كله إلى حركة تجارية ونشاط تجاري واسع، ساهم فيها التجار الذين وفدوا إلى المراكز الجديدة.

أضف إلى ذلك أن ظهور الإسلام في مكة وهي بيئة تجارية مميزة واشتغال أبرز الشخصيات فيها ابتداء من الرسول ﷺ وخلفائه وعدد كبير من الصحابة قد رفع من شأنها في نظر العرب والمسلمين.

وكان للمبادئ والقيم الإسلامية الأثر الواضح في التجارة وازدهارها، فمكارم أخلاق التجار المسلمين بأخلاقهم، وتسامحهم من العوامل المهمة التي مكنتهم من نشر العقيدة الإسلامية، ومن ثم كان لهذا السلوك الجيد الأثر الفعال على نشاط هؤلاء التجار فقد مُنِحوا الامتيازات والتسهيلات المتعددة في شرق آسيا، وسُمح لهم بالتنقل والسفر إلى أماكن بعيدة، وتمكنوا من التجارة مع أهالي هذه المناطق البعيدة التي كان العمل التجاري فيها متقدماً ومنظماً.

وكان من عوامل النشاط التجاري إبقاء العرب على النظم القديمة، والأسس التي كانت سائدة آنذاك في المناطق التي فتحوها، فلم يحطموها أو يمسوها بسوء كبقية الغزاة في التاريخ حرصاً منهم على الاقتصاد العالمي وإدراكاً منهم لأهميته وقيمته.

وأدى نشاط الحركة العمرانية والصناعية إلى النشاط الاقتصادي عموماً والتجاري خصوصاً، وهذا ناتج عن طبيعة التقدم الصناعي والازدهار الزراعي، فالعلاقات التجارية المتبادلة ضرورة ملحة للتطور البشري.

والمفيد ذكره أن التجارة كانت سببًا في دخول الإسلام إلى بعض المناطق، وارتبط ازدهار التجارة بتطور الأسواق، ومع تطور الأسواق أحدثت وظيفة المحتسب لمراقبة الأسواق، ومنع الغش، والاحتكار وخدمة مصالح المسلمين في المدن وسيتم الحديث عنها في النظم القضائية.

وقد ارتبطت بعض الأسواق ببعض المهن كمهنة الصرافة التي عمل بها المسلمون منذ عصر الرسول، واكتسبت شأنًا كبيرًا بعد الفتوحات، وأوجدوا نظام الحوالة المالية لتسهيل التبادل التجاري[١].

١- حلاق: مقدمة في تاريخ العرب السياسي ص١٧١

رابعاً-النظم العسكرية:

حين أذن الله سبحانه وتعالى للرسول بالقتال، دعا أتباعه للجهاد دفاعًا عن النفس، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وكان الجيش الإسلامي في زمن الرسول وفي خلافة أبي بكر يتكون من المتطوعة الذين يحثهم الرسول أو الخليفة على الجهاد، ولقد أمن الرسول أرزاقهم من أربع أخماس الغنائم، وبعد انتهاء الحرب يعود المتطوعة إلى أعمالهم.

ولكن بعد فتح العرب بلاد الشام، والعراق، وفارس، ومصر، أنشأ الخليفة عمر ابن الخطاب ديوان الجند، وذلك من أجل إنشاء جيش دائم في السلم والحرب، وتأمين حراسة مستمرة لحدود الدولة الراشدية وثغورها، وأقام الخليفة عمر للجنود مدناً عسكرية وحصوناً لراحتهم في أثناء تنقلهم، ومنعهم من العمل في الزراعة والاختلاط مع أهل البلاد[١]، وقد استعمل الرسول النبال، والرمح والسيف، والمنجنيق والدبابة والطنبور.

وتألف الجيش من المقدمة والرجالة والفرسان وقد حرص المسلمون على اصطحاب نسائهم اللواتي كن يمكثن في المدن الحصينة، ويقمن بقرع الطبول لإثارة حماس الجنود[٢]

وقاد الرسول ﷺ غزواته بنفسه، كذلك الخلفاء من بعده، ولكن لما تعددت الجيوش صار الرسول يرسل من ينوب عنه في قيادة الجيش مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن حارثة،والذين كان لهم الفضل الكبير في تغيير أسلوب الحرب من الكر والفر، إلى الوقوف صفوفًا للقتال، أو

١- حسن : النظم الإسلامية ص٤٧٩.

٢- ابن هشام : السيرة ٣/ ٣٠٣.

التنظيم حسب الكراديس. أما الجيش البحري فقد أنشئ أول أسطول بحري عربي في زمن الخليفة عثمان بن عفان.

خامساً- النظام القضائي:

القضاء هو الفصل بين الناس في خصوماتهم حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، وهو ملتزم الأحكام الشرعية المنتقاة من الكتاب والسنة[١].

و لا ريب في أن العدالة هي المعيار الرئيس الذي يحكم الناس بموجبه على صلاح الحكومات منذ أقدم الأزمنة، فأفضل الحكام هو الحاكم العادل، وأسوأ الحكام هو الحاكم الظالم.

فكلمة قضاء تعني لغوياً الحكم وجمعها أقضية، والقاضي معناه في اللغة القاطع للأمور المحكم لها يقال قضى يقضي فهو قاضٍ إذا حكم وفصل[٢]. فكيف يحكم القاضي؟ وما هي الأسس التي يعتمد عليها؟ ومن أين يستنبط الأحكام في الإسلام؟

لما انتشرت الدعوة الإسلامية أصبح القرآن الكريم عماد التشريع الأول، قال تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً }[٣]. وقوله تعالى: { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً }[٤]. وقوله: { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }[٥].

١- ابن خلدون : العبر ٥٦٧/٢.

٢-ابن منظور : لسان العرب مادة قضى.

٣-سورة النساء: الآية ١٠٥.

٤- سورة النساء : الآية ٦٥.

٥- سورة النساء : الآية ٥٩.

من هذه الآيات الكريمة يتبين أن الرسول ﷺ كان مأموراً بالحكم والقضاء بين الناس فيما بينهم من خصومات ومنازعات، وأنه ﷺ كان القاضي الأول والأعلى بين المسلمين، ولم يكن في زمنه قاض سواه، لقلة عدد المتقاضين، فقد أزال الإسلام ما كان بينهم من الشحناء والبغضاء، وألف بين قلوبهم، وجعلهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ولم يؤثر عنه ﷺ أنه خصص رجلا بالقضاء، وقد كان حكمه ملزماً للناس كافة سواء أكان بوحي من الله أم باجتهاد اجتهده هو ﷺ، فأصبح فيما بعد سنة ملزمة[١]، فقد كان معصوماً لاينطق عن الهوى.

ولكن لما فتح الله على المسلمين بعض الأمصار واعتنق سكانها الإسلام، عيّن الرسول ﷺ الدعاة والولاة والقضاة، وبعثهم إلى الأمصار وأذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس كما أذن لبعضهم بالفتوى مثل معاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، اللذين كانا يحكمان بين الناس بالقرآن أولاً وبالسنة ثانياً ثم بالاجتهاد أخيراً دون تسمية أحد بالقاضي[٢]، وكانت أهم طرق الإثبات في زمنه ﷺ هي : البينة واليمين والكتابة.

ثم انقضى عصر الرسول ﷺ وانقطع الوحي، ولكن تم في ذلك العصر التشريع الإلهي في الكتاب والسنة، وهما المصدران الأساسيان اللذان خلفهما ذاك العصر للعصر الذي تلاه ولجميع العصور اللاحقة به[٣].

ولكن هذا القانون الأساسي المؤلف من الكتاب والسنة ليس بمقدور واحد من المسلمين الرجوع إليها بنفسه ليفهم ما تدل عليه من الأحكام، لأنها لم تكن قد نشرت بين المسلمين نشراً عاماً، والسنة لم تكن مدونة أصلاً، كما أن مواد

١- الماوردي : أدب القاضي ١٢٢/١ومابعد. ابن الطلاع : أقضية رسول الله ص٢٣

٢- شبارو : القضاء والقضاة في الإسلام ص٩.

٣- الزعبي: القضاء والقضاة ص١٤٩.

هذا القانون قد شرعت أحكاماً لحوادث وأقضية وقعت حين تشريعها ولم تشرع أحكاماً لحوادث فرضية يحتمل وقوعها.

من هنا نشأت الضرورة بأن يقوم العلماء من الصحابة في هذا العصر بتبيان ما يحتاج إلى التبيين والتفسير من النصوص والأحكام في القرآن والسنة، فانتقلوا إلى طور الاجتهاد القائم على النص والسابقة لمعالجة الحوادث بعد وقوعها وهي التي كانت لا حدود ولا أمد لها[١].

كما تولّد الإجماع، فكان الخليفتان الأوليان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب يجمعان الصحابة ويستفتيانهم، ويعملان بما يتفقون عليه فيما لا نصَ فيه من كتاب الله أو سنة نبيَه[٢].

وبذلك أصبحت مصادر التشريع في عصر الخلفاء الراشدين: القرآن الكريم والسنة والقياس والإجماع، أما من تولى سلطة التشريع في هذا العهد فهم الخلفاء الراشدون ورؤوس الصحابة.

ففي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومع حرصه على الإشراف بنفسه على القضاء أسوة بالنبي ﷺ تكفل عمر بن الخطاب بأمور القضاء[٣] فظل سنة وقيل سنتين لا يختلف إليه أحد، ولا يأتيه متخاصمان، ولما عرف عنه من الحزم والشدة في الحق، ولم يلقب بلقب قاض مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، لأنه لم يكن هناك منصب خاص بالقاضي حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط المسلمون بغيرهم، وكثرت مهام الخليفة، فاستدعى ذلك تولية قضاة مستقلين عن الأمراء ينوبون عن الخليفة في الفصل بين الناس في الخصومات، فولى أبا الدرداء على

١- الزعبي: القضاء والقضاة ص١٥٠.

٢-أبو زهرة: أصل الفقه ص٣٧٩.

٣-الكعكي : النظام الاجتماعي ص٥٣. شبارو : القضاء والقضاة في الإسلام ص١٠.

المدينة، وشريحاً بن الحارث الكندي قضاء الكوفة، وأبا موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) قضاء البصرة، وقيس بن أبي العاص السهمي قضاء مصر[1]، وقد سن لهؤلاء القضاة نظامًا يمشون على هديه في إصدار الأحكام التي كانت تنفذ بعد صدورها.

وبذلك عهد بالقضاء إلى شخص سمّي لأول مرة بالقاضي، وكان يراعي في اختيار القضاة غزارة العلم والتقوى والعدل والورع، وكانت سلطته قاصرة على فصل الخصومات المدنية، أما القصاص والحدود فكان يرجع فيه إلى الخلفاء وأمراء الأمصار، لأن الخليفة هو صاحب الحق في إقامة الأحكام، كما أن الولاية له، وهو ينيب عنه من أراد، ويخوله الصلاحيات التي يريد، لذلك كانت اختصاصات القاضي محددة، ولم تكن الولاية الإسلامية بحاجة لأكثر من قاضي واحد[2]. واستمر هذا المنهج في خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

أما منهج عمر بن الخطاب عند تعيينه قضاة الأمصار فأساسهأنه كان يبعث إليهم بكتب يرسم فيها القواعد العامة التي يجب أن يتم فيها القضاء، ويتبعها القاضي في سير الأحكام لتحقيق العدالة بين المتخاصمين ولعل في كتابه إلى قاضيه أبي موسى الأشعري النموذج الأسمى في التوجهات، والتعليمات والمبادىء العامة التي يجب أن يسير على هديها القضاة وهو يعدّ وثيقة تاريخية في علم القضاء وهي كالتالي:

« بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٤١/٤. وكيع: أخبار القضاة ٢٢٠/٢-٢٢١-٢٧٠. الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ٩/٢، الزعبي: القضاء والقضاة ص١٦٩.

٢- الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٦. أبو فارس: القضاء في الإسلام ص٧٠. الزعبي: القضاء والقضاة ص١٧٠.

سلام عليك، أما بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فأقم إذا أوتي عليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آسي الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يتأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً، ومن ادعى حقاً غائباً، أو بينة فاضرب له أمراً ينتهي إليه، فإن بينه أعطه إليه بحقه، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية، فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعلماء، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجرباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حد، وظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والإيمان، ثم الفهم فيما أدلي إليك بما عليك مما ليس في القرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة، أو الخصوم، فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس في نفسه شانَهُ الله. فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله»[1].

١- ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين ١/ ٨٥-٨٦. الجاحظ : البيان والتبيين٢/٢٣. ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/١٠٠. الزعبي :القضاء والقضاة ص١٧٣-١٧٤.

ويعدَ هذا الكتاب إلى وقتنا هذا دستوراً تضمن أسس القضاء، وأهم نظمه وأصوله، فقد جمع فيه عمررضي الله عنه مجمل الأحكام، وجعل الناس يتخذونه إماماً، ولا يجد محق عنه معدلاً، ولا ظالم عن حدوده محيصاً[١].

ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام، لأن الأمر لم يكن يدعو إلى شيء من ذلك، فالقاضي هو الذي يقضي، وهو الذي ينفذ، وقلما كان المتقاضون يحتاجون إلى التنفيذ، لأنهم كانوا إلى الاستفتاء أقرب منهم إلى التقاضي، فالمنازعات كانت تجري بينهم في أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء[٢].

وكان القاضي يجلس للحكم في منزله، ثم أصبح يعقد جلساته في المسجد بعد ذلك.

ولم يكن في زمن الرسول ﷺ ولا في زمن أبي بكر سجن، ولكن كان هناك حبس في زمن عمر رضي الله عنه، فقد حبس الحطيئة باستدعاء الزبرقان عليه في قصة ذكرها المبرد[٣] وهذا الحبس لم يكن سجنا بالمعنى المعروف، فلما كان زمن علي كرم الله وجهه بنى السجن[٤].

ولعل نظام **الشرطة** كلمة أو لقب يطلق على الذين يحفظون الأمن ويسهرون على النظام، وهم فئة مختارة من الجند، وجهاز تكامل ظهوره بالتدريج في الدولة العربية الإسلامية بسبب الضرورات التي طرأت على الدولة العربية الإسلامية، ثم استعمل في معنى أعوان الأمراء الذين يحفظون الأمن،

١- المبرد : الكامل ١/٧.

٢- الماوردي: الحكام السلطانية ص٥٣-٥٤.

٣-المبرد :الكامل ١/ ٢٨٦.

٤- شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ص١١٩.

ويسهرون على النظام، يقال إن أول من شرط في الإسلام عمرو بن العاص[١].

وقد كانت الشرطة في أول نشوئها فرقة من المقاتلة، مجهزين بالعمد والحراب، عليهم رئيس يسمى صاحب الشرطة، يستعين بهم الخليفة أو الأمير في حفظ النظام العام داخل المدن، والبحث عن أهل الريبة.

ومما لا شك فيه أن العسس كان أول نواة الشرطة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر[٢] وأن عمر بن الخطاب تولى بنفسه العسس، وكان يستصحب معه مولاه، وربما استصحب عبد الرحمن بن عوف، والعسس هو الطواف بالليل لتتبع اللصوص، وطلب أهل الفساد، ومن يخشى شرهم، ومن الحق أن نعده الخطوة الأولى في طريق تنظيم الشرطة، لأن المؤمنين كانوا يتولون حراسة أنفسهم ومنع المنكر بينهم في النهار، حتى إذا ناموا تولى السهر عنهم رجال العسس، ولما تكاثر المفسدون وتظاهروا بالمنكر في وضح النهار، أحوج الأمر إلى من يترصدهم نهاراً أيضاً، فأنشئت الشرطة، فالشرطة إذاً عسس دائم إذا صح هذا التعبير[٣]، ألحق بالقضاء لتنفيذ أحكام القاضي ومساعدته في إقامة الأدلة على المتهم، وإثبات جريمته، وإقامة الحدود، وقد قام الخليفة علي بتنظيم الشرطة، وعين رئيسًا لها سمي صاحب الشرطة، أو صاحب الليل، وأسند ذلك المنصب إلى علية القوم ممن اشتهروا بالعصبة والقوة[٤].

ويلحق بنظام القضاء أيضا **الحسبة**، وقد تولى الرسول ﷺ الحسبة بنفسه، وقلدها غيره، واتبعها من بعده الخلفاء، وما يدل على أن النبي ﷺ قد تولاها

١- العجلاني : عبقرية الإسلام في أصول الحكم ص٢٨٦.

٢- ابن منظور: لسان مادة عس.

٣- أبو خليل: الحضارة ص٣١١.

٤- حسن :تاريخ الإسلام، ص ٤٨٣. الصالح :النظم الإسلامية، ص٣٣٠.

بنفسه ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يارسول الله، فقال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشنا فليس منا"[١].

ولم يقصر النبي ﷺ الحسبة على نفسه، بل أشرك غيره في القيام بها كسعيد بن العاص الذي جعله محتسبًا في سوق مكة بعد الفتح، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، لمراقبة الأسواق، وتجارة اليمن ومحاربة فساد الأسواق.

واهتم عمر بنظام الحسبة، فقام بمراقبة الأسواق بنفسه مع مجموعة من الرجال سموا بالعرفاء، واستعمل السائب بن يزيد على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة ابن مسعود، وكذلك استعمل النساء للقيام بهذه الوظيفة أيضاً، فولى السيدة الشفاء على سوق المدينة، وكانت لها عنده منزلة كبيرة، حتى إنه كان يقدمها في الرأي، وتولت السيدة سمراء بنت نهيك الأسدية هذا المنصب أيضاً، فكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط معها[٢].

وأما **ولاية المظالم** فالمظالم: جمع ظلامة ومظلمة، وولاية المظالم كما يدل اسمها، هي النظر في ظلامات الناس، وإزالة أسبابها.

وقد نستطيع أن نقسم الظلم إلى قسمين: ظلم الولاة والجباة والموظفين، وظلم أفراد الرعية، فهي من أحد الوجوه تشبه حلف الفضول الذي عقد قبل الإسلام لإنصاف المظلوم من ظالميه، وقد باشر الرسول ﷺ هذه الوظيفة عندما أرسل علياً لدفع دية القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد خطا من قبيلة بني

١- مسلم: صحيح مسلم ١/ ٩٩، باب ٤٣. الشوكاني : نيل الأوطار٥/ ١٨٠.

٢- مشرفة : القضاء في الإسلام ص٢٤٧-٢٥٨.

جذيمة[١]، وكان الخلفاء الأولون ينظرون في المظالم متى رفعت إليهم، ولا يجعلون لذلك وقتاً مخصوصاً، ولا أسلوباً معيناً، ويشتمل النظر في المظالم عشرة أشياء:

١ – النظر في تعدي الولاة على الرعية.

٢ – جور العمال فيما يجبونه من الأموال.

٣ – كتاب الدواوين لأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفونه، فإن وجدهم عدلوا بدخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان أرجعه إلى قوانينه وتقدم بتأديب المذنب منهم.

٤ – تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم.

سادساً– النظام الاجتماعي:

أعلن الإسلام منذ أيامه الأولى الرغبة في الرقي بالنظام الاجتماعي الذي كان سائدًا بين العرب قبل الإسلام، وأوقف العمل به، وقرر لهم نظامًا آخر يقوم على أسس جديدة، ومميزات قيمة تركت أثرها العظيم في حياة المسلمين وحضارتهم.

فالإسلام عقيدة ونظام، وقد نظم حياة الإنسان العربي في شتى المجالات لأنه اهتم بالدين والدنيا، وكان همه محو البداوة بين العرب، وإقامة حضارة خالية من الفساد، حضارة تقوم على الأخوة التي تسيطر عليها روح الجماعة والعدل ضمن نظام وقانون العقيدة الإسلامية.

وقد صاغت الدعوة الإسلامية نظمها الاجتماعية من خلال الآيات القرآنية التي تعتبر مصدر التشريع الديني والاجتماعي بجوانبه بكافة، لأن السلوك الاجتماعي للمسلم يبنى على أوامر القرآن، ونواهيه، ومبدأ الحلال والحرام، والعقاب والثواب.

١– ابن سعد : الطبقات ١٤٧/٢. ابن هشام: السيرة٥٣/٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٦/٣.

فبعد أن كانت القبائل العربية متنافرة متخاصمة لا شريعة إنسانية عادلة تحتكم إليها، إنما هناك بعض المثل العليا كالشجاعة والكرم والتفاخر والتعصب للقبيلة، والأخذ بالثأر.. لذلك بنى العربي أمجاده على ما قام به الأجداد، نجد الإسلام، قد رسم للمجتمعُ مثلاً على للحياة الاجتماعية دعا فيها إلى أن يكون الناس إخوة متحابين في الحياة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات، فاستبدلب العصبية القبلية عصبية الدين والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر، ونشر بينهم فضائل كانوا يحتقرونها كالعفو، والصبر، وتفضيل المصلحة العامة على الخاصة، والزهد بالأمور الدنيوية، وتجنب الرياء، والفخر والغضب والتفكير والعظمة.

وقد تناولت السور المدنية جميع أمور التشريع للحياة الاجتماعية[١]، من ذلك أصول التعامل بين أفراد المجتمع مثل بر الوالدين، وحسن معاملة اليتيم، وحسن الجوار، والاستئذان والتحية، وغض الطرف، واللباس، وصلة الرحم والعدل والطاعة ..وبين مفهوم الأسرة، وألغى عادات كثيرة كانت متبعة في الزواج، وأحل الزواج مثنى وثلاث ورباع بشرط العدل،أ وأن تكون المرأة عاقرًا، أو مصابة بمرض، وأباح الزواج من الإماء والجواري، وسمح بالطلاق، ونهى عن الزواج بالمشركات، وحرم الزواج من الأخت والخالة، وجعل الزواج رحمة ومودة، واشترط المهر للزوجة، والنفقة لها في حال الطلاق، وجعل الزنا اختلاطاً ومفسدة، وجريمة كبرى أو فاحشة، وأعطى الحقوق للمرأة المسلمة، واهتم بالعبيد والأرقاء، والحؤول دون ازدياد عددهم، والحد من انتشارهم، وشجع على الزواج من الأرقاء الذين اعتقوا.

واهتم القرآن الكريم بقضية العقوبة، والقصاص ووضع الحد حرصًا على سلامة المجتمع الإسلامي، ورفع مكانته، وخاصة فيما يتعلق بقضية

١-ينظر سورة النساء، وأيضا الماوردي : الأحكام السلطانية ص١٩٩.

الثأر، فحث على القصاص، ومنع أن يأخذ صاحب الثأر بثأره شخصيًا، بل أحال ذلك إلى الإمام، بقوله تعالى:{**يَاأَيُّهَاالّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُر بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** }[١].

وأوجب الدية لولي المقتول خطأ، ومنع سفك الدماء ومنع الشفاعة للسارق ونهى عن الربا، ونظَم عقود البيع و الشراء،واهتم بالموازين والمكاييل، ونهى عن الغش، ولم يغفل أي ناحية تتعلق بحياة الإنسان المسلم في كل زمان ومكان.

وقد أراد أولاً تحطيم رابطة المجتمع القبلي القائمة على الدم والنسب، وأن يحل محلها رابطة الإيمان والاشتراك في الدين الواحد، وهي رابطة واسعة مفتوحة الأطراف لكل من يؤمن بالإسلام، فقد أكدت الآيات الكريمة إخوة المؤمنين { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }[٢]، وأكدت السنّة أنه « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى »، ودعا الإسلام إلى مكارم الأخلاق، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وجعل الخوف من الله في السر والعلانية أصلاً للمعاملة، ورفع شأن المرأة، إذ فرض لها ميراثاً بعد أن كان العرب لا يورِّثون النساء، أضف إلى ذلك أنه نظم أمر زواجها وطلاقها وميراثها وحقوقها، فبات لها الجرأة في اختيار زوجها أو رفضه، حتى لو كان الخليفة عمر بن الخطاب، كما فعلت أم كلثوم ابنة الإمام علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بقولها: « لا حاجة لي فيه إنه خشن العيش شديد على النساء »[٣].

١-سورة البقرة : الآية ٧٨

٢- سورة الحجرات : الآية ١٠.

٣-الشامي: تطور تاريخ العرب ص٧٦.

وأوصى بتكريم المرأة الأم لدرجة قرن الإحسان إليها بعبادة الله، قال تعالى:

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } [1]، وأوصى بالمرأة الزوجة، وجعل العلاقة بين الزوجين على أساس من المودة والرحمة، قال تعالى:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً }[2].

وأرسى قاعدة الحياة الزوجية { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}[3]، فيكون الإسلام بذلك قد أرسى قاعدة صلبة لبناء مجتمع قوي متحابب، وصل إلى أقصى المعمورة بالعدل والإحسان والتضامن والتكافل الاجتماعي والمساواة.

وقد كان المجتمع في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين يتصف بالحرص الشديد على التمسك بتعاليم الدين، والبساطة التي هي أقرب إلى الزهد، والمساواة بين المسلمين جميعاً، إذ لم توجد فجوة بين حاكم ومحكوم، ولا بين قوي وضعيف، ولا بين عربي وأعجمي إلا حاول الخلفاء الراشدون حلَها.

واستمر العمل بالمقياس الوحيد لتفضيل مسلم على مسلم آخر والمقياس هو التقوى بمعناه الكبير والعام الإسلامي هو الذي أرسى قواعده الرسول ﷺ، ولكنْ بنتيجة الهجرة والفتوحات والاختلاط الكبير الذي حدث والتوسع المفاجئ فقد استجدت أمور كان لا بد من التصدي لها وعلاجها، وقد حاول كل من

١- سورة الاسراء : الآية٢٣.

٢- سورة الروم : الآية ٢١.

٣- سورة البقرة : الآية ٢٢٩.

الخلفاء الراشدين أن يسير بها على الطريق الإسلامي معتمداً على القرآن الكريم والسنّة ومجتهداً بما اعتقد أن به خير الأمة، وصلاح المجتمع، مستنداً بذلك إلى الفهم الكامل لروح الإسلام.

وبذلك تمكن الخلفاء الراشدون من الحصول على حلول موفقة للمشكلات التي صادفتهم.

فأبو بكر الصديق تمسك بالعدل والإنصاف، وقرن القول بالعمل، فسار مسيرة حسنة وحقق العدالة الاجتماعية، وكانت الروح الإسلامية هي الموجِهة لتفكيره، وهذا ما ساعده على النصر وقيادة الأمة الإسلامية في أحلك موقف لها، فانتصر في حروب الردة، وأعاد إلى المجتمع العربي تماسكه ووحدته.

فقد ألزم نفسه مساعدة الضعيف «... **الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه...**»[١] وتلبية حاجة المحتاج وتقديم المساعدة للمساكين دون أن يعلم به أحد، ولهذا كان الأسوة الحسنة لعماله في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها، وكان لسلوكه الأثر الواضح في نجاح العرب والمسلمين واطمئنانهم لمسيرتهم، وكانت قيادته من أهم العوامل التي أتاحت لهذا المجتمع العربي الإسلامي في هذه الحقبة جمع عناصر القوة والنجاح، وتحقيق النصر.

وأما عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد استجدت نتيجة الهجرة والفتوحات والاختلاط الكبير الذي حدث والتوسع المفاجئ أمور كان لا بد من التصدي لها وعلاجها، فوضع بصماته على المجتمع العربي بما أحدثه من إصلاحات ونظم سار عليها هذا المجتمع بعده.

ومع كل ما عرف عنه من قوة وشدة قبل توليه الخلافة، فقد كان في لينه وعدله مثالاً حتذى به، خاصة بعد توليه الخلافة، واتصف بعدها بالإحسان

١- ابن هشام : السيرة ٤/ ٦٦١. ابن سعد : الطبقات ٣/ ٢١٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٢٤.

والرحمة والاهتمام بشؤون الرعية وبالعدالة الاجتماعية، أوليس هو القائل : «... إني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف »[١] فأصبح مصدر الحزم عنده منصباً على الظَلام والجائرين... حتى لو كانوا من أقرب الناس إلى قلبه، فقد أقام الحد على ابنه عبد الرحمن لشربه الخمر، كما رفض تفضيل ابنه عبد الله بالعطاء، وطبق العدالة والمساواة على جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة لأنه وطِيء على ثوب أعرابي[٢].

وقد امتاز بجرأته في الاجتهاد، لتتحقق العدالة والمساواة الاجتماعية، وكان صوته يعلو على كل صوت أو توجَه يحاول أن يحيد عن جادة الصواب.

ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان بدأت بوادر عهد جديد تظهر في المجتمع العربي الإسلامي وحدثت بعض الظواهر التي أثرت تأثيراً سلبياً في مظاهره، ثم تفاقمت الأمور حتى أدت في النهاية إلى محنة كبيرة سببت تحولات كبيرة في المجتمع العربي الإسلامي.

هذه الأزمة لم تكن وليدة الساعة، إنما انفجرت عندما سلك الخليفة عثمان بن عفان سلوكاً خاصاً في بعض الأمور المالية والإدارية مجتهداً بها، ومبتعداً عن المألوف في عهد سلفيه من الخلفاء، الأمر الذي أدى إلى هزة اجتماعية، قادت إلى خلل في المجتمع العربي الإسلامي، وحدوث الفتنة الأولى.

فقد سمح لكبار الصحابة بمغادرة العاصمة وكان عمر بن الخطاب قد وضع عليهم القيود، فلا يغادرون إلا بإذن ولأجل محدد، وانطلق كل صحابي

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٢١٤-٢١٨. ابن الجوزي : المنتظم ٤ / ٢١٤-٢١٨. زيود: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ص٣٥٦.

٢- الأعلام : الزركلي ١/٣٢١.

إلى قطر أو بلد، واتخذه مستقراً، والتف حوله المعجبون والطامعون، وساهم ذلك في تجزئة المجتمع العربي، إذتشكلت مراكز قوى وسلطة ضمن سلطة الخلافة وتشكلت الشيع والأتباع لكل صحابي، وهي التي زادت في تقسيم المجتمع، ودعمت تشكيل بوادر الحزبية فيه، وهذا ما كان يخشاه الخليفة عمر ووقف حياله، وقد أثر تأثيراً سلبياً في مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية.

وقد سار الخليفة عثمان واجتهد بنواحٍ أخرى سياسية واقتصادية، أما نظريته السياسية والإدارية، فقد كانت ترتكز على أحقيته في اعتماده على أقربائه وأبناء عشيرته لكونهم موضع ثقته، وأحرص الناس على مؤازرته، والأخذ بيده، وهم يشكلون قوة عربية مهابة الجانب، ويُذكر أيضاً أن الخليفة عثمان لم يعتمد مبدأ المحاسبة الشديدة الصارمة التي بدأت منذ عهد الرسول ﷺ وتطورت أساليبها في عهد خليفته أبي بكر وعمر، وإنَ جلَ ولاة عثمان لم يكونوا في مستوى ولاة عمر والقدماء منهم، ولم يخافوه أو يهابوه كما كانت الحال أيام عمر.

أضف إلى ذلك أن عثمان وولاته عدوا بيت المال ملكاً للدولة (أي للخليفة) وهو حق لهم يتصرفون به كما يشاؤون[1]، الأمر الذي أدى إلى ثرائهم الفاحش فزادت النقمة حتى غلب الشر، خاصة أن أكثر الولاة كانوا من الأمويين ممن لا تقيدهم سلطة أو تخيفهم الخلافة.

ولما كانت القبائل بحكم نزعتها البدوية تكره الحكم المركزي ولم تكن مقتنعة بسيادة قريش فقدشعرت دائماً بالغبن، وزاد ذلك من حدة التذمر، وقد تفاعلت مع النزعة الإقليمية وتأثرت بها وغذتها. وبذلك أصبحت الأمصار تلتقي من حيث المصلحة مع النزعة القبلية وتشعر بعدم ارتياحها لسلطة المدينة المنورة.

١- زيود: التاريخ الاقتصادي ص٣٦٤.

ولما تولى علي بن أبي طالب الخلافة، كانت أهم أعماله ﷺ الخاصة بالمجتمع عمله الجاد على إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي الإسلامي، والعودة بالمجتمع العربي إلى نظام العدالة والمساواة، وكانت أولى خطواته عزل ولاة عثمان، وإعادة القطائع التي أقطعها، والمال الذي أعطاه إلى بيت المال، وقد اتبع في هذا المجال الحزم والحسم.

وفي ميدان العطاء أحدث تغييراً واضحاًفساوى بين الناس في العطاء فاستنكر الأغنياء والأشراف أن يتساووا مع الموالي والغلمان والأرقاء ممن كانوا عندهم، وانقسم المجتمع إلى تيارين: تيار سياسي ديني تزعمه معاوية بن أبي سفيان وبنو أمية. وكل من هددت مصالحه، وتيار آخر ديني إسلامي صرف.

وسار التيار السياسي الأقوى في المجتمع العربي الإسلامي لمصلحة الأمويين ودولتهم، التي قامت على أساس التفوق القبلي وانتصار جند الشام على جند كل من البصرة والكوفة، وهذا الانتصار تم نتيجة لأوضاع المجتمع العربي واستعداده، وقد استغل معاوية هذه الاستعدادات في أفراد المجتمع واعتمد مختلف السبل لتحقيق أهدافه، لهذا مالت الزعامات إليه، لأنه كان يبذل كل مطلوب، ويسمح بكل مأمول، أما علي في الجهة المقابلة فهو لا يقبل أن يحيد قيد شعرة عن الشريعة والمبادئ الإسلامية.

لهذا انتصرت المظاهر التي دعمت الحكم الأموي، وبدأ التمييز بين المسلم العربي، والمسلم الأعجمي وعادت العصبية، وعاد معها النزاع القبلي ما بين يمنيين وقيسيين.

يبدو من كل ماتقدم أن المجتمع العربي الإسلامي كان مجتمعاً يسوده الإخاء والتسامح، وكان يتسم بالحلم والأدب الجم والوقار، والرضا بما قسم الله من حظوظ الدنيا، فكان حقاً مجتمعاً سعيداً هادئاً مطمئناً، جعل جوستاف لوبون

يقول عنه : " إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين، وتسليمهم بالأمر الواقع الذي ليس له دافع، والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم، وبين ثورات الأوربيين الدائمة، وهرجهم وتنازعهم الاجتماعي، ومن أظهر ما يتصف به الشرقيون أدبهم الجم، وحلمهم الكبير وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال، ودعتهم ووقارهم وقناعتهم، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة طمأنينة روحية قريبة من السعادة المنشودة، وقد أورثتنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً نفسياً بعيداً عن بلوغ تلك السعادة"[١].

أضف إلى ذلك أن انتشار الدولة الراشدية خارج شبه الجزيرة العربية أدى إلى احتكاك المسلمين بدول وحضارات مزدهرة، فزاد ذلك من ارتقاء المسلمين في شتى مجالات الحياة، وظهرت في المجتمع الإسلامي فئات تختلف باختلاف أحوالها، وأقدارها الاجتماعية من أهمها :

١- كبار رجال الدولة، وكان منهم الخلفاء والأمراء والقضاة ومن سواهم، وكانوا يتولون الوظائف الرئيسية، والمناصب الكبرى.

٢- العلماء والأدباء، وهؤلاء كان لهم في الدولة نفوذ أدبي عظيم، ويتمتعون بمنزلة شعبية مرموقة، وإلى العلماء كان يرجع الناس في أمور دينهم.

٣- الجند، وكانوا يتميزون بملابسهم وزيهم ولهم ديوانهم الخاص الذي تُدون فيه أوصافهم وأعمالهم وأرزاقهم.

٤- رجال الأعمال كأصحاب الأملاك والتجار والصناع.

٥- أهل الذمة، وهم اليهود والنصارى الذين ظلوا على دينهم ولم يدخلوا في الإسلام، وكان لهم عقد وذمة في أعناق المسلمين، ولم يتعرض المسلمون

١- لوبون: حضارة العرب ص٣٨٦.

لأماكن عباداتهم، وقد صهر الإسلام هذه الطوائف الاجتماعية المتباينة في بوتقة المساواة، وحرية المعتقد التي عُدت من أهم مبادئ الحكومة الراشدية.

والمفيد ذكره أن الخلفاء الراشدين عاشوا حياة التقشف في المأكل والملبس، فكان لباسهم لا يتعدى العباءة والشملة وجبة الصوف المرقعة بالأديم، واستعملوا العمامة والطيلسان فوق العمامة، ليتقوا حر الشمس، ولبسوا العباءة، وفوقها القباء من وبر الجمل، أما لباس المرأة فهو سروال فضفاض، وقميص مشقوف عند الرقبة، وعليه رداء قصير ضيق وإذا خرجت المرأة لبست الحبرة، وهي ملاءة لتقي ثيابها من التراب.

و كما عاشوا حياة التقشف في الملبس تقشفوا أيضا في المأكل، وكانت أشهر أطعمتهم التمر مع الزبدة، والخبز في الرائب، واللحم مع الماء واللبن، والسلاء، والجراد، والإبل أفضل الذبائح[١].

وفي معرض الحديث عن المرأة لابد من القول إنَ الإسلام كرم المرأة واعترف بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية، ولم يفرق في نظرته إلى المرأة بل عدها صنو الرجل، فمنحها حقَ الحياة وحق المساواة مع الرجل في الإنسانية، والكرامة، ومنحها حق الرأي كاختيار زوجها ممن يتقدم لخطبتها، وحق فصم عقد الزواج إذا خدعت، أو أكرهت عليه، ولايجوز أن يجبرها ولي أمرها على زواج لا تريده طمعاً في مال يكسبه، أو حرصا على جاه يحرزه، كما حرم وأدها والتشاؤم من خبر ولادتها، وفرض لها حصة من الميراث، هي نصف حصة الرجل{ ***لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ***}[٢].

١- الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ١٦٢.

٢-سورة النساء : الآية ١١٠.

ولعل أهم ما منحه الإسلام للمرأة وسبق به أي تشريع عالمي إلى اليوم أنه أعطاها الشخصية الحقوقية الكاملة،سواء أكانت زوجاً أو أماً أو بنتاً[1]، وسَوى الشرع بينها وبين الرجل في الولاية على المال والعقود، حتى أجاز لها بعض الفقهاء ولاية القضاء.

ولهذا يمكن القول إنَ نقرر أن نصيب المرأة في صدر الإسلام هو تحريرها من المعاناة وإعطاؤها حقوقها كاملة، ومباشرة حياتها الخاصة والعامة، وذلك داخل إطار من العفة والحياء والحياة الهادئة بما يتفق وروح الإسلام، وقيمه، وقد فتح الإسلام للمرأة طريق الحياة والكفاح والمشاركة الوجدانية للرجل ضمن الأسرة، كل منهما يأخذ دوره ويؤدي واجبه، كيف لا يعطيها ذلك، وهي تمثل نصف المجتمع أو أكثر؟ وهو المجتمع الذي كان هدف الإسلام الأساسي رفعة شأنه وتأكيد وحدته، لذا ازداد المجتمع قوة، ومنعة بالمرأة.

وقد نظر الإسلام إلى الرقيق نظرة كريمة، وعامله معاملة رحيمة، وحث على الإحسان إليه، وسن الأحكام التي تمهِد لزواله، وعني بالحرية عناية لم تصل إليها أمة من الأمم، أودين من الأديان السماوية، وسلك في سبيل ذلك أحكم الوسائل وأبلغها أثراً وأصدقها نتيجة.

سابعاً- الحياة الثقافية والفكرية:

نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى، وكان لذلك أكبر الأثر في توحيد اللهجات المختلفة للشعوب التي تتكلم بالعربية، فقد حفظ القرآن الكريم اللغة العربيةمن الضياع، وصار الكتَاب العرب يستعملونها في كتاباتهم، والسبب في ذلك يعود إلى مرتبته العليا ومقامه السامي كأساس الإسلام، والمرجع الأعلى الذي يحتكم إليه في الأمور الروحية والاجتماعية وغيرها، فهو معجزة سماوية بيانية، له أسلوب خاص به، يتميز بحسن السبك وقد أغنى

١- رفاعي : القضاء والقضاة ص٢٧٤.

وطور اللغة العربية وآدابها، وأوجد لهم التشريع والقانون، وعذوبة النثر المسجع البليغ، وموسيقى الألفاظ الأنيقة التي تخرج عن أساليب الكلام المعتاد، هذه البلاغة بهرت العرب، وأثارت إعجابهم، وافتتنوا بلفظه وكلماته لدرجة امتناع بعضهم عن قول الشعر مثل لبيد بن ربيعة[١] لأن بلاغة القرآن، وأسلوبه وأفكاره، وأمثاله، وقصصه تفوق ما توصل إليه البلغاء، وعجز الفصحاء عن الإتيان بمثله لأنه خرج عن مألوف كلامهم، وترتيب أفكارهم.

لذا شاعت ألفاظ القرآن، وحكمه بين القبائل العربية، وصار كتابًا للعلم، وأساسًا للمنهاج الدراسي في الجامعات الدينية.

ولعل فيما قاله الإمام علي بن أبي طالب عن القرآن، يوضح ذلك : إنَ القرآن ريًا لعطش العلماء، وربيعًا لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق العلماء، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهدًا لمن خاصم به، وملجأ لمن حاج به، وعلمًا لمن وعى، وحديثًا لمن روى، وحكمًا لمن قضى[٢].

ويتحدث القرآن عما في الكون من خلق الله، وما فيه من علم وإبداع يظهر عظمة الخالق عز وجل، ويدعو إلىتدبر ذلك ودراسته وإلى النظر فيه والاستمتاع به[٣].

وقد نسب المستشرقون عظمة القرآن إلى لغته الفصحى والبيان وحسن جمال آياته، وحسن تلاوته، وإلى نفحة الطهارة الموجودة في سوره، وإن الترجمة تذهب بأكثر من جمال الصيغة، وحسن الصياغة[٤].

أضف إلى ذلك أن لغة القرآن أثارت إعجاب العرب، وكانت عاملا في شد أواصر القرابة وتمتينها بين المقيمين والوافدين، وقربت وجهات النظر

١-حسن : تاريخ الإسلام ص١٩٣

٢-الشامي: تطور تاريخ العرب ص١٠٠

٣-حسن : تاريخ الإسلام ص١٩٣

٤-حسن : تاريخ الإسلام ص١٧٦.

بين غير العرب والعرب الفاتحين، الأمر الذي سهل دخولهم في الإسلام، وباتت فيما بعد اللغة العربية هي اللغة الرسمية في بلاد الإسلام، وحلت مكان اللغات الأخرى التي كانت سائدة، ولكنْ بصورة تدريجية وبطيئة، أضف إلى ذلكذلك ظهور عديد من العلوم المتعلقة به كالتفسير والحديث وعلم الكلام.

تحسن الإشارة إلى أنه توفرت للحضارة العربية الإسلامية صفة الوحدة والتنوع، فهي موحدة من حيث انطلاقها من قيم العروبة والإسلام، وهي متنوعة من حيث انفتاحها على الثقافات كافة، وهي التي كان لها وجود في دار الإسلام سواء أكانت تلك الثقافات ذات جذور قديمة في المنطقة، أم كانت ثقافات وافدة عليها.

وقد اهتم الإسلام بالعلم، ولعل التوسع في تشجيع العلم والتعليم في دار الإسلام قد جاء استجابة لتعاليم القرآن والسنّة النبوية، فقد حث القرآن الكريم الناس على طلب العلم في أكثر من آية كما في قوله تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [١] وقوله: { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [٢] وقوله:{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [٣].

ويبدو أن العلم الذي حثت هذه الآيات الكريمة على طلبه ليس العلم الديني فحسب، بل هو كل «علم نافع يرفع من قدر الإنسان وينمي عقله ويجعله أكثر خبرة بالحياة واطلاعاً على أحوالها»[٤]، وما يقوي هذا المعنى الذي يحث على طلب العلم من غير تقييده بالعلم الديني قول الرسول ﷺ

١- سورة الزمر : الآية ٩.

٢- سورة النحل : الآية ٤٣.

٣- سورة المجادلة : الآية ١١.

٤- طلس : التربية والتعليم في الإسلام ص٤٥.

«اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[١]. والمقصود هنا العلم بصفته العامة، وهو واجبٌ يُحاسَب أمام الله من يقصر في طلبه.

ويبدو أن من أهداف الإسلام الأساسي نشر العلم والمعرفة بين الناس، قال رسول الله ﷺ: « وما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة »[٢].

لذا اقترنت الدعوة منذ بدايتها بنشر التعليم والهداية والابتعاد عن الجهل والضلال، وذلك ضرورة لتطوير الإنسان العربي، والقرآن يدعو إلى ذلك بقوله: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }[٣] وقوله أيضاً: { لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ }[٤].

وقد حرص الرسول ﷺ على بناء أمة تقوم على جماعة متعلمة راسخة في العلم، لها قوة الحجة والقدرة على الإقناع، فجمع حوله أفضل شباب العرب وجعلهم نواة زرعها في أنحاء الدولة الإسلامية فأينعت نبوغاً وإشراقاً في سماء الإسلام يدل على ذلك قوله ﷺ: « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام مُعاذ بن جبل، وأفرضهم (علم الفرائض والمواريث) زيد بن ثابت، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة »[٥].

١- ابن عبد البر : جامع البيان ١/٧-٨-٩.

٢- ابن عبد البر: جامع البيان ١/١٣.

٣- سورة العلق: الآية١.

٤- سورة النساء : الآية ١٦٢.

٥- ابن عساكر : تاريخ ٣٣ / ٨٠.

هؤلاء صحابة الرسول ﷺ أخذوا عنه علوم الإسلام، وهو أول دين في التاريخ جاء من عند الله بنظام كامل لجميع شؤون الحياة، جمع بين النظرية والتطبيق، وحمل الصحابة الكرام علوم هذا الدين وحرصوا على نشره في أنحاء الدولة الراشدية فكانوا الحفظة لنصوص القرآن ولأحاديث الرسول ووصاياه، وقد تلقوا علومهم هذه في المسجد حين كانوا يتحلقون حول الرسول ﷺ لسماعه وتلقي تعاليمه. وقد أرسلهم الرسول ﷺ بعد ذلك إلى الأمصار لتعليم المسلمين أصول الدين.

ولم يقصر الرسول ﷺ اهتمامه على تعليم الرجال دون النساء، فقد روي أنه طلب من الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس، وهي من أوائلالمهاجرات أن تعلم زوجته حفصة الكتابة فقال لها:« ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة ».

ومما له دلالة على أبعاد توجيهات الرسول ﷺ التعليمية ما ذكر عن اهتمامه بتعلم بعض أصحابه اللغات الأعجمية كالفارسية والرومية والقبطية والحبشية لأغراض مراسلة الحكَام الأجانب والترجمة إلى العربية.

ومع أن الهدف الأساسي للرسول ﷺ كان هداية الناس إلى الإسلام وتفقيههم بأمور الدين فإنه قد أولى بعض الاهتمام بمعارف العرب العامة كالشعر والأمثال والأنساب والخطابة، وقد استغل هذه المعارف ووجهها لخدمة الدعوة الإسلامية.

وهكذا نلاحظ أن الرسول ﷺ قد وضع في حياته قاعدة الانطلاق للثقافة العربية الإسلامية بأبعادها الفكرية ومؤسساتها التعليمية المتنوعة، فلما جاء عصر الخلفاء الراشدين واصلت هذه الثقافة انطلاقها وتوسعها وخاصة أن هذا العصر قد شهد امتداد الدولة العربية الإسلامية وتوسعها فأصبح ضمن حدودها

بعض الأقاليم العربية التي كانت موطناً للحضارة منذ أزمان بعيدة كالعراق والشام ومصر وغيرها.

وقد مر معنا أن الرسول ﷺ حين بدأ ينشر الإسلام في المدينة المنورة بعد بيعة العقبة الثانية أرسل مصعباً بن عمير إليها، وأمره أن يقرئ أهلها القرآن الكريم ويعلمهم مبادئ الإسلام، ويفقههم في الدين، ولأهمية العلم جعل فداء كل أسير من أسرى بدر من المشركين المتعلمين تعليم عشرة صبيان من المسلمين، وكان كلما قدم عليه وفد وآمن به أرسل معهم من يعلمهم ويقرئهم القرآن، وكان ﷺ يختار أمراءه من القبائل ممن يقرؤون القرآن، ويعرفون معالم الشريعة فيشرفهم على قومهم ويعهد إليهم بتعليمهم.

وقد اقتصرت الاهتمامات في بداية الدعوة إلى حد بعيد على علوم الدين، فكان القرآن الكريم ينزل على النبي ﷺ فيحفظه ويبلغه الناس، ويأمر كتَاب الوحي بكتابته في موضع كذا من سورة كذا، وقد كُتب القرآن كلَه في زمن النبي ﷺ، من أجل ترسيخه من ناحية، ولاشتغال العرب بالفتوح، ومن ثم بالحروب الأهلية من ناحية ثانية.

يتعلق بالقرآن الكريم التفسير وهو بيان معاني القرآن الكريم، وقد اشتهر من الصحابة المفسَرين عشرة، أعلمهم علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب.

أما الُسنة فلم تدون في زمن النبي ﷺ على النحو الذي كتب به القرآن، والسبب يرجع إلى : ندرة أدوات الكتابة لذا كانوا يعتمدون على الحفظ لقوة ذاكرتهم وسيلان أذهانهم، أضف إلى ذلك أنه قد يلتبس الأمر على بعض الناس، وتشتبه عليهم الآية من القرآن بالحديث من كلام النبي ﷺ فلم يُدون الحديث إلا في أوائل القرن الثاني من الهجرة.

ولم يحظ الأدب بحظ وافر من الاهتمام، إلا ما كان من الشعر الذي عُدً أهم الفنون الأدبية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ولكنه لم يخرج عن مألوف الشعر قبل الإسلام، مع ذكر المعاني الجديدة التي بشر بها القرآن كالبعث والجنة والنار والحساب.

لقد حدد القرآن الكريم منهجاً أخلاقياً لدور الشعر والشعراء في الجهاد ضد الظالمين، وأعداء المسلمين، وحارب منهج القادرين ومن تبعهم[١].

وقد كان أثر الشعر والشعراء في التصدي لأعداء الدعوة الإسلامية بارزاً وعظيماً، بعد أن أصبح المسلمون قوة لايستهان بها بعد هجرتهم إلى المدينة، الأمر الذي جعل للشعراء أهمية سياسية ودينية أهلت فئة من الأنصار ليصبحوا مقربين جداً من الرسول ﷺ ينصرونه بألسنتهم كما نصروه بسلاحهم[٢].

ويذكر في هذا المجال أن الرسول ﷺ كان يضع لحسان بن ثابت المنبر في المسجد ليقف عليه قائما يهجو الذين كانوا يهجون النبي، ويرد عليهم[٣]. فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على قوة تأثير الشعر وأهميته في تلك الحقبة، ويذكر في هذا المجال أن حسان بن ثابت رمى بأبيات بلغت مسمع عبد الله بن الزِبعري السهمي، وكان قد هرب إلى نجران بعد فتح مكة، فقدم المدينة وأسلم وكان من أشعر شعراء قريش[٤].

وكان كعب بن مالك الأنصاري[٥]، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، من الشعراء الذين عارضوا أعداء الإسلام، ووضحوا للناس صورو الدين الجديد،

١- سورة الشعراء: الآية ٢٢٤-٢٢٧.

٢ - الأصفهاني : الأغاني ١٤٣/٤.

٣- الأصفهاني : الأغاني ١٤٦/٤. ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٢.

٤- ابن حجر: الإصابة ٢/ ٣٠٨.

٥-ابن هشام : السيرة ٤/ ١٢١-١٢٧. الأصفهاني: الأغاني ١٤٢/٤.

ودعوهم إلى اعتناقه، أما الخطابة فقد كان لها دور بارز أيضاً في العصرين النبوي والراشدي.

وكانت مسؤولية التعليم عامة يتحملها جميع المسلمين الذكور والإناث، وكان طلبة العلم يجتمعون ضمن حلقات في المساجد حول أساتذتهم يتلقون العلم، وقد ظهرت فئة من المسلمين لها اهتمامات متعددة كعلم الأنساب، والتاريخ، والأخبار، لمعرفتها الجيدة بها، كأبي بكر الصديق الذي كان أعلم الناس بنسب قريش، وسائر العرب، وعقيل بن أبي طالب، وسعد بن مسعود الثقفي وغيرهم[١].

وقد روي عن زيد بن ثابت أن الرسول ﷺ قال له:" تعلم كتاب اليهود، فإني ما آمن يهود على كتابي، فتعلمت في نصف شهر، حتى كتبت إلى يهود وقرأت له إذا كتبوا إليه"[٢].

ومن النساء أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الصحابية الشاعرة الفصيحة[٣] وكانت ام رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس راوية للحديث[٤]، وعاتكة بنت خالد الخزاعية التي دخلت التاريخ الإسلامي بفصاحتها وبلاغتها[٥]، والشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس التي مثلت المرأة المثقفة المتميزة، والمتخصصة في معالجة الأبدان والأرواح على حد سواء[٦]، والخنساء بنت عمرو بن الحارث التي اتفق الشعراء في عصرها أنه لم يكن هناك امرأة أخرى أعلى شعراً منها وغيرهن كثيرات.

١- ابن حجر: الإصابة ١/ ٣٧- ٤/ ٣٥- ٣٦. ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٤٢٣.

٢-الخزاعي : تخريج الدلالات السمعية ص٢١٨.

٣-ابن الأثير : أسد الغابة ٥/ ٣٩١. البواب : مئة أوائل من النساء ص١٧٤.

٤-ابن الأثير : أسد الغابة ٥/ ٥٨٣. البواب : مئة أوائل من النساء ص١٨٠.

٥-البواب : مئة اوائل من النساء ص١٨٨.

٦- ابن الأثير : أسد الغابة ٥/ ٤٨١. البواب : مئة أوائل من النساء ص١٩٤.

وقد تناول الإسلام في هذا المجال جوانب كثيرة في الحياة، فكان عقيدة وعبادة ونظاماً، جمع بين النظرية والتطبيق، ابتدأها الرسول ﷺ وتابعها الخلفاء الراشدون،

ولم يغب عن البال الاهتمام بالمعارف العلمية التي تعنى بصحة الإنسان وحياته، فقد روي أن الرسول ﷺ قال: " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"، فكان الحارث بن كلدة، وأبو رمثة رفاعة بن يثربي من جملة الأطباء في عهد الرسول[1].

والمفيد ذكره أن النبي ﷺ أمضى عصر النبوة من حياته في شبه جزيرة العرب، ولاسيما مدينتي مكة والمدينة، والذين رأوا النبي وسمعوا منه هم بعضٌ ممن عاصروه من سكان شبه الجزيرة، وعُرف هؤلاء عموماً باسم الصحابة، وبعد قيام الفتوحات الإسلامية الكبرى غادر عدد لا بأس به من الصحابة شبه الجزيرة واستقروا في بعض البلدان المفتوحة، وهناك تصدى بعضهم للإفتاء والاجتهاد، وتبليغ الدعوة الإسلامية بإقراء القرآن والحديث عن النبي.

ومع توزع الصحابة في الأمصار فقد ظل عدد كبير منهم في المدينة عاصمة الإسلام الأولى، وبذلك ظلت المدينة دار الفكر الإسلامي الأولى، لكن هذه الدار تعرضت لعدة أزمات كبرى، كانت أولها الفتنة الكبرى وما نجم عنها من اتخاذ الكوفة عاصمة إسلامية بديلة عن المدينة، ومغادرة أعداد جديدة من الصحابة الحجاز إلى الأمصار، وظهور بعض الفرق الإسلامية.

---

١ - زكار وخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ص ٢١٨.

ثامناً- الحياة العمرانية:

ارتبطت العمارة والفنون عند العرب المسلمين بتعاليم دينهم، وانعكس ذلك على هندسة وعمارتها المساجد والمدن.

ولما اتسعت فتوحات العرب، واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى، وتعرفوا على فنون الأقوام في البلاد المفتوحة، في بلاد الشام والعراق ومصر، ومظاهرها المختلفة، أبدوا تقديرا كبيرا لها، ولم يقوموا بهدمها، إنما استطاعوا الاستفادة من الحضارات القديمة، فجمعوا شتى الأساليب الفنية، وطبعوها بطابع دينهم الجديد في إيجاد أسلوب معماري جديد، ورسومات وزخارف تزيينية صادرة عن تعاليمهم الدينية.

أي أنهم اقتبسوا من حضارات الأمم الماضية ما ينسجم مع عقيدتهم، وذوقهم وطباعهم، ثم طبعوا ما أبدعوه بطابعهم المميز، المعبر عن تعاليمهم الدينية[١]، فلم يهتموا بفن النحت والتصوير المجَسم، لأنه في اعتقادهم ينتهي إلى الوثنية، فاهتموا بالبناء والزخرفة التي ارتكزت على إظهار الرسوم النباتية والهندسية، واتخذوا من القرآن والأحاديث النبوية مادة لتزيين الجدران والعمد[٢] ولقد حمل الفن خصائص مشتركة في الهندسة مع وجود اختلاف في المواد المستخدمة من بلد إلى آخر، وعن هذا الأمر يعبر مارسيه قائلاً: " إنها آسية التي شهدت تفتح أهم الحضارات وازدهارها، منها جاء الفن الإسلامي ليأخذ من تراثها، ثم ليختار ويبدع عوامل جديدة أظهرت فناً خاصاً "[٣].

وقد ظهر الفن الإسلامي في المباني الدينية، والمباني العامة، والمباني السكنية، والمباني الدفاعية، وظهر أيضاً في الزخرفة عن طريق استعمال

١- بورلو:الحضارة الإسلامية ص٥٥.

٢- هونكة : شمس العرب ص٤٧٩.

٣-بورلو : الحضارة الإسلامية ص٥٥ نقلا عن مارسيه.

الخط العربي المتمثل بالآيات القرآنية، أو بأبيات الشعر، وعبارات بخطوط مستقيمة ومعكوفة ودائرية ونجمية ومثلثة ومربعة وغيرها من الأشكال الهندسية.

ففي **عمارة المساجد** نرى تشابهاً فيما بينها، وكان الطراز الشائع في بناء المسجد صحن مربع فيه نافورات ماء للوضوء، وتحيط بالصحن أروقة مسقفة تحملها صفوف من العمد، تنتهي في اتجاه القبلة بقاعة كبيرة، وهذا الطراز هو طراز المصلّى الذي كانت تصلي فيه قبائل المدينة يؤمها الرسول ﷺ قبل بناء أول مسجد إسلامي.

ثم مر بناء المساجد بمراحل كثيرة من التغيير، وكان أول مكان لصلاة المسلمين منزل النبي ﷺ في المدينة المؤلف من عدد من الغرف المفتوحة على باحة داخلية تسقفها السماء، وظل النبي ﷺ أثناء صلاة الجمعة يضع إلى جانب المنزل رواقاً من سعف النخل مغطى بأوراق النخيل، وقد أوجد مكاناً خشبياً يمثل المنبر، ثم محراباً جهته نحو مكة.

والمفيد ذكره هنا أن مفهوم المسجد عند المسلمين لا يرتبط بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربه، لأن كل إنسان عبد لله قادرٌ على أن يؤمَ المصلين في المسجد، ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد، وعلاوة على تلك الصلوات التي يؤديها المسلم حيث شاء وجب على المؤمنين أن يؤدوا صلاة جامعة يوم الجمعة من كل أسبوع في المسجد، ولم تقتصر مهمة المساجد على تلك الصلاة مرة في الأسبوع فحسب، بل تعدته إلى أغراض تخدم الدين والمجتمع كتعليم الأطفال والطلاب، ومباشرة أمور القضاء، والاجتماع للتواصل والتشاور وتقوية المعارف

فالجامع هو الذي يجمع المسلمين، وليس المكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته– كالكنيسة –على بقية منازل الناس ومساكنهم، ولهذا لم يهتم

المسلمون كثيراً بمظاهر المساجد خارجياً، وكانت الصلاة للجميع على قدم المساواة، ولعدم اهتمام العرب بالشكل الخارجي للمساجد وجهوا كل اهتمامهم لتزيينها من الداخل، فاتخذوا من سور القرآن والأحاديث النبوية مادة لتزيين وتجميل الجدران والعُمُد في القصور والمساجدو تجميلها[١].

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بنى مسجد قباء، ثم ما لبث أن بنى مسجد الرسول ﷺ [٢]، وهو بناء على شكل مربع ضلعه ١٠٠ ذراع، وأساساته من الحجارة، وباقي الجدران من الطين المجفف، وسقفه من الجريد لاتقاء أشعة الشمس، وأعمدته من جذوع النخيل[٣]، وكانت قبلته لجهة بيت المقدس ثم حولت إلى الكعبة، وجعل للمسجد بابان.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضاف إلى المسجد دار العباس بن المطلب[٤]، وقد عُدَ مسجد الرسول ﷺ النموذج الأساسي للمساجد الإسلامية، التي تم بناؤها في الأمصار كمسجد البصرة والكوفة والفسطاط، فمسجد البصرة أول مسجد عرفته البلاد المفتوحة، وقد بناه عتبة بن غزوان ١٧هـ/٦٣٧-٦٣٨م وكان في أول عهده باحة مفتوحة يحيط بها سياج من القصب، ثم شيد البناء بعدئذٍ من الطين واللبن بأمر أبي موسى الأشعري عامل عمر على البصرة، وسقف بالعشب[٥].

ولعل مسجد الكوفة يشبه مسجد البصرة، وهو مؤلف من صحن مربع مكشوف تحيط به جدران من القصب بنيت فيما بعد من اللبن والطين[١]. وقد

١- هونكة: شمس العرب ص٤٧٩.

٢-ابن هشام : السيرة ١٤١/٢وما بعد.

٣-حتي : تاريخ العرب ٣٢٢.

٤ -السمهودي : وفاء الوفا ٢/ ٤٨٢.

٥- البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٤٦-٣٥٠.

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٤٨/١. الحموي : معجم البلدان مادة كوفة.

أعاد زياد بن أبيه عامل معاوية بناء هذا المسجد، فأقام فيه أعمدة على غرار الفن الساساني، ولكنه أبقى على شكله الذي لم يختلف عن شكل مسجد النبي ﷺ في المدينة.

وبنى عمرو بن العاص مسجداً في الفسطاط مايزال يحمل اسم بانيه، وقد اتخذ به المنبر، فكان أول مسجد في مصر تعقد فيه حلقات الوعظ والإرشاد، وفي وسطه بيت المال، وتعددت أغراضه، فكانت تؤدي فيه الفرائض الدينية، وتُعقد به حلقات التدريس، ويشغل دور المحكمة لفض النزاعات على اختلافها.

أما **عمارة المدن** والمقصود من ذلك ما بناه المسلمون لأنفسهم، وليس ما افتتحوه في العراق والشام ومصر، وقد بدىء ببناء المدن في الإسلام في زمن مبكر جداً، إذ ماكاد العرب يفتتحون العراق ومصر في زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب حتى وضعوا أسس أربع مدن، واستمر بناء المدن قائماً في العصور الإسلامية التالية، فالغاية الأساسية من بناء المدن، كانت حربية وذلك لإقامة الجند، ولإنزال الجاليات العربية الفاتحة.

وقد احتفظ العرب حتى بعد نزولهم في المدن، وعيشهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي، وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا المدينة، ولهذا كانت المدن تقسم منذ تأسيسها إلى أحياء خاصة تدعى خططاً أو قطائع، ينزل في كل خطة أو قطيعة قبيلة من القبائل، ولكل حي منازله ومسجده وسوقه ومقبرته الخاصة، وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر عليهم من الناحية السياسية، إذ أبقت على الخلافات القبلية وزادت أحياناً في احتدامها[1].

- **مدينة البصرة:** هي أول مدينة بنيت في الإسلام، وكانت من قبل قرية صغيرة، وإنما سميت البصرة لغلظها وشدتها[1]، وهي تعريب بس راه،

١- سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص١٨٥.

١- ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة بصرة١/٤٣٠.

أما سبب بنائها فهو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر قواده بعد معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على أطراف العراق مما يلي البادية العربية لحل بها الجند العربي وعيالهم. فاختط عتبة بن غزوان في ربيع سنة ١٦ هـ/٦٣٧م مدينة البصرة وبنى المسجد ودار الإمارة بجانبه، ثم أمر ببناء خطط المدينة، لكل قبيلة خطة خاصة، أي لكل قبيلة حي فيه مسجده وأسواقه وجبانته (مقبرته)، ثم أخذ الناس يشيدون الأبنية من اللبن والآجر حتى اتسعت المدينة وجرت إليها الترع والمياه من شط العرب.

ولم يمض نصف قرن على تأسيسها حتى غدت مصراً من أهم الأمصار الإسلامية، وورثت الأُبلة لتكون مرفأً بحرياً يصل الصين والهند عن طريق الخليج العربي بالشام والعراق والجزيرة وما وراءها، وكانت السفن ترسو في مينائها وتحمل أصناف التجارة من الأقمشة والأطياب وغيرها[١]، وظهرت فيها حياة أدبية راقية كان ميدانها سوق المربد الشهير.

- **الكوفــة** : بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر بناها سعد بن أبي وقاص، فبعد أن فتح العراق، وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن وأرسل وفداً إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ ليخبره بذلك الفتح، فلما وصل الوفد إلى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت، وحالهم قد تبدلت لاعتيادهم جو الصحراء، فأمرهم الخليفة أن يرتادوا منزلاً يُنزلون فيه المسلمين، لأن العرب لا يوافقهم من البلاد إلا ما يوافق إبلهم، فوقع اختيارهم على مكان غربي الفرات انتقل المحاربون وعيالهم إليه وعسكروا فيه، ثم بنوا بيوتاً من القصب ما لبثت أن التهمتها النيران، فأمر الخليفة باتخاذ دور دائمة من اللبن، وبأن يؤسس في المدينة مسجد جامع ودار للإمارة فبني مسجد وسط المدينة حيث

١- زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤٢٦/١.

تتفرع الطرقات والخطط[١]، وبنى سعد منزله قريباً من المسجد وفيه اتخذ بيت المال وتحول إلى مقر الإمارة[٢].

وما لبثت الكوفة أن عمرت بالمباني ووفد إليها كثير من الناس حتى اتخذها الإمام علي بن أبي طالب ﷺ مقراً لسلطته بعد أن غادر المدينة لمواجهة السيدة عائشة أم المؤمنين، وطلحة، والزبير، ثم أرغمته الظروف على البقاء فيها لتوسطها في الأراضي الإسلامية، وحفظها لطابعي الحياة البدوية والحضرية معاً، ولكن نجاح معاوية بتأسيس الدولة الأموية حرمها هذه المكانة السياسية الممتازة وأخذت دمشق مكانها، وحلت محلها.

لكنها بالمقابل حافظت على مكانة سياسية مرموقة فقد كان يعهد إليها بتعيين ولاة المنطقة الشرقية، ثم إنها كانت مقر قيادة الحركة الشيعية المعارضة والناقمة على الحكم الأموي، ومنها أديرت الحركة العباسية السرية حتى كانت أولى عواصم العباسيين[٣].

أضف إلى ذلك أنها ثاني المصرين في العراق من الناحية العلمية. ولم يبدأ انحطاطها إلا منذ القرن الرابع الهجري.

- الفسطاط :

أول مدن المسلمين في أرض الكنانة، أسسها عمرو بن العاص بإذن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بعد فتح مصر[٤]، واتخذ لها مكاناً الفضاء المتسع بين النيل، وتلال المقطم بالقرب من موقع بابليون، وهو المعروف اليوم بدير النصارى بمصر القديمة، فلما فتحوه ساروا إلى الإسكندرية لفتحها ففتحها وكتب إلى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره في السكنى فيها، فكتب

١- الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦. ابن الأثير: الكامل ٢/ ٥٢٩.

٢- ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة كوفة.

٣-رفاعي: الإسلام في حضارته ص٣٤٦.

٤- ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٢٦٢.

الخليفة إليه لا تنزل بالمسلمين منزلاً لا يحول الماء بيني وبينهم، شتاءً ولا صيفاً، فاستخلف حامية في الإسكندرية وأمر فشدت الرحال إلى حصن بابليون فنزلوا فيه، وجعلوه مركزاً لمعسكرهم، ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط، أي الحصن المحاط بالماء(ماء النيل).

واختط عمرو بن العاص بعد ذلك المدينة في نحو عشرين حارة دعاها خططاً، وأقام أربعة من كبار رجاله للإشراف على إنشائها، وإنزال الناس في الخطط المذكورة بحسب قبائلهم، ثم أنزل غير العرب أطراف المدينة، فأسكن الروم جنوبها، وأسكن قبط مصر في قصر الشمع[١]، وأقام في المدينة شارعاً يتوسطه ميدان بنى به مسجداً ما زال يحمل اسمه إلى اليوم (جامع عمرو)، وقد سلف الحديث عنه في فقرة متقدمة.

وقد تطورت بيوت الفسطاط فكانت في البداية تتألف من طابق واحد، وأسقفها مصنوعة من الجريد المحمول على دعامات من جذوع الأشجار، وحل محل هذه الدور مساكن من طوابق متعددة (خمسة وستة وسبعة).

وما زاد في مكانة مدينة الفسطاط أنها كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) عبر قناة قديمة تمر بمدينة بلبيس، وبحيرة التمساح، لكنها أهملت فأعاد حفرها عمرو بن العاص، وأعاد لها أهميتها القديمة، فعرفت لذلك بقناة أمير المؤمنين، وكان ذلك تسهيلاً لما أراده العرب من نقل المؤن إلى الحرمين.

وظلت الفسطاط العاصمة السياسية لمصر أثناء حكم الخلفاء الراشدين، والأمويين، وقد استحدث الأمويون المئذنة إذ جعل عامل معاوية في مصر مئذنة لكل ركن من أركان المسجد.

١-رزاز : عواصم مصر ص٣٣.

خاتمة:

اختص عصر النبوة والخلفاء الراشدين من بين سائر عصور الدولة الإسلامية بجملة من الخصائص التي ميزته من غيره، وصار معلماً بارزاً ونموذجاً متكاملاً تسعى الأمة الإسلامية، وكل مصلح، وكل داعية إلى محاولة الوصول إلى ذلك المستوى السامي الرفيع، ويضعه نصب عينية، فكل مصلح وكل مجتهد وكل حاكم عادل، يقاس بهذا العصر ويوزن بميزانه.

ولقد سمى كثير من العلماء عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي خامس الخلفاء الراشدين ونسبوه إليهم، لأنه سار بسيرتهم، وسلك طريقهم، وأعاد في خلافته القصيرة معالم نهجهم، وأحيا طريقتهم في الحكم والإدارة وسياسية الرعية، وصفوة القول: إن مجمل ماتصف به هذا العصر التطبيق الكامل للشريعة في أمور الحياة كافة، ومظاهر هذا التطبيق تبرز في الأمور التالية:

١- توحيد مصدر التلقي.

٢- محاربة البدع والمحدثات في الدين.

٣- سيادة العدل والمساواة بمفهومها الإسلامي الصحيح.

٤- سيادة مبدأ الشورى ليكون قاعدة التعامل بين الحاكم والمحكوم.

٥- قيام العلاقات الدولية في عصرهم على مقتضى النصوص الشرعية، لأنَ وصولهم للحكم واختيارهم قد تم بالطرق المثلى والشورى الكاملة.

٦- كون الخلفاء الأربعة من كبار الصحابة، وأفضل الأمة بحسب ترتيبهم في الخلافة.

٧- اجتماع العلم والأخلاق فيهم.

٨- الحماس في نشر الاسلام.

٩- استمرار حركة الجهاد وتحقيق الفتوحات انجازات كانت أشبه بالمعجزة.

١٠- بدأ في عصرهم أول تنظيم للدواوين.

جريدة المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم

الألف

١-الأبشيهي، (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح): المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قمحية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م، ط٢.

٢- ابن الأثير، (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) : أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- ابن الأثير، (-------)، الكامل في التاريخ،بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م.

٤-ابن الأثير، (-------): النهاية في غريب الحديث والأثر، د. ن، د.ط.

٥-إبراهيم، (محمد أبو الفضل) و البجاوي(علي محمد): أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م.

٦- أحمد، (مصطفى أبو ضيف): دراسات في تاريخ الدولة العربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦ م.

٧-ابن آدم، (يحيى): الخراج، صححه أحمد محمد شاكر، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ.

٨-أرنولد، (توماس): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم وآخر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ط٣.

٩- الأزرقي، (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد): أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد اسبانيا،

١٠-الأزدي، (محمد بن عبد الله): فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠م.

١١-ابن اسحق، (محمد بن اسحاق المطلبي): سيرة ابن اسحق، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨ م.

١٢-الأصبهاني، (أبو الفرج علي بن الحسين): الأغاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.

١٣-الأصبهاني، (------): مقاتل الطالبين، القاهرة، ١٩٤٩ م.

١٤-الأصفهاني، (الحسن بن عبد الله): بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، وصالح العلي، الرياض،١٩٦٨م.

١٥- الأصمعي، (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك): الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف.

١٦-ابن الأعثم، (أبو محمد أحمد): الفتوح، تحقيق محمد عبد المعين خان، ١٩٧٤م.

١٧- الأعظمي، (محمد مصطفى): كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٧٨م.

١٨-أفتيشوس، (المكنى بسعيد بن البطريق): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.

١٩-الأفغاني، (سعيد): عائشة والسياسة، دار الفكر، ١٩٤٦.

٢٠-الألوسي، (محمود شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ــ صححه محمد بهجة الأثري ــ دار الشرق العربي بيروت.

٢١-الأنصاري : الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين.

٢٢-ابن أنيف: (قريط)، ديوانه.

٢٣- إيرفينغ: محمد وخلفائه، د. ت، د، ن.

الباء

٢٤-الباب، (حسن فتح) :عنوان المقال" صلح الحديبية "، مجلة العربي، وزارة الأعلام، الكويت مجلة شهرية ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، العدد ١٦٦.

٢٥-باشميل، (محمد أحمد): العرب في الشام قبل الإسلام،، دار الفكر، ١٩٨٧ م، ط٢.

٢٦-بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة عربية، القاهرة ١٩٩٦م.

٢٧-البخاري، (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : الجامع الصحيح، تح محب الدين الخطيب وآخرون، المكتبة السلفية، القاهرة ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م.

٢٨-البخاري، (---------): صحيح البخاري، مطبعة الهندي.

٢٩-بخيت، (عبد الحميد): عصر الخلفاء الراشدين، القاهرة، ١٩٧٧م.

٣٠-بركات، (وفيق): فن الحرب البحرية في التاريخ الإسلامي، معهد التراث العلمي العربي.

٣١-بروكلمان، (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس وآخرون دار العلم للملايين، بيروت ط٥، ١٣٨٨ه.

٣٢-البستي، (محمد بن حبان التميمي): السيرة النبوية وأخبار الخلفاء،تحقيق عبد السلام، بيروت، المكتب الثقافي، ط٣.

٣٣-البغدادي، (عبد القادر طاهر): الفرق بين الفرق، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٩٨٠م

٣٤-البكري (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز) معجم ما استعجم. تحقيق مصطفى السقا. عالم الكتب، بيروت.

٣٥-البلاذري، (أبو الحسن أحمد بن يحيى): أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، مصر، دار المعارف

٣٦-البلاذري، (------): فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م.

٣٧-بليابيف،(ي. ام) : العرب والخلافة العربية في القرون الوسطى، ترجمة أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٣ م

٣٨-البواب، (سليمان سليم): مئة أوائل من النساء، دمشق، دار الحكمة، ١٩٨٦م، ط٢.

٣٩-بورلو، (جوزيف): الحضارة الإسلامية، ترجمة ريمة الفوال، مراجعة سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ٢٠٠١م.

٤٠-بيضون، (ابراهيم): تاريخ بلاد الشام إشكالية الموقع والحدود، دار المنتخب العربي للدراسات.

٤١-بيضون، (----): تاريخ العرب السياسي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤.

٤٢-بيضون، (---): الحجاز والدولة الإسلامية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت لبنان ١٩٨٣ ط١.

٤٣-بيضون، (----): من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول.

٤٤-بيضون، (------): من دولة عمر إلى دولة عبد العزيز، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١م.

٤٥-البيهقي،(أبو بكر أحمد بن الحسين، ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م) : دلائل النبوة، تعليق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٤٦-بيهم، (محمد جميل) : تاريخ فلسفة محمد، دار الريحاني.

التاء

٤٧-تدمري، (عبد السلام)، لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، طرابلس، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م،

٤٨–ابن تغري بردي، (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة.

٤٩–التوتنجي، (مهدي): فرق الشيعة، ١٤١٨، ط١.

٥٠–توني، (يوسف) : معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي ١٩٦٤م.

الثاء

٥١–ثعلب، (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني): الصبح المنير في شعر أبي بصير ـــ مطبعة أدولف هلزهوسن فيينا ١٩٢٧ م.

الجيم

٥٢–الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٦٠م، ط٢.

٥٣– الجاحظ، (-----------): الحيوان. دار إحياء التراث العربي.

٥٤–الجاحظ، (-----------): التاج في أخلاق الملوك، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب.

٥٥–جارم، (محمد نعمان): أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٣ م ط١.

٥٦–ابن الجوزي، (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ط١.

٥٧– ابن الجوزي، (-----------): تلقيح فهوم أهل الأثرفي عيون التاريخ والسير، القاهرة، مكتبة الآداب.

٥٨- ابن الجوزي، (--------): منقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت.

الحاء

٥٩-ابن حبيب، (أبو جعفر محمد): المحبر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤٢م.

٦٠-ابن حبيب، (---------): المنمق، صححه وعلق عليه خورشيد محمد فارق، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م.

٦١-ابن حبيش، (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف): غزوات ابن حبيش، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢، ط١.

٦٢-حتي، (فيليب): تاريخ العرب، دار غندور، ط١٩٨٦م.

٦٣-حتي، (---): تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة.

٦٤-ابن حجر، (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد): الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ، ط١.

٦٥-ابن حجر العسقلاني،(علي بن أحمد): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الكتب السلفية.

٦٦-الحجي، (عبد الرحمن علي): جوانب من الحضارة الإسلامية، مكتبة الصحوة بيروت،ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٦٧-حركات، (ابراهيم): السياسة والمجتمع في العصر النبوي، دار الآفاق الجديدة، المغرب.

٦٨-حسن، (حسين الحاج): حضارة العرب في عصر الجاهلية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م ط١.

٦٩-حسن، (حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي دار الجيل، بيروت، ط١٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٧٠-حسن، (---------): النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م.
٧١-حسن،(--)، و(علي ابراهيم): النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م، ط٢.
٧٢-الحسني،(هاشم معروف): سيرة المصطفى،دارالمعارف،يروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٧٣-حسين، (طه): الفتنة الكبرى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
٧٤-حسيني، (مولوي س.أ. ق): الإدارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، مراجعة عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، ١٩٥٨م.
٧٥-حلاق، (حسان وآخرون): مقدمة في تاريخ العرب السياسي، بيروت.
٧٦- الحلبي الشافعي،(علي بن برهان الدين): إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية، مصر، مطبعة مصطفى محمد.
٧٧-الحميري، (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٧٥ م.
٧٨-الحمـوي، (ياقوت): معجم البلـدان ـ دار الضيـاء، التراث العربي بيروت، ١٩٧٩ م
٧٩-الحوت،(سليم): في طريق الميثيولوجيا عند العرب ـ دار النهار للنشر بيروت ١٩٨٣ م ط٣.
٨٠- ابن حوقل، (أبو القاسم محمد): صورة الأرض، بيروت، دار الحياة.
٨١- الحيدر أبادي، (محمد حميد الله): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ١٩٦٩م، ط٣.

الخاء

٨٢–الخالدي، (عبد الله): شذرات في مادة النظم الإسلامية، بيروت، دار الرشاد الإسلامي، ١٩٩٠م.

٨٣–خان، (محمد عبد المعين): الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١ م ط٣ .

٨٤–ابن خرداذبة، (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، دار المدينة، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص١٣٤ ومابعد.

٨٥–خربوطلي، (شكران): شبه جزيرة العرب والصراع الدولي عليهامنذ القرن الرابع حتى ظهور الإسلام، سوريا، دمشق، دار ومؤسسة رسلان، ط١، ٢٠٠٧م.

٨٦–خربوطلي وزكار، (شكران وسهيل): الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق،٢٠٠٩م.

٨٧–خربوطلي وزكار، (---------): تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، جامعة دمشق، ٢٠١٠م.

٨٨–خربوطلي والعلي، (شكران و عبد الكريم): تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، جامعة دمشق، ٢٠١٣م.

٨٩–خريسات، (محمد عبد القادر): عمر بن الخطاب والولاة، د.ن، د. ت.

٩٠–الخزاعي،(أبو الحسن علي بن محمد): تخريج الدلالات السمعية على ماكان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨١.

٩١–الخضري، (محمد بك):محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، مصر، المكتبة التجاري، ط٣.

٩٢–خطاب، (محمود شيث): قادة فتح الشام ومصر، بيروت،١٩٦٥م، ط١.

٩٣-خطاب، (محمود شيث): عمر بن الخطاب القائد، بيروت، دار الفكر، ١٩٦٦٦ م.

٩٤-ابن خلدون، (عبد الرحمن بن محمد): العبر وديوان المبتدأ والخبر، منشورات مؤسسة الأعلمي.

٩٥-الخليفة، (حامد محمد): العطر النفاذ في مهاجرة الحجاز، مكتبة نون.

٩٦-أبو خليل، (شوقي) : غزوة تبوك " غزوة العسرة "، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٩٧-أبو خليل، (---------): غزوة مؤتة، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٦م.

٩٨-أبو خليل، (--): في التاريخ الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ١٩٩١، ط١.

٩٩-أبو خليل، (--------): الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، دار الفكر،١٩٩٦م.

١٠٠-خماش، (نجدة): الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس،ط١.

١٠١-خماش وعاقل، (نجدة ونبيه): تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دمشق، مطبعة دار الكتاب، ١٩٩١م، ط٣.

١٠٢-ابن خياط،(أبي عمرو خليفة بن أبي هبيرة الليثي العصفري) : تاريخ خليفة ابن خياط، مراجعة مصطفى غيب فواز وآخرون، دار الليث العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٥م.

١٠٣-ابن خيثمة، (أبي بكر أحمد بن زهير بن حرب): التاريخ الكبير " تاريخ ابن خيثمة " تح صلاح ابن فتحي هلل، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة ط١، ٢٠٠٤م.

الدال

١٠٤-الدواداري، (ابن ايبك): كنز الدرروجامع الغرر، تحقيق بيرندراتكة، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠٥-داوود، (أحمد): تاريخ سورية الحضاري القديم، دمشق، دار المستقبل، ط١.

١٠٦-الدرة، (محمود) : تاريخ العرب العسكري، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

١٠٧- دحلان، (أحمد زيني): السيرة النبوية، المطبعة التجارية الكبرى، ١٣٥٤هـ

١٠٨-ابن دحلان،(أحمد زيني): الفتوحات الإسلامية، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٤هـ.

١٠٩-دسوقي، (محمد عزت): القبائل العربية في بلاد الشام، من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، مصر، الهيئة المصرية للكتب،١٩٩٨ م.

١١٠-دلو، (برهان): جزيرة العرب قبل الإسلام، الفارابي، ١٩٨٩م.

١١١-الدوري، (عبد العزيز): مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت.

١١٢-ديورانت، (ول): قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية.

الذال

١١٣-الذهبي، (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ دول الإسلام، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٥هـ، ط٢.

١١٤-الذهبي،(--------): سير أعلام النبلاء، ١٩٨٤ م، ط١.

الراء

١١٥-ابن رجب الحنبلي، (زين الدين عبد الرحمن بن احمد): جامع العلوم والحكم، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

١١٦-رزاز، (حسن): عواصم مصر، القاهرة، دار الشعب.

١١٧-رفاعي، (أنور): الإسلام في حضارته ونظمه ١٩٧٣م.

الزاي

١١٨-الزركلي، (خير الدين): الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٩م. ط١٤.

١١٩-الزعبي، (محمد مسعود): القضاء والقضاة في الدولة العربية الإسلامية، تقديم سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ١٩٩٢م، ط١.

١٢٠-زكار، (سهيل): القدس في التاريخ الزهري: (محمد بن مسلم بن عبيد الله)، المغازي النبوية، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٨١م.

١٢١-زكار، (-------): اليرموك والفتح العمري الإسلامي، بيروت، دار الفكر،٢٠٠٢م.

١٢٢-زكار، (------): تاريخ العرب والإسلام، بيروت، دار الفكر،١٩٧٩م، ط٣.

١٢٣-زكار، (------): الموسوعة الشامية، بيروت، دار الفكر.

١٢٤- زيدان، (جرجي): العرب قبل الإسلام، بيروت، دار مكتبة الحياة.

١٢٥-زيدان، (-------): تاريخ التمدن الإسلامي، مطابع دار الهلال.

١٢٦-الزين، (سميح عاطف): خاتم النبيين محمد، دار الكتاب اللبناني، ١٩٩٦م ١٢٧-زيود، (محمد أحمد): تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، ١٩٩٥ م.

١٢٨-زيود، (-------): التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للعالم العربي الإسلامي، جامعة دمشق، ١٩٩٤م.

السين

١٢٩-سالم، (عبد العزيز): تاريخ العرب القديم في عصر الجاهلية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١م.

١٣٠-سالم، (----------): المسلمون والروم في عصر النبوة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٧ م.

١٣١-سالم، (--------): دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م، ط٢.

١٣٢-سرور، (محمد جمال الدين): قيام الدولة العربية الإسلامية، مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الإعتماد، ط١.

١٣٣-ابن سعد، (أبو عبد الله محمد): الطبقات الكبرى، القاهرة، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٥٨هـ.

١٣٤-ابن سعد، (----------) : غزوات الرسول وسراياه، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م .

١٣٥-سعيد، (أمين): حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٣٦-ابن سلام، (أبو عبيد القاسم): الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨م، ط١.

١٣٧-السمهودي، (نور الدين علي بن أحمد): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٥٥م.

١٣٨-السهيلي، (أبو القاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي): الروض الأنف، مكتبة الكليات الأزهرية.

١٣٩- ابن سيدة، (أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي): المخصص، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، وطبعة المكتب التجاري بيروت.

١٤٠-ابن سيد الناس، (فتح الدين أبو الفتوح محمد بن محمد): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، دار الجيل،١٩٧٤م، ط٢.

١٤١-سيد، (أمير علي): مختصر تاريخ العرب، والتمدن الإسلامي، القاهرة، لجنة التألبف والنشر، ١٩٣٨، ط١.

١٤٢-السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن بن الناصر الشافعي): تاريخ الخلفاء، تحقيق لجنة من الأدباء، بيروت، دار الثقافة.

الشين

١٤٣-الشامي، (فاطمة قدورو): تطور تاريخ العرب، بيروت، دار النهضة، ١٩٩٧م.

١٤٤- الشامي، (-------): تاريخ المهالبة، بيروت، دار النهضة.

١٤٥-الشامي، (محمد بن يوسف الصالحي الشافعي): سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٤٦-شاهين، (عبد الصبور): تاريخ القرأن، مصر، دار نهضة مصر، ٢٠٠٧م، ط٣.

١٤٧-شبارو، (عصام محمد): القضاء والقضاة في الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢ م.

١٤٨-ابن شبة، (أبو زيد عمر): تاريخ المدينة المنورة، علق عليه وخرج أحاديثه علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، بيروت، دار الكتب العلمية،ط١، ١٩٩٦م.

١٤٩-شجاع، (عبد الرحمن): دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، صنعاء دار الفكر المعاصر،١٩٩٩ م.

١٥٠-ابن الشحنة، (أبو الفضل محب الدين محمد): روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، بيروت، ١٩٠٩ م.

١٥١- الشريف، (عبد الله بن حسين): موقف يهود الشام من الفتح الإسلامي، مجلة جامعة أم القرى، م١٦، العدد ٢٨، ٢٠٠٣م.

١٥٢-شريف، (أحمد ابراهيم): مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٧ م.

١٥٣-شلبي، (أحمد): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٨٣ م، ط١.

١٥٤-شنيور، (ابراهيم): الفتح العربي الإسلامي لجنوب بلاد الشام من الناحية العسكرية، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١ م.

١٥٥-شهاب، (حسن صالح): فن الملاحة عند العرب، بيروت دار العودة، ط١،١٩٨٢م..

١٥٦-ابن شهاب الزهري، (محمد بن مسلم بن عبيد الله): المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠م، ط١.

١٥٧-الشهرستاني، (محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل، القاهرة، ١٣١٧م.

١٥٨-الشوكاني، (محمد بن علي): نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.

١٥٩-الشيباني، (محمد بن الحسن): الاكتساب في الرزق المستطاب، تحقيق محمد عرنوس، القاهرة، ١٩٧٨ م، ط١.

الصاد

١٦٠-صالح، (صبحي): النظم الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م، ط٦.

١٦١-ابن الصمة،(دريد): ديوانه، تحقيق عمر عبد رسول، بيروت، دار المعارف.

الضاد

١٦٢-ضيف،(شوقي): محمد خاتم المرسلين،دار المعارف،القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م

الطاء

١٦٣-الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان في تأويل آي القرآن. طبعة بولاق والبابي بمصر ١٣٢٣ هـ.

١٦٤-الطبري، (----------): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط٢.

١٦٥-طلاس، (مصطفى): الرسول العربي وفن الحرب، دمشق، دار طلاس، ١٩٧٠م.

١٦٦-ابن الطلاع، (أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي): أقضية رسول الله، تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ١٩٧٨ م، ط١.

١٦٧-طلس، (محمد أسعد): التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، ١٩٥٧ م.

١٦٨- الطهطاوي، (رفاعة رافع) : نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز تحقيق عبد الرحمن حسن محمود وآخرون، مراجعة عبد الحكيم راضي، تقديم سامي سليمان أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م،

العين

١٦٩-عاقل،(نبيه): تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي،جامعة دمشق،١٩٩٢م.

١٧٠-العامري، (محمد بن يحيى): بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص السير والمعجزات والشمائل، دار المنهاج، ١٩٧٠ .
١٧١- عباس، (إحسان): تاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.
١٧٢- ابن عبد البر، (الحافظ يوسف النمري): الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف.
١٧٣-ابن عبد البر، (-------): جامع بيان العلم،مصر، المطبعة المنيرية.
١٧٤-ابن عبد الحق، (عبد المؤمن): مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مركز ودود، ٢٠٠٨م.
١٧٥-ابن عبد ربه، (أحمد بن أحمد): العقد الفريد، تحقيق محمد مفيد قمحية، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٧٦-عبد اللطيف، (عبد الشافي محمد): تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة، القاهرة، مطبعة الجريس، ١٩٩٦ م.
١٧٧- ابن العبري، (أبو الفرج بن أهرون): تاريخ مختصر الدول، صححه الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، لبنان، دار الرائد، ١٩٩٤ م، ط٢.
١٧٨-عثمان، (فتحي): الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر.
١٧٩-العجلاني، (منير): عبقرية الإسلام في أصول الحكم، بيروت، دار النفائس، ط١.
١٨٠-ابن العربي، (أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد): العواصم من القواصم، تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٦٩م.

١٨١-عرجون، (صادق): عثمان بن عفان، جدة، الدار السعودية، ١٩٨١م.

١٨٢-عرموش، (أحمد راتب): قيادة الرسول السياسية والعسكرية، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٧م.

١٨٣-ابن عساكر، (ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، دمشق، دار الفكر.

١٨٤-العسكري، (مرتضى): عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، دار الزهراء للطباعة، ١٩٩١ م.

١٨٥-العسلي، (بسام): فن الحرب، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤م، ط١.

١٨٦-عطوان، (حسين): الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٧م، ط١.

١٨٧-العقاد، (عباس محمود): عبقرية خالد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

١٨٨-العقاد، (عباس محمود): العبقريات العسكرية، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٨م، ط٢.

١٨٩-العقاد(---): عبقرية الفاروق، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

١٩٠-عكام، (محمود): الموسوعة الإسلامية الميسرة، حلب، دار صحارى.

١٩١-علي، (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،بيروت، دار العلم للملايين.

١٩٢-علي، (أحمد اسماعيل): تاريخ بلاد الشام منذ ماقبل الميلاد وحتى نهاية العصر الأموي، دمشق، ١٩٨٤م، ط١.

١٩٣-العليمي،(مجير الدين الحنبلي): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، ١٩٧٣م،

١٩٤-العمري، (أكرم ضياء): المجتمع المدني في عهد النبوة، المكتبة العلمية، ١٩٧٠م.
١٩٥- العمري، (------): السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
١٩٦- العمري، (عبد العزيز بن ابراهيم): الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، بريدة، ١٤٠٩ هـ، ط١.
١٩٧-عوض الله، (أحمد أبو الفضل) مكة في عصر ما قبل الإسلام. مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٩٨١ م.
١٩٨-أبو عيانة، (محمد فتحي): دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
١٩٩-العيدروس، (محمد حسن): الدولة الإسلامية الأولى، دار الكتاب، ٢٠٠٩م.
٢٠٠-العيسى، (سالم): تاريخ الغساسنة، دمشق، دار معد، ٢٠٠٧م، ط١.

الغين

٢٠١-غنيم، (عبد الله يوسف): أقاليم جزيرة العرب، الكويت، ١٩٨١م،

الفاء

٢٠٢-أبو فارس، (محمد عبد القادر): القضاء في الإسلام، عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٧٨م، ط١.
٢٠٣- الفاروقي، (إسماعيل ولوس لمياء راجي) : أطلس الحضارة الإسلامية، تر عبد الواحد لؤلؤة مراجعة رياض نور الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٠٤-الفاسي، (أبو الطيب تقي الدين بن أحمد ابن علي): شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ـ تحقيق عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٥م ط١.

٢٠٥-أبو الفدا، (عماد الدين اسماعيل): تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠ م.

٢٠٦-أبو الفدا، (------): المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة.

٢٠٧-فرج، (محمد): العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، دار الفكر العربي، بيروت، ط ٣، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.

٢٠٨- الفيروزآبادي، (مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب): المغانم المطابة في عالم طابة. تحقيق حمد الجاسر ١٩٦٩ م.

القاف

٢٠٩-القاسمي، (ظافر): نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، بيروت، دار النفائس، ١٩٧٤ م، ط١.

٢١٠-ابن قتيبة الدينوري، (أبو محمد عبد الله): الإمامة والسياسة، القاهرة، المكتبة التجارية.

٢١١-ابن قتيبة الدينوري، (-------): عيون الأخبار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م.

٢١٢-ابن قتيبة الدينوري، (-----): المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ.

٢١٣-ابن قتيبة الدينوري (-----): الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠ م.

٢١٤-أبو قدورة، (شاهر سليمان): الحروب العربية والإسلامية، عمان، ١٩٩٣م، ط١.

٢١٥-القسطلاني، (أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك): المواهب اللدنية في المنح المحمدية، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٣ م، ط٢.

٢١٦- القلقشندي، (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة.
٢١٧-القلقشندي، (----------): قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان. حققه إبراهيم الأبياري ١٩٦٣ م.
٢١٨-ابن قيم الجوزية، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر): زاد المعاد في هدي خير العباد، مراجعة طه عبد الرؤوف طه، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي،١٩٧٠م.
٢١٩-ابن قيم الجوزية، (-------): إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

الكاف

٢٢٠-الكامل، (محمد أحمد): المسار التاريخي للوحدة اليمنية من صدر الإسلام وحتى دولة بني رسول، صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد ١٣٧١، تاريخ ١٣ اكتوبر، ٢٠١٠م.
٢٢١-الكتبي، (محمد بن شاكر): فوات الوفيات واذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
٢٢٢- الكتبي، (-----):عيون التواريخ، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة النهضة المصرية.
٢٢٣-ابن كثير،(أبو الفداء اسماعيل): البداية والنهاية، تحقيق علي شبري، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٩٧١م.
٢٢٤-ابن كثير، (--------): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار المعرفة،١٩٨٨م، ط١.
٢٢٥-ابن كثير، (-------) : الفصول في سيرة الرسول، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٨م.

٢٢٦-كرد علي، (محمد): الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٤ م.

٢٢٧-كريستنثن، (ارثر): ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م .

٢٢٨-الكعكي، (يحيى بن أحمد): معالم النظام الإجتماعي في الإسلام، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١ م.

٢٢٩-الكلاعي، (أبو الربيع سليمان بن موسى): الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٧هـ، ط١.

٢٣٠-الكلاعي، (------): تاريخ الردة، اقتباس وتحقيق خورشيد أحمد فارق، الهند، معهد الدراسات الإسلامية.

٢٣١-ابن الكلبي، (هشام بن محمد بن السائب): الأصنام. تحقيق أحمد زكي. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٤ م.

٢٣٢-كوبيشانوف، (ب.م): الشمال الشرقي الأفريقي، ترجمة صلاح هاشم، عمان،١٩٨٨م.

٢٣٣-كيغي، (ولتر): بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ترجمة نقولا زيادة، دمشق، قدمس، ٢٠٠٣، ط٢

اللام

٢٣٤-لجنة من أساتذة جامعة الأزهر: دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين،١٩٩٩م، ط١.

٢٣٥-لوبون، (غوستاف): حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

الميم

٢٣٦-ماجد، (عبد المنعم): التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م، ط٢.

٢٣٧-الماوردي، (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري): أدب القاضي، تحقيق محي هلال السرحان، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧١ م.

٢٣٨-الماوردي، (-----------): نصيحة الملوك، القاهرة، ١٩٢٩ م.

٢٣٩-الماوردي، (-----------): الأحكام السلطانية، مصر، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ط١.

٢٤٠-المبارك فوري، (صفي الدين): الرحيق المختوم، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.

٢٤١-المبرد، (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مصر، مطبعة مصطفى محمد، ١٣٥٥ هـ.

٢٤٢-مرعي، (عيد): الجزيرة العربية القديم، بيشة، مكتبة الخبتي، ٢٠٠٤م، ط١.

٢٤٣-مروة، (حسين): النزعات المادية في الفلسفة العربية، بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٨ م.

٢٤٤-ابن مزاحم المنقري، (نصر): وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٨١ م، ط٢.

٢٤٥-المسعودي، (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩م.

٢٤٦-المسعودي، (---------): التنبيه والأشراف، ليدن، ١٨٩٣ م.

٢٤٧-مسلم، (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري): صحيح مسلم، مصر، مطبعة البابي،١٩٥٥م.

٢٤٨-مشرفة، (عطية مصطفى): القضاء في الإسلام، القاهرة، شركة الشرق الأوسط، ١٩٦٦م، ط٢.
٢٤٩-مظهر، (جلال): محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة، مصر، مكتبة الخانجي.
٢٥٠-معلوف، (نايف): الخوارج في العصر الأموي، بيروت، ١٩٧٧م.
٢٥١-مغلطاي، (علاء الدين): مختصر السيرة النبوية، مصر، دار المعارف، ٢٠٠١م.
٢٥٢-المقدسي، (مطهر بن طاهر): البدء والتاريخ، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
٢٥٣-المقريزي، (تقي الدين أحمد بن علي): إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤١م.
٢٥٤-المقريزي، (--------): الخطط، القاهرة، دار التحرير، ١٩٧٠ م.
٢٥٥-المقريزي، (----------): النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق محمد عرنوس، القاهرة، المطبعة الإبراهيمية.
٢٥٦-المقريزي، (---------): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٩٧٠ م.
٢٥٧-ملي، (محمود): نظام الحكم الإسلامي مقارنا بالنظم المعاصرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٥ م، ط٣.
٢٥٨-ابن منظور، (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب ـــ دار صادر، بيروت.

النون

٢٥٩-النجار، (عبد الوهاب): الخلفاء الراشدون، تحقيق خليل الميس، لبنان، دار الأرقم.

٢٦٠- الندوي، (أبو الحسن علي الحسني): السيرة النبوية، جدة، دار الشروق، ١٩٧٩ م، ط٢.

٢٦١-النقيوسي، (يوحنا):تاريخ مصر ل-القاهرة، ٢٠٠٠م،

٢٦٢-نولدكة، (ثيودور): أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية،١٩٣٣م،

٢٦٣-النويري، (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٥م.

الهاء

٢٦٤-ابن هشام، (أبو عبد الملك بن هشام المعافري الحميري): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٥م.

٢٦٥-هل، (ي): الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، وحسين مؤنس، مكتبة الانجلو المصرية

٢٦٦-الهمداني، (أبو محمد الحسن ابن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ــ الرياض، دار اليمامة ــ

٢٦٧-الهمداني، (--------): الإكليل، تحقيق أنستاس الكرملي، بغداد، مطبعة السريان الكاثوليك، ١٩٣١ م.

٢٦٨-هونكة، (زيغريد): شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، دار صادر.

٢٦٩-هيكل، (محمد حسين): حياة محمد، ربيع الكتب، ٢٠١٥م.

الواو

٢٧٠-الوادعية، (أم عبد الله): الصحيح المسند في الشمائل المحمدية، مراجعة وتقديم مقبل ابن هادي الوادعي، دار الحرمين للطباعة،١٩٩٥م.

٢٧١-الواقدي، (محمد بن عمر): المغازي، تحقيق مارسدن جونس، بيروت، مؤسسة الأعلمي.

٢٧٢- الواقدي، (--------): فتوح الشام، بيروت، دار صادر.

٢٧٣-الواقدي، (--------): الردة ونبذة من فتوح العراق، اعتنى به محمد حميد الله، باريس، المؤسسة العالمية للنشر، ١٩٨٩ م.

٢٧٤-وتر، (محمد طاهر): الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م، ط٥.

٢٧٥-ابن الوردي، (عمر بن مظفر): تاريخ ابن الوردي المسمى تتمة في المختصر في أخبار البشر، مكتبة البشر، ٢٠١٣م..

٢٧٦-وكيع، (محمد بن خلف بن حيان بن صدفة الضبي البغدادي): أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط١.

٢٧٧-الوكيل، (مختار) : سفراء الرسول عليه السلام وكتابه ورسائله، دار المعارف القاهرة، د.ت.

الياء

٢٧٨-اليعقوبي، (أحمد بن يعقوب): تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر.

٢٧٩-اليوزيكي، (توفيق سلطان): دراسات في النظم العربية الإسلامية، جامعة الموصل، ١٩٧٩م، ط٢.

٢٨٠-أبو يوسف، (يعقوب): الخراج، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ط٢.



وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المراجع الأجنبية:

٢٨١-Sachau;Dasberliner Frag ment des Musa Ibn Ukba, Sitzung.derPhil.Hist Classe Feb.1904

٢٨٢- Vasilieve; History of the Byzantine Empire

٢٨٣- Theophanes :The Chronicle of Theophanes،

اللجنة العلمية

أ. د. سميحة أبو الفضل

أ.د. اكتمال اسماعيل

أ.د. فائزة كلاس

التدقيق اللغوي

أ.م. د. فاتن كوكة